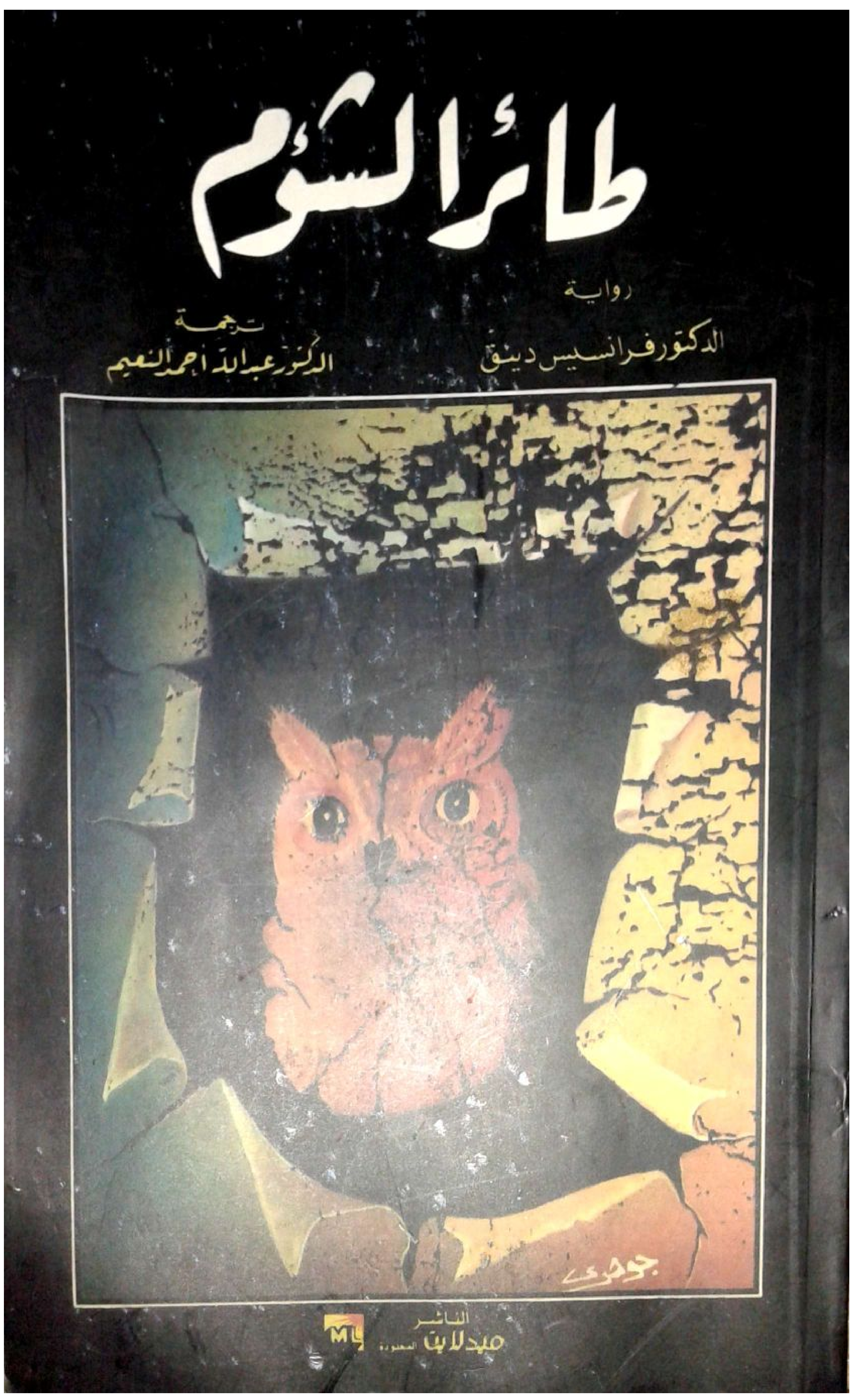

المرتضى
مكتبة السودانية


المكتبة النوبية الالكترونية



Scanned by CamScanner

طائر الشؤم

تأليف فرانسيس مادينق دينق

نقلها الى اللغة العربية عبدالله أحمد النعيم

بول ماجوك هو الابن المفضل لزعيم افريقى والوريث لتقاليد ثقافية عظمى . من خلال تشغفه على ذكرى ملاحم الاعمال البطولية لعشيرته ، يعلم بول عن مأساتها الكبرى : تلك الليلة المشؤومة التى اختطف فيها غزاة من الشمال أمه ومعها ابناها التوأمان الاولان . وبينما تم انقاذ الام فيما بعد ، فقد فقد أحد التوأمين الى الابد بينما أصيب الآخر بعاهة مستديمة من جراء احداث تلك الليلة . ظل والده ، الزعيم ملينقديت ، رابط الجأش امام تلك الاحداث ، ولكن بول كان يعى تماما تاريخ ومعاناة عشيرته .

وبحكم ذكائه ونفوذ عشيرته وعزتها ، فقد رشح كبار القبيلة بول لمستقبل مجيد . ثم ارساله الى مدارس المبشرين فى الجنوب حيث أطلق عليه اسما مسيحيا هو الياس . بالتدريج ، أضفى عليه تعليمه مسحة ثقافية شمالية . وتحت رعاية شمالى بارز (واسمه على الجاك) لمس فى الصبى ملامح المستقبل غير العادى . تم اختيار الياس للدراسة بالكلية الحربية فى امدرمان حيث تخرج بارفع الدرجات وعند انضمامه الى صفوف الجيش سطع نجمه كضابط جنوبى متميز .

ومع شعوره بالتنازعات الثقافية فى نفسه هو ، وان لم يدرك تماما قوة تلك التنازعات ، دخل الياس ، والاسم يستخدمه المسلمون فى الشمال أيضا ، عالم السياسة حيث أصبح الناطق الرسمى باسم تحالف قوى المعارضة السياسية . وبينما هو القائم بأمر المحرومين من غير الشماليين والمعبر عن وجهة نظرهم ، وقع الياس فى حب الفتاة فضيلة ، ابنة أخى ولى نعمته على وأخت بركة محمد الجاك ، السياسى الشمالى البارز . وكانت فضيلة شابة قوية الشكيمة ومتحررة الروح رغم تنشئتها فى البيئة المسلمة التقليدية ، مما جعلها الند الأمثل لرؤية الياس وموقعه . واتسمت علاقتهما العاطفية بالجذب الشهوانى العارم ولكنها تلوثت بسوء التفاهم العائلى المتكرر وبطيشهما معا . فكيف لها أن تبقى ؟

يتزامن بروز نجم الياس مع وقوع السودان فريسة للفقر والحرب الاهلية والتناحر الثقافى . هل هذا هو وقت «طائر الشؤم» الذى يعتقد الكثيرون بأنه نذير الخراب ، والذى سبق أن تنبأ بليلة مصيبة التوأمين فى حياة عشيرة الياس ؟ تنتهى الرواية بسلسلة من الاكتشافات المفاجئة والمؤلمة التى تؤكد المحور الجوهرى فى الكتاب . ذلك ان علائق الدم الناجمة عن تفاعل طويل الامد قد انجبت امة واحدة يتحتم عليها الخلاص من العداءات الثقافية القائمة على الجهل والتميز لكى تبعث وتنقذ مستقبل الشعب السودانى . وهكذا يرمز طائر الشؤم الى النذير قبيل وقوع الكارثة ، بينما تعبر قصة الياس وفضيلة عن بصيص الامل للجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المترجم

تكرم مؤلف هذه الرواية ، الدكتور فرانسس مدينق دينق ، باطلاعى على المسودة للأصل الذى تم نشره الآن باللغة الإنجليزية ، فتأثرت كثيراً بحبكتها الروائية الأخاذة ، وتفاعلت مع معالجتها اللبقة لأدق وأخطر المشاكل التى تواجه الشعب السودانى .

وللمؤلف مساهمات عديدة فى هذا المجال على الصعيد النظرى فى كتاباته الممتازة عن ثقافة الدينكا فى جنوب السودان ، وكذلك على الصعيد العملى فى خدمة بلاده فى أرفع المواقع الدبلوماسية والتنفيذية .

ومن أهم القضايا التى يعالجها الدكتور فرانسس على الصعيدين النظرى والعملى مسائل التعددية الثقافية والعرقية فى إطار الوحدة الوطنية . ومع تقديرى العظيم لجهوده تلك ، إلا أنى وجدت أن معالجته لهذه المسائل فى القالب القصصى مؤثرة ونفاذة للغاية . فكما ذكرت فى خطابى له الذى نشر كتقديم لاصل الرواية المنشور باللغة الإنجليزية بعنوان « Cry of the Owl » لعل النهج الروائى يكون هو الأجدى فى النفاذ إلى وجدان المجتمع ..

فالمطلوب هو إبراز وتنمية مقومات الذاتية القومية المشتركة ، ليس فقط بالرغم من التمايز الثقافى والعرقى ، بل ومع الحرص على ذلك التمايز كظاهرة صحية تدل على حيوية التفاعل والتعايش الإيجابى المعافى .

وهذا لن يكون إلا بالمعالجة الصريحة والأمينة لإشكاليات ومشاعر دفينة فى اعماق الوجدان والوعى الفردى والجماعى .

ومثل هذه المعالجة تقتضى بالضرورة طرح وجهات النظر المختلفة حول الامور من غير حجر ولا وصاية من أحد ، حتى تتم التصفية للخلافات على أرضية مشتركة من الاحترام المتبادل .

ومن دواعى إعجابى العظيم بهذه الرواية أنها قد أطلقت فى نفسى الإعجاب والتقدير لثقافة قطاع كبير من أهل وطنى ،وأطلعتنى على وجهة نظرهم فى العديد من المسائل الأصولية فى حياة المجتمعات والأمم .

كنت أتوهم أنى قد نجحت فى تجاوز دواعِى التعصب الثقافى والعرقى الشايع عند أمثالى من أبناء شمال وأواسط السودان ، وبخاصة عند قبيلة الجعليين التى أنتمى إليها . إلا أن هذه الرواية قد اقنعتنى بإعادة النظر فى ذلك الوهم ، وبعثت فى نفسى خواطر دفينة ما كنت أعى وجودها ولا أقدر أثرها على معتقداتى وسلوكى .

وللفائدة التى وجدتها فى نفسى من خلال هذه التجربة ، اقترحت على المؤلف ترجمة الرواية إلى اللغة العربية ونشرها بصورة تيسر اطلاع السودانيين عليها . ولشيوع الأمية فى قطاعات كبرى من المجتمع السودانى ، فإنى أقترح السعى لإشاعة التجربة بالوسائل المرئية والمسموعة ، مثل الإخراج الإذاعى والسينمائى .

شرفنى المؤلف بإسناد مهمة الترجمة لى ، فكانت هذه المحاولة التى أرجو أن تساهم فى تحقيق الغرض المطلوب منها . وأنا إذ أقدم هذا الجهد المتواضع ، أحب أن أسجل شكرى الجزيل لكل من عاوننى فى إكماله ونشره . وأخص بالشكر الأستاذ الأديب / عصام عبد الرحمن أحمد ، الذى تكرم بترجمة أغانى وأشعار الدينكا إلى اللغة العربية .

عبدالله أحمد النعيم

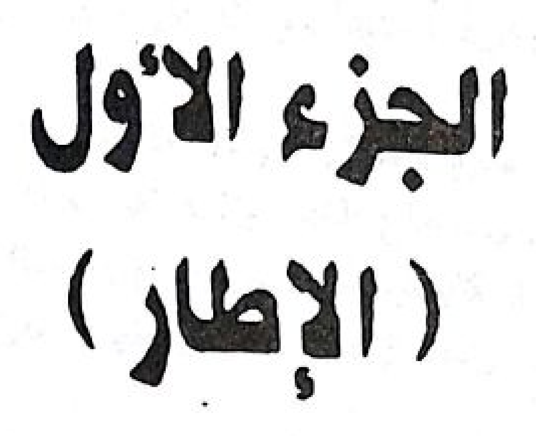
الفهرس

لعنة البوم

جدتى ، جدتى ..
ألويل بنت شول ..
قد اتت وهى فى عزة محمية بالإله ..
هى سيدة فخمة أنجبت العديد من البنين ..
ثم .. يا حزنها !
حطمت معولا وهى تحفر قبرا لهم ..
تركت والدى كعجل جاموسة منفرد ..
تصرخ البوم فى دارنا فى الدجى ..
طائر الليل القى علينا دجى سحره ..
صاح طير عظيم ..
« حين ياتى السحر ، حين ياتى السحر ..
يا ابن دينق ، حين ياتى السحر ..
سوف تدفن طفلا ـ هنا ـ أخر »
طائر الليل القى على والدى سحره ..
فهو يعلم اين مقابرنا ..
ولذا ظل طفلا وحيدا أبى ..
أرضنا ، أرضنا ..
ارضنا فى جحيم ..
والدى سربلته الجثث ..
لم يعد موضع لقدم ..
ولذا صرت عبدا ..
مرغما عاملا فى ديار اغتراب ..
ماريال ! لن أبوح بما قد وجدت ..

البحث عن الأخ الضائع

انا أعرف قلب الأم ..
أمى أمى ابنة دينق ..
ثقتى فى ذاك القلب ..
ولذلك ادعوها فى صلواتى ..
لن يلفتنى عن دربى شىء ..
درب منحتنيه أمى :
« ابنى ، أخوك الأصغر قد ضل طريقا فى القفر ..
حتى لو سار الى قرن الشمس ..
ابحث عنه حتى تمسك كفك كفه ..
هذا ما قر بصدرى والتصق كساق الضبع ..
العرجاء ..
الشمس شوتنا حتى احمرت أعيننا ..
فى الجو تطير الطيارات ..
وعلى القضبان تسير قطارات ..
ولذا تهتز الأرض طوال الليل ..
وقفزت من النوم ..
كصبى زارته الأرواح بحلم ..
إذ كان ينام بنصف الليل ..
ماعدت أفكر فى النوم ..



الجزء الأول
(الإطار)

الفصل الأول

استيقظ إلياس بول مليك ذلك الصباح مبكراً أكثر من العادة وهو يشعر بثقل في الرأس لقلة النوم. فقد بلغه في الليلة السابقة مرض والده مليك، المعروف بلقب ملينقديت زعيم قبيلة الدينكا مثيانق من شمال شرقي بحر الغزال .. ومفاد الخبر أن ملينقديت مريض مرضاً شديداً ، ولعله على وشك الموت ، ولذلك يود أن يكون ابنه عند فراش موته .

ذهب إلياس إلى سريره مبكرا ، وكأنه بذلك يعجل بانقضاء الليل حتى ينصرف إلى الإعداد للسفر الفورى صباح الغد . ولكنه قضى ليلته يتقلب في فراشه ، مستغرقا بسبب احتمال موت والده في كابوس طويل بين النوم واليقظة .. حتى واجهه الصباح بالحقيقة المرة عن مرض والده واحتمال موته . فكان عليه التحرك بسرعة لعله يرى والده على قيد الحياة مرة أخيرة .

وبعد السواك وشرب شاى الصباح المعتاد ، استحم إلياس ثم لبس بدلة أفريقية صيفية ، وذهب للاستعداد للسفر .

كان يوما من أيام ابريل شديدة الحر في العاصمة المثلثة . ركب إلياس عربته البيجو ٥٠٤ التى اشتراها حديثا بالدين ، ثم انطلق سائقا أسرع من العادة على شارع مدنى متجها من أركويت ، حيث يسكن ، إلى وسط مدينة الخرطوم ، ثم على شارع النيل إلى كوبرى النيل الأبيض في طريقه إلى أم درمان . وعبر الكوبرى وعند ملتقى النيلين يقع المبنى الفخم من الطوب الأحمر المحفوف بالرخام المزركش بلون عاجى ،

في ذلك المبنى كان ينعقد « مجلس الشعب » الذى كان أداة طيعة لإجازة الأوامر الجمهورية للرئيس المشير جابر المنير . ولكن منذ أن أطاحت الانتفاضة الشعبية بالرئيس المنير وأعادت الحكم الديمقراطى إلى البلاد ، أصبح المبنى مقرا للجمعية التأسيسية التى تم انتخابها حديثا لتضع دستورا جديدا للبلاد .

وكان إلياس عضوا فى تلك الجمعية ، نائبا عن دائرة شمال شرقى بحر الغزال حيث يحتل والده موقع الزعيم القبلى الأعظم ، وكانت تلك الدائرة من المناطق القليلة فى جنوب السودان التى أمكن إجراء الانتخابات فيها رغم الحرب الأهلية التى منعت ذلك فى باقى انحاء الجنوب .

كانت ساحة الجمعية مكتظة بالسيارات ، حيث دفع الحر والحماس لعودة الديمقراطية بالناس إلى داخل المبنى المهيب . وفى داخل المبنى حيث الزينة تأخذ بالألباب .. السقف الرفيع تزينه انوار الكرستال ، رخام مصقول على الأرض ، والنوافير المنارة تنساب نحو الجداول المخفية نوعا ما .. نظام إنارة اخاذ يغمر العتبات العريضة المؤدية نحو السطح المرتفع وعليه أوعية ضخمة تحمل أشجارا مكتملة النمو .. منظر اخاذ يطغى على البيئة الصحراوية القاتمة فى ذلك الجزء من البلاد .

تخطى إلياس صالة القاعة متجها إلى مكتب رئيس الجمعية من خلال مكتب معاونى الرئيس حتى وقف عند مكتب السكرتارية الواقع خارج مكتب رئيس الجمعية مباشرة . نهضت السكرتيرة الشابة الجميلة فى ثوبها الخلاب وابتسامتها اللعوب ، واخذت الياس الى داخل مكتب رئيس الجمعية ، السيد الجيلانى . تقدم السيد الجيلانى ، وهو رجل اسمر فى أواسط الخمسينات من العمر ، من خلف منضدة فخمة من خشب المهوجنى ، لتحية إلياس . كان يرتدى عباءة عربية وعمامته ملفوفة بانتظام على رأسه بالطريقة السودانية .

- أهلا أهلا بالأخ الياس ،

قال السيد الجيلانى مرحبا بحفاوة ظاهرة ..

- تفضل بالجلوس

جلس الياس على أحد المقاعد المقابلة لمنضدة الرئيس ، الذى بادره قائلا :

- يظهر أن رسالتى قد بلغتك . لقد ارسلت لك وللأخ بركة محمد لتحضرا لمقابلتى .

- لقد حضرت الآن إلى الجمعية واتيت إلى مكتبك مباشرة دون ان اتلقى رسالتك ».

أحس الجيلانى بالحزن فى صوت وهيئة الياس ، فبادره سائلا ـ

- ان شاء الله خير ؟ يبدو عليك الانقباض .

- لقد تلقيت اخبارا مزعجة عن والدى . إنه مريض مرضا شديدا ، ولعله على وشك الموت . لذلك فإنه يرغب فى مقابلتى بأسرع فرصة ممكنة . ارجو ان امنح عطلة للذهاب فورا .

- يؤسفنى جدا ان اسمع هذا ». أجابه الجيلانى . « **طبعا يمكنك الذهاب متى رغبت فى ذلك . كنت قد طلبتك انت وبركة لمناقشة كيفية معالجة بعض الأمور الحرجة والحساسة التى تواجه الجمعية . ولكن ذلك امر يحتمل انتظار عودتك .**

انفتح الباب أثناء حديث الجيلانى ودخل شاب يرتدى جلبابا وعمامة وهو بركة محمد الجاك الذى قال محييا ـ

السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

أجابه الجيلانى والياس معا .

ـ اهلا .. اهلا

اضاف الجيلانى ،

ثم وقف هو والياس لاستقبال بركة ، كانت على سحنة بركة بعض الدهشة الخفية الممزوجة بالترقب الفاتر وهو يقترب من الياس ، وكأنه يتساءل لماذا يود رئيس الجمعية جمعهما معا .. قد يخفى شعور بركة على العامة ، ولكنه لا يفوت على أمثال الجيلانى ممن يدرون بحقيقة الجو السائد فى الجمعية . لم يندهش الجيلانى لما رأى لأنه لاحظ منذ فترة برود العلاقة بين الرجلين .

واستمر الجيلانى فى تكرار عبارات الترحيب « اهلا وسهلا ... » صافح بركة الجيلانى ثم التفت إلى الياس قائلا:

بطريقة شكلية خالية من الحفاوة والمودة: «السلام عليكم».

ـ اهلا .. اهلا

اجاب الياس بطريقة مقتضبة فيها بعض الحرارة المتأنية ، كأنها محسوبة ، مما يؤكد التوتر فى علاقة الرجلين .

رغم أن بركة كان يبدو أكبر سنا ، إلا أن الرجلين كانا فى أوائل الثلاثين من العمر ، كلاهما طويل القامة ، نحيف البنية ،دقيق الملامح ، داكن السحنة ، وسيم الهيئة . الا أن ذلك التشابه الخارجى كان كل ما يجمعهما ، اذ أن الرجلين كانا يمثلان جماعتين مختلفتين عرقيا وثقافيا ودينيا .. بل ومتناحرتين .

كان محمد بركة هو الناطق عن حزب أمة الاسلام الحاكم ، والذى يتمسك بالذاتية العربية الاسلامية للسودان ويطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية . اعتمادا على أغلبية الجماعات المسلمة فى السودان وعلى المصادر المالية الغزيرة من الدول العربية والاسلامية ، ويهدف حزب أمة الاسلام إلى رفع راية الإسلام والعروبة ليس فى السودان فحسب ، بل ويهدف أيضا إلى نشر الدين الإسلامى والحضارة العربية فى كل أنحاء افريقيا .

أما الياس بول مليك فقد كان الناطق عن تنظيم حديث التكوين اسمه التجمع الثورى لأقليات السودان ، وهو تجمع يمثل حركة سياسية جذرية تهدف الى خدمة مصالح الجماعات الريفية المحرومة فى البلاد . رغم زعامة الصفوة المسيحية من جنوب السودان ، الا أن التجمع كان يخدم أغراض كل الجماعات غير العربية فى البلاد ، لذلك كان يحظى بدعم متزايد من قبائل شرق وغرب السودان والتى احتفظت بذاتيتها العرقية واللغوية الأصيلة رغم تدينها بالإسلام . رغم غلبة الاسلام والعروبة على ذاتية تلك القبائل حتى الماضى القريب ، الا أنها بدأت فى تأكيد الذاتية الأصيلة فى الآونة الأخيرة .

فى ظاهر الحال ، كان يبدو أن التجمع الثورى لأقليات السودان هو تنظيم الأقلية فى المعارضة ، إلا انه فى الحقيقة كان يمثل مصالح غالبية السكان والتى تسمى اصطلاحا بالأقلية لعدم توحدها ولهامشية دورها فى الحكم . كانت قيادة التجمع تدرك أن هذه الجماعات تشكل قوة لها دورها فى مستقبل البلاد لو أدركت حقيقة نفوذها . لهذا كان التجمع يشكل تهديدا حقيقيا للصفوة العربية الحاكمة . الا أن برود العلاقة بين بركة والياس كان أكثر مما يمكن رده الى الخلافات السياسية التى تكون دائما بين السياسيين دون أن تؤثر على علاقاتهم الشخصية . كان الجيلانى منزعجا بصورة خاصة لهذا التوتر

بين الرجلين لانه يقدر ان لشعور الرجلين تجاه بعضهما البعض أثره السلبى أو الايجابى على أعمال الجمعية بحكم دور الرجلين فى قيادة حزبيهما . وقد قصد الجيلانى من دعوة الرجلين الى مكتبه تناول هذا الأمر عسى أن يصفى الجو بينهما ويحسن من علاقتهما الشخصية . فقال :

- هناك عدة أشياء عن اعمال الجمعية كنت أود مناقشتها معكما أيها السادة

ثم التفت الى بركة وأضاف :

الا انى علمت الآن أن على الأخ الياس الاسراع الى أهله لأن والده يعانى من مرض خطير

رد بركة بطريقة شكلية : يؤسفنى أن أسمع هذا .

- أشكرك على شعورك .. إنها إرادة الله ..

واصل الجيلانى الحديث ، ثم أوحى بطريقة لبقة الى غرضه من جمع الرجلين قائلا ليس فى وسعنا عنل الكثير فى الوقت الراهن إلا أنى أحب أن أرى المزيد من الود والتقارب بينكما، ويمكننى أن ألعب دور الوسيط ان شئتما . لن نتحدث عن هذا هذه المرة ، ولكن أرجو أن تفكرا فى الأمر وسوف نواصل فى اجتماعنا التالى» .

ظهر من الصمت الواضح الذى واجه به الرجلان حديث الجيلانى أنهما أدركا ما كان يرمى اليه .

واصل الجيلانى حديثه مخاطبا الياس بقوله؛

بما أنك يا أخ الياس ق عجلة من أمرك فاننا نسمح لك بالذهاب .

اشكرك يا سيد الجيلانى .. سوف اعود بأسرع فرصة ممكنة .

سافر الياس ق نفس اليوم بالطائرة الى مدينة واو حيث أعطى سيارة حكومية يقودها رجل شرطة من الأعراب ، وبرفقة شرطى آخر من قبيلة ، « بالاندا » ، واتخذوا طريقهم الوعر شمالا نحو قرية الياس ناحية داك - جور .

طوال الرحلة كان الياس يفكر ق والده وعلاقته الوثيقة به ، ويتساءل كيف تكون الدنيا بدونه . تذكر معالم علاقتهما منذطفولته ، وخلال سنوات المدرسة ثم الكلية الحربية . وكلما فكر ق علاقتهما كوالد وابن ، أو فكر ق اعتماد القبيلة على والده ، كلما ازدادت عليه صعوبة قبوله احتمال وفاة والده .. وتنهد بصوت مسموع راجيا أن يستعيد والده الصحة ويعيش لسنوات عديدة .

ومع ازدياد الظلام ، أدار السائق الأنوار الأمامية للسيارة .. وفجأة استوقفهم منظر مهيب . ق وسط الطريق قبع أسد هائل ، وهو يزار وفمه مفتوح تماما وأنيابه المرعبة ظاهرة . كان الأسد يضع اقدامه الخلفية تحت جسمه الثقيل ، ورجله الأمامية اليسرى ممدودة وقابضة على الأرض بينما كانت رجله الأمامية اليمنى تتحرك ق الفضاء بدون هدف واضح ، مما يوحى بأنه مبهور بأنوار السيارة . ضغط السائق على مفتاح آلة التنبيه ، ولكن بدلا من ان يتحرك ، اصدر الأسد زئيره المعهود كملك الغابة . وعندها تناول السائق بندقيته المعلقة على سقف المقعد الأمامى .

وهنا .. اعترض الياس قائلا :

- لاتفعل هذا، ألا تعلم أن الاسود من أكثر المخلوقات حبا للسلم؟ ان الاسود

لاتقتل إلا عند الضرورة ويجب الا تقتل إلا عند الضرورة ايضا .

دهش السائق العربى اى دهشة لذلك القول ثم تساءل :

ولكن يا سيدى كيف نواصل السير ؟ يمكن أن يكون هذا الأسد مصدر خطر حقيقى لسيارة صغيرة مثل هذه ، أين نكون نحن لو قلب الأسد السيارة راسا على عقب ؟ فى العالم الآخر ؟

شعر الياس بالتحدى الذى يواجهه . فرغم انه نجح فى إيقاف الأعرابى السائق عن إطلاق النار ، الا أنه كان يخشى أن يطلق الشرطى الآخر النار من خلف السيارة . انزل الياس زجاج شباك السيارة من جهته هو ووضع رأسه خارج السيارة ليقول للشرطى الآخر بعدم اطلاق النار .

كانت لدى الياس أسباب عميقة الجذور للحرص على عدم ايذاء ذلك الحيوان ، فقد سمع أن الأسد حيوان مقدس لدى عشيرته وأن العلاقة بين عالم الأسود وأسرته تعود الى تاريخ غارات الأعراب طلبا للرقيق . حسب ما فهم الياس ، فقد حاول الأعراب الإغارة على قريتهم فى منتصف الليل لولا أن هاجمتهم جماعة من الأسود التى قتلت عددا منهم وتشتت البقية هاربين طلبا للنجاة . ووقتها قامت زعامة القبيلة ، وهم عشيرة الياس ، باجراء طقوس علاقة القرب مع الأسود ، حيث تعهدوا بعدم الاعتداء على الأسود وأخذوا عهدا طقوسيا من الأسود بعدم الاعتداء عليهم . ومن شروط ذلك التعهد المتبادل انه إذا هم أى من الطرفين بانتهاك ذلك العهد ، فسوف يلقى حتفه فى تلك المواجهة . وقد أخذ شيوخ القبيلة ثورا مقدسا ، وصلوا ، ثم ربطوا الثور الى شجرة فى الغابة قربانا لصداقتهم مع الأسود . وحسب أساطير العشيرة ، فقد راعى الطرفان شروط العهد . وحتى فى العهود القريبة ، كان من المعروف أن الأسود قد وفرت الحماية للدينكا ضد هجمات الأعراب . وعرفانا بالجميل ، فقد حافظت عشيرة الياس على علاقتها بمملكة الأسود بتقديم القرابين من الأبقار ، بعضها يبقى فى القطيع علما بأنه ملك مقدس للأسود ، وتذبح أبقار قربانا للأسود بينما تترك أخرى فى الغابة لتجدها الأسود وتلتهمها .. لقد كانت علاقة وثيقة لا يستطيع أى من أفراد العشيرة انتهاكها اذا أراد السلامة .

كان الياس يشعر بأنه ، رغم أن تدينه بالمسيحية يحرم عليه الاعتقاد بمعتقدات الوثنية ، الا أنه لا يستطيع انتهاك عهد أسرته الذى أصبح جزءا من تقاليد الأسلاف . ففى أعماق نفسه كان يتوجس خوفا من أنه لو انتهك عهد آبائه ، فان الشر سيلحق به أو بأحد أفراد أسرته . وحيث كان والده على وشك الموت ، فقد كان الوقت غير مناسب على الاطلاق للتصرف بطريقة غير مسئولة .

راودت هذه الخواطر الياس فى لمحة من الزمن ، وعندها انعقد عزمه فورا وطلب من السائق إطفاء انوار العربة . وفى ضوء النجوم الباهرة كان من الممكن رؤية الأسد وهو يجلس فى تحد وسط الطريق .

قال الياس للسائق : « سأصعد الى ظهر العربة ومعى بندقية معبأة .. وعليك أن تقود العربة ببطء وبدون اضاءة . فى اللحظة الحاسمة سيقفز الأسد الى جانب الطريق .. ووقتها تدير الاضاءة وتسرع فى قيادة السيارة . إذا لم يتحرك الأسد من وسط الطريق ، سوف أقوم أنا باطلاق النار فى اللحظة الحرجة .

- ولكن يا سيدى ، اذا اخطأت الهدف من تلك المسافة القريبة وقفز الأسد الى ظهر السيارة .. ماذا يحدث ؟

وبما ان الياس كان قد عقد العزم على عدم الاستسلام للخوف ، فقد اجاب السائق :

- فى بعض الأحيان على الانسان أن يتصرف على أساس العقيدة .. دعنا نجرب .

طلب الياس من الشرطى ومساعد السائق الانتقال الى المقعد الأمامى للسيارة وتركه وحده فى الخلف إصرارا منه على عدم تعريضهما للخطر فى سبيل المحافظة على تقاليد اسرته هو .

وكان الشرطى من قبيلة « بالاندا » قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، يرى أن واجبه المهنى يتجسد وقتها فى حماية عضو فى البرلمان .

فقال :

- هذا من المستحيل فنحن هنا لحمايتك انت ، سواء اكان ذلك من البشر ام الوحوش .

- أؤكد لك أنى سأكون أكثر امنا بدون وجودك معى على ظهر العربة .

وتساءل الشرطى مع شعوره ببعض الإهانة .

- كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك ؟

- هذا أمر دينى لا أستطيع شرحه لك الآن .. ارجو أن تثق بما اقوله لك .

تحرك الشرطى الى المقعد الأمامى مع بعض التردد .. ولكنه عبا بندقيته تحوطا لاطلاق النار اذا دعا الأمر لذلك .

وعندما تحركت السيارة الى الأمام بدون اضاءة ، بدا الأسد اهدأ خاطرا واكثر قبولا للشىء المقبل نحوه .. كان لا يزال يواصل الزئير وتحريك ذراعه اليمنى فى الهواء ، ولكنه ظهر أكثر مسالمة مما زاد يقين الياس أنه على حق . ورغم ازدياد قرب المسافة بينه وبين الأسد ، لم يكن الياس ينوى اطلاق النار على الأسد . وفجاة قفز الأسد الى جانب الطريق ، ولكن قبل أن يضىء السائق أنوار العربة ويسرع بها قفز الأسد الى ظهر العربة . حدث ذلك بصورة غير متوقعة لدرجة أن الياس لم يجد الوقت حتى للتفكير فى اطلاق النار .. ثم أصبح ذلك مستحيلا لأن الأسد اطاح بالبندقية من يد الياس . أصبح الياس مشلولا من الخوف بدرجة لم تمكنه من محاولة التقاط البندقية أو التحرك بأى صورة من الصور ، وظل يحدق فى وجه الأسد ، ثم حدث شىء مدهش حقا .. أخذ الأسد يقدم ذراعه الأيسر ثم الأيمن على التناوب تجاه الياس ، وكأنه قط أليف . من شدة الدهشة لم يدرك الياس حقيقة ما حدث ، دع عنك معرفة كيف يتصرف .

فى ذلك الوقت كان السائق قد أضاء أنوار العربة وأسرع بها غير مدرك أن الأسد كان على ظهر السيارة . ومع ازدياد سرعة العربة ، أطلق الأسد زئيرا عاليا ولكنه بصورة ودية ، ثم قفز إلى جانب الطريق . سمع السائق الزئير وافترض أن الأسد لا يزال يطارد السيارة مما دعاه للمزيد من الاسراع فى القيادة . فمضى بعض الوقت قبل أن يستعيد الياس وعيه ويضرب على سقف المقعد الامامى ليوقف السيارة بعد أن ابتعدوا عن موقع الحادثة .

كانت رواية الياس لما حدث لمرافقيه شبيهة بالاساطير ، ولكنهم ايقنوا انه مهما كان من مبالغة فى رواية الياس فان ما حدث كان معجزة .

ونسبة للظلام الدامس واعتبارا لحالة عدم الامن فى المنطقة ، فقد تحتم عليهم قضاء الليلة فى نقطة شرطة « مشوى » والتى كانت تبعد بضعة اميال من موقعهم . وبعد ليلة غير مريحة قضوها بين عوالم الواقع والخيال الذى عمقته تجربتهم مع الأسد ، استيقظوا مبكرين وتناولوا الشاى ثم انطلقوا فى رحلتهم .

وخلال رحلتهم عبر أرض الدينكا ، كان دوى محرك السيارة والغبار الكثيف يعلن عن مقدمهم . كان اطفال وكلاب القرى المجاورة للطريق يطاردون السيارة العابرة ، فرصة نادرا ما تتاح لهم . وحيث إن الوقت كان لا يزال موسم الجفاف ، فإن الحيوانات الوحشية كانت قد هاجرت وخلفت وراءها أرضاً جدبة ، ترتجف فى سراب وقد امتلأ الافق بهياكل الدينكا الطويلة النحيفة وقطعان ماشيتهم . والتجأ الناس الى اكواخهم وتحت الأشجار من قيظ الحر وكأنهم يخمدون لفترة الصيف محافظة على طاقتهم لحين وقت الجهد والعمل فى موسم الأمطار حيث يشتغلون مرة أخرى بفلاحة الأرض .

وكلما اقتربوا من قريتهم ، ازدادت ضربات قلب الياس . كيف حال أبيه الآن ؟ هل هو على وشك الموت حقا ؟ هل توفى فعلا ؟ ياله من خاطر مزعج !! ماذا يفعل هو إذا حدث ذلك ؟

وانصرف ذهنه الى حالة الجمعية التأسيسية والتوتر العرقى الذى يتحكم فى الاحداث السياسية ، ثم مقابلته الوجيزة لمحمد بركة ، كل ذلك وكأنه يحاول أن يصرف نفسه عن الموقف الراهن . وكان فى اسم قريته مدعاة لاسترجاع أحداث الماضى .. قرية « داك - جور » - والذى يعنى « حيث انتهكت قوى الأعراب » ، فى التاريخ المروى عندهم أن الدينكا قد اتخذوا موقفاً قوياً فى هذا الموقع ضد غزوات الاعراب طلبا للرقيق وأرغموهم على التراجع ثم الانسحاب التام فى نهاية الأمر .

وظهرت قرية داك - جور على البعد . برغم أنها كانت محاطة بالأشجار من ثلاث جهات وبنهر يجرى طوال العام من الجهة الرابعة ، الا أن القرية كانت تتمتع برؤية رائعة لكل السهول المحيطة بها والتى تنتشر فيها نقاط المياه المحاطة بالنباتات الكثيفة . وعندما اصبح صوت العربة المقبلة مسموعا فى القرية ، انطلقت الكلاب جارية نحو العربة وظلت تطاردها عندما عجزت عن اللحاق بها . وجرى الأطفال المترقبون نحو الغبار المدوى ، المقبل تجاه قريتهم ، وهم لا يدركون انه الياس قد عاد الى القرية .

الفصل الثانى

وجد إلياس القرية مشتعلة بالنشاط حيث كان الناس يتحركون بين الأكواخ التى تحيط بالقرية وبالشجرة الظليلة التى تركز وتحدد ملامح مسكن العشيرة. وكان بين الأكواخ (زريبتان) للأبقار ، كل منهما تشمل مساحة مجموعة من الأكواخ العادية.

ووسط مسكن العشيرة عدد من الأوتاد التى تربط عليها الأبقار عندما لا تكون فى (الزريبة) . وكان قطيع الأبقار قد أطلق للرعى بالقرب من المساكن . أما العجول الصغيرة .. فقد كانت تنادى فى حزن واضح حنينا لأمهاتها ، وهى تنتظر نقلها من حر الشمس الى ظل الأشجار .

وانشغل ولدان ، وجسداهما العاريان ممسوحان بالرماد ، بجمع روث الأبقار ثم نشره فى الشمس ليجف ويستخدم كوقود للنار حيث يطرد دخانه الذباب والناموس بعيدا عن الناس وعن قطعان الأبقار وكان غناؤهما الطروب يتناقض بشدة مع جو الترقب المتوتر الذى خيم على القرية بسبب مرض ملينقديت . الا أن أهل القرية لم يكونوا يعترضون على ذلك لأن الغناء عندهم هو تنغيم مصاحب للعمل ولا يدل على عدم الشعور بجو الكارثة المخيم على القرية .

وعندما التف الأطفال حول الياس ، اتجه هو نحو العربة وأخذ حقيبتين كبيرتين مليئتين بالبلح والحلوى ووزعها على الأطفال ، بينما شق طريقه وسط حشود المستقبلين بحثا عن والده . وبسرعة علم أن الشيخ فى الكوخ الذى كان الرجال يدخلون ويخرجون منه زحفا على الركب من خلال مدخل صغير لا يتجاوز ارتفاعه الثلاثة أقدام . وعند وصل الياس الى الكوخ حبا على يديه وركبتيه الى الداخل . ولم يكن ذلك صعبا عليه اذ كان الكوخ هو كوخ والدته الذى اعتاد على الحبو الى داخله منذ الطفولة . كذلك أعانته البدلة الصيفية التى كان يرتديها على الحبو بتلك الطريقة .

وكان خبر وصول الياس قد بلغ والده . وبمجرد دخول الياس جلس والده ثم حاول الوقوف لاستقبال ابنه ، ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين . ورأى الياس والده ، فى قامته المديدة وشعره الأبيض القصير ، وهو يحاول التخلص من الغطاء . كان جسده العارى حتى الوسط قد أصبح مجرد جلد على العظام وكأنه هيكل حى . وعندما رأى والده فى تلك الحالة كادت الدموع تفيض من عينيه .. إلا أن الياس كان يعلم أن منظر الدموع فى عينيه ، وهو الابن المفضل .. سوف يزعج ويحبط والده . ولم يرد الياس أن يسبب المزيد من الحزن لوالده ، فمسح الدموع من عينيه وكأنه يزيل جسما غريبا .. ثم أسرع نحو سرير والده ليكفيه مشقة الوقوف .

- هل هو أنت حقا يا ابنى الحبيب بول ؟ هل جئت حقا ؟ كل شىء كما ينبغى أن يكون . حتى لو مت أنا هذه اللحظة فسوف أمضى وقلبى ملىء بالفرح .

أراد الياس أن يقول لوالده ألا يفكر فى الموت ، ولكن ذلك القول فى الحالة التى كان عليها الشيخ هو ضرب من العبث وتشجيع كاذب يعتبر إهانة لذكاء وحكمة الشيخ .

وبعد تبادل عبارات السلام تناول الياس وسادة ذات ثلاثة ارجل خشبية وجلس عليها مقابلا لوالده الذى جلس منهكا على سريره .

- لعله من الافضل أن ترقد يا أبى .. اقترح الياس ذلك فى حذر حتى لا يبدو منزعجا أكثر من اللازم .

- لا . فانا على أحسن حال . حتى ولو كان الجلوس سيقتلنى ، فهذا هو احسن وقت لذلك .

لقد مضت سنوات عديدة منذ أن شاهد الياس داخل كوخ والدته . فقد كان الكوخ مثل غالبية مساكن الدينكا .. دائرى الشكل قطره حوالى اثنتى عشرة قدما ، يتكون من مجموعة من الأعواد المتماسكة بالطين . وعلى الجدران يقوم هيكل أسطوانى الشكل منسوجة عليه أغصان الأشجار ثم قش السافنا . ورغم أن سقف القش يبدو أملس من الخارج ، إلا أنه من الداخل تظهر الأغصان والأقواش المربوطة حولها ثم قنوات النمل الأبيض الذى يغزو الخشب .

على الجانب المقابل لسرير الزعيم مليك موقع صغير للنار يستخدم فى الليل لاحراق أوراق أشجار تصدر رائحة محببة للناس .. بينما يطرد دخانها الناموس . وفى مؤخرة الكوخ (دكة) قائمة على أربعة سيقان حيث تودع الأوانى والمعدات المنزلية . وخلف ذلك فى نهاية الكوخ حربتان مركوزتان على قطعة من الجلد المسقى بالزيت . كان راس إحدى الحربتين فى شكل ورقة شجر والآخر فى شكل رمح ، وكل منهما مربوط الى ساق طويل ورفيع مزين بأحلاق معدنية . تلك هى حراب زعيم القبيلة المقدسة والتى جاءته عبر اجيال طويلة من الأجداد والذين كانوا جميعا زعماء روحيين لأهلهم .

كان الزعيم مليك قد ترك وحده ليرتاح ولكنه استيقظ بحركة مقدم ابنه . وما أن دخل الياس الكوخ حتى تبعته أعداد متزايدة من الناس ، بعضهم لزيارة والده ولكن غالبيتهم لمقابلته هو . وخلال وقت وجيز أصبح الكوخ مكتظا بالناس لدرجة تسبب الاختناق ، بينما اجتمع المزيد من الناس بالخارج . فبخلاف المدخل الضيق لم يكن هناك مصدر للهواء سوى ثلاث فتحات ضيقة ومتباعدة لا يزيد عرض الواحدة منها على بضع بوصات . كاد إلياس أن يصرخ من شدة الحر والرائحة المزعجة ، ولكنه لم يشأ أن يسىء الى أهله .. فهو يعلم جيدا أنهم قوم شديدو العزة والحساسية .

وفجأة صدر صوت قائل : « افسحوا الطريق للعراف ، العراف قادم ، دعوه يدخل » . وطلب من الناس الخروج لافساح المجال للعراف ايويلديت ليجد فرصة مع مريضه وابن المريض . زحف ايويلديت الى داخل الكوخ ثم انتصب قائما ليحيى الياس الذى كان قد وقف لمقابلة الرجل المقدس .

وحسب أعراف قساوسة الدينكا ، رفع ايويلديت يده اليمنى مفتوحة الكف بينما تبادل عبارات التحية بوقار دون أن يصافح الياس باليد .

كان ايويلديت رجلا طويل القامة نحيفا بوجه طويل بارز عظام الوجنتين . وكانت هيئته وديعة فى حزم وصرامة ، تتحول سحنته بين النظرة التى تخترق وتتقصى فى خفية الى الابتسامة المشرقة التى تفصح عن أسنان متراصة ناصعة البياض . حتى شعره الطويل المشوط بالصدف والخرز كان يبدو كمظهر جمالى أكثر منه من مظاهر الزعامة الروحية . ومن تناقضات اختلاف الأزمان أنه كان يرتدى رداء قصيرا مع قميص داخلى كلاهما على النهج الاوربى . هذا بالاضافة الى قطعة من جلد الفهد ملفوفة حول الكتف والتى تشكل جزءا من زيه التقليدى ، حيث يمكن استخدامها كفراش أو غطاء للحماية من التلوث الروحى . فحيثما جلس ايويلديت ، سواء أكان ذلك على سرير أو مقعد أو قطعة من الخشب ، فانه دائما ما يضع قطعة جلد الفهد فوق ما يجلس عليه .

قدم الياس مقعدا لايويلديت الا أن العراف اعتذر عن قبوله بكل احترام واختار أن يجلس على الحصيرة بعد التأكد من أن قطعة جلد الفهد كانت بينه وبين الحصيرة . وبعد فترة صمت للمجاملة بدت طويلة ومتوترة ، شرع ايويلديت فى الحديث قائلا : **الحق لابد أن يقال .. عندما نواجهكم يا معشر المتعلمين .. فاننا نمارس عملنا مع ترقب للتدخل من جانبكم لان اساليبكم تختلف عن اساليبنا .**

كان ايويلديت محقا فى ذلك ، فقد شجع المبشرون المسيحيون الدينكا الذين تدينوا بالمسيحية على اهمال ورفض ما يسمونه ممارسات الوثنية . والتى كانوا يرونها صادرة عن الشيطان . الا أن الياس كان قد نضج بالقدر الكافى ليقدر أن ذلك الأسلوب كان ساذجا اكثر من اللازم . وعلى كل حال ، فان الرجل انما يحاول أن يقدم المساعدة جهد طاقته . فقال إلياس فى محاولة للاصلاح :

- لا اعتقد انه عليك ان تشعر بذلك .. فنحن جميعا نطلب نفس الهدف الا وهو الصحة الجسدية والروحية للناس .

تأثر ايويلديت بتلك الكلمات فقال :

انه صحيح ان الناس تختلف .. هناك دائما الابن الذى يستمع الى أقوال من هم اكبر منه سنا وينتفع بحكمتهم ، بينما يفتن آخرون بحب المغامرة وكل ما هو جديد .. فرغم اننا قد قبلنا منافع التعليم والطب الحديث .. فهناك متسع من المجال للوسائل التى خدمت اجدادنا لاجيال عديدة .

سر الزعيم ملينقديت لهذا الحديث وعبر عن سروره بابتسامة وديعة تجاه ابنه . واستحيا إلياس لذلك وهو يقول :

- بلغنى انك قد تعرفت روحيا على سبب مرض والدى ..

فقال ايويلديت : يعود الأمر الى وقت طويل ، كما تعلم ، فان والدك قد سمى على الروح ملينقديت ، ولا اعرف ماذا قيل لك من قبل عن والدك .. فان قصة حياته مرتبطة

بوباء الجدرى الرهيب الذى كاد ان يبيدنا نحن آل مثيانق جميعا . لقد توفى العديد من الناس من ذلك المرض . ولم ينحسر المرض الا بعد أن قام جدك بعمل وليمة كبرى للروح ميلنقديت ذبح فيها ثورا عليه بقع بيضاء وبنية اللون (أى ثور فى لون مليك) إكراما للروح ملينقديت . وحسب معرفتى الروحية ، فقد ظهر أن الروح ملينقديت يطالب الآن باعادة ابنه الذى هو والدك . إن الروح ملينقديت معروف بفضله ورحمته ، فاذا دعى بالكلمات المناسبة فإنه سيستجيب لصلوات الناس الذين سبق أن أنقذهم من المرض .

لم يملك إلياس الموافقة على تشخيص العراف ، لكنه لم يكن أيضا مستعدا لابداء المعارضة . بدلا من ذلك ، جلس يستمع فى تأدب ، وهو يومىء برأسه بالموافقة فى مجاملة من وقت لآخر . وعندما فرغ العراف من الحديث ، أنقذ الياس من حرج البحث عن تعليق مناسب دخول عمه (اكول) الذى قال : أيها الزعيم ، **الا ينبغى أن نبدأ الدعاء الآن ؟ لقد بدأت حرارة الجو فى الازدياد ، ومن الواجب تقديم القرابين فى برودة الصباح وليس فى حرارة الظهيرة .**

كان اكول هو أخو ملينقديت من جانب الأب فقط ، حيث كانت أمه هى الزوجة الثانية لوالدهما . كان رجلا فى الخمسينات من العمر ، متوسط القامة شديد النحافة ، مثله مثل الدينكا من جيله . كان بينه وبين ملينقديت من التوتر والمنافسة أكثر مما هو معهود بين غير الأشقاء من الاخوان ، الا أن ذلك الشعور كان مخفيا تماما ، بل ومعوض عنه باظهار المزيد من التعاضد الأسرى والود الأخوى . وكان المعروف عن الأخوين أنهما على ود وتقارب شديدين بالنسبة لما هو معهود عن غير الأشقاء .

وأجابه أيويلديت بصوت خفيض .. فيه السلطة الروحية .. فلم يكن مطلوبا منه هو شخصيا المشاركة فى الطقوس . ولكن كان عليه نثر الماء المقدس على الثور قبل تقديم القربان فقال :

- قولك الحق .. ادع كبار القوم الى المحراب .

وانتشر الخبر عبر القرية ليحضر كبار القوم الى المحراب .. لقد تأخر الوقت على تقديم القربان » ..

فى ذلك الوقت انحنت سيدة من خلال المدخل وهى تعلن فى احترام تقليدى : **إنى قادمة .**

وبعد الدخول انتصبت قائمة ليظهر محياها النبيل قامة طويلة لامرأة فى أواسط الخمسينات من العمر ، وقد لفت قطعة من القماش حول وسطها .

بينما وضعت على كتفها ثوباً تقليدياً من جلد الغنم المفتوح من الجانبين .

تبادل الياس والويل التحية فى عاطفة خفية لأنه من غير اللائق بين الدينكا للأمهات والأبناء ابداء مشاعر الحب والود من أحدهما تجاه الآخر .

- أيها الابن ، ان النساء أيضا فى شوق لك . وقد ضقن بالانتظار . بينما يجتمع كبار القوم لتقديم القربان ، عليك الذهاب لتحية أمهاتك وأخواتك .

بما أن ملينقديت كان الزعيم ، فقد كان عنده أكبر عدد من الزوجات فى القبيلة . كانت والدة الياس هى الأولى ، ولكن كان بعدها العديد من الزوجات ، كلهن مرتبات فى هيكل تصاعدى صارم تحتل فيه الويل موقع « زعيمة » النساء التى تحترمها كل الزوجات الأخريات اللائى لا يناديها باسمها بل بلقب « مان مديت » أى « أم مديت » نسبة لابنها الأكبر .

واختار الياس بول وجود والده ووالدته معا ليحكى واقعة لقائه مع الأسد . وكان يبدو عليهما الاستغراق التام فى الرواية ، حيث كانا يعبران عن الاستحواذ التام من وقت لآخر من غير مقاطعة الحديث . وكانت الويل بخاصة تكرر عبارة « اسمع وخذ العبرة » كلما جاءت نقطة مثيرة فى الرواية . وعندما فرغ الياس قالت الويل :

- انى غير مندهشة لما حدث . ها أنت ترى بعينيك ما كنت تسمع من قبل عن العهد القديم بين عالم الأسود وعشيرتك .

صدرت فى ذلك الوقت عن ملينقديت ضحكة خافتة ثم قال مشيرا تجاه الويل .

- توقفى ! انك تتحدثين عن احداث موغلة فى القدم ، ماذا عن الحدث القريب الذى وقع لك انت والتوامين ؟ ثم اتجه نحو ابنه وقال : - تعلم عن حادثة اختطاف الاعراب لأمك واخويك التوامين . ذلك عندما وقع اخوك مديت من على جواد العرب وكسر عظم المقعد مما سبب له عاهة العرج التى عانى منها باقى حياته حتى اختفى . من هنا . اما امك والابن التوأم الآخر اشويل فقد اخذهما الاعراب حتى تم انقاذ أمك فيما بعد ، ولم نسمع عن اشويل بعد ذلك . لولا تدخل الاسود فى تلك الاحداث لعانى قومنا المزيد من الخسائر . فكما ترى يا ابنى بول ، فان أمك قد قالت الحق . من الخير انك الآن قد رأيت بعينيك ما يقوله كبار القوم لكم يا معشر المتعلمين عن قوى الاجداد الروحية . ان أرواحنا هى رسل الله وكلماتها قوية . ولكن التعليم قد اصم آذانكم عن سماع كلماتنا . انكم لا تسمعون ما نقول . وحتى عندما تسمعون ، فانكم لا تأخذون ما نقول الى قلوبكم . يدخل الحديث من اذن ليخرج من الاخرى . ان ذلك الاسد لم يات اليك عبثا . دعنى اخبرك الآن يا ابنى ان ذلك الأسد جاءك برسالة ، وأن تلك الرسالة سوف تظهر . انى واثق من ذلك . يجب الا نشغل رؤوسنا بمحاولة تخمين كنه تلك الرسالة .. الشىء المهم هو ان الاسد جاءك ولم يؤذ أحدا ، وهذا يعنى انه كان رسولا . مهما طال العهد ، فان تلك الرسالة سوف تظهر . علينا الآن اكرام مقدمه لك بتقديم حمل كقربان . ولكن يمكن عمل ذلك فيما بعد عندما تهدأ هذه الجلبة الراهنة .

حسنا ، دعنى أعود إلى كلمات الأسرة لبسيطة .. وهنا قالت ألويل مواصلة حديثها السابق : إن قلوب النساء تتفطر بالانتظار . دع بول يذهب ليتحيتهن .

وافق الزعيم ملينقديت على ذلك فخرج الياس مع امه . وفى الطريق ، رأى الياس الثور المربوط على وتد عند المحراب الى الجانب الأيمن من زريبة الماشية الكبرى . كان عماد المحراب هو جذع شجرة منزوع اللحاء ومركوز فى الأرض وقد برزت أفرع الشجرة وكأنها تمثال . ومن الأفرع تدلت العديد من الأشياء : أصداف وأساور وخرز وما الى ذلك ، بقايا القرابين التى سبق ان قدمت إلى أرواح الاجداد . وحول جذع الشجرة والافرع نمت نباتات متسلقة مثل نبات «كواك - جوك» العجور (الخيار) المقدس.. الذى تستخدم فى المباركة . وحول كل أنحاء الموقع المرتفع الذى يشكل أرض المحراب تناثرت عظام وجماجم الحيوانات التى سبق تقديمها كقرابين وضحايا .

عندما اجتمع كبار القوم ، شكلوا دائرة كبيرة حول الثور استعدادا لتقديم القربان والدعاء . ودعا اكول ، أخو الزعيم ملينقديت ، عمهما الأكبر مجاك قائلا :

يا عمى ، ارجو ان تقول الكلمة :

قاصدا بذلك « الصلاة » حسب اصطلاح الدينكا ..

وكان مجاك والذى يعرف ايضا باسم مجانقديت رجلا قد تجاوز الثمانين من العمر ، بقامة طويلة منحنية على العصى المشعبة التى يرتكز عليها وزنه الخفيف . كان وجهه جافا وقد غارت عيناه فى محجريهما . أخرج التبغ من فمه بيد مرتجفة ووضعه فى حافظة التبغ (الحقة) ثم أدار بلسانه القطع المتبقية من التبغ فى فمه ثم تفلها الى الخارج عدة مرات ، ثم تنحنح واعلن : امسك كلمتى هذه .

وهنا كرر بقية كبار القوم الرد التقليدى فى صوت جماعى بعد أن كانوا منتظرين فى صمت :

- امسك كلمتى .

- انت يا الله ، وايتها الارواح فى السموات ، ومعهم انتم اجدادنا داخل الأرض . لكم جميعا اوجه كلمتى .

كرر كبار القوم آخر كلمة بصورة جماعية .

- ونحن لا نناديكم لشىء سيىء ، وانما لنطلب منكم الحياة .

ورجع صدى التكرار الجماعى للكلمات الأخيرة «لنطلب منكم الحياة» ثم واصل مجاك الصلاة «طوال تاريخ قومنا إنما بسبب الزعيم يعيش القوم فى البلاد» .

وواصل كبار القوم التكرار الجماعى للكلمات الاخيرة مع كل مرحلة من الصلاة والدعاء .

- عندما يعتاد الناس على قيادة وحماية زعيمهم ، تاتى روح الموت وتاخذه منهم ، وذلك هو ما يهلك القوم . لقد عانى قومنا كثيرا ، وساءت الأحوال . ولكن ابنك هذا ملينقديت الذى وضعتموه فى موضع الزعامة والقيادة فى قومكم قد اصبح مصدر ثقة وقوة لقومنا . لقد اعطى وجوده قلوب قومنا القدرة على الاحتمال والاحتفاظ بالبلد .

لماذا اعطيت انت يا اخى ابنك اسم مليك ؟ ألم يكن ذلك اكراما للروح التى انقذت قومك من الكارثة ؟ ام يباركه الله وانتم ايتها الأرواح العليا لينمو ويصبح الزعيم الذى تريدون لقومه ؟ لماذا تأخذونه الآن من قومه الذين يحتاجون له الآن اكثر من اى وقت مضى ؟ أنت يا الله ، وانتم يا اجدادنا ، ليست هذه هى الطريقة المناسبة لمعاملة الاحفاد . نحن نعلم انكم تعلمون كل شىء ، وان منتهى الحكمة وقمتها عندكم ... ولكننا نعتقد ايضا انكم تريدون أن تسمعوا رأى احفادكم فى الأمور والألم الذى يشعرون به فى قلوبهم . لكم الكلمة الأخيرة ، ولكن ينبغى الا تغمضوا اعينكم وآذانكم عن صرخات احفادكم .

لقد انتهى قومنا ، ولم يبق من الكبار من يوجه الشباب . أنا رجل عجوز وأيامى الباقية أصبحت قليلة . قريبا سيكون مليك هو اكبر ابن لكم فى هذا العالم . كيف تأخذونه وهو لا يزال يتمتع بالقوة التى تمكنه من القيادة ؟ لا ، لقد رفضت أنا كلمة الموت . انقذوه حتى ينفذ ارادتكم ويحمى قومكم فى هذا العالم .. وتقبلوا بدلا عنه هذا الثور ، « مليك» ، الذى سنقدمه قربانا كهدية خاصة لكم .

ثم واصل الحديث موجها كلامه نحو الثور :

- اما انت يا « مليك » هذا هو الغرض الذى من اجله جاءتك البركة كثور مقدس منذ ان كنت عجلا صغيرا.لقد وقع عليك الاختيار لتقدم للروح ملينقديت عسى ان تكون فداء يوما ما لانقاذ القوم من الشر . إن موتك ليس بالشىء السيىء ، وانما هو موت

طيب . كلنا سنموت يوما ما ، ولكنك تموت اليوم من اجل غاية نبيلة وهى انقاذ حياة زعيم هذه البلاد . منذ بداية الخلق ، فقد منح الله الناس البقر كحليف لهم فى حربهم ضد أرواح الموت . انه واجبك المقدس ان تعين الانسان فى سعيه للحياة الكريمة الطيبة . انها حياة البقر وحده هى التى تضعها الأرواح فى مصاف حياة الانسان وتقبلها كبديل لحياة الانسان . وهكذا ، نسالك ان ترضى بتقديمك كفداء فضلا منك . انك لا تهان بهذا وانما تكرم . هذه هى كلمتى .

وتقدم رجل كبير آخر ليأخذ دوره فى الحديث .

" امسك كلمتى هذه ، انا اوجه حديثى للروح الكبرى ملينقديت . لقد تم اختيار هذا الثور . واهداؤه لك اكراما لقوتك المنقذة للحياة والتى سبق أن انقذت واعادت اهل هذه القبيلة من كارثة الجدرى . ان الرجل الذى نصلى من اجل حياته اليوم ، قد سمى عليك اكراما لك على العمل الطيب الحسن الذى قمت به . انقذ زعيمنا من اجلنا . نحن فى حاجة له . انا رجل قليل الكلام . هذا كل ما أردت أن أقول

فى تلك اللحظة ، لفت أحدهم النظر الى اقتراب مجموعة من الناس وهى تحمل رجلا على سرير .

لابد ان يكون هذا هو العم مثيانقديت .

قال أكول : لم نتوقع حضوره نسبة لأنه هو أيضا لم يكن فى صحة جيدة .

ومع اقتراب الجماعة ، أفسح الآخرون المجال لموقع سرير العم مثيانقديت .

تركزت العيون على الرجل العجوز فى موقعه البارز فى الدائرة . قال أكول :

دع العم مثيانقديت يقول كلمة مادام قد حضر .

وافق الجميع وانتظروا حتى يستجمع مثيانقديت انفاسه وأفكاره . لابد أنه قد فكر كثيرا فى الطريق ، لأنه جلس على سريره فى ضعف واضح ، ويداه ترتجفان ، وفمه يمضغ على الفراغ ، وقد سال لعاب الكبر من فمه . وبعد أن أصلح وضع جلبابه القديم المتسخ ، بدأ الحديث فى صوت مرتعش وكأنه رجل فى برزخ بين عالم الأموات والأرواح .

- انا اكبر الناس سنا هنا ، أكبر سنا حتى من ابن اخى مجاك . لقد رايت الكثير فى هذا العالم . انى أبقى متيقظا أغلب الليالى وأنا اتفكر فيما حل بقومنا . وما يراه قلبى ليس مدعاة للسرور . أيام اجدادنا والتى شهدها بعضنا ، كان الله والأرواح العليا قريبة من الانسان . كان الناس يعيشون بمقتضى كلمة الله والاجداد . عندما كان احد الكبار يدعو الله والأرواح ، كانوا يستجيبون ، وحتى عندما تسوء الاحوال ، فقد كان الله والارواح والاجداد السالفون يعلنون عن رغباتهم ، وكان الانسان يطيع . وعند الاستجابة لرغباتهم ، كان الله والاجداد السالفون يرفعون خطر الشر وتعود الأشياء الى طبيعتها . كان الناس موحدين فى الكلمة وتابعين لطريق الله كما وهبه لنا اجدادنا السالفون . ولكن الآن فقدت الصلوات معناها . لم يعد الاجداد السالفون يستمعون لاصوات الاحفاد التى تدعو وتطلب العون . لم يعد الله يعبا لصلوات النمل فى هذا العالم .. ولكنى لا ألقى اللوم على الله ، أو على الارواح أو الاجداد السالفين ، لأن اجيال اليوم قد انصرفت عن منهج السلف . وهذا لا يمكن أن يسر آباءنا الروحيين . لم يبق لى طول عيشى ، وقد شرعت فعلا فى التفكير فيما يمكن أن ابلغه لأندادى الذين ذهبوا قبلى . ما سابلغه لهم لن يسر

قلوبهم . ولكن ماذا استطيع ان افعل ؟ لابد من ابلاغ الحقيقة ، حتى لو كانت مؤلمة .

واصل مثيانقديت الثرثرة واستمر الصوت الجماعي في تكرار كلماته وعباراته الأخيرة ، ولكن في حماس متناقص باستمرار ، بينما ظل هو يركض على البرزخ بين الأموات والأحياء .

ـ ولكن ، لابد أن نلجأ لك ، يا الله وأيتها الأرواح وايها الأجداد السالفون . ايا كانت الأخطاء التى ارتكبها أحفادكم على الأرض ، اغسلوا قلوبكم منها وباركوهم بريح باردة تهبهم الصحة .

وصدر صوت موجه لأفكار العجوز :

ـ صوب صلواتك تجاه الأمر القائم الآن ، الا وهو صحة الزعيم مليتقديت .

بدت على الرجل العجوز علامات عدم الرضى عن تلك المقاطعة لأنه لم يكن من أعراف الدينكا التدخل على تسلسل افكار المتحدث في مثل هذه المناسبة الجليلة ، وخاصة عندما يكون المتحدث رجلا كبيرا في مثل سن ميثا نقديت.ونظر ميثا نقديت ليرى من هو مصدر المقاطعة غير اللائقة ، ثم عض على شفته غاضبا وواصل الحديث .

ـ هذا مثال لطيش الشباب الذى أتحدث عنه . ولعل هذا يؤذيني أكثر مما يؤذى أسلافنا . ولكن يجب أن نقبل مجرى الاحداث في الحياة .. ويجب ألا يصرفنا ذلك عن واجبنا أن نحمى أحفادنا . أنت يا الله وأنتم يا جدودنا ويا أسلافنا ، من الذى يبقى ليتحدث باسمكم في هذا العالم ؟ انقذوا مليك وتقبلوا الثور . هذا ما قضى الله عند الخلق ، وهو أن البقر هي وسيلة خلاص الانسان لينام [مليتقديت] طيبا ثم يستيقظ في تمام الصحة . أما أنت أيها [الثور] « مليك » ، أرض بتقديمك فداء وتبول كما ينبغي.على حيوانات الفداء أن تتبول كناية عن تقبل مصيرها . هذه هي نهاية كلماتى ..

وتتبع ذلك صمت مهيب ، وكأنما كان الجمع ينتظر أن يرى أثر كلمات مثيانقديت وعندها خار الثور ثم تبول مما أرضى الجميع . وتصارخ القوم : « نقواث » أى « إصابة للهدف » .

وهى عبارة تقال في الحرب عندما تصيب الحربة العدو ، وفي المناسبات الدينية تقال كناية عن انتصار الخير على الشر . وقال الجميع معلقين على ما حدث .

ـ لقد تقبل الثور الضحية .

وبذلك حان وقت ذبح الحيوان . تقدم عدد من الشباب واستخدموا الحبال لاخضاع الحيوان وتوجيهه جهة الشرق لاستكمال الطقوس . وبعد أن قام أحدهم بلمس عنق الثور بالحربة المقدسة ثم وجهها بعيدا عن المساكن ، اقترب رجل آخر من الثور واستخدم حربة حادة في قطع جرح صغير في عنق الثور وكأنه يقصد أن يقلل الى اكبر درجة ممكنة من حجم الجرح الذى يلحقه بالحيوان . ثم أدخل رأس الحربة الى عمق الجرح واستوثق من أنه قد قطع الشرايين مما سبب اندفاق طوفان من الدم الى اناء وضع بعناية في الموقع المناسب لاستقبال الدم .

يجب قطع وتوزيع لحم حيوان الاضحية بموجب قواعد صارمة حسب مقتضى النسب والعمر والجنس . وفي تلك الأثناء ، ذهبت جماعة منتخبة من كبار القوم ، وفيهم

مجانقديت واكول ، لاستكمال عملية المباركة الطقوسية . قطع مجانقديت العجورة المقدسة الى نصفين وقذف بها إلى أعلى بينما نظر كل الناس ليروا كيف يسقط النصفان . والقاعدة هى انه لو سقط النصفان .ووجههما إلى أعلى، فذلك يعنى حسن الطالع للشفاء . وإذا سقط احد النصفين ووجهه إلى أسفل والآخر وجهه إلى أعلى ، فسوف يقذف الأول بعيدا ويستخدم الثانى لمباركة الشخص المريض بلمسه به على الجبين والصدر والقدمين . أما اذا سقط النصفان ووجههما إلى أسفل ، فذلك يعنى أن الصلاة لم تقبل .

فى البدايه ، سقط النصفان ووجههما إلى أسفل . كرر كبار القوم المحاولة ولكن بنفس النتيجة . تبادل الناس نظرات قلقة . صاح مجانقديت معبرا عن شعور الجميع :

ـ يا الله ويا أرواح عشيرتنا وأنتم أيها الجدود لن تصرفونا بهذه السهولة ، نحن نطلب منكم صحة وسلامة ملينقديت ، ولن ننصرف حتى ترونا أنه سوف يشفى . نرجوكم إجابة صلاتنا .

وتم تكرار المحاولة مرة تلو الأخرى ، حتى جاءت النتيجة المطلوبة فى المحاولة الرابعة حين سقط وجها نصفى العجورة الى أعلى .. وتصايح الجميع فى صوت جماعى بالعرفان والشكر للرب « ثيثيى .. ثيثيى » وبعد مباركة ملينقديت بكل من نصفى العجورة ، تم الاعلان بأن الأضحية مقبولة وأن فرص استعادة الزعيم لصحته قد أصبحت كبيرة ، ولكن لا يستطيع أى شخص ، بالطبع ، أن يتحدث بثقة تامة باسم الله والارواح العليا والسلف من الأجداد .

ما كادت احتفالات الاضحية تنتهى حتى تجمعت السحب بالتدريج فلما كان العصر اكتسى العالم بظل كثيف حجب الشمس . ورغم أن الوقت كان قريبا من موسم الأمطار ، فان أكثر الناس تفاؤلا لم يفصح عن أمله فى أن يبارك الآباء السماويون الاضحية بهطول الأمطار . ومع انتشار الدخان السميك فى السماء وبداية دوى الرعد بأصوات مملكة الأرواح أصبح من الواضح أن الله والأرواح العليا قد استجابت لدعاء النمل من البشر تحتهم . وعندما هبت الريح الباردة إيذانا بهطول الأمطار الغزيرة ، اشتعلت القرية بنشاط محموم حيث أسرع الناس فى جمع حوائجهم الى داخل الأكواخ وزرائب الماشية .

وتداخلت أصوات الرجال والنساء فى الهواء :

ـ الا ترى أن المطر قد نزل ؟ هل يمكن لأحدكم أن يحضر الخراف والماعز ؟ من الذى يرتب أمر الماشية ؟

وتجارى الناس فى كل الاتجاهات . كانت لحظة اختلط فيها الفرح بالبركة النازلة من عل مع الانزعاج بسبب التغير المفاجىء فى الموسم . وكان هناك أيضا الخوف من أن الآباء فى الأعالى عندما يستجيبون لدعاء أحفادهم فى الأرض فقد يعبرون ايضا عن غضبهم بارسال ضربة العصا التى تصاحب العاصفة الرعدية « الصاعقة » لذلك كان الرجاء من كبار القوم أن يقولوا بعض الصلوات وينثروا حب الذرة حول أنحاء المساكن .

قال إيويلديت وهو ينظر تجاه السماء باناء من القرع فيه كمية من الذرة بيده اليسرى ويده اليمنى مملوءة بحب الذرة :

ـ يا الله والدنا العظيم .. نحن نرحب ببركتك وهواء الحياة البارد الذى جاء به مطرك لمنازلنا . انه برد الصحة والعافية العامة لمينقديت وقومه وقطعانهم وذلك هو ما صلينا وقدمنا الاضحية من أجله . دعه ينزل غزيرا لأن ذلك يسعد قلوبنا . ولكن لا تدع الخراب يفسد عملك الطيب . أصرف ضربة عصا الصاعقة عن رؤوس احفادك وليكن رعدك

صوت الطبل الذى يرقصون على انغامه وليس صوت الغضب الذى يسكتهم او يأتيهم بحزن الحداد . ليكن برقك نورا يوجه خطانا فى الظلام وليس ضربة الموت .

ثم بصق على حب الذرة فى يده اليمنى وقذف بها فى الهواء ، وبصق على الذرة فى اناء القرع فى اليد الأخرى وأخذ الحب ونثره فى الاتجاهات الأربعة .

وتبعه أكول الذى قال :

ـ اتحدث أنا فقط لأضيف صوتى الى ما قاله ايويلديت . انكم يا آباءنا العلويين قد منحتمونا الأمل ببركة هطول الأمطار . لا تدعوا أى شر يفسد ذلك الأمل . هذه هى كلمتى ..

ثم بارك الذرة أيضا بأن بصق عليها وقذف بها تجاه السماء ، واستدار وكرر العمل بقذف بالذرة فى جميع الاتجاهات .

وهطلت الأمطار بغزارة مصحوبة بالرعد لدرجة أن الناس التصقوا ببعضهم البعض فى مزيج من عواطف الراحة والرهبة ، الرجال مزدحمون فى زرائب الماشية والنساء فى الاكواخ ، وجميعهم يجدون بعض السند فى قربهم من بعضهم البعض . ومما يشهد على ولاء الدينكا لقطعانهم انهم قد جمعوها كلها وادخلوها فى زرائبها . كان ذلك عملا هينا بالنسبة للأغنام لأنها بمجرد أن شمت رائحة المطر وبخاصة عند نزول القطرات الاولى منها أسرعت نحو الزرائب لأنها تخاف من الشعور بالماء على صوفها . ولكن الخراف كانت صعبة المراس لأنها ، رغم انزعاجها من المطر ، كانت مضطربة لدرجة أنها لا تعرف ماذا تفعل .. بجانب الالتصاق الى بعضها البعض كالقطيع اخذت تتبع أى اتجاه يأخذه اى واحد منها . ولم تكن الماشية احسن حالا من الخراف . الا أن تلك المواقف الحرجة هى التى أوجبت على الدينكا إتقان خبرات قيادة القطعان منذ الطفولة ، وهكذا لم يفقد حيوان واحد خلال الاضطراب الناشىء عن هطول الأمطار .

استجار الياس ورفاقه بمبنى جدرانه من الطين وسقفه من القش يستخدمه والد الياس كقاعة للمحكمة . كان المطر يتوقف لفترات قصيرة ولكنه واصل الهطول طوال الليل تقريبا . وتبع مغامرة الليل تحول معجز فى البيئة صباح اليوم التالى . امتلأ الجو بأصوات الضفادع والحشرات وتحولت الأرض المحيطة بقرية داك ـ جور الى بحيرة كبيرة ، حيث انتشرت الطيور من كل لون وشكل وحجم تنشر أجنحتها وتغرد بأصواتها المميزة أغانى الراحة والفرح . وأضافت الفراشات والحشرات الطائرة مساهمتها فى نسيج عالم المخلوقات الملونة الطائرة . وفى المواقع الجافة ظهرت مجموعات من الحشرات الحمراء تسمى الويلدنيق وأخرى داكنة الحمرة اسمها نيانكوتكوميت . ومما زاد جمال الظهور المفاجىء لكل هذه المخلوقات الحية تناقض ذلك مع الظروف الكالحة المحرقة لليوم السابق ـ الموسم السابق ـ ..

هكذا تتناقض البلاد التى تحكم فصولها ثنائية الجفاف والامطار ـ التحول الحاسم فى البيئة كالليل والنهار ـ وبذلك تخلق ظروف الحياة والموت لكل مخلوقات الله على الارض . لم يصل الانسان طلبا لسطوع الشمس وإنما صلى طلبا للمطر والريح الباردة التى تصاحبها . ولكن حتى تلك البركة والخير يمكن أن يكون مصدر خطر وموت عندما تتبادل مواسم الحر والجفاف والحرمان من جهة ، والمطر والخضرة الكثيفة والوفرة ، من جهة أخرى ، فى وزن دقيق قابل للاختلال . ولكن هذه المرة كانت كلها خيرا وبركة من الآباء العلويين .

الجزء الثانى

(النشأة والتكوين)

الفصل الثالث

استيقظ إلياس مبكراً ، استاك ثم غسل وجهه ثم جلس على مقعد خارج محكمة والده ، وبعد قليل انضم إليه رفاقه . وأثناء تناولهم لشاى الصباح وهم يتعجبون لتحول الطبيعة ، جاء أحد الصبية ليخبر إلياس أن والده يرغب فى مقابلته . أسرع إلياس إلى كوخ والده حيث وجده ومعه والدته ، وكان والده يحتسى الشاى بحيوية ظاهرة . لم يكد يصدق إلياس التحول الظاهر على والده .

- « كيف نمت ياوالدى ؟ »
- على احسن حال . اشعر انى احسن بكثير مما كنت منذ وقت طويل ..

ثم خاطب ملينقديت الويل قائلا :

- صبى كوبا من الشاى لابنك .
- شكرا ، فقد شربت الشاى لتوى .
- اشرب المزيد .
- حسنا اذن ، دعنى اصبه انا ...

قال الياس موافقا .

- الويل ، ربما يكون من الأحسن ان تتركينا الأن وحدنا . اريد ان اتحدث مع بول .
- وما الذى يمنعنى من حضور حديثكما ؟

قالت الويل فى احتجاج متواضع .

- هناك اشياء لاينبغى ان يعرفها إلا الرجال : ولكن ، بعد إعادة النظر ، ربما يكون من الافضل ان تعلمى ما ساقول هذه المرة . ولكنى اريد ان يبقى هذا سرا بيننا . إنكن

معشر النساء لاتحفظن الأسرار . من الضرورى ان تحتفظى بما ساقول لنفسك .
ـ اى سر فضحته انا من قبل ؟
تساءلت الويل مع ضحكة توفيقية جعلت ماقاله ملينقديت كتأكيد لخصوصية ما سيقال اكثر منه نقدا لها هى :
ـ كما قلت لك يا ابنى فقد نمت بصورة طيبة ليلة البارحة ، واشعر بتحسن واضح اليوم

قال ملينقديت مواصلا حديثه . « لقد حدثت عدة أشياء أرى أنه من الضرورى ان أخبرك عنها . يبدو أن ماقلته لك بالأمس عن رسالة الأسد قد ظهر فعلا . لقد كنت نائما عندما استيقظت على صوت زئير أسد . لم يكن زئير اسد جائع ، وانما زئير سلمى . وعندما استيقظت تماما وحاولت أن أسمع المزيد بأنتباه ، لم أسمع شيئا . وسألت المرأة ، زوجة أبيك الشابة والتى كانت نائمة معى ، ولكنها قالت انها لم تسمع اى زئير لأسد ، وصرفت الأمر الى أنه مجرد حلم . لم انازعها فى الامر ، ولكننى مثيقن أنى قد سمعت زئير أسد . واسترجعت تجربتك ثم شعرت انه حتى لو كان حلما فهناك رسالة فى ذلك الحلم . على كل حال ، فقد قررت أن أعود الى النوم مرة أخرى .

كنت قد نمت لفترة وجيزة عندما استيقظت مرة أخرى ولكن هذه المرة على صوت نعيق بومة . لقد كانت على راس هذا الكوخ . كان المطر قد توقف لوهلة . وهذه المرة سمعتها زوجة أبيك أيضا . وأرادت أن تخرج لتطرد البومة ولكنى منعتها من ذلك . يعتبر أهلنا البوم طائر شؤم لأنه يتحرك ليلا . ولكن ولنفس السبب ، فإنه طائر حكيم لأنه يرى الأشياء فى الظلام ، أشياء لايراها الآخرون . وشعرت أنه ربما كان فى تلك الزيارة دلالة خاصة وغرض معين . لذلك قلت كلمات قليلة فى الصلاة لأجدادنا طالبا أن يكشفوا لى غرض زيارة الأسد والبومة . لقد أعادت الزيارتان إلى ذاكرتى فاجعة أسرتنا حين نعق البوم ثم تبع ذلك هجوم العرب وتدخل الأسود ضدهم . على كل حال ، فقد صليت طلبا لمعرفة دلالة هاتين الرسالتين .

ثم عدت إلى النوم مرة أخرى حيث رأيت حلما مدهشا . رأيت أن حربتينا المقدستين ، علامة قيادتنا السماوية ، مشتعلتان بلهب أبيض وقد استدار حولهما ثعبان من نوع الأفعى النافخة وهو رمز عشيرتنا ، لم يكن الثعبان متأثرا بحرارة اللهب الذى كان مجرد حلقة من النور . وأخذت ذلك بأنه يعنى نور أرواحنا . وأنا لاأزال فى الحلم ، قمت واقفا وصليت أمام الحربتين طلبا للأستيضاح ، ثم مسحت الثعبان بالزبدة ووضعت أمامه قطعة من الزبدة الذائبة . ووقتها ظهر والدى بجانب الحربتين ومعه شخص لم أتمكن من التعرف عليه بسهولة . وكان ذلك الشخص ممسكا بحبل ملفوف حول عنق الثور « مليك » الذى قدم قربانا بالأمس . ظهر الثور حيا مثله مثل اى حيوان فى القطيع .
تحدث أبى أولا فقال :

ياابنى ، أستمع لحديثنا جيدا ولكن لاتحاول أن تلمسنا . نحن من عالم غير عالمكم . الرجل المرافق لى هو ملينقديت الروح التى سميت أنت عليها . انت تعلم انى سميتك عليه لأنه أنقذ قومنا من كارثة الجدرى . انه واهب للحياة وليس بقاتل . ورغم ذلك ، فقد كان ايولديت محقا عندما أستنتج ان ملينقديت كان يريد ان يأتى بك الى عالمنا ، عالم الموتى . وكان هدفه من ذلك حسب نقاشه للامر معى هو ان ينقذك .

لقد كنا نراقب عالمكم وقد أزعجنا بشدة أن نرى التحولات التى لاحظناها . لقد تغير قومنا بسبب قوى أجنبية . جاء الأنجليز أولا وادخلوا شبابنا فى دينهم وعلموهم لغتهم ومنهجهم فى السلوك . ولكنهم على الأقل تركوا غالبية قومنا تحت قيادة زعمائهم ليحيوا حياتهم على نهج الأسلاف . ثم جاء العرب من الشمال وأبعدوا المصريين والانجليز وقالوا أنهم يريدون للسودان أن يكون حرا من الحكم الأجنبى وانهم يودون لعرب الشمال والقوم السود فى الجنوب أن يتحدوا فى أمة واحدة . ولكن هذا تحول الآن الى كارثة بالنسبة لقومنا حيث تعرضوا لنوع الحروب التى كانت تدمر بلادنا قبل حضور الأنجليز . والآن يتم تحويل قومنا الى مسلمين ويصرفون عن دين اجدادهم . وهكذا تم تحويل أهلنا مرتين خلال فترة حياتك أنت ، أولا إلى نهج الانجليز والآن الى نهج العرب . وبذلك آلت قدرتك على التحكم فى الأشياء حسب أساليب عهد الأسلاف القديم إلى الضعف والزوال .

واصل والدى حديثه ليقول :

لتحافظ على موقفك عليك أن تجعل قومك يصدقون أن قدرات أسلافهم لاتزال سارية حين أن قومك فقدوا القدرة على التحكم فى أمورهم . يقال الآن بضرورة ألغاء نظام الزعامة واستبدال الزعماء بقادة منتخبين . أن هذا يعنى نهاية قيادة الأسلاف من خلال الزعماء السماويين . ويزعم ملينقديت ، وانا أوافقه فى ذلك ، أنها ستكون كارثة لو تمكن الحكام الأجانب من أنهاء زعامتنا القديمة . سيكون من الأفضل أن تنسحب أنت بطريقة طبيعية وتترك جيل الشباب ليتولوا سلطاتهم بالطرق التى يعرفونها جيدا .

سنواصل نحن أسلافهم ، ومعنا أنتم اباءهم ، مراقبة أحوالهم عن كثب ونبارك جهودهم من هنا لكى يحتفظوا بأسماء قومنا حية ويحققوا تحكما مؤثرا على أمورهم هم . هذا هو السبب الذى من أجله أرسلنا الأسد لمقابلة بول ليعلم أن أرواح عشيرتهم معهم حتى فى بلاد الغربة البعيدة . لقد أستمعت أنا وملينقديت لصلوات كبار القوم من أجل ابقائك لمصلحة القوم وقررنا الأستجابة لطلبهم فى الوقت الحاضر . ولكننا ياابنى قد ظهرنا لك لكى ننصحك بأعداد أبنائك لتولى الأمور وتقديم القيادة التى يحتاج لها القوم حسب مقتضى الأحوال السارية الآن . ولكى ينجحوا فى مواجهة التحدى ، لابد أن يجتمع أولادك معا . أقنع بول أن يبحث عن أخيه اشويل الذى اختطفه العرب وهو طفل صغير وكذلك مديت الذى أختفى بعد ذلك . لقد أكتشفنا موضعهما . يعيش احدهما حياة خطرة فى مدينة عربية . اما الآخر فقد لقى توفيقا طيبا لكنه تحول إلى أعرابى تماما .. يجب على بول . البحث عنهما وإعادتهما إلى خدمة قومهم معه هو . هذه هى كلماتنا : سوف تبقى أنت على قيد الحياة بالقدر الذى يحقق هذه النبوءة .. وبعد ذلك سنحضرك لكى تتقاعد بوقار وتحفظ ميراث الأسلاف فى القيادة . يجب أن نذهب الآن . مع السلامة ياابنى ..

بعد ذلك ذهبت فى نوم عميق حتى إستيقظت هذا الصباح وانا اشعر بتحسن كبير . وهكذا ، ياابنى ، هذا ماحدث ليلة البارحة وتلك هى كلمات والدى . ليس عندى المزيد لاضيفه إلى ذلك .

ومع حديثه ، أشار إلى الحربتين المقدستين المركوزتين فى خلفية الكوخ . لقد تم توارث الحربتين الكبيرتين ، إحداهما فى شكل صفق الشجر والأخرى فى شكل رمح ، تم توارثهما عبر الأجيال فى الأسرة منذ عهد موغل فى القدم ، حيث كانتا رمز قوة الحكم السماوى . كانت الحربتان مركوزتين على قطعة من الجلد المسوح بالزيت وبجوارهما

كان يرقد ثعبان من نوع الأفعى النافخة وأمامها قطعة من الزبدة الذائبة .

صاح الياس الذى كان حتى تلك اللحظة مستغرقا فى الرواية فى صمت واستحواذ تام .

ـ ماهذا ؟

.. فاجاب والده قائلا :

ـ استيقظت هذا الصباح ووجدت الأفعى هنا . وهكذا قمت وقلت بعض كلمات الصلاة واعطيتها الزبدة . كما ترى ، ياابنى ، لقد نجوت من هذا المرض .. وسوف اظل حيا لبعض الوقت ، ولكن لابد من تحقيق ارادة اسلافنا . يجب ان تجد اخويك وتعمل معهما من اجل غاية السلم والرفاهية لقومكم . لم يعد هناك اى موجب لبقائك هنا . يجب أن تعود لانجاز مهمتك .

لاحظ إلياس أن عينى أمه كانتا مثقلتين بالدموع . وعندما انتهى والده من حديثه ، لم تتمالك أمه نفسها وأنفجرت باكية . غضب ملينقديت لهذا السلوك وقال :

ـ الويل ، هذا هو بالضبط ماكنت اخشاه عندما طلبت منك الخروج . كيف تجرئين على البكاء بسبب نبوءة الاسلاف ؟ الم تسمعى انى لن اموت الآن ؟ هل هذا الخبر يسبب البكاء ام كنت تودين لو مت ؟ لااريد ان ارى اى دموع اخرى وإلا فانك ستجعليننى اقول كلمات قاسية » .

قالت الويل فى احتجاج وهى تمسح دموعها ..

ـ كيف تقول هذا ؟ كيف تتحدث بمثل هذه الطريقة الباردة عن أولادنا التوأم ، وكيف تسترجع ذكراهما وتتوقع منى عدم إظهار شعورى ؟ ألاترى أنى حاولت جاهدة أن أنسى ولكنى لااستطيع ؟ وهاانتذا تتحدث عنهما وكانهما لايزالان على قيد الحياة وتتوقع منى أن اظل هادئة ؟ لعلك تريدهما للقيادة ، أما أنا فلا ابالى ما اذا اصبحا قادة ام لا ، وإنما أدعو الله أن تكون محقا وأن يكونا على قيد الحياة وبصحة جيدة » .

وأثناء حديثها كانت تجهش بالبكاء .

ـ ايتها المراة ، ليس ماقلته من كلماتى انا ، انما انا مجرد لسان ينطق عن الاسلاف . يجب ألا تشكى فى صحة كلماتهم . أنك تتحدثين وكأن اطفالك قد ولدوا لامراة من غير اب لهم . هل هم اطفالك أنت وحدك ام هم اطفالنا معا ؟ توقفى عن البكاء وإلا فإنك ستغضبين اسلافنا وتجعلينهم يأخذون أولئك الأطفال إلى الأبد .

شعر الياس بأنه بعيد عن عالمهم لدرجة أنه لم يعرف كيف يتصرف . لقد كان يعلم حقا عن قصة أخويه المفقودين ، ولكنه لم يدرك من قبل ماتعنيه ذكراهما لوالديه . وفى حقيقة الأمر ، كان الياس منزعجا نوعا ما من الاشارة لدور أخويه فى القيادة . هل يعنى هذا أن والده ، وهو صاحب الفكرة على مايبدو ، غير راض عن دور الياس ؟ ام لعله متألم لفقد ولديه الآخرين وأراد أن يبرر تجديد البحث عنهما ؟

صرف إلياس هذه الأفكار المتشككة عن ذهنه واستبشر لخاطر احتمال بقاء أخويه على قيد الحياة . كم يكون رائعا أن يجتمع بهما ! وبما أنهما أكبر سنا منه ، لعلهما يعينان على تحمل أعباء القيادة . عبرت هذه الخواطر ذهنه فى لمحة وهو يستمع لوالديه بينما يواصل مراقبة الثعبان .

ـ ياابى ، هل هذا الثعبان قاتل » ؟

تساءل الياس عن امر كان يشعر بأنه يقتضى الاهتمام العاجل فقال :

ـ لنقتله او نتخلص منه بطريقة ما .

- ياابنى ، هذا هو بالتحديد ماكان يعنيه اسلافك . طرقكم مختلفة ، ولكن يجب أن تفهم طرق قومك . أى قوة تكون قاتلة هى ايضا قادرة وبنفس القدر على حماية الحياة . إن عشيرتنا مشهورة بقدرتها على الاهلاك عن طريق توجيه اللعنة ، ولكننا ايضا مشهورون بالقدرة على تقديم الحماية الروحية لقومنا . هذا هو ماترمز اليه هاتان الحربتان المقدستان . وكما أن قدرتنا على الاهلاك مؤثرة فقط على المعتدين ، فان قدرة الجد الراقد عند الحربتين قاتلة فقط للذين يستحقون العقوبة . بخلاف ذلك ، فهو مصدر حماية . الا ترى أنه هنا بإرادة الله وارادة الأسلاف ؟

- اليس هناك اى شىء يمكننا عمله ياابى لحماية الناس من احتمال حادث مع الثعبان ؟ »

- تدخلت أمه قائلة : مليك ، أن بول يقول الحق هذه قرية بها عدد كبير من الناس . من المحتمل أن جدنا الافعى النافخة قد يريد التحرك فى أنحاء القرية وقد تطؤه الماشية أو يطؤه الناس عن طريق الخطا . وقد ياخذ هو ذلك ماخذ الإهانة ويرد على العدوان . وبذلك نكون قد فتحنا جبهة جديدة مع الأرواح . لذلك اقترح ان يؤخذ الافعى بعيدا حماية له ولمنع الأذى من الآخرين .

قال ملينقديت موافقاً : اذهب للبحث عن حمل يكون تشكيل ألوان جلده أقرب ما يمكن من لون الأفعى النافخة . ثم اطلب أنت ايولديت أن يحضر برفقة أخى اكول . سوف نقدم الحمل قرباناً للأفعى قبل أن نأخذه بعيداً من هنا . يجب أن نتوسل إليه وللأسلاف لنوضح أن أخذه بعيداً ليس تعبيراً عن الرفض وإنما للحماية .

- ليس فى ذلك ما يمكن الاعتراض عليه » .

قالت الويل ذلك مؤكدة وهى تشعر بالسعادة لأن الزعيم قد استمع إلى نصيحتها : وعلى كل حال ، فقد بلغتنا رسالته وسوف نعمل بمقتضاها .

كانت قرية داك - جور حافلة بالاحتفالات تقديرا للكرامة والبركة المعجزة بنزول الأمطار وشفاء الزعيم ملينقديت . وبذلك ازدادت وتعمقت سمعة ايولديت التشخيصية والعلاجية المعروفة،وأخرجت الطبول واستجابت القبائل البعيدة لنداء الطبول فجاءت لتشارك فى الرقص والغناء تعبيرا عن الفرح والامتنان . وذبحت البهائم واعدت الأطعمة فى وفرة كبيرة . وتواصلت الاحتفالات لأيام إلا أن سر الرسالة السماوية بقى محفوظا بين الياس ووالديه .

خلال أيام من نزول الأمطار التى بشرت بأستجابة القوى السماوية للصلاة من أجل عافية الزعيم ، هطل المزيد من الأمطار واستمرت البيئة فى التحول . وحينها تغطت السهول ببساط من العشب الأخضر الجديد وأزهرت الأشجار وانتشرت الضفادع والحشرات فى النهر . فكانت سمفونية الطبيعة موسيقى ينام عليها الناس فى المساء وأنغاما يستيقظون عليها فى الصباح . وأشبع الأطفال رغبتهم فى الأستحمام البارد فى برك الماء حول القرية بينما انتشرت الأبقار تأكل من وليمة العشب الكثيف .

ورغم أن إلياس قد أصبح اكثر استيقانا من صحة والده إلا أنه كان يشعر بضرورة أخذه معه الى الخرطوم للكشف الطبى والعلاج اذا دعا الحال .

فقال والده : « لاارى داعيا لذلك يابنى ، لقد افصح اسلافنا عن ارادتهم وعلينا العمل بها . لاحاجة لى بنصح الأطباء » .

ـ يابى ، انى اثق فى حكمة ارادة الاسلاف ، ولكنى لاارى ضررا من استكمال ذلك بالانتفاع بالطب الحديث ..

ـ ولكن ذلك سيجعل أسلافنا يعتقدون أننا لا نثق فيهم .

يابى فى وقتنا الحاضر يجب الا نعتقد بوجود تعارض بين نهج الاسلاف ونهج العالم المتقدم ، يجب فض هذا التعارض .

ترك الياس الأمر عند ذلك الحد وهو موقن أنه سيحتاج لدعم كبار القوم بما فيهم أيولديت ، الرجل المقدس . ولدى أول فرصة للحديث مع أيولديت فى حضور والده ، أثار إلياس الأمر بطريقة يضمن بها أن العراف لن يفهم الأمر وكأنه طعن فى جهوده هو قال الياس : إنى أعتقد أنه من الأحسن استخدام كل وسائل الدفاع المتوفرة لدينا ضد المرض . فمن الأفضل التأكد بدلاً من أن يذهب المرء ضحية .

وكانت مهمة اقناع أيولديت أسهل بكثير مما تصور إلياس لأن العراف كان لايرى اى تعارض بين المذاهب المختلفة نحو عافية ملينقديت .

قال أيولديت : لقد كان رأيى دائما ، كما قلت انت ذلك اليوم ، اننا نعمل جميعا لنفس الهدف وهو عافية وسلامة الأنسان ، ونحن نلجأ مباشرة إلى الله وأسلافنا طلبا لزوال الشر الذى يهدد الحياة ، ولرد العافية وحماية رفاهية الانسان فى المجتمع . بينما يعتمد الأطباء اكثر على العلاج الذى يصنعه البشر . ولكن بدون مباركة الله أو ارادته ، فلن يجدى علاج الأطباء . الا ترى أننا نعمل جميعا إلى نفس الهدف ؟

وهكذا تقرر فى نهاية الأمر أن يأخذ الياس والده معه الى الخرطوم . وتم أختيار إحدى زوجات الشيخ الشابات لتصاحبه وتمرضه . إلا أن الويل أصرت أيضا على الذهاب قائلة :

ـ إننا نصلى لشفاء ملينقديت ، ولكنى أريد أن أكون بجانبه فى مرضه وخصوصا اذا توفى .

وأنتهى الأمر على كلمتها ، رغم أن إشارتها لاحتمال وفاة ملينقديت قد صرفت على أساس أنها صورة غير مناسبة من صور الاستسلام للقدر .

وحرصا منه على الجمع بين العناية بوالده وواجباته كعضو فى الجمعية التأسيسية ، كان رأى الياس أن يغادروا القرية بمجرد استكمال الاعداد لسفر والده . وعندما آن أوان السفر ، أعد مكانا لرقاد ملينقديت على ظهر العربة على أن تجلس الويل والزوجة الصغرى بجانبه . وجلس الياس والحارس بجانب السائق . وأصر ملينقديت ان يأخذوا معهم حملا لتركه فى الموضع الذى ظهر فيه الأسد ليكون هدية أو رمزا للعرفان . وربط الحمل إلى سياج السيارة فى الخلف .

كانت الرحلة متعبة لأن الأمطار قد اغرقت سطح الارض الذى كان من قبل مثل الطريق المعبد فجعلته مثقلا بالطين والأوحال . وبذلك أصبح الطريق وكأنه خط طويل من الوحل الذى عوق السير فى العديد من المرات .

فكان كل الركاب ، ما عدا ملينقديت وزوجتيه والسائق طبعا ، ينزلون لمعاونة محرك السيارة فى دفع العربة . ولم يعبأ أحد لحماية ملابسه أو جسده من الاتساخ بالطين . وكلما زاد

اتساخهم بالطين ظهر أنهم يعملون بجد وأجتهاد . وبذلك تصاعد شعورهم بالفضيلة .
وعند وصولهم إلى الموضع الذى ظهر فيه الأسد توقف السائق بموجب التعليمات التى تلقاها مسبقا ، وهو يسأل الياس والمرافقين قائلا :

- اليس هذا هو الموضع الذى ظهر فيه الأسد ؟ »

ووافقوه على ذلك ، وكان الزعيم ملينقديت مجهدا لدرجة لم تمكنه من القيام بالطقوس اللازمة . ولكنه قال بعض كلمات القربان وهو راقد على ظهره ، ومد يده نحو الحمل ومسح على ظهره ثم قال :

- اربطوه إلى جذع شجرة ، سيحضر صاحبه ويجده هناك .

وبعد الفراغ من ذلك انطلقوا فى طريقهم مخلفين وراءهم الحمل الذى كان مثيرا لشفقة الياس بول ، ولكن بالنسبة لوالده وأمه كان رمزا لايفائهم بالتزامهم نحو الأسلاف ووعدا بنجاح أستعادة اشويل ومديت التوامين المفقودين ، تماما كما تنبأت رؤية ملينقديت .

الفصل الرابع

يعلم كل أهل قرية داك ـ جور عن فاجعة التوأمين أشويل ومديت وأمهما . كان ملينقديت وألويل قد فقدا طفليهما الأولين ـ توأمين من الأولاد اللذين تمت تسميتهما «نقور» و«شان» حسب العرف السارى . كان الطائران ، كما يعرفهما الدينكا رمزيا .. قد طارا بعيدا .. أى ماتا فى حداثتهما . وبدأ الوالدان يشعران بالعوض بميلاد ولديهما التوامين الثوانى ، أشويل ومديت ، حين حلت بهم الكارثة الأخرى .

كان الحديث عن الاستقلال على أشده حين انتشرت الشائعات عن عودة أيام غزوات العرب من الشمال طلبا للرقيق وسط القبائل الافريقية فى الجنوب . أنتشرت تلك الشائعات خلال أنسحاب البريطانيين واستبدالهم بإداريين سودانيين من الشمال . وخلال أشهر قلائل قبيل الاستقلال انفجرت مخاوف الجنوب فى شكل تمرد سرعان ماتحول إلى اضطرابات واسعة الأنتشار قتل خلالها المئات من الشماليين فى الجنوب بصورة قاسية . وبعد تدخل الحاكم العام البريطانى ، تم إقناع المتمردين بوضع أسلحتهم ، واستتب الأمن مرة أخرى . واتفق الشماليون والجنوبيون بالاجماع على أعلان الاستقلال من داخل البرلمان . ولكن سرعان مابدأت الأمور فى الانهيار . فبدلا من المحاكمة العادلة للمتمردين والأستجابة لتظلمات الجنوبيين التى وعد بها الحاكم العام ، اتجهت الحكومة المستقلة الى الأنتقام من المتمردين والجنوب بصورة عامة . ولكن لم يكن جميع المتمردين قد استسلموا بعد ، فلجأ بعضهم إلى الغابات لمواصلة القتال ضد الحكومة والذى تصاعد إلى حرب أهلية شاملة بين الشمال والجنوب .

واشعل القتال روح العداء العرقي والثقافي وبدأ في فتح جروح قديمة وإنعاش الحروب القبلية بين العرب والدينكا . وكان ذلك الصراع على أشده في الجهات الشمالية الغربية من الجنوب حيث المواجهة العنيفة بين الدينكا ميثانق والعرب البقارة (رعاة البقر) . في تلك المصادمات ، عاودت القبائل العربية ممارساتها القديمة في الغزو لأخذ الأبقار والرقيق .

بالنسبة لأسرة ملينقديت بالتحديد ، تعود الكارثة إلى الليلة التي نعقت فيها البومة ، منذرة القرية بالغزوة الوشيكة الوقوع . كان الدينكا ميثانق قد اشتبكوا مع العرب واوقعوا بهم خسائر كبيرة في معركة ضارية انتهت بانسحاب العرب مخلفين وراءهم موتاهم في العراء لتأكلهم الطيور . وذات ليلة لاحقة ، نعقت البومة وأصرت على العودة والنعيق رغم طردها اكثر من مرة . كان ملينقديت في كوخ مع أحدى زوجاته الصغيرات فخرج من الكوخ وهو يحمل الحربتين المقدستين وغنى نشيد الزعامة السرى والذى ينادى به فقط عندما تكون كارثة على وشك الحلول بالقبيلة .

قال ملينقديت في الصلاة المصاحبة للنشيد :

- انتم يا آبائي ، ايا كان الشيء الذى تنعق عليه البومة ، اصرفوه عن قومي . لقد حاربنا العرب قبل قليل ، وبما اعرفه عنهم ، فانهم سيعودون طلبا للانتقام . اقفل طريقهم يارب آبائي . لم نكن نحن البادئين بالعدوان ، وانما العرب هم الذين طاردونا كالحيوانات . ذلك هو السبب الذى من اجله منحتم انتم ايتها القوى العلوية النصر لقومي . لا تهجرونا وقفوا معنا . لتكن مباركتكم هي درعنا . لا تمكنوا العرب من إهراق نقطة دم واحدة في هذه القبيلة .

وبمجرد أن عاد الزعيم ملينقديت الى سريره سمع صوت زئير أسد على البعد . ومثله مثل بقية الدينكا ، فقد كان ملينقديت يعلم عن مخاطر بيئتهم وسلوك الحيوانات الوحشية . لذلك كان من الواضح له أن ذلك الأسد كان يتصارع مع ضحية . لم يكن الزئير صادرا عن أسد هارب وإنما عن أسد مقاتل . ولكن مع ماذا أو مع من ؟ هل كان ذلك مع ظبى أم بقرة أم مع انسان .

كان ملينقديت يستمع في انتباه الى أصوات الأسد عندما سمع صوت صهيل الخيل في وسط القرية . وبعد ذلك مباشرة سمع صياح النساء والاطفال ، وقد اختلطت أصواتهم مع أصوات الخيول . وأسرع ملينقديت خارجا وكذلك خرج بقية رجال القرية ، الا ان ما وجدوه قد أحبطهم تماما . كان العرب قد اختفوا ومعهم الويل ، زوجة ملينقديت ، وأشويل ، أحد ابنيها التوامين . أما مديت ، التوأم الثانى ، فقد سقط من على أحد الجياد وظل راقدا على الأرض وهو يبكى وغير قادر على الحركة ـ فقد أصيب بكسر في عظم المقعد .

كان التوأمان وقتها دون الثانية من العمر ، وفي تلك الليلة كانا يعانيان من مرض الاسهال . وفي حدة الغضب الأعمى أو التهور ، كانت الويل قد فتحت باب الكوخ وأخذت التوامين الى الخارج رغم نصيحة النساء لها بعدم الخروج . ربما فعلت ذلك تقديرا لشعور النائمين بالكوخ الذين قد يتأذون من اسهال الاطفال ، ولكن لدى استرجاع ما حدث ، فقد كان سلوكها في غاية الطيش ، وخصوصا باعتبار الخوف من الحيوانات المفترسة ومن الانسان الذى كان سائدا وقتها .

تعالت صيحات الحرب وانضم العديد من الشباب الآخرين الى شباب القرية في البحث عن العرب . ولكن لم يكن هناك اى أثر يمكن ان يدلهم على اتجاه البحث ، فكان جهدا

ضائعا وخطرا . وبناء على نصيحة كبار القوم ، تقرر ايقاف البحث ومواصلته فى الصباح .

وسريعا ما انتشرت الاخبار بأن العرب قد جاءوا فى جماعة وأن أسدا قد قطع عليهم الطريق ، وهو الأسد الذى سمع صوت زئيره فى قرية ملينقديت . هاجم الوحش العرب وقتل أحدهم وقد وجدت اشلاؤه مبعثرة فى موقع الهجوم صباح اليوم التالى . وكما ظهر من آثار الخيول والأقدام فى المنطقة ، فلابد أن يكون الأسد قد جرح آخرين . وعلى ما يبدو ، فقد سمع الناس القريبون من المنطقة أصوات العرب وخيولهم وعلموا ان اعداءهم فى معركة مع الوحش ، وقرروا غض الطرف عن الورطة التى وقع فيها غزاة الرقيق علما بأن واقع الحال هو أن يكونوا هم أو الأسد ضد العرب .

ورغم أن فاجعة اختفاء أشويل قد أحزنت ملينقديت وأسرته ، الا انهم وجدوا العزاء والعوض فى عودة الويل . الا ان الويل نفسها ظلت تعانى الالم العاطفى الشديد لفقدها أحد أبنائها . كما أنها لم تسامح نفسها لأخذها التوامين خارج الكوخ فى تلك الليلة المليئة بالأحداث وكانت تشعر بالذنب لهربها من معسكر العرب وحدها مخلفة أشويل أسيرا لدى العرب . ولكن لعل أكبر من عانى من تلك الأحداث هو مديت . فرغم أنه قد نجى من الغارة ، الا أن كسر عظم المقعد لم يلتئم ابدا . ووسط الدينكا المفرطين فى الحرص على الجاذبية والجمال الجسمانى ، فقد كان عيب مديت الجسمانى مصيبة شخصية كبرى .

تم ارسال كشافين لتتبع آثار الخيول ، ولكن تداخلت آثار الأقدام والخيول بحيث أصبح من الصعب تحديد الجهة التى ذهب فيها العرب . هذا بالاضافة الى أن معسكرات العرب كانت متناثرة ولم يكن من السهل تحديد المعسكر الذى استقر فيه الغزاة . وأوشك الناس على اليأس من معرفة مكان الويل حين جاء الخبر عن المعسكر الذى تم فيه علاج بعض الجرحى من آثار هجوم أسد . وبما أنه لم يكن هناك حادث آخر مع أسد فى المنطقة ، فقد أوحى الخبر بأن أولئك قد يكونون حقا هم الاعداء المطلوبين .

وتم وضع خطة للهجوم المفاجىء على المعسكر بحيث يوجه المهاجمون نداءات لألويل وابنها بلغة الدينكا ليتجها نحو الانقاذ . وتم تنفيذ الخطة حسب الاتفاق ، وعندما وصل فريق الانقاذ الى أقرب قرى الدينكا الى معسكر العرب ، اختبأ الفريق فى القرية فى انتظار حلول الظلام . وعندما راح معسكر العرب فى نوم عميق ، اقترب فريق الانقاذ وشكل ثلاثة صفوف . كان على الصف الاول التقدم وبدأ الهجوم بغرض اثارة الفوضى وسط العرب وقطعانهم بينما ينادى افراد الفريق بلغة الدينكا لألويل لتسرع نحو الصف الثانى . وبما أن قطعان العرب لم تكن مربوطة الى الأوتاد داخل الزريبة ليلا ، فقد فزعت واندفعت فكسرت السياج وداست على بعض الناس . لم يكن العرب قد استعدوا بعد لرد الهجوم عندما صدرت التوجيهات الى الويل التى اجابت بلغة الدينكا أيضا واتبعت التوجيهات . ولكن كانت المشكلة أن ابنها لم يكن معها وقت الهجوم . وبينما كانت الويل تتجه نحو فريق الانقاذ والت الصراخ : **« ابنى ، ابنى .. لا اعرف اين وضعه العرب »** .

ولكن لم يكن الوقت يسمح بالتردد ، فخلال دقائق معدودة اكتسح المهاجمون المعسكر ثم انسحبوا ومعهم الويل وقطيع من ابقار العرب . وبعد ذلك انسحب العرب بعيدا عن أراضى الدينكا ولم يسمع احد شيئا عن اشويل .

وكأنها تعوض عن تلك الأحداث ، فقد حبلت الويل مرة أخرى ، واعتبرت هى وزوجها ذلك الحمل كعوض عن فقدهما ، فأولياه اهتماما كبيرا . وظل ملينقديت يتابع أخبار حمل الويل بقدر غير معهود من الزوج عند الدينكا . كانت الويل تجد كل ما تحتاج له من الغذاء والعناية ، ومنعها ملينقديت من أى جهد جسمانى قد يؤثر على نمو الطفل .. الا ان ولادة الويل كانت فى غاية الصعوبة . وعندما بدات آلام المخاض ، دهشت النساء المتقدمات فى السن والعالمات بهذه الأمور من صعوبة المخاض لامرأة مثل الويل سبق ان ولدت توائم على مرتين. واستمر المخاض وازداد الألم.. إلا أن الطفل لم يخرج. وحسب العرف، لم يسمح للرجال بالحضور. وعندما طال وقت المحنة أكثر من المعقول، اجتمعت النساء الكبار حول الويل وأخذن يعرضنها الى محنة اخرى . وقالت احدى كبار النساء من عشيرة ملينقديت .

- « الويل يازوجة أخى.. عند قومنا عادات نلجأ إليها فى مثل هذه الظروف، على النساء الاعتراف بأى ذنب يكن قد اقترفنه من قبل وذلك لتفادى مخاطر الحمل والميلاد . انت امراة ، ويمكن لأى امراة ان تخطىء . المهم الا تعرضى حياتك وحياة طفلك للخطر بالتستر على الخطا . كل ما عليك هو ان تقولى الحق لاننا نملك الطقوس التى تزيل اللعنة الناجمة عن الذنب ،

وقالت امراة اخرى : الويل .. لقد ترك لنا السلف بعض الاعراف لمثل هذه المناسبات . صحيح أن فكرة معاشرتك لرجل آخر غير مقبولة لأى شخص فى هذا الكوخ وأنا أعلم أنها مؤلمة للغاية لأى رجل من الأسرة. إلا أننا نسألك الآن عن سر يتعلق بالحياة والموت . اعترفى واصرفى هذا الشر . ماذا لو عاشرت رجلا آخر ؟ لن تكونى أول ولا آخر من فعل ذلك . فان القلب ضعيف ويمكن ان يميل امام الهوى العابر ، ذلك من طبع الانسان ولا يوجب ان تعرضى نفسك للموت .

وكان ذلك الحديث مثل وضع الملح على الجرح بالنسبة لألويل التى قالت وهى تصرخ من الألم : آه ، ياظهرى ، ان ظهرى ينكسر . انى اموت ، انى اموت ، انى ميتة .

وواصلت النساء المحيطات بها المطالبة : اعترفى ، اعترفى . ومع اجتماع الألم الجسمانى والعاطفى صاحت الويل : ياأهلى ، ليس هناك ما اعترف به . لم اقترف اى ذنب . الله يعلم بانى لم أقترف اى ذنب . لم اسع لأى رجل . حتى عندما كنت فتاة شابة ، لم يعرف عنى انى انظر الى الرجال . ياالله ، دعنى اموت واتخلص من هذا .. لا استطيع الاحتمال اكثر من ذلك ..

تم استدعاء سريع لامرأة عرافة من قرية مجاورة . دخلت المرأة الكوخ وعليها هدوء بعث الأمل فى الآخرين ، ثم وبخت النساء لاظهار الجزع الذى يعقد الأمور فى نظرها ، وتساءلت العرافة فى سخرية .. وماذا لو ماتت ؟ هل ستملأ الارض بحيث لا تترك مجالا لدفن الآخرين ؟..

وبعد أن طلبت من الجميع الخروج من الكوخ ماعدا امراتين او ثلاثا بقين لمشاهدة عملها ، اخذت تتحسس بطن وظهر وفخذى الويل وهى تتفوه بكلمات لنفسها . ثم اخذت فى التحول التدريجى حتى دخلت فى حالة غيبوبة وتفوهت بعبارات فى لغة غير مفهومة للنساء الحاضرات . وبعد ذلك انتصبت قائمة وتجولت فى انحاء الكوخ وهى تصرخ

وتشير بيديها وكأنها تطرد شيئا ما بعيدا . كان اداؤها من القوة الغامرة لدرجة ان الويل نفسها استغرقت فيه وكادت أن تنسى أن المرأة قد جاءت بسبب حالتها هى . ثم جلست العرافة فى مواجهة الويل ، وهى لاتزال تتنفس بصوت مرتفع وتبدو متغيرة لدرجة تكاد تبعث على الخوف من نظراتها الحادة النفاذة .

وقالت : والآن انظرى شديدا الى داخل عينى . انى اقول لك ان الارواح قد ذهبت . لم تكن ارواحنا وانما كانت ارواحا اجنبية ، وبمعاونة اسلافنا فقد طردناها بعيداً . وعليك الآن أن تتغلبى على هذا الخوف وتلدى طفلك .

وبمعاونة النساء الأخريات ، أرقدن الويل على ظهرها وجعلنها تدفع بينما كن يعصرن على بطنها وظهرها . وفجأة خرج الطفل ثم صرخ اعلانا بأن الولادة قد تمت بنجاح وسلامة ، وكان طفلا ذكرا جميلا . واستقبلت النساء الطفل بقول جماعى : **ثيتى .. تبارك الله ..**

وبينما أمسكت النساء ابداء عبارات الثناء التى قد تصبح نذير نحس على الطفل .. قال ابولديت لملينقديت :

ليؤخذ الخروف البنى اللون والدجاجة البنية اللون ليلا الى مكان بعيد فى الغابة ويتركا هناك حيث تجدهما تلك الأرواح الأجنبية . فلا نريدها أن تعود إلى الويل طلبا للطعام .

وبما ان الطفل قد ولد بعد توامين ، فقد تمت تسميته بول حسب عرف الدينكا فى التسمية . وبحكم الظروف الحزينة التى تم فيها الحمل ولاعتباره حملا تعويضيا وبحكم مخاطر وصعوبة ولادته ، فقد اعتبر بول طفلا خاصا . ولكونه طفلا خاصا لوالديه ، فقد وجد رعاية خاصة من دائرة أوسع من الاقارب والآخرين من المحيطين بمنزل الزعيم ملينقديت . الا أن تفانى الويل لطفلها كان زائدا عن كل ذلك ، وقامت بنظم بعض الأبيات التى أصبحت أغنية مدح ينشدها كل من يحمل الطفل ويهدهده فى حنان وايقاع مصاحب للغناء .

الطفل الأسمر ياأسمر
العرب لأمك قد سحروا
والدينكا أمك لم تهجر
مولود فى قلب المأساة
لكنك جئت على قدر
ابسم لا تلفت عين الشر
من عاين بشرتك السمرا
كيف ينفث فى حبى سحرا
اعماه الله واعمته قدرات عشيرتنا قهرا
اصغيرى أرقد فى سلم
فبلادك فى ايد احرى !

كان ملينقديت يحب الاستماع الى تلك الاغنية وهو يتوهم نوعا ما ان زعامته هى الايدى الامينة التى تضمن السلام فى البلاد ، ولكنه كان يعلم جيدا أن حمايته واهية فى أحسن الأحوال .

كان الوقت قد أوغل فى موسم الامطار قبيل نضج المحصول الجديد ، وذلك هو الوقت الذى يوشك قوت الناس فيه على النفاد مما يحوجهم الى دعم مصادرهم الضعيفة بجمع عدة أنواع من الأطعمة من البيئة الطبيعية المحيطة بهم ، من أوراق الشجر وأنواع من الحبوب والفواكه والخضراوات والذرة البرية . وكان أحسن ما يمكن جمعه هو الأرز البرى فى المستنقعات القريبة من القرى . وكانت النساء يقمن بجمع تلك الأطعمة بجهد جهيد وذلك بوضع آنية من القرع على رؤوس النبات الذى يشبه التين حتى يتمكن من جمع حبوب الأرز البرى .

كانت الويل غائبة معظم النهار وهى تعمل فى جمع الأرز البرى وقد تركت بول فى رعاية نساء القرية . وبما انه كان يفتقد أمه ، وربما لأنه كان جائعا أيضا ، فقد أخذ بول فى البكاء بصورة لفتت نظر والده ملينقديت . كانت إحدى أمهات الطفل الصغيرات .. إحدى زوجات أبيه الاصغر من والدته .. تغنى له وتحرك إناء من القرع لاصدار صوت رتيب أملا فى أن تجعله ينام ، ولكن بلا جدوى . وعلى غير العادة ، حمل ملينقديت الطفل بنفسه وأخذ يهدهده على كتفه ليهدأ ، ولكن بلا جدوى أيضا . وبعد وقت طويل أجهد بول نفسه لدرجة انه ذهب فى نوم عميق لم يستيقظ منه الا بعد عودة أمه .

لعل تلك الواقعة هى التى حفزت ملينقديت لأن يقترح أن الأوان قد حان لفطام بول وارساله لجديه من ناحية أمه . كان عمر بول وقتها لا يعدو العام والنصف . ورغم زعم ملينقديت ان الولد قد أصبح أكبر من أن يواصل الرضاعة الا ان تلك السن كانت مبكرة لفطام طفل عند الدينكا . وربما كان ملينقديت يشعر بالحاجة للتعويض عن فقد اشويل ومصيبة مديت وذلك بالحصول على طفل آخر فى وقت مبكر مما هو متعارف عليه .

فقال ملينقديت لألويل فى حنان واضح : يازوجتى العزيزة .. **هذه الأوقات قاسية ، وميلاد الاطفال يضمن بقاء واستمرار القوم** .. وبذلك القول كان ملينقديت يعنى اكثر من مجرد ضرورة ارسال بول لجديه من ناحية الأم للفطام ، اذ كان يرمى الى رغبته فى معاودة معاشرة زوجته وهو أمر يحرمه عرف الدينكا خلال فترة الرضاعة . فحسب الاعتقاد السائد ، فان انتهاك تحريم المعاشرة بين الأزواج خلال فترة الرضاعة يسبب المرض ، وربما الموت ، ليس فقط للطفل وانما ايضا يهدد حياة بقية الاطفال الرضع فى القرية .

واحست الويل بالخجل من الايحاء بالمعاشرة الزوجية وهى جالسة على الأرض مقابل سرير زوجها وقد عقدت رجليها تحتها فنظرت الى اسفل من غير هدف واضح . كانت غريزتها تعارض الاقتراح ليس فقط لشعورها بأنها تحتاج لزمن اطول مع طفلها وانما ايضا لانها كانت تخشى الاقاويل التى تنطلق فى القرية حول مثل هذا الفطام المبكر . فقد يبدو الامر وكأنها متشوقة أكثر من اللازم لمعاودة معاشرة زوجها رغم ما يعنيه ذلك من تهديد لمصلحة الطفل . ردت الويل على اقتراح زوجها فى صوت خفيض ومستسلم لا يعبر عن حقيقة شعورها .

ـ كيف استطيع ان ادفع طفلى بعيدا عنى وهو فى مثل هذه السن المبكرة ؟ حتى الأرواح سوف تعترض على تصرفى ؟

شعر ملينقديت بالتحدى من اشارتها للأرواح ولكنه فسر ردها بأنه تعبير عن الحياء وليس نقدا ومعارضة له هو . ورغم أنه لم يستفز لقولها فى حقيقة الامر ، إلا انه أحس

بضرورة تأكيد سلطته الروحية فقال :

- منذ متى أصبحت انت تتحدثين باسم الارواح ؟

قال ذلك وعلى وجهه ابتسامة ساخرة بعض الشيء :

- لا تنسى انى انا الذى اطلق الابقار المقدسة لأرواح الاسلاف من اجل الزواج منك . انا الذى ينبغى أن يعلم ما يحقق مصلحة أرواح العشيرة . وانا قد اطلقت الابقار المقدسة من اجل الحصول على الاطفال .

عندما تفكرت الويل فى كلمات ملينقديت عاودتها خاطرة طالما مرت عليها فى العديد من المناسبات . لو لم تكن قد أصرت على ارضاع طفليها التوأمين طوال تلك الفترة لكانا قد ذهبا الى والديها فى غالب الحال وبذلك يكونان قد نجوا من المصيبة التى حاقت بهما . لقد زادت تلك الخاطرة دائماً من شعورها بالذنب . لذلك ، عندما راودتها فكرة الاحتفاظ بطفلها هذه المرة قررت على الفور التراجع عن موقفها وعلى كل حال ، لم يكن الأمر من النوع الذى يناقشه الزوجان وهما جالسان على البعد من بعضهما البعض ، كما لا يمكنهما المخاطرة بالاقتراب من بعضهما البعض لما قد يشعل ذلك من عواطف الشهوة بينهما .

فقالت الويل فى نبرة إصلاحية :

لندع الأمر هكذا فى الوقت الحاضر .. سوف أتحدث مع أمى لأرى ما تقول عن اخذها للطفل فى هذه السن ..

عندما ذهبت لزيارة أمها وهى تحمل بول معلقا على ظهرها ، كانت الويل تدرك أنها فى الحقيقة انما تذهب لتسلمه الى أمها . فقد اتفقت مع ملينقديت مسبقا على ارسال بقرتين حلوبتين الى الجدين لأغراض فطام بول ، على أن يؤجل ارسال البقرتين الى ما بعد الاتفاق الرسمى مع الجدين . لم تكن هناك حاجة للنقاش فى واقع الحال لأن والدى الويل كانا فى غاية الفرح والسعادة باستلام الطفل وتوقع احتمال أن تحمل ابنتهما بطفل آخر . وكان هناك سبب آخر لاستعدادهما لقبول الطفل . لقد سمعا كثيرا عن ندم الويل بأنها لو كانت قد أرسلت التوأمين لوالديها للفطام لتجنبت المصيبة التى حلت بهما . ولا يدرى أحد المخاطر التى تنتظر بول . لذلك شعر والداها بضرورة الاستجابة لغريزة الأمومة عند الويل . فقالت لها امها مداعبة :

- من يدرى فقد ترزقين ان شاء الله بتوأمين آخرين .

ورغم افتقاد بول لأمه ، الا انه تقبل الحب الغزير الذى بذله له جداه .

كما يوحى اسمه ، فقد كان منشول ، والد الويل ، ذا سحنة شديدة السواد حتى بالنسبة للدينكا . كان طويل القامة نحيف الجسم بوجه رفيع مستطيل وقد برزت عظام خديه ويبدو أكبر من عمره الذى كان يناهز الستين فى ذلك الوقت ، وعندما لا يكون عاريا تماما كما هى العادة فى قريته ، فانه يرتدى جلبابا ، الا انه لم يكن يحتاج لذلك ولا يرتدى الجلباب إلا عندما يضطر لاستقبال الزوار أو عندما يقوم هو بزيارة الآخرين .

لم يكن منشول زعيما ، لكنه كان من سلالة من الزعماء التى تقع فى الموقع الثانى بالنسبة لعشيرة ملينقديت فى ترتيب الزعامة عن قبيلة مثيانق . كان معروفا بتفانيه فى المسائل الروحية ويتمتع بأقصى الاحترام كرجل بارز من علية القوم . اما زوجته نيانكير ، واسمها يعنى « ابنة النيل » لانها ولدت فى موسم جفت فيه الأنهر الصغيرة مما اضطر الناس الى الهجرة الى نهر النيل طلبا للماء ، فقد كانت ، على النقيض من زوجها ، فى غاية السمرة بالنسبة للدينكا . وقد شاع أن جدتها الكبرى كانت أميرة عربية اختطفها الدينكا

واهدوها الى احد زعمائهم . الا أن ذلك كان فى وقت غابر يصعب تذكره الآن . كانت نيانكير قصيرة القامة وتصغر زوجها بعدد من السنين . الا ان ذلك لم يكن واضحا من هيكلها النحيل الذى انهكه الجهد المتواصل اكثر من العوز والفقر . كانت تبدو مستقيمة القامة ضعيفتها وهى ترتدى تنورة من الجلد تلفها حول وسطها وتتدلى حتى الركبتين وقد تركت جسدها حتى الوسط عاريا ، وقد أبرز نحول وجهها من بروز عظمى الخدين وتدلى ثدياها على عظام الصدر البارزة وكأنهما قطعتان من الجلد المطبوق .

لقد أخذت روح الموت أطفال منشول ونيانكير بصورة مفجعة . مات أولا طفل ذكر بعد فطامه بقليل ثم ماتت ابنة فى طفولتها الباكرة . وبعد ذلك رزقا ابنة أسمياها نيانقوط « أى البنت التى فيها الأمل » ولكنها توفيت فى سن السابعة بعد أن بدأوا فى الاعتقاد بأنها ستحيا وتكبر . ووقتها اجتمع كبار القبيلة البارزون ، وقد دفعهم الشعور بالتعاطف مع الزوجين الى محاولة عمل شىء تجاه مصائبهما . ذهب القوم لزيارة منشول ذات صباح ومعهم بقرة حبلى بنية اللون واسمها الويل . دهش منشول وأسرته للزيارة غير المتوقعة ، ولكنهم قاموا بواجب الضيافة حيث ذبحوا حملا واكرموا الضيوف . ثم جاء وقت الحديث الجاد وكانت المبادرة من المتحدث باسم الجماعة الزائرة :

- « منشول ياابن بلدنا . لم نحضر لان أحدا قد طلب منا خدمة أو معروفا وانما ايفاء منا بواجب نشعر به تجاه كل فرد من أفراد مجتمعنا وبخاصة تجاه من عاش حياته وفق قيم ومثل قومه . انك فى تقديرنا ذلك الشخص ولذلك نشاطرك الآلام فى مصيبة اسرتك . لقد احضرنا معنا بقرة بنية اللون اسمها الويل لنقدمها قربانا لله ونصلى من أجل أن ترزق طفلا يحيا ليكون ثمرة الخلاص لأسرتك . لقد أحضرنا بقرة وليس ثورا لاننا سنصلى طلبا لابنة انثى وليس لابن ذكر . اننا نرغب فى تقديم القربان للروح «أبوك» وليس لابنها دينق ولا للروح الاعلى -نياليج- الله .. فأغلب الناس يصلى طلبا لابن ذكر ، الا اننا نرغب ان يسمع الله صلاة أخرى . سنصلى طلبا لابنة انثى تنبت فيها بذور أجيال المستقبل . لقد أحضرنا البقرة الويل وهى حبلى حتى يملأ ذلك عيون روح الموت .. ان هذه الصلاة لا تقتضى ردا منك لأنها مبادرة إخوتك أفراد القبيلة ونرجو ان تقبلها من فضلك ، لانه بدون ذلك الفضل فان مباركتنا وصلاتنا ستكون بلا جدوى .

ثم تحدث عضو آخر فى الجماعة فقال :

- لن يطول حديثنا يا منشول نحن هنا لعمل شىء يختلف عما هو معهود . كما قال اخونا ، يصلى الناس عادة طلبا لابن يواصل النسل . وهم عادة ما يوجهون صلاتهم إلى الله أو إلى الروح دينق أو اى واحد من الأرواح الذكور . وقد قررنا توجيه الدعاء إلى الآلهة الأم والاعتماد على تعاطفها مع الأمومة . لذلك اخترنا « ابوك » أم دينق . إذا تمت الاستجابة لصلاتنا ودعائنا ورزقت ابنة وعاشت فانها لن تكون أما للأجيال القادمة فحسب ، وإنما ستمهد الطريق لأخ ياتى بعدها .

وقال متحدث ثالث :

- منشول .. لا يستطيع اى رجل أن يحيا دون أن يتنفس الهواء من حوله . ان قومك هم الهواء من حولك . تماما مثلما انك لا تقرر تنفس الهواء وانما تتنفسه بصورة عفوية فانك لا تملك أن تقبل او ترفض صلاة قومك التى قالوها نيابة عنك . لذلك ليس هناك مجال للنقاش ، ولقد احضرنا معنا بقرة اسمها الويل وسوف نصلى

طلبا لابنة انثى تسمى الويل . كل هذا الحديث لإخطارك فقط بما نفعل وليس للنقاش . ولكن قبولك مرغوب فيه ومطلوب بطبيعة الحال .

جلس منشول يستمع الى الحديث في انتباه شديد ، ورأسه مطاطا في تاثر واضح لما يسمع . وعندما تمكن من الحديث بعد صمت طويل قال :

- يا رجال قبيلتي ، لا اعرف ماذا اقول . ان الصمت هو احسن وسيلة للتعبير عما اشعر به . ولن اقول لكم انى ارغب في ان تصلوا من اجل ابن ذكر ، فانتم ادرى بما ترغبون فيه والسبب الذى من اجله ترغبون في ذلك . لن انازعكم في الامر . كل ما استطيع ان اقوله هو انى ارجو ان تستجيب « أبوك » لصلاتكم وان يعينها الله والاسلاف في ذلك .

وتم تقديم القربان على ذلك الاساس . اجلس منشول ونيانكير على فراش من الجلد وعلى حجريهما حربة في شكل صفق الشجر وهى ترمز الى الانثى ، وبعد صلاة مطولة كرر فيها كبار القوم مجمل ما قالوه من قبل ، وضعوا الحربة على بطن نيانكير ثم صوبوها تجاه السماء ، واعادوا تكرار ذلك عدة مرات مع النطق الجماعى بكلمة « نقوث » ، وهى ترمز الى الميلاد المعاق وقبول رسالتهم .

حملت نيانكير بعد ذلك بقليل ثم وضعت ابنة انثى سميت الويل على البقرة التى قدمت قربانا . ورغم ان امراض الطفولة قد هددت حياتها وخشى الناس ان تموت ، الا انها عاشت ثم ولد من بعدها ابن ذكر سموه البير ، اى « الهواء العليل البارد » - وهو رمز الصحة والبقاء .

وهكذا تمت الاستجابة التامة لصلاة القوم ، ونشأت الويل لتصبح اما لاحفادهم . ورغم انها فقدت طفليها التوامين الأولين وحلت المصيبة بالتوامين الآخرين ، الا أن بول جاء رمزا للاستمرارية مما اسعد جديه كثيرا . وكانما جاءتهم البركة الكاملة التى عادلت لعنة المحنة وبراتهم من اى اتهام بانهما قد عانيا الكوارث المتلاحقة لانهما ملوثان روحيا . وفي الحقيقة ، فلدى من يعرف الزوجين عن كثب ، فقد كانت معاناتهما غير مبررة على الاطلاق . ورغم أن عرف الدينكا يقول بانه من النادر الا ترتبط مثل تلك المعاناة بالذنب الاخلاقى ، لم يكن أحد يربط بين معاناة الزوجين واحتمال مخالفة منهما للمثل والاخلاق ولو في الخفاء . يعتقد الدينكا ان الله والارواح قد يكونون متقلبى المزاج بل وقد يستمتعون بالقسوة المفرطة في بعض الاحيان ، وانه على الانسان احتمال ذلك كجزء من الارادة العليا للقوى العلوية والسفلية . وعند الدينكا كذلك أن أرواح الاسلاف دائما على حق بطريقة او باخرى ، وحتى عندما يصعب ويخفى الفهم والتبرير على البشر .

رزق منشول كذلك بابناء من زوجة اخرى اسمها اليمو ، وهو تحريف للاسم العربى حليمة ، مما يوحى بان اصلها من قبيلة غير الدينكا وانه قد تم تبنيها او انها من اصل رقيق . إلا انه كان محرما عند الدينكا الحديث عن مثل تلك الأشياء المهينة . حتى حقيقة ان طفليها الاولين ، وهما ابنتان إحداهما كانت متزوجة ، قد اتيا معها الى منزل منشول ، ظلت سرا بين افراد العائلة . اما طفلاها الآخران وهما ولدان ، فقد رزقت بهما من منشول . وكان الابن الثانى ، واسمه مريال ، محببا ومقربا من ابيه ، وبما انه كان في الرابعة من العمر عند حضور بول ، فقد اصبح رفيقا مقربا من بول . ولكن في عموم الحال ، فقد كان من الواضح ان اليمو واطفالها

فى موقع وضيع متدن فى هيكل الاسرة اكثر مما يمكن تفسيره بوضعها فى هرم الزوجات - اى انها كانت دون المقام الذى يحتمه وضعها كزوجة ثانية لمنشول .

كانت الزوجتان تعيشان فى منزلين يبعدان عن بعضهما البعض بعدة اميال . ويفرق بينهما عدد من المزارع التى يملكها ويزرعها اعضاء أسر اخرى تعيش على اطراف تلك المزارع . يتكون كل من المنزلين من كوخين احدهما للنوم والآخر للطبخ .. وزريبة للماشية . كان منشول مثله مثل كل الدينكا ، يرسل غالبية ماشيته وخرافه ومعزاه خلال موسم الامطار مع الشباب من الجنسين الى الاراضى المرتفعة الواقعة الى جهة الشمال ، ولكنه يحتفظ بعدد قليل منها فى القرية لتوفير اللبن والحاجات الأخرى ، مثل الذبائح لأغراض الضيافة أو لتقديم القرابين إلى الله وأرواح الأسلاف .

وبينما كان منشول يتنقل ذهابا وإيابا بين منزلى الزوجتين ويساعد كلا منهما فى مزرعتها ، إلا انه كان يقضى اغلب أوقاته مع نيانكير . كانت الويل طفلهما الاول وابنتهما الوحيدة ، مقربة من والديها مما ساعد على تحبيب بول إلى جديه أكثر من العادة .

كانت الاثارة العاطفية المحيطة بحياة بول بالاضافة الى أنه ابن زعيم من دواعى ايلائه اهتماما خاصا ليس فقط من جديه وانما من كل اقاربه من جهة الأم . كانوا جميعا يدللونه ويمجدونه ويمدحونه بكل الوسائل ، الا انه لم يكن مدللا بطريقة سلبية مفسدة للطبع . ومع نموه فى السن وزيادة وعيه بما يدرو حوله ، كان بول يستمتع بما يجده من اهتمام وتقدير من يكبرونه فى السن ، لكنه كان يسعى كذلك لأن يكون جديرا بذلك . وحتى فى تلك السن المبكرة ، بدأ بول فى اظهار مستوى مذهل من الفهم والوعى والفصاحة . كان يجلس فى الأمسيات مع جده ويستمع إلى صلواته التى يقولها استجابة لأصوات الحيوانات والطبيعة التى تجسد عنده رموز ارواح الأسلاف . وبسبب استغراق بول فى تلك المناسبات الجادة بالإضافة لظهوره بمظهر الجدية المفرطة الذى عمق من أثر سمعته الناجمة عن ظروفه الخاصة ، فقد لقب « وين - يأث » - أى الطفل المقدس .

ذات صباح ، استيقظ بول وهو يشكو من صداع ، ومع تقدم اليوم زادت حالته سوءا حتى اذا جاء المساء كان يرتجف من الحمى . وكان ذلك فى اواسط موسم الامطار . رقد بول خارج المنزل ليدفء جسمه فى حرارة الشمس عندما تجمعت السحب الكثيفة وحولت النهار الى ليل ، ثم بدأ الرعد . فافترض الناس ان السماء ستمطر واخذوا يجمعون حوائجهم الى داخل الزرائب والاكواخ ودخلوا للاحتماء من المطر . هبت الريح وغبار المطر أولا ثم هطلت الامطار الغزيرة وقصف الرعد وتلألأ البرق ، وصاحب ذلك هبوط شديد فى درجة الحرارة . كانت نيانكير مشغولة باشعال النار لتدفئة الكوخ عندما فاجاها منشول بان رفع بول من فراش الجلد على الارض بالقرب من النار وقال :

- نيانكير ، من فضلك افتحى لى الباب .

- تساءلت نيانكير فى دهشة :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ « انى خارج بالولد » ..

وقالت وهى لا تصدق ما يحدث :

ـ لماذا ؟

ـ ان هذا الطفل لا يحتاج لحرارة نارك وانما يحتاج للهواء البارد الذى ترسله روح دينقليت مع الرعد والمطر الغزير .

أجابت نيانكير فى احتجاج : منشول ، إنك تأخذ الطفل إلى موت محقق . كيف تضيف المطر البارد إلى برد الطفل ثم تتوقع أن يعيش ؟ » .

ـ « يا عزيزتى نيانكير ، كيف تتشككين فى واجبى المنبعث من اسلافى ؟ اريد ان أعرض مصير الطفل إلى الله وأترك مباركة الماء المقدس لتسقط على جسده . انى اعهد بمصيره إلى الله . إذا أراد الله ان ياخذه ، فإن هذا الكوخ لن يحميه . وإذا أراد الله أن ينقذه ، فهل هناك ما هو افضل من مباركة الماء المقدس المنبعث من دينق ابن « ابوك » ـ دينق الابن الأول لله ؟ لا تنازعينى وافتحى الباب .

وكأنما تدفعها أيد خفية ، جذبت نيانكير أغطية الباب المغلقة بإحكام ، وفتحت الباب بما يكفى لخروج منشول ومعه بول الذى كان يصرخ من الخوف . وبمجرد أن خرجا ، والمطر والرعد والبرق على أشدها ، سمعت نيانكير منشول وهو ينشد ويصلى بينما واصل بول الصراخ بأقصى طاقة رئتيه . واصل منشول النشيد والصلاة إلى دينق ، روح المطر ، وهو غير عابىء لصراخ الطفل :

الجد الأكبر دينق
وأبونا دينق ، ابن « أبوك »
انت الظل الوارف
يتفيؤه الناس ليرتاحوا
انت هدير ابينا الراعد فى السموات
هانذا قد جئتك بابنى للتبريك
ان لم افعل سوءا
انقذه ودعه يشف مساء اليوم
وإذا قارفت كبيرة
فاقصمنى وانقذ ابنى
وإذا عشت انا وابنى هذا الليل
أرنى ابنى يقظان غدا وعلى فمه بسمات
دعه يلعب كى يستمتع بالعمر الغض
انت ابو الكل
انت القوة فوق الكل
باركنا وتبارك اسمك

عندما عاد منشول إلى داخل الكوخ ، شكرت نيانكير الله لأن الطفل لايزال يصرخ بالحياة . وخلال فترة وجيزة ذهب بول فى نوم عميق لم يستيقظ منه إلا صباح اليوم التالى . ولم يكد يصدق منشول ونيانكير أعينهما عندما رأياه وهو يبتسم فى اشراق وحيوية .

أخذ موسم الندرة فى الانتهاء عندما نضج المحصول ، فكان بول ومريال من أوائل من اختلسوا طريقهم إلى حقول الذرة خلف القرية وكسروا بعض السنابل الناضجة بالقدر الكافى للأكل . وسريعا ما أشبع الكبار نهم الصغار بانتقاء السنابل الناضجة وشوائها على النار أو داخل كوم حارقة مكونة من روث البهائم المحترق . لقد كانت هناك متعة خاصة ومميزة فى ذلك الحصاد المبكر .

وبينما كان بول ومريال يتخذان طريقهما وسط الحقول بين المنزلين ، كانا يشبعان شهيتهما لقصب السكر من بين سيقان الذرة ، أولا من النوع المعروف بأسم « نقاى » الذى يزرع بالقرب من المنازل وينضج مبكرا ، ثم من النوع الذى يتأخر فى النضج وهو من صنفين ، أحدهما أسمر اللون واسمه « رواث » والآخر أبيض اللون واسمه « اماراك » ، وكلاهما يزرع فى المزارع الأكبر والأبعد عن القرية . ومع تلطخ أقدامهما العارية بالطين والذى كثيرا ما تخترقه الأشواك الحادة المدفونة فى الوحل ، كانت مغامرة الولدين هى الاستكشاف وسط الحقول بحثا عن اللون المناسب من القصب .

فبينما يدل اللون الأبيض على أن القصب خال من السكر ، كان اللون المائل الى السمرة هو بشارة الوعد بحلاوة السكر . وحسب العرف السارى فى البلاد ، والذى كانا يدركانه رغم حداثة سنهما ، هو أن لكل فرد قدرا من الحرية فى قطع القصب الحلو من أى مزرعة مادام لم يبالغ فى الاستهلاك ولم يفسد الكثير من الزرع . كان بول ومريال يمضغان القصب حتى تنهك فكاهما . ومع تقدم الموسم ، أصبح من الواضح أنهما ليسا وحيدين فيما يفعلان . ومع انضمام المزيد من الناس الى عملية المضغ ، إنتشرت الشقائق الحادة ، والقاطعة أحيانا ، من لحاء القصب وبقايا المضغ ، انتشر ذلك فى أنحاء القرية والطرق العابرة للحقول .

بينما يسمح لبول ومريال وأمثالهما من الأطفال ، وكذلك للصبيان دون سن الرشد ، أن يشبعوا أنفسهم من تلك الأطعمة الطازجة بمجرد أن تنضج ، إلا انه لم يكن من المسموح للبالغين تناول تلك الأطعمة قبل وليمة الشكر وتقديم القرابين لأرواح الأسلاف . وعندما جاء اليوم المعلوم ، تم اعداد الطعام الوافر من الذرة حديثة الحصاد مثل « اكوب » والذى يعد من عجين الذرة المقطع الى كرات دقيقة الحجم ثم يطهى ويقدم مع السمسم المسحوق واللبن أو المرق من السمك أو اللحم . كذلك هناك نوع يسمى « ارور » والذى يعد من نفس العجين ولكنه ممزوج بطريقة مختلفة . رغم أنه من الممكن اعداد تلك الأطعمة من الذرة طوال العام ، إلا أن إعدادها من الذرة حديثة الحصاد كان له مذاق متميز . وتزداد لذة ذلك الطعام عندما يخلط مع السمن . كذلك يتم اعداد الجعة (المريسة) من الذرة بكميات وافرة يتناولها الجميع ، حتى الأطفال ، كما تذبح الذبائح لتوفير اللحم . وبعد تقديم القرابين عند المواقع المقدسة أو بالقرب من النهر يتم الاذن للجميع بتناول الأطعمة التى أعدت لوليمة الشكر على المحصول الجديد . ويبلغ انفعال بول بموسم الابتهاج أوجه عندما تعود الماشية الى القرية قرب نهاية الموسم لتأكل قصب

المحصول الثانى والمعروف باسم « انقول » والذى يسود الاعتقاد بأنه مغذ ومنتج للبن بصورة خاصة .

وفى موسم الحصاد هذا يتمازج اشتغال الدينكا بالعناية بالماشية مع سهولة الحياة فى القرية بصورة مبدعة وخلاقة للجمال .. أنواع من الحيوانات من كل الأحجام والأشكال والالوان تنتشر فى كل مكان .. الهواء الممتلىء بأصوات من مختلف الدرجات والأحجام ، الشباب من الرجال والنساء يعرضون جمال أجسادهم المحلاة بأنواع الحلى المختلفة ، والغناء فى الحب والذكريات والفخر يصاحب كل أنماط النشاط . ويغرق كل ذلك الجميع بمتعة عارمة وشهوة للحياة بصورة لا تفوت حتى على الأطفال .

وفى تلك الفترة تعرف بول على أخى والدته الآخر ، اليير ، الذى كان قبل ذلك فى المعسكرات البعيدة عن القرية كان أليير فى جماعة الانداد التى تسمى بجماعة بقر الجاموس ، وهم آخر من تم تدشينهم ولذلك يتطلعون الى موقع الفرقة المهيمنة . ومثل والديه ، فقد كان أليير مولعا ببول . ورغم فارق السن ، حيث كان اليير يقارب العشرين من العمر ، فقد كان يعتبر بول مثل الأخ الأصغر ، إلا أن محبة اليير لبول لم تتأثر بالتنافس المعهود بين الأخوين ، بل كانت علاقتهما مدعومة بالشعور الخاص المعهود بين الخال وابن الأخت عند الدينكا ، ويعتقد الدينكا بخصوصية تلك العلاقة بحيث يملك الخال القدرة على مباركة أو توجيه اللعنة على ابن أخته .

لم يطل عهد اليير فى القرية عندما ناداه والده ذات مساء لحديث خاص بينهما . حكى منشول لابنه قصة مرض بول وصلاته هو من أجل صحة حفيده والشفاء المعجز الذى تم لبول من مرضه الشديد . ثم زادت الجدية فى لهجة منشول عندما واصل الحديث ليكشف عن جانب من الرواية كان مؤلما لأبنه .

لقد قدمت حياتى فداء لبول من الموت . لم تقتلنى الصاعقة ليلتها ، إلا أن تضحيتى بحياتى من اجل حياة حفيدى قد قبلت . لا يدرى أحد كيف تتصرف الأرواح . لقد تم انقاذ بول لانى سلمت حياتى إلى روح الموت ولا أدرى انا متى ستاخذ روح الموت حياتى ، إلا أننى اعلم ان حياتى لن تطول لأرى الاستجابة لدعائى بتولى بول الزعامة لقومه . ذلك امر لك أنت وابن أختك . أنا لا اشك اطلاقا بأن بول سيحيا ليكون زعيما لقومه . مهما طال العهد ، فسيتحقق ما أقوله لك يا ابنى » .

انزعج أليير لحديث والده عن الموت ، ولكنه لم يجد شيئا حكيما أو مفيدا يمكن أن يقال فى معارضة حديث والده . كل ما أسعفه من القول هو عبارة : « **يا أبى ، أنت أصغر سنا من ان تفكر فى الموت** »

فلم يملك والده الا أن يرد قائلا ..

– ما الذى يجعلك تعتقد أن للعمر ادنى علاقة بارادة الله ؟ ان روح الموت تختار من كل الاعمار . ويمكن لإرادة الله ان تمنع الحمل بالطفل ، أو تقضى عليه فى رحم امه ، أو ان تنهى حياته فى مهد الطفولة . كما يمكنها أن تاتى على الرجل او المراة فى مقتبل العمر . لقد كادت روح الموت ان تقضى على بول وعرضت انا أن اموت فداء له . ولكن لا تنزعج يا ابنى . فان كلماتى لن تقتلنى اذا لم يحل يومى .

كثيراً ما أكد منشول علاقة الخال بابن الأخت بتكرار النصح لابنه أليير بأن بول امتداد لوجود أليير فى مجالات الزعامة . كان يقول لالبير ان الابن الوحيد (مثل أليير) يحتاج لحماية الزعيم بينما يحتاج ابن أخته لكل الدعم الروحى والأدبى الذى يملكه أقاربه من ناحية أمه ، وذلك لكى يكون زعيماً مؤثراً وقادراً وسط عشيرة والده . وحفز منشول أليير ليكون قلبه « أبيض » تجاه بول بصفة دائمة وألا يحمل أى حقد أو ضغينة له أو لوالديه أو لأى فرد من أفراد أسرته لأن الأسلاف قد يأخذون ذلك مأخذ اللعنة . وبدلاً عن ذلك ، على أليير أن يصلى من أجل عافية ورفاهية بول وزعامته عندما يكبر .

الفصل الخامس

مضى

الزمن وبول يستمتع بفترة الفطام بين أهله من ناحية الأم، حيث كان كل موسم يأتى ويمضى بصفاته ومتعه المميزة. وظل بول يأمل فى السماح له بالذهاب إلى معسكر الماشية بعيداً عن القرية. كانت الماشية تأتى إلى قرب المنازل بطبيعة الحال حسب مقتضيات الموسم، إلا أن الذهاب إلى المعسكر البعيد هو حلم كل دينكاوى وكثيراً ما عبر أليير عن رغبته فى اصطحاب بول إلى المعسكر، إلا أن والديه كانا يعترضان بأن بول لا يزال أصغر من أن يذهب بعيداً عن رعاية والدته أو جدته. وأخيراً تمت الموافقة على ذهاب بول عندما كان فى الخامسة من العمر، وقرر منشول مصاحبة حفيده فى الرحلة إلى معسكر الماشية. وبما أن الرحلة كانت طويلة، فقد حمل أليير ابن أخته على كتفيه وأمسك بقدميه المتدليتين حول عنقه بينما أمسك بول برأس خاله للمزيد من الحماية.

يرى الدينكا أن الحياة فى معسكر الماشية أرفع وأفضل من حياة القرية. فهى أولا تعتبر أدعى الى الصحة والعافية اذ نادرا ما يمرض الناس أو يموتون فى معسك الماشية لعل ذلك يعود الى أن من يمرض فى المعسكر يؤخذ الى القرية حيث يعافى أو لا يعافى. الا أن الاعتقاد السائد هو ان السبب هو نظام الغذاء فى المعسكر وقوامه منتجات الالبان والحبوب المدعومة بالسمك أو اللحم من حين لآخر. غير أن عزة الحياة فى المعسكر هى أكبر كثيرا من نظام الغذاء، اذ انها تجسد ثقافة الماشية التى تجعل الدينكا يعتقدون انهم افضل الرعاة.

رغم أن بول لم يكن فى السن التى تمكنه من الفهم والتقدير التامين للدلالات الاجتماعية والاخلاقية لحياة المعسكر، الا انه أدرك غريزيا وجود شعور بالترقية والتفوق

والرفعة . بمجرد الفراغ من استقبالهم ليلة وصولهم ، بدأ بول يشعر بمناخ السعادة والعرض الشهوانى الذى يغمر المعسكر . مثله مثل كل المنظمات الاجتماعية للدينكا ، كان المعسكر مقسما الى وحدات مستقلة قائمة على أساس الأسرة ثم الأفراد من كل أسرة . يجلس الرجال حول موقد الماشية ، حيث يحرق روث الماشية الجاف فى تل حلزونى الشكل حتى يصبح رمادا مريحا للاجساد . وفى أطراف المعسكر مناطق مغلقة لمعيشة الفتيات حيث يقمن بالطبخ وضرب اللبن كل صبح لاستخراج الزبد وهن يغنين الأغانى المحببة الى نفوسهن . وقد تكون تلك الأغانى من نظم الفتيات انفسهن أو من نظم نساء أخريات أو رجال . يقوم الشباب من الرجال بالترفيه عن أفراد المعسكر بالغناء « لثيران الذاتية » وهم يستعرضونها فى أنحاء المعسكر فى الصباح والمساء . « وثيران الذاتية » ثيران تخصى وهى عجول صغيرة ثم تنمى لأغراض جمالية واستعراضية . يقطع قرنا كل ثور ذاتية فى زاوية معينة لكى ينمو القرنان حسب الشكل المطلوب . وعندما يكتمل نمو القرنين ، يخرقان فى أطرافهما لتعليق الحلى . وبما أن هذه الحيوانات المنتخبة تجمع بين استكانة الثور المخصى ، وهو شىء لازم لوظيفتها الاجتماعية ، وبين العدوانية والحيوية الطبيعية فى الثيران ، فانها بذلك ترمز الى التناقضات المضمنة فى وضع الشباب من الرجال . فرغم انهم خاضعون لسلطة من هم أكبر سنا ، وعليهم اظهار فروض الطاعة لهم ، الا أنه من المنتظر منهم كمحاربين اظهار الفضائل الحربية كالشجاعة والمروءة والحيوية ، وهم كثيرا ما يبالغون فى اظهار تلك الفضائل .

سمع بول العديد من الرجال يغنى أغانى ثور الذاتية ، حيث يلبس الرجل سوارا من العاج حول أعلى ذراعه الأيسر وخرزا حول وسطه وعنقه وقد علق ريشة من النعام على قطعة من القماش الزاهى الالوان ملفوفة بعناية حول شعر راسه الكثيف المصفف ، وهو يمسك بمجموعة من الحراب فى يده اليسرى ويرفع بيده اليمنى عصا غليظة محدودبة الرأس . وكأنه على اتفاق مع المغنى ، يستجيب ثور الذاتية بالخوار بايقاع جميل وهو يضرب على الأجراس المعلقة حول عنقه ، ومن وقت لآخر يقذف بالحلى المربوطة الى طرفى قرنيه . وفى كل ذلك الفخر والعزة « للوالد »، وهو اللقب الذى يمنحه الدينكا لصاحب ثور الذاتية . وعند نهاية العرض يتلقى المغنى هدية أو ما يسمى جائزة « اطلاق » من فتاة معجبة ،وتشيع أحب الأغانى ويتغنى بها الآخرون حيث تصبح رمزا للوزن والنفوذ الاجتماعى لصاحب الأغنية .

رغم أن بول كان يجد متعة شديدة فى تلك المناسبات ، إلا أنه شعر بالفخر والانفعال الزائدين عندما وقف خاله أليير ذات مساء وأصدر صوتا عاليا منغما معلنا انه على وشك الغناء والعرض حول أرجاء المعسكر . واستجاب ثوره « ميجوك » ، وهو ثور جميل أرقط اللون ، يغلب عليه اللون الأبيض بنقاط سوداء فى المقدمة والمؤخرة ، استجاب باطلاق خوار ردا على صوت صاحبه . ربط أليير جرساً حول عنق ميجوك وحلية على طرفى القرنين ، ثم أخذ الحراب والعصى فى يديه وبدأ العرض فى ضوء القمر الباهر الذى انعكس على الحلى التى يتحلى بها أليير والثور . وعندما جاء الى ناحيتهم من المعسكر ، كان أليير يتغنى بأغنية كان لها أعمق الأثر على بول . ورغم أن بول لم يفهم الا طرفا من معانى الأغنية ، الا انه رقد وهو يبدو وكأنه نائم ولكنه كان فى الحقيقة مأخوذا ومفتتنا باللحن والكلمات التى كان مضمونها كما فهمه بول يقول :

نساء عشيرتى نوحى
ونوحى يابنات الشؤم
يجىء العام
ويصحبه إلى ابوابنا الموت
يجىء العام
وحين يجىء حتما سوف يحزننا
عيون الشر قد نفثت عشيرتنا بأسحار
وتصرخ ، وهى تلعننا ،
« حذار من قبيل الموت »
الا ياقوم ! كفى ضحكا على دمنا
فلم نطعم من الموتى
ولكنا ضحايا النحس
ضحايا النحس قد أمرت تحدق فى عيون الرب
كبار القوم قد جاءوا وصلوا عند معبدنا
ونادوا أم دينق ، « أبوك »
منشول ابنك المحزون قد طالت به الأشجان
هبيه طفلة كى تنجب الأبناء
أجابت « أبوك » وجاءت الويل أختى امرأة
وايضا جاء روح الموت صاح بها
« تعالى ألويل كونى مع الإخوان والأخوات
فهم لك كلهم شوق
ونسوتنا رأين هنا وأيدى الموت زاحفة فولولن
ولكن ألويل طلبت هدوء البال
« على على لاتبكوا ، فما قد حان وقت الموت
ولم تتخل عنى الآن أمى « أبوك »
واسمعها تناجى الرب :
« اغث هذى الوحيدة فهى سوف تكون للذرية الأرض
حصاد عشيرة السلطان « مالنقديت »
وابصر شيخنا أختى ألويل
واعطانى مجوك عجلا
لذا فخرى بعجل رئيسنا الربى
مجوك يامن اتت بك من حظيرة ربنا اختى
عشيرتنا سيرفع راسها اسمك
وكم غنيت من اجلك
لأرفع اسم منشول ابى وعشيرتى ايضا !

عادة مايمجد الرجال قريباتهم من النساء اللاتى أتى ثور الذاتية عن طريق زواجهن ، سواء اكان الثور جزءا من المهر او ولداً لإحدى الأبقار التى قدمت مهرا للمرأة . تاثر بول لتمجيد امه ولمأساة اسرته التى استرجعتها كلمات الأغنية . وهو يفكر فى الوفيات التى لحقت بأسرتيه من ناحية الام والأب والفاجعة التى ألحقها العرب بأسرته هو بخاصة ، لم يملك بول إلا أن يربط بين مصير الأسرتين . صارت أغنية أليير شائعة للغاية فى المعسكر حيث كان العديد من الرجال والنساء يتغنون بها . ووجد بول نفسه يحفظ كلمات الاغنية عن ظهر قلب ومن غير عناء ، يرددها لنفسه كثيرا حيث كانت تحركه كل مرة بنفس القدر الذى حركته به عندما قدمها أليير لأول مرة .

عندما أنقضى الموسم وهطلت الأمطار ، آن الأوان للعودة إلى المنازل والمشاركة فى الزراعة ، وهى عمل يتعاون عليه كل الأجيال من الجنسين . يبدأ العمل بمرحلة تسمى « شوم » وهى مرحلة بذر البذور ، حين يكون التوقيت حاسما ، لذلك يعمل الناس بجهد شديد . يبدأ العمل اليومى فى الصباح الباكر ، حيث يحضر منشول وأليير للبذور مستخدمين عصيا طويلة ، بينما تقوم نيانكير ومعها بول - وفى مزرعة « المنزل الآخر » تقوم أليمو واطفالها - بوضع البذور فى الحفر ودفنها بالأقدام . وأثناء العمل يغنى الرجال والنساء ، كل يستمع إلى غنائه هو وإن كان على مسمع من غناء الآخرين . وتعتمد تلك الأغانى على معانى كلماتها كما تعتمد وبنفس القدر على ألحانها . ومع تفاوت وتفرد طريقة الأداء ، فان تلك الاغانى تعكس أيضا التجانس والروح الجماعى .

وفى الوقت المناسب ، تتوقف نيانكير وأليمو عن العمل لتنصرفا الى إعداد الطعام ، كما يعمل الأطفال ، بطبيعة الحال ، وفق طاقة كل منهم وقدرته على التحمل . اما الرجال ، فأنهم يواصلون العمل منذ الصباح وحتى المساء ولا يتوقفون إلا لتناول الطعام .

وعندما ينمو الزرع بالقدر المناسب ، يحين وقت العزق والذى يعمل فيه منشول وأليير جنبا إلى جنب مع النساء ، حيث يزحفون على الأرض ويعزقون بمناجل ذات مقابض خشبية قصيرة . وبما أن المنجل آلة خطرة ، فإن الأطفال لايشاركون فى عزق الزرع .

أن عملية العزق عملية شاقة وتستغرق الكثير من الزمن ، وهى يجب أن تتم مرتين لضمان المحصول الطيب . إلا أن منشول وأسرته تمكنوا من استجلاب المزيد من الأيدى العاملة بأن أعدوا كميات كبيرة من الجعة (المريسة) وذبحوا ثورا لاغراض وليمة العمل التى دعوا اليها أنداد اليير والرجال من الجيران . إلا أن مساهمة الانداد والجيران لم تكن بديلا عن جهد افراد الأسرة حيث يتحتم العمل على كل فرد من أفراد الأسرة .

من العرف السائد أن تعفى الأسرة الشباب حديثى التدشين وبعض المتقدمين فى السن من العمل فى المزرعة لقضاء الوقت فى معسكرات الصيف . اذن منشول لأليير ليذهب مع أنداده الى المعسكر ، إلا أن اليير أختار الانتظار حتى يفرغ من المساهمة فى عزق الزرع ، تقديرا منه لحاجة والده لأيدى الرجال فى العمل . وفى الوقت المناسب ، طلب اليير السماح لبول بمرافقة خاله إلى معسكر الصيف وتمت الموافقة بذلك .

رغم أن بول وأطفالا آخرينَ قد أنضموا إلى المعسكر ، إلا أن المناسبة كانت فى الحقيقة لمن بلغوا سن الرشد . إذ يساعد الصبيان والفتيات على العناية بالماشية وتوفير الخدمات للرجال - ذوى الرفعة والتهذيب - وفى تلك المعسكرات يمارس هؤلاء الرجال الشباب مايسمى « توج » أى الرقاد والخلود الى الراحة ، حيث يشبعون من اللبن واللحم ويقللون

من الحركة بقدر الامكان .. فشغلهم الشاغل هو تسمين انفسهم . ولكن الأثر هو تحسين الأجسام وليس السمنة لأجسادهم الطويلة النحيلة . وخلال فترة المنتجع هذه ، ينظم الشباب الأغاني حول المسائل التى تعنيهم ، والتى تتفاوت بين استرجاع تاريخ أسرهم بتمجيد معالم أساطير أسلافهم وأغانى الحب التى ترمى إلى الحصول على موافقة الفتاة ورضى اقارب الجانبين على عمل الترتيبات اللازمة للزواج المقترح . كما يغنى الشباب تمجيدا لأولئك الأقارب الذين تكرموا باستثنائهم عن العمل فى الزراعة ومدوهم بالأبقار اللبون فى منتجعهم . وهذا النوع من الغناء يعرف باسم « واك » ـ اى « التطهير » . وبانتهاء المنتجع يعود الشباب إلى أهلهم وهم ينتقلون من قرية إلى قرية فى صورة جماعية يؤدون رقصة خاصة ويقدمون أغانيهم .. تقدم الأغانى لأولئك الذين نظمت من أجلهم ، وكثيرا مايحفزهم ذلك إلى الأستجابة العفوية لما طلب منهم فى الأغنية .

لم يفصح أليير فى أغنيته عن طلب واضح ، وإنما كرر التعبير عن الحزن للمأسى التى لاقتها اسرته وأعاد كلمات التمجيد لأعمال أسلافه البطولية ، لأن بقاء الأسلاف يعتمد على الاستذكار الخلاق بواسطة الأجيال اللاحقة .

تقول كلمات اغنية اليير :

عشيرتى نسل من الأبناء المفردين
سلفنا قد كان ابنا مفردا
ووالدى قد ظل ابنا مفردا .
كذاك صرت ابنا مفردا
عشيرة الأبناء المفردين
فلترفعى الاسم الذى به ضاء الطريق
وأرشد الدينكا لدرب الرب
وكيف يحيون معا فى هذه الحياة
ياعجلى الأبرق يا مجاك
فلترفعن قرنيك للسماء
وسوف أعلى فوقك الغناء
مغنيا اسماء من مضى من الآباء
مغنيا كى اسمع الناس بهذى الأرض
مغنيا كى اسمع الاسلاف فى الغبراء والأرواح فى السماء !

انتفع بول بتجربة المنتجع من خلال التصاقه بخاله ، واستمتع بالغناء والرقص ، بما فى ذلك جوانب المأساة والفخر فى اغنيته .. خاله هو . وكأنما اصبح بول نفسه من الرجال « ذوى الرفعة والتهذيب » ، ورغم حداثة سنه ، فقد شارك فى المعانى الجمالية والمسئوليات الاخلاقية لمن بلغوا سن الرشد ونيابة عن الأسر التى يمثلها هو .

من خصائص مجتمع الدينكا انه لا يليق بأم الرجل « من ذوى الرفعة والتهذيب » ان تواصل الحمل والولادة . فبمجرد ان يصبح أكبر أطفال المرأة مستعدا للتدشين اذا كان ذكرا ، أو للزواج اذا كان أنثى ، يجب على الأم التوقف عن الولادة . أى انه يتحتم عليها الامتناع عن المعاشرة الزوجية . كان بول أصغر سنا من أن يفكر بهذا المستوى ، ولكنه عندما حضرت أمه للزيارة بعد عودتهم من معسكر المنتجع ، نظر الى بطنها المنتفخة ثم

ادار نظره بعيدا وهو يبتسم فى حياء لم يفت على خاله ألبير الذى اطلع على خواطره . لدى البالغين العالمين بمثل هذه الأمور ، فقد تأخر حمل الويل عن أوانه ، اذ كان من المتوقع ان تحمل بعد فطام بول بقليل ولكن لم يتحقق ذلك الأمل فورا . أما من وجهة نظر بول ، فهو لم يكن يفكر بجدول زمنى . كل ما كان يعنيه هو أن أمه قد كانت ظاهرة الحمل .
وعندما انفردا وحدهما قال بول لأمه :

- **يامى ، لماذا تبرز بطنك بهذه الطريقة ؟**

اسكتته امه قائلة :

- **لا ينبغى ان تتحدث بهذه الطريقة عن طفل لم يولد بعد لأن ذلك قد يجلب اللعنة ويؤذى الطفل .**
- **هل تحملين طفلا فى بطنك ؟**
- **نعم .**
- **لماذا ترغبين فى الحصول على طفل آخر ؟**

تساءل بول معبرا عن تناقض وغموض مشاعره تجاه ذلك الحدث .

- **ولماذا لا أرغب فى طفل ؟ ألا تريد أخا أو أختا ؟**

قال بول فى محاولة لتغيير اتجاه أسئلته : **هل هذا هو المكان الذى كنت فيه أنا قبل أن أولد ؟**

- **نعم يا عزيزى .**
- **ولكن لم يطلب منى أحد أن أتنازل عن مكانى له .**

لم تكن ألويل تتوقع ذلك القول ، الا انه تحتم عليها أن تجيب :

- **لا يسال الشخص عن التنازل عن مكانه فى رحم الأم . ان الله هو الذى يقرر من الذى يشغل ذلك المكان . لا يعلم إلا الله هل سيكون المولود ولدا ام بنتا .**

حاول بول ان يكون ايجابيا تجاه احتمال الميلاد ، ولكنه فعل ذلك بصورة صبيانية حيث قال :

- **بما انه عندى أخ الآن ، هل تستطيعين أن تخبرى الله بأنى اريد اختا ؟**
- **حسنا ، يمكننا ان نصلى طلبا لأخت ، ولكن الله هو الذى يعلم أحسن ما يمكن ان يعطى عندما يقرر العطاء . أن وجود الطفل فى بطن الأم ليس بضمان ان الطفل سوف يولد . وحتى عندما يولد الطفل ، فانك لا تعلم ماذا يختار الله ان يفعل بعد ذلك - هل سيمنحنى الطفل ام لا .**

قال بول وقد ظهر عليه الخوف بصورة واضحة مما قالته أمه « إنى أريد أن أعيش » كما أن الحديث عن الموت قد تكرر من أقربائه لجهة الأم ، وبخاصة فى أغانى ألبير فى معسكر الماشية . « لا اريد ان ابتعد عن جدى وجدتى ولا عنك انت وابى واخى مديت » .

- ان شاء الله سوف تعيش .
- وماذا عن الطفلة فى أحشائك ، انى أريدها ان تعيش .
- اننا نصلى الى الله لكى تولد الطفلة وتعيش .
- كيف يولد الطفل يامى ؟ هل ستخرق بطنك وتخرج ؟ الا يكون ذلك مؤلما ؟
- من المؤكد انه سيكون مؤلما ..

قالت الويل وهى سعيدة بالجزء الاخير من السؤال الذى مكنها من تفادى الجزء الاول .

ولكن .. لله طريقته فى عمل الأشياء . رغم أن ميلادك كان مؤلماً ، إلا أنك لم تترك جرحاً على جسدى .

لم تطل المدة منذ عودة الويل الى قرية داك ـ جور عندما كان بول جالسا مع جديه قرب النار ذات مساء وجاءهم زائر بالخبر المحزن بمرض الويل . قال الزائر «**كان الناس فى انتظار العراف عندما غادرت القرية هذا الصباح ، ولكن الخوف ألا تعيش الويل ليوم آخر** » .

كان بول أصغر سنا من أن يفهم المدلول الكامل لحالة أمه ، الا انه علم مما قيل ومن الجو العابس والحزن الذى خيم على وجهى جديه أن امه كانت فى خطر كبير ، لم ينم منشول ولا نيانكير تلك الليلة ، بل ولم يرقد منشول على الاطلاق أغلب الليلة اذ كان يجلس ويقول كلمة الصلاة الى الله وإلى أرواح الاسلاف :

ياالله وانتم ايها الأسلاف . ماذا فعلت لأستحق كل هذا ؟ لماذا فقدت مكانى فى قلوبكم ؟ الست انا من دم هذه العشيرة ؟ هل اتت بى أمى من رجل آخر ؟ إن المرء لا يراكم وجها لوجه عندما يخاطبكم ، ولكنكم تسمعون كلمات أطفالكم فى هذا العالم . اذا ماتت ابنتى فسوف يتحتم على أن اتقبل حقيقة أنى لا أملك آباء فى عالم الارواح . اما إذا عاشت ، فسوف أعلم أن كلماتى قد بلغت آذانكم وقلوبكم وسوف اكرم اسماءكم كابن تقى وورع .

غادر منشول منزله قبل الفجر فى طريقه الى قرية داك ـ جور . أرادت نيانكير الذهاب ايضا الا انه اقنعها بالبقاء لرعاية بول حيث اتفقا على تجنيبه مشاهدة معاناة والدته . لم تكن المسافة الى داك ـ جور بالبعيدة حتى على اقدام الرجل العجوز الواهنة حيث وصل الى داك ـ جور قبل أن يحين وقت اطلاق الماشية الى المرعى . وطوال الرحلة كان منشول يصلى ويتحدث مع نفسه . وعندما اقترب من القرية أخذ يراقب الموقف بانتباه ليرى ما قد يوحى عما لحق بابنته خلال الليل . وغمره الشعور بالراحة عندما لم يسمع أصوات البكاء على الموتى . الا ان ذلك لم يكن حاسما ، فربما يكونون قد بكوا فى الصباح الباكر . ولكنه لم ير ما يدل على الإعداد للدفن وذلك من المؤكد من بشائر الخير اذ ان اعداد القبور ليس بالأمر الهين وتظهر دلائله الواضحة .

شوهد منشول وهو يقترب فأخذ فورا الى قاعة المحكمة لمقابلة الزعيم ملينقديت الذى ذهب احدهم لابلاغه بمقدم منشول . ورغم انه كان متشوقا للذهاب الى كوخ الويل ، الا انه يتحتم عند الدينكا على والد الزوجة التزام طقوس الاحترام . لم يكن من اللائق له ان يدخل الاكواخ بدون انذار واعداد لمقدمه . سأل منشول فور وصوله عن الويل وأفيد بأنها على الأقل قد عاشت تلك الليلة . عرض عليه سرير ليجلس عليه ولكنه اعتذر مفضلا الجلوس على وسادة من الخشب المجوف يحملها عادة كبار الدينكا من جيله ويستخدمونها كوعاء ومقعد ووسادة . وجاء اكول ، أخو ملينقديت غير الشقيق ، وذلك بعد أن جلس منشول على مقعده المتواضع .

قال اكول لمنشول وهو يخاطبه باللقب المناسب لوالد زوجة الأخ عند الدينكا .

ـ هذا لا يكون يابى .. كرجل كبير انت تعلم اكثر منى أن الجلوس على الأرض ورفض الجلوس على السرير إنما يعادل الحداد على ابنة لاتزال على قيد الحياة . هذا

على التاكيد امر خطير . ارجوك ان تجلس على السرير .
- يابنى ، لابد من الاقرار بالحق ولو قال به طفل .
اجاب منشول وهو يقف ليجلس على السرير .
بعد ذلك بقليل حضر الزعيم ملينقديت . وتم اكرام الضيف بتقديم الماء حسب العرف ثم جاء دور الترحيب المطول :
- وا - يا والد .
- « نعم ». أجاب منشول .
- هل جئت .
- نعم .
- هل قضيت الصيف .
- نعم .
- والشتاء ايضا ؟
- نعم .
- هل الناس هناك .
- نعم .
- وممتلكاتك ، هل هى هناك ؟
- نعم .
- اذن كل شىء على ما يرام ؟
- نعم .
ثم رد منشول التحية بنفس الطريقة المطولة .
- ويندى - يابنى .
- نعم .
- هل بقيت .
- نعم .
- فى صحة طيبة ؟
- نعم »
وتواصل الترحاب الذى شمل كل ما يهم الناس . ثم أخذ اكول دوره فى التحية وكذلك تبعه آخرون . وبعد الفراغ من التحية والترحاب ، انصرف الاهتمام الى حالة الويل . أفاد ملينقديت بأنها قد قضت ليلتها بصورة طيبة لأول مرة منذ فترة الا انها بكل اسف قد فقدت الطفل .. فقال :
- لقد ولدت الجنين بالأمس بعد وصول العراف الذى اقترح تقديم ثور قربانا ، بمجرد تقديم القربان - ولدت الويل ولدا جميلا ، وقد فرحنا جميعا ، ولكنه توفى فجاة وهو نائم عصر البارحة .
استمع منشول فى صمت . وعندما فرغ ملينقديت لم يقل منشول معلقا على ما حدث إلا عبارة واحدة :
- يين كا .. هكذا ، ذلك هو ما كان .
- نعم ..

قال ملينقديت ذلك مؤمنا بصورة تؤكد واقع الحال .

ظل منشول صامتاً بعض الوقت ثم أضاف .

ـ اشين كي واج ـ ليس هناك ما هو سيء .

فقد شعر بالراحة نوعا ما لأن الويل لاتزال على قيد الحياة ، ويبدو أنها قد تجاوزت مرحلة الخطر من الموت .

وبمجرد اكتمال الاستعدادات ، تمت مصاحبة منشول الى كوخ الويل ودخل زحفا ليجدها جالسة على فراش من الجلد ، وقد اعترتها حالة من الضعف جعلتها مجرد جلد على العظم . وقد ساءت حالتها أكثر لفقدها الطفل . كما أن الجلد الذى كانت تجلس عليه قد لوث بالرماد مما يدل على حالة الحداد عند الأم من الدينكا . وعندما رأت الويل والدها انفجرت باكية وهى تقول :

ـ يابى ، لن يقتلنى شيء بعد الآن . اعتقد انى قد نجوت ، ولكن الذى يؤلمنى هو أن طفلى قد اخذ منى ثمنا لحياتى . كنت ارجو أن يكون الحال هو عكس ذلك ومت انا ليحيا الطفل ..

شعر منشول بالحاجة لتقديم رد ايجابى ، فقال لها فى غضب حنون :

ـ لقد تفوهت بقول طفل . هل سمعت أبدا عن طفل يلد أما ؟ انها الأم التى تلد الطفل ، وليس مجرد طفل واحد وإنما ، ببركة الله ، تلد العديد من الأطفال ، يموت بعضهم ويحيا البعض . لنكن شاكرين انك على قيد الحياة ، ولنصلى وندعو أن تكتمل لك العافية وتعوضى نفسك واسرتك بطفل آخر .

كان منشول مسرورا فى سره لأن صلاته من أجل حياة الويل قد وجدت الاستجابة ، والمطلوب الآن التأكد من استكمالها للصحة . ولأجل ذلك الغرض عليه مواصلة الصلاة .. طلب منشول ماء فى وعاء جديد وعجورة مقدسة وصلى طلبا لشفاء الويل ثم قطع العجورة الى نصفين وقذف بهما الى الهواء . سقط النصفان ووجهاهما إلى أعلى مما يوحى بأن الصلاة قد قبلت وستتم الاستجابة لها . عبر منشول عن امتنانه للآباء من أعلى ومن أسفل ، ثم قذف بالماء على الويل بعد أن باركه بأن بصق عليه . وبعد ذلك انضم الى الرجال لوهلة قصيرة لأنه أراد العودة بسرعة ليطمئن أهله على سلامة الويل . وهكذا ، قبل انتظار الافطار ثم غادر بعد الاكل مباشرة .

بعد عودة منشول قررت نيانكير الحضور الى داك ـ جور ليس فقط لزيارة الويل ، وانما لتمريضها ايضا وبخاصة لغسلها بطريقة تقليدية .. ويعتبر الدينكا أن الغسل المنتظم بالماء الحار ضرورى لاستعادة الشفاء بعد الولادة .

وبما أن ملينقديت قد أخبر منشول أنه يعتقد أن الأوان قد حان لعودة بول إلى منزله ، فقد قرر جداه أن يعود بول مع نيانكير . وهكذا انتهت فترة الفطام لبول ، والتى كانت فترة هامة فى تكوين شخصيته .

ومع أن بول قد فقد بذلك الاهتمام الخاص والتفانى الذى وجده من جديه ، إلا انه تعوض بدلا عنه بالعودة الى الحب والحنان اللذين وجدهما دائما عند أقربائه لوالده . كذلك أعانه على الانتقال الشعور بالاستمرارية بوجود جدته نيانكير فى قرية داك ـ جور . هذا بالإضافة إلى انه قد توحد مرة أخرى مع أخيه مديت .

الفصل السادس

من المحزن أن العناية التى وجدها بول قد تصاحبت مع معاناة اخيه الأعرج مديت . لقد حاول ملينقديت كل احتمالات العلاج لعظم المقعد المكسور عند الأطباء التقليديين ولكن بلا جدوى . وفى نهاية الأمر ، يئس الجميع من أن يروا مديت بدون العرجة المؤلمة . وكونه كسيحاً هو أمر محزن بصورة زائدة عند الدينكا لما عندهم من اعتزاز تقليدى بجمال الأجسام .

من الصعوبة بمكان أن ينشأ الشخص كطفل اعرج فى بلاد الدينكا ، فكل العاب الأطفال تقريبا تقتضى اللياقة الجسمانية ولا يتردد أتراب مديت فى الاشارة إلى عدم لياقته . وكان من المحزن لألويل كثيراً ان تراقب معاناة ابنها من المصيبة التى لحقت به فى تلك الليلة المشئومة . إلا ان مديت على مايبدو قد نمَّى قوة ارادته بصورة تتناسب ومصيبته ، وكان يحاول اداء كل مايفعله الأطفال رغم يقينه انهم سيسخرون منه . وبما انه كان توأما ، فقد كان من المفترض انه تعبير عن الإرادة الإلهية ، لذلك خصصت له ولروح اخيه الغائب اشويل ابقارا مقدسة لايملك والده التصرف فيها . لهذه الاعتبارات الروحية وبحكم عدد الأبقار التى كان يملكها فى تلك السن المبكر فقد كان يحظى بوضع اجتماعى متميز . إلا أن ذلك كان فى نظر البالغين فقط ، اما الاطفال فلم يكونوا يرونه الا كصبى اعرج وينادونه باسم « نقول » وهو الوصف المهين للأعرج او الكسيح .

وذات مساء مقمر ذهب الأطفال إلى اطراف القرية للعب ، وكان مديت وقتها فى العاشرة من العمر . وبعد ذهابه معهم بقليل عاد مديت وقد ظهر عليه من علامات الحزن أكثر من المعتاد وتساءلت ألويل وهى تناديه بلقب «طائر» الذى يستخدمه الدينكا للتوأم : ما الذى يزعجك يا طائرى العزيز ؟

رد مديت وهو يحاول جاهداً أن يمسك دموعه : لاشىء ...

كيف تقول ان كل شىء على مايرام وانت تجاهد لكبت البكاء ، ألا تعلم ان الطفل الذى لايبكى بعينيه سوف يبكى فى بطنه وان ذلك يسبب له مشاكل فى المعدة ؟

وذكرها قولها ذلك كما ذكره هو ايضا بتلك الليلة اللعينة عندما اخذت الويل الطفلين إلى خارج الكوخ بسبب مرض الاسهال الذى كانا يعانيان منه . وعندما طرأ لها ذلك الخاطر كادت ان تنفجر هى بالبكاء الا انها تذكرت ان واجبها هو تشجيع الولد المسكين فقالت : أخبر أمك بالحقيقة ، هل أساء إليك أحد الصبيان الصعاليك ؟.

اخذ ميديت فى الاعتراف بما حدث وهو يبكى :

- كنا يامى نلعب لعبة الاليبوك .. عندما كنت اجرى من صف الأولاد الى حيث تقف البنات ، اخذوا جميعا فى الضحك .. ثم صاح ادول فى صوت عال سمعه الجميع : «انظروا إلى الطريقة التى يجرى بها ، ألا يناسبه حقاً أن يكون من الضباع » . لم أستطع ان اواجه البنات بعد ذلك ، فعدت الى المنزل ، لماذا فعل العرب فى هذا يامى ؟ لماذا لم يأخذونى مع اشويل ؟ لو اخذونى لكنت الآن شخصا سويا رغم انى اسير عند العرب ... كم اتمنى لو اموت ..

ثم أجهش بالبكاء والعويل . استشاطت ألويل غضباً وانتصبت قائمة ثم ذهبت إلى مكان لعب الأطفال وقد قطعت غصناً من شجرة فى الطريق وقالت :

- اين هذا الكلب المدعو أدول ؟

كان أدول هو ابن أكول ، الأخ غير الشقيق لملينقديت .. كان أكبر سناً من مديت ، لكنه اقصر قامة منه ويبدو اقوى عودا . ادرك الجميع ماسيحدث ولم يعرض احد منهم المساعدة . ولكن ألويل رأت أدول فقبضته بيدها اليسرى وأخذت تضربه على الأرداف بغصن الشجرة ، وعندما تمكن من الافلات منها جرى بعيدا تبعته وهى تضربه على الاكتاف وحيثما ادركه السوط . كان ادول يصرخ وهو يهرب نحو كوخ والدته وعادت ألويل إلى منزلها وهى لاتزال تشتعل غضبا . وبعد ذلك بقليل جاءت نياندينق ام ادول وهى تجر ابنها خلفها وصاحت مخاطبة ألويل فى سخرية واضحة :

- ايتها النبيلة زوجة الزعيم ، ليس من الرحمة أن تتركى الشخص على وشك الموت . إليك به ، أرجوك ان تجهزى عليه .. خذيه واقتليه ..

ادركت الويل وهى لا تزال غاضبة ان نياندينق تتحداها للعراك . كانت المرأتان فى عمر واحد تقريبا وقد تزوج اكول من نياندينق بعد زواج ملينقديت من الويل بفترة وجيزة ، وقد كان ابن نياندينق اكبر سنا من مديت .. ليس فقط لأن الويل قد فقدت طفليها التوامين الأولين ، وانما ايضا لأن نياندينق قد حملت بابنها ادول قبل الزواج وهو السبب الاساسى الذى من اجله حفز الناس اكول للزواج منها . كانت نياندينق امراة جذابة اقصر واملأ عودا من الويل ، لكنها كانت ذات حيوية واسلوب مسرحى استعراضى . لذلك كانت الطريقة المسرحية التى قدمت بها احتجاجها على ضرب ابنها جزءا من شخصيتها . وبينما كانت تخاطب الويل اخذت تجمع اطراف تنورتها وتضمها بين فخذيها بطريقة النساء الموشكات على العراك .

استجابت الويل بنفس الطريقة وهى تصرخ غاضبة :

- هكذا اتيت انت ايتها المراة لتلقنينى درسا ، فانا على استعداد لك . اذا كنت تتوهمين ان بطنك الكبيرة هذه والتى حملت سفاحا وانجبت هذا الابن الحيوان سوف ترهبنى فانت مخطئة . لم تولد اى منا فى هذه الاسرة ولكن يعلم الجميع انى حملت بابنى هنا .. أنا لم أمارس العهر لالد كلبا يصف ابن عمه بانه ضبع .

بدات نياندينق بالهجوم واشتبكت المراتان فى صراع يدا بيد وقدما بقدم . اجتمع الناس وتدخلوا للفصل بينهما وهم ينادون عليهما بالتوقف . صاحت احدى نساء العشيرة الكبيرات : الويل .. كيف تفعلين هذا وانت عماد هذه الأسرة ؟ ألا تعلمين أن الزعامة ليست بالأمر المهين ، كيف تتصرفين وكانك زوجة صغرى ؟ انت الزعيمة بين نساء هذه القبيلة وعليك ان تتصرفى كزعيمة .

ووجدت نياندينق آيضا نصيبها من اللوم حيث صرخت المراة الكبيرة فى وجهها .

ـ اليست الويل أمك ؟ ليس العمر وحده هو اساس الاحترام ، كيف تجرئين على رفع يدك على امراة هى اكبر منك مقاما ؟ الا تعلمين انها الزوجة الأكبر فى هذه العشيرة ... لقد ارتكبت خطأ فادحا .

إلا ان الويل ونيادنيق تجاهلتا ذلك النداء وواصلتا الشتائم .

صاحت نياندیق :

ـ اتركونى أريد أن أريها كيف تشعر الأم عندما يعاقب النساء أطفال الغير على اخطائهن .. هل هو طفلى الذى جعلك تخرجين بأطفالك تلك الليلة ؟ لماذا تجعلينه يعانى من مصيبة جلبتها انت على طفلك . أيتها الأم ؟

قالت الويل مستخدمة الكلمة السوقية « لامرأة » عند الدينكا : « أنا أعرف شعورك نحو اطفالك وانت تعاشرين الرجال كما كنت تفعلين حتى تنصبى الفخ لرجل عن طريق الحمل بطفل . أنا لست ككبار القبيلة الذين خدعتهم . لن أسمح لحيلك بأن تنطلى على هذه الأسرة » .

وفجأة سمع صوت اقتراب ملينقديت وهو يقول :

ـ لقد تفوهتين بما يكفى من الألفاظ البذيئة ، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة من أى منكما . لتذهب كل واحدة إلى كوخها .

وخيم الصمت بينهما .. كانت كل من المرأتين تدفع نحو منزلها ، بينما قال ملنقديت :

ـ كل شخص إلى مكانه .

وعاد الهدوء والاستقرار تدريجيا الى قرية داك ـ جور .. ورغم ذلك فقد بدأ صراع خطير . شعر أكول ان الاهانة لزوجته بانها حملت سفاحا اهانة له هو .. فرفض تناول اى طعام يطبخ فى منزل ألويل .. وبما انها الزوجة الكبرى التى تشرف على الخدمات المقدمة من الزوجات الصغيرات فقد امتنع أكول عن أى طعام يقدم من زوجات ملينقديت ، وهكذا امتد الصراع ليشمل الاخوين ايضا .

لاحظ ملينقديت أولا أن أكول لم يتناول الشاى معه صباح اليوم التالى كما هى العادة ، وقرر صرف النظر عن ذلك والبحث عما يمكن عمله . وعندما رفض اكول تناول طعام الافطار وبدأ يعتذر كلما احضر الطعام من منزل ملينقديت ، قرر الأخير طرح الأمر للنقاش واختار لذلك وقتا كان عمهما مجانقديت حاضرا .

قال ملينقديت : ياعمى عندى كلمة بسيطة أقولها لك أنت وكبار القوم الحاضرين هنا . لعلك تكون قد سمعت أن النساء اشتجرن بسبب الاطفال . وكما هو معهود بين النساء ، فقد تمادين وقلن اشياء لا ينبغى أن تقال لأنها تمس شرف الأسرة . يجب صرف هذه الأمور لأنها سفاسف معهودة عن النساء . ولكن بكل اسف ، فقد أخذ أخى الأمر بجدية . لقد لاحظت أنه يرفض الطعام الذى تعده زوجاتِي . إنه شئ خطير أن يحدث هذا بسبب نساء غُريبات عنا احضرناهن إلى اسرتنا لخدمة اغراض اسلافنا . لقد رايت أن أضع هذا الأمر امامكم » .

استدارت الوجوه نحو اكول للإجابة ، وجلس هو دافنا وجهه فى كفيه ، وعندما شعر بانه مطالب بالاجابة تنحنح وأبعد يديه عن وجهه ثم قال : إن اخى محق فى قوله انه لا ينبغى للزوجات أن يقحمن روابط الرحم فى الغيرة المعهودة عن النساء . ولكن ما حدث اكثر من مجرد التنازع التقليدى بين النساء . لقد شككت زوجة اخى فى صحة زواجى وشرعية ابنى عندما قالت ان زوجتى قد خدعتنى وارغمت العشيرة على تزويجها منى . ان هذا اخطر من مجرد شجار بين النساء ، إذ انه إهانة لكرامتى وخلقى . هذا هو السبب الذى من اجله ارفض ان اتناول طعامها . لا اريد ان اورط كل اسرة اخى فى هذا الامر ، ولكن الويل هى زعيمة نساء الأسرة . كيف استطيع التمييز بين طعامها وطعام الأخريات ؟ انا لا استطيع ولا ينبغى لى التمييز بين زوجات اخى .

بدأ ملينقديت بالقول :

- لعله من المناسب ان ارد على ما قاله اكول . إلا أن مجانقديت اعترض قائلا :

- لا ، فنحن لا نريد ان يتحول الامر الى قضية امام المحكمة . لا داعى لحديثك فى هذه المرحلة . على كل حال ، لم يوجه اكول حديثه ضدك ، وما قاله ضد زوجتك يمكن ان يرد عليه الآخرون .

واستدار مجانقديت نحو أكول وهو يخرج التبغ من فمه ويتفل القطع المتبقية فى فمه ثم قال :

- الم تسمع ابدا ان النساء هن اللاتى يقطعن روابط الرحم ؟ نعم ، هن غريبات تركن اسرهن لينضممن الى عشائر ازواجهن . ليس هذا بالأمر الهين . وعموما هن يقمن بواجبهن فى خدمة عشائر أزواجهن خير قيام . ولكن علينا ان نتذكر انهن فى نهاية الأمر غريبات . فاذا اضفنا هذا الى غيرتهن ، علينا ان نتوقع الخطر على تضامن العشيرة . كيف يستجيب رجل كبير مثلك إلى اسباب الفرقة ويخضع لها لدرجة الامتناع عن تناول طعام اخيك ؟ ان هذا خطأ . هل احضرت الويل هذا الطعام من ابيها او امها ؟ وحتى لو احضرت الطعام من اهلها ، هل تغض الطرف عن حقيقة انها هنا لأن أخاك الأكبر ، وهو فى مقام والدك ، قد دفع ماشيتكم ومنها الابقار المقدسة لعشيرتك ، للحصول عليها كزوجة ؟ اليست هى ملككم بموجب الحق المقدس ؟ ام تريد أن تجعلها راس اسرتكم بحيث تقرر تصرفاتها هى علاقاتكم انتم ؟ ان واجبك هو ان تتحكم وتوجه تصرفاتها وليس لها هى ان تقرر طريقة تصرفك انت .

بصق مجانقديت مرة أخرى ثم واصل الحديث :

- وعلى نفس القدر من الاهمية ان تقرر بان الخط الذى اتخذته انت انما تقف فيه مع زوجتك ضد زوجة أخيك . هل تقول بأن زوجتك كانت محقة عندما أيدت موقف ابنها الذى وصف الابن التوام لأخيك الأكبر انه من جنس الضباع ؟ كان ينبغى على زوجتك ان تكون اول من يعاقب ابنها لاستخدامه ذلك الأسلوب عديم الرحمة . نحن نسامحها لأنها لم تسمع الاهانة بنفسها . ولكن عندما رات ان زوجة اخيك قد عاقبت ابنها ، كان عليها ان تتحرى الأمر قبل ان تتخذ موقف المدافع . ما كان لها ان تدافع عن ابنها بطريقة عمياء . انها مخطئة وانت ايضا مخطىء عندما تظهر وكانك تاخذ صفها . بوصفى عمك والممثل للاسلاف فى هذا العالم ، اطلب منك ان تتوب وتشارك فى تناول طعام اخيك .

ظل اكول صامتا ورأسه مطأطأ . ولكن كان من الواضح أن كلمات عمه قد نفذت اليه واخذت تؤدى مفعولها . جاءت امراة بالشاى عندما اكمل مجانقديت حديثه . وقف صبى وتناول الشاى منها وبدأ فى تقديمه للكبار المجتمعين . انتهز مجانقديت فرصة صمت اكول فقال للصبى:

ـ صب كوبا من الشاى لعمك ودعنا نراه ينهى هذا الامتناع غير اللائق ؟

وقتها تدخل ملينقديت قائلا :

ـ ياعمى مجانقديت ، لا اريد ان اخالف كلماتك باى صورة من الصور ، ولكنى اشعر بالمسئولية عن الكلمات الحمقاء التى قالتها زوجتى . اريد ان استرضى اخى باهدائه بقرتين .. وطلب العفو منه . كما اقترح ايضا اذا اراد اخى ان يعفو ويصفح ، ان نساله انهاء امتناعه فى وليمة طقوسية غدا .. وذلك لكى نقدم القرابين الى الاسلاف ونسالهم أن يجمعونا فى الوفاق .

قال أحد كبار القوم الحاضرين .

ـ لقد تحدثت كما ينبغى للزعيم ان يتحدث .

ـ ماذا بقى لأكول آن يطلب أكثر من هذا ؟ اقترح الا نحرجه بمطالبته بالرد . لقد اختتم اخوه الأمر بمنتهى الحكمة .

الا ان اكول قرر ان يتحدث رغم ذلك فقال :

ـ اعتقد انه ينبغى أن اجد الفرصة للاقرار بالحكمة التى قيلت . إنكم ياكبارى وياأخى قد أعنتمونى على الانتباه . انى اقول بانى مدين لأخى باكثر مما عرض ان يقدم لى لانى كنت ساقع ضحية لأساليب النساء . انى اهديه اربع بقرات لارضائه وتحقيق الوفاق معه ، ولكنى اتقبل بكل سرور هديته البقرتين لى كرمز للتعاضد والتضامن المتبادل .

واختتم مجانقديت الحديث قائلا :

ـ انكما الاثنان بحق ابناء اخى ، بمثل هذا الشعور والتفكير ، لا يبقى لنا ما يوجب القلق على مستقبل اسرتنا والقبيلة التى نتزعمها .

وتم دفع مقتضيات الاسترضاء والوفاق وتقديم الوليمة الطقوسية ، وبذلك ظهر أن روح الوفاق والتضامن قد عادت الى الأسرة .

وفى ضحى احد الأيام بعد تلك الأزمة بقليل ، وقد تم إطلاق الماشية للرعى ولكن كانت الخراف والماعز لاتزال مربوطة فى الزريبة . كان ملينقديت جالسا فى جماعة تحت ظل شجرة قاعة المحكمة .

انتصب مديت قائماً من مجلس والده وأخذ طريقه نحو زريبة الماشية ليطلق الخراف والماعز للرعى . وعندما رأى ملينقديت عرجة ابنه تأثر بدرجة أفقدته رباطة جأشه . ومن غير أن يعى ما يقول ، أو حتى يفكر فى أن مديت كان لا يزال على مسمع منهم ، قال ملينقديت متحسراً وكأنه يفكر بصوت مسموع :

ـ يالمصيبة التى حاقت بابنى . احيانا ارجو لو انه لم يولد او انه مات عندما سقط من على ظهر الجواد .

واصل مديت سيره نحو زريبة الماشية وكأنه لم يسمع شيئا ، ولكنه كان فى حالة هياج داخلى . وبمجرد ان دخل الزريبة واصبح منفردا مع الاغنام والخراف انفجر باكيا .

رأت أجاك ، الأخت الصغرى لنياندينق وخالة ادول ، مديت فى طريقه الى الزريبة وقررت متابعته ، مدعية انها قد نسيت أن تحلب بعض الاغنام . سواء اكان السبب شعورها بالذنب من تصرف ابن أختها تجاه مديت ودفاع اختها عن تصرف ابنها ادول ،

ام كان شعورا طبيعيا ، فقد كانت أجاك تشعر بعاطفة ود تجاه مديت . لقد كانت اجاك جميلة بصورة لافتة ، متوسطة القامة سمراء اللون بمقاييس الدينكا .. وقد افترقت اسنانها بالصورة المثالية لجمال الاسنان عند الدينكا . ورغم أنها كانت في مثل عمر مديت ، إلا انها كانت أنضج جسديا من المعهود بالنسبة لعمرها ، مما زاد من جاذبيتها . وبمجرد ان شعر مديت بأن شخصا ما قد دخل الزريبة ، أصلح من حاله ليبدو طبيعي المظهر ، إلا أن انتفاخ عيونه كان يفضح حالته .

قالت أجاك وهي لا تملك الا تبدي حزنها لحالة مديت :

- هل هناك ما يدعو للانزعاج ؟

فقال مديت وهو مصمم على عدم إظهار الحقيقة : **لا ، لاشيء ربما تضايقت عيوني بسبب الدخان في الزريبة .**

رغم ان الأمر كان يبدو أكثر من ذلك ، إلا أن تفسير مديت ظهر مقنعا . وعلى كل حال ، فقد أنقذهما ذلك التفسير من الحرج .. قالت أجاك في محاولة لتفسير وجودها هناك :

- لقد فكرت ان احضر لأرى اذا كانت اي من الأغنام لم تحلب بعد ..

لم يكن من المعتاد أن تحرص فتاة على حلب الأغنام والنعاج بتلك الصورة، لذلك قدر مديت حقيقة الأمر وكان مسرورا لزيارتها للزريبة فقرر عدم التعليق على قولها لشعورها بافتضاح أمرها . قامت أجاك باختيار عدة أغنام على امل أن تجد لبنا يقوي حجتها . إلا انها لم تطل البحث لأنها كانت تفضل أن تتحدث إلى مديت .

- إني آسفة لأني لم أجد الفرصة للحديث معك على انفراد منذ الواقعة المحزنة مع ادول .

اشار مديت بما يوحي بتقديره لشعورها .

- اريدك ان تعلم اني في غاية الخجل من تصرف ابن أختي واختي .. ارجو الا تشملني انا معهما في ذلك التصرف .

- لماذا افعل ذلك وانت لم تفعلي اي شيء مسيء لي ؟

أجابت أجاك بحكمة أنضج من سنوات عمرها : **لعله لايكفي ألا يفعل الإنسان شيئاً مسيئاً .**

فقال مديت بصورة حمقاء : لاأفهم ما تعنين ..

- اعني انه ربما كان علي أن احتج ضدهما وقتها .

وتساءل مديت بمعقولية موازية لنضج أجاك :

- وماذا كان يجدي ذلك ؟

- كان ذلك على الأقل يدلك بطريقة اكثر إقناعا بأني لست في صفهم وانما في صفك انت .

ظل مديت صامتا .. وكذلك فعلت أجاك . ثم قالت وكأنها تحاول تحريك الموقف الجامد . **ربما يكون من الافضل ان اتركك لمواصلة عملك .**

اجاب مديت :

- اريدك ان تعلمي ان كلماتك قد وقعت وقعا طيبا على قلبي ، وباني لن انساها .

خرجت أجاك من الزريبة تاركة مديت يتفكر في دلالات مقابلتهما . لقد كانا أصغر سنا من أن يفكرا في الحب ، ولكن كان هناك شيء ما في رقة ولطف سلوك أجاك وجمالها - مما جعل قلب مديت يخفق بالانبهار . وبينما ظل هو يفكر في أجاك وشعوره نحوها ، اخذ

يحدث نفسه بأن يحول مصيبته الى تعبير جمالى . وقرر ان يشرع فى نظم اغنية ، ولكن بما انه لم يدشن لمرحلة الرجولة بعد ، فإن أغنيته لن تعدو أن تكون لحنا من ألحان لعب الطفولة . وكانت مصيبته هى موضوع الأغنية .

إننى طفل المآسى
عندما اسمع إيقاع الطبول
لست ادرى ! هل انام ؟ ام اولّى ؟
فاذا وليت لا ادرى : االرقص ؟ ام اراقب ؟
وبعجز مثل عجز الضبع اسمته الكلاب العاوية
هل اصد النفس عن سرب البنات
ثم اجثو كى اراقب
فتية الحظ خفافا فى الملاعب ؟
ام على قلب من التصميم اركب
علنى احظى بانظار البنات ؟
لست من يياس بل سوف اقاوم
مثل ليث قد تجرح
مثل جاموس به قرن تكسر

ولكن رغم مجاهدته لتحقيق الاعتبار الجمالى لنفسه كأساس لاكتساب القبول والاحترام الاجتماعى ، إلا أن مشاكل مديت تواصلت .

عندما كان فى حوالى الثانية عشرة من العمر ، شارك فى حفل رقص للأطفال اجتمع فيه البنات والاولاد . وكان طويل القامة ، إلا أن طوله جعل عرجته أكثر لفتا للنظر . فى رقص الدينكا ، يقف الرجال أو الأولاد صفا ثم يبدأون فى الرقص أمام الفتيات . وبعد المراقبة لبعض الوقت لتفحص الراقصين ، تنضم الفتيات الى الرقص ، كل منهن أمام الرجل الذى تختاره . فقد يختار عدد من الفتيات الرقص مع رجل واحد بينما يبقى عدد من الرجال بلا شريك فى الرقص . وبما ان فتيات الدينكا صادقات فى اختيارهن فى عموم الحال ، فإن اختيار أو عدم اختيار الرجل يعكس فى العادة الشعور الحقيقى .

عندما بدأ الأولاد فى الرقص ، انضم اليهم مديت وهو ينشد بصوت مرتفع وكأنه يعوض عن عيبه الجسمانى :

يافتاتى إننى كنز خفى
إن رقصى هو وقف للجميلة
من ترى الكنز الخفى
يافتاتى لا تعيرى السمع للعزال من هذى القبيلة
اتبعينى واقطفى تلك الثمار !

كانت كلماته اكبر من سنوات عمره لدرجة يصعب معها تصديق أنها صادرة عنه . ورغم ذلك ، عندما انضمت للفتيات إلى الرقص ، ظهر الأمر وكأن مديت سيظل وحيدا . كان القمر كاملا ومضيئا واصوات الطبول عالية . وملأ الأطفال ، فى صغر سنهم وبراءتهم ، ملأوا قلوبهم بالأحلام العاطفية . وأوشك مديت على التسليم بقسوة واقع حياة الدينكا عندما راى اجاك تقترب منه للرقص . كانت تبدو فى غاية الجمال وقد لفت قطعة

من القماش الزاهى الألوان حول وسطها وعلقت الحلق بأذنيها والخرز حول عنقها ووسطها . كان مديت قد قرر فى نفسه انه يرتاح لأجاك ، بل ولعله يهواها . ولم يحلم ابدا ان تختاره هو فى مثل هذا الرقص العام . كان يرقص مع أجاك وهذه الأفكار تعبر خاطره . وخلال رقصهما لم يتحدثا بخلاف الإنشاد من جانبه هو ، وكان ذلك هو عرف الدينكا .

ورغم انه كان يأمل فى شعور عاطفى وليس مجرد الشفقة ، إلا أن مديت كان يجد فى صداقة أجاك مصدر قوة ودعم أعانه على التغلب على الشعور بعدم الثقة الناجم عن عاهته .

الفصل السابع

استمرت العلاقة العاطفية الصبيانية بين مديت وأجاك فى النمو . وفى ألعاب الطفولة المختلفة التى تجمع بين الأولاد والفتيات .. سواء أكانت رقصاً أم تمثيلاً لأدوار البالغين ، كان مديت وأجاك ينجحان فى اختيار بعضهما البعض فى فى أغلب الأحوال . ففى ألعاب الأزواج مثلاً التى يمثل فيها الأطفال دورى الزوج والزوجة ، كان مديت وأجاك يلعبان دور الزوجين . وذلك بالطبع بصورة بريئة . وقد يصف البعض صداقتهما بأنها حب عذرى ، ولكن قد يجد آخرون عنصراً شهوانياً فى علاقتهما ، على الأقل بالقدر الذى أزعج كلاً من نياندينق وألويل ، كل لأسبابها الخاصة .

سألت نياندينق معاتبة ذات مساء :

- لماذا تلتصقين بذلك الولد مثل « انوات - طوك - يول » النبات الذى تلتصق حبوبه على اذناب الغنم والخراف ؟ الا يوجد فى كل هذه القرية أولاد آخرون للعب معهم ؟

قالت أجاك وهى مصممة على عدم تفويت أى فرصة لمواجهة أختها : « ما عيب مديت ، إذا جاز لى السؤال ؟ » .

ردت نياندينق : أنت وعيونك التائهة ! ألا تعلمين أن هذه هى الطريقة التى تبدأ بها الأمور ؟ إذا كنت تختارين الأعرج كصديق فى هذه السن المبكرة ، فمن يدرى أين ينتهى بك المطاف عندما تكبرين ؟ يجب أن تدربى عينيك على حسن الاختيار منذ الصغر .

ردت اجاك فى غضب :

- « كيف يمكنك ان تقولى هذا القول اللئيم يا نياندينق ؟ » الا يكفى انك قد سندت تصرف ابنك الطائش تجاه مديت ؟ انى خجلة من تصرفك . وأقول لك الآن انه اذا كانت هذه هى الطريقة التى ستوجهيننى بها فمن الاحسن لى ان ابحث عن التوجيه من الغرباء .

فقالت نياندنيق وقد خرجت عن طورها من الغضب :

- كيف تجرئين على مخاطبتي بهذه الطريقة ايتها الفتاة اللعينة ، لن اسمح لك بمواصلة هذا السلوك العابث تجاه اعرج . لم احضرك هنا لكى تنحرفى وتصبحى فقدا لاسرتنا . اذا لم توقفى هذا التصرف المشين ، فسوف ارسلك الى منزل اهلنا حيث مقامك .

قضت اجاك ليلتها تلك دون أن تنام ، وقد واجهها التحدى . هى بالطبع كانت راغبة فى البقاء حيث يتسنى لها اللعب مع مديت أو على الأقل التواجد بالقرب منه . الا أنها لم تكن لتسمح لأختها بابتزازها .. وهى على كل حال مصممة على أنها لن تبتعد عن مديت ارضاء لأختها بأى حال من الاحوال . عقدت اجاك العزم ، ولكنها قررت عدم اشراك اختها فى قرارها . بدلا عن ذلك ، سعت للحديث مع مديت بأول فرصة . وكأنها تود العودة الى موقع لقائهما السابق ، فقد اختارت اللقاء به فى زريبة الماشية عندما كانت الماعز والخراف على وشك الانطلاق للرعى .

- لقد تشاجرت مع نياندينق . انها تود الا اواصل اللعب معك وقد هددت بارسالى الى منزل اهلى إذا تماديت فى اللقاء بك . انا لا ارغب فى الذهاب ، ولكنى ادرك ايضا انى لو بقيت فانى لا ارغب فى ان اتوقف عن لقياك . لذلك قررت ان اذهب باختيارى الى منزل اهلى بدلا من ان امكن نياندينق من ان تطردنى من منزلها .

سكتت أجاك لترى رد الفعل لدى مديت بينما ظل هو صامتا لبرهة من الزمن. رغم أنه كان يبدو حزينا وهو مطرق ، الا انه لم يكن من الممكن ادراك حقيقة شعوره . وأخيرا قال :

- لقد تشاجرت انا كذلك مع ألويل . هى ايضا تريدنى ان اتوقف عن لقياك .

دهشت اجاك لقوله . لم تكن هى قد افصحت عن اسباب أختها فى معارضة صداقتهما لأنها كانت تشعر بأن ذلك أوضح من أن يستدعى التفسير ولكنها لم تكن تتصور اى سبب لمعارضة أم مديت لصداقتهما ؟

تساءلت اجاك فى تردد :

- هل ذكرت لك اى اسباب ؟

- على كل حال ، انا لا يهمنى ما تقول .

ولكنها أصرت قائلة :

- هل يمكن ان تخبرنى رغم ذلك ..

- لم تكن امى تعترض عليك انت شخصيا ، على ما اعتقد ، وانما تعترض على اختك . لقد قالت انه ليس من الحكمة الاقتراب اكثر من اللازم من امثال اختك .

- وماذا قلت انت لها .

- اوضحت لها انه ليس هناك ما يجمع بينك وبين تصرفات أختك وأنك تخالفينها الراى . هذا بالاضافة لانى قلت لها انى لست بالابن الذى توجهه امه .

- وماذا قالت هى ؟

- لقد ابتسمت وقالت : يا ابنى ، افعل ما يبدو لك . ان اجاك فتاة طيبة . مادمت سعيدا بصداقتك معها ، فهذا هو الذى يهمنى .

اختتمت اجاك الحديث :

- يا مديت ، إنى ذاهبة كما قلت لك . ولكن إذا كانت صداقتنا تعنى أى شىء بالنسبة لك ، فسوف نلتقى مرة أخرى . على الأقل ، فسوف أذكرك أنا دائماً .

ولكن اذا كانت صداقتنا تعنى اى شىء بالنسبة لك ، فسوف نلتقى مرة اخرى . على الاقل ، فسوف اذكرك انا دائما .

شعر مديت بقلبه يخفق ، لكنه لم يفصح عن عواطفه ، واختار أن يعبر عن نفسه من خلال الصمت . وهكذا افترقا فى صمت .

واصل بول اللحاق بأخيه الأكبر بسرعة . ورغم مصيبة مديت ، فقد كان بول ينظر اليه كمثل أعلى ويشارك فى معاناته من عاهته الجسدية . وفى حقيقة الأمر ، كلما استمتع بول بتقدير واعجاب الآخرين له هو زاد شعوره بعجز اخيه . كان يؤلمه أن يسمع اى اطراء يقارن بين مظهره هو وحالة أخيه اذ يبدو له الامر وكأنما كانت مأساة اخيه هى الثمن لكونه هو سوى الجسم . سبب له ذلك شعورا غامرا بالذنب لم يجد له تفسيرا وكلما عجز عن تفسير ذلك الشعور بالذنب زاد تمكنه منه .

وذات يوم ، بينما كان مديت وبول ينظفان زريبة المواشى ، وهما يزحفان فى وحل روث وبول البقر ويرفعان من روحهما بغناء اغانى العمل ، سمعا صرخة حادة صادرة من جهة كوخ والدتهما . لقد كانت قطعا صيحة امرأة تنوح حزنا على موت احد . وتعرفا على صوت والدتهما ، ودون أن يتبادلا كلمة واحدة ادركا غريزيا أن جدهما لامهما قد توفى . مع انهما كانا يعلمان انه كان مريضا وقد قيل أنه قد تحسن بصورة واضحة ، الا أن تلك الصرخة لايمكن أن تعنى الا انه قد خسر معركته للبقاء.

وبدون أن يسألا عن السبب اقبلا من زريبة المواشى ملطخين بروث البقر والبول والعرق ، وهما يبكيان بأعلى صوتيهما . اصبحت كل القرية فى حالة انزعاج وضجيج .. وقد اندفع الناس تجاه كوخ ألويل . ويحاول بعضهم منعها من أن تؤذى نفسها اذ أنها كانت تلقى بنفسها على الأرض تنوح وتنوح .

- اه يا ابى
- اه يا ابى
- اه يا ابى منشول
- اه يا ابى منشول
- لقد مات ابى
- لقد مات ابى
- اه يا امى المسكينة
- يا امى المسكينة
- امى اصبحت وحيدة ، انى اصبحت وحيدة
- اه يا للمصيبة
- يا للمصيبة

وبينما كان الولدان يراقبان أمهما وهى تصرخ فى الم ، شعرا بحالة عميقة من العجز واليأس ، وكأنما تحطم العالم الذى يعرفانه . وتدريجيا بدا نواح أمهما فى الانحسار ومعه بكاؤهما ايضا .

فى تلك المرحلة كانت أمها قد قذفت بكل عقود الخرز ومظاهر التجميل الأخرى التى كانت تتحلى بها ومسحت جسدها بالرماد والتراب كما تفعل المرأة فى حالة الحداد ، واظهرت حالة من الإعياء والانهيار وسط الجمهرة التى احاطت بها . بدت ألويل وكأنها

هى وسيط الموت ، رمزاً ومركزاً للقسوة الأزلية الصادرة عن العالم الروحى لله والآلهه والتى ضربت على البشرية منذ بدأ الخلق .

وبينما تواصل حضور وذهاب الناس وهم يحاولون مواساة ألويل بالكلمات ، جلس الولدان وهما يشاركان فى حزن والدتهما ويمتعضان للكلمات التى كانا يسمعانها تقال لوالدتهما .. فقد تساءلت إحدى النساء الكبار وهى لاتتوقع ردا على سؤالها :

- ماذا يمكنك ان تفعلى عندما يختار الله ان يعذب الشخص ، ولايملك الانسان إلا ان يرضخ لإرادة الله . هل يمكنه مقاومة الله ؟ وهل سيعيد حزنك والدك للحياة ؟ كلا ابدا . لاشك أنك بحق امراة منكوبة فقد عانيت من العديد من الوفيات بين إخوانك وإخوتنا ثم وقعت ضحية لقسوة الغزاة العرب .. والآن ، والدك الذى بقى عزاء لك قد سقط واستسلم لروح الموت . إنها حالة ينفطر لها القلب ، ولكن ذلك هو قدرك . ولايمكنك تغييره ، بل عليك قبوله .

ثم استدارت نحو الولدين وواصلت الحديث :

- اذا انقذ الله ولدك بول هذا فهو سيكون على الاقل بعض العزاء لفقدك .

لم يصدق بول أن يكون إنسان بهذا القدر من عدم الحساسية لشعور الآخرين ، وفى هذه الحالة بالذات شعور أخيه مديت ، وكأن ذلك لم يكف ، كانت المرأة أكثر وضوحاً بقولها :

- اما بالنسبة لهذا الابن الثانى الذى حطمه العرب ، فانا لا اهتم بمجرد ذكره ، فهو ايضا فى عداد الأموات . إن عاهته جزء من المصيبة التى عليك احتمالها ، ولكن بول هذا يكفى ، حتى ابن واحد كاف ليكون مصدر إنقاذ للعشيرة .

لاحظ بول أن مديت قد انصرف وعيناه ممتلئتان بالدموع التى أوشكت أن تنهمر ، نهض بول وتبع أخاه ، ناسيا فى ذلك الوقت أنهما كانا هناك بسبب فقدهما لجدهما ، الرجل الذى أصبح يراه هو كوالده الأكبر بحق . وبطريق مبهمة ، تذكر بول ليلة أخذه جده خارج الكوخ فى المطر وصلى من أجل عافيته . لقد كان بول وقتها مريضا وكان أصغر سنا من أن يدرك الدلالة الكاملة لما يحدث أو أن يفهم كلمات الصلاة التى قالها جده . ولكنه سمع فيما بعد أن جده لم يصل فقط من أجل صحة بول ، وإنما قدم نفسه كفداء لإنقاذ حفيده . وقد أخبره البير أن والده لم يكن يتوقع أن يعيش كثيرا لأنه قد قدم حياته من أجل إنقاذ بول . وبما أن صلاته قد وجدت الاستجابة ، فإن الرجل العجوز كان يتوقع أن يتحقق جانب الصفقة المتعلق به هو أيضا .

ومر شعور بالذنب على قلب بول ، ولكنه أدرك أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله تجاه جده المسكين . بدلا عن ذلك كان يفكر فى مديت . من الاهم والأوجب أن يقدم ما يمكن من الدعم لمديت . ومع مضى الوقت ، ازداد الشعور بالتضامن بين الأخوين بينما اتسعت الشقة بين وضعيهما الاجتماعيين .

وذات يوم ، وقد عاد بول ومديت لتوهما من السباحة فى النهر ، استدعى ملينقديت بول . واصل مديت طريقه إلى زريبة الماشية بينما ذهب بول لوالده الذى وجده جالسا تحت الشجرة فى صحبة رفاقه التقليديين . جذب ملينقديت بول نحوه وعلى وجهه ابتسامة عطوفة ثم أطلق الخبر .

- ياابنى لقد كنت افكر لتوى أن الوقت قد حان لذهابك إلى المدرسة . إنك لاتزال طفلا ، ولكنك قد كبرت بالقدر الذى يمكنك من أن تكون بعيدا عن والديك . هذا مايفعله الأولاد على كل حال عندما يذهبون إلى معسكر الماشية .

لم يكن بول يعلم ما يكفى عن موضوع الذهاب إلى المدرسة ليرد إيجاباً أو سلباً على أقتراح والده . لكن أخرين من الجماعة تحت الشجرة علقوا على الأمر .

ـ ايها الزعيم ، كيف تقول مثل هذا الكلام ؟

ثم بادر احد الكبار قائلا :

ـ هل بول ولد يمكن أن تغامر بمستقبله بهذه الطريقة ؟ الا يفقد الولد الذى يرسل إلى المبشرين ؟ وكيف ترسل ابنا وحيدا للمبشرين وهو امل قومه وقائدهم فى المستقبل ؟

ماكان يعنيه الرجل بالطبع هو إن مديت وهو الخليفة الطبيعى لزعامة والده ، كان غير مؤهل جسمانيا للدور ، مما يجعل بول هو الابن الوحيد المؤهل من ابناء الزوجة الأولى .

ضحك ملينقديت على قول الرجل ، إلا أن احد أعمامه لم يجد فى الامر مدعاة للضحك فقال معلقا :

ـ لاتضحك يا ابن أخى .. من تتوقع ان يتحمل مسئولية القيادة عندما تصبح انت اكبر من أن تتولاها ؟ إن ابنك الأكبر مجرد تذكار لصراعنا المتصل مع العرب . إن القيادة تقتضى العلم بالكلمات الروحية لأسلافنا وليس الكلمات الدنيوية التى يملا بها المبشرون رؤوس الأولاد . لاتدع فكرة الذهاب إلى المدرسة تدخل إلى رأس الولد . إن قومه فى حاجة له .

مع غضب بول من استبعاد مديت ، لكنه لم يقل شيئا إذ كان فى الحقيقة مستغرقا فى الاستماع للنقاش بين والده وكبار القوم . واصل ملينقديت النقاش بقوله :

ـ عسى ايها القوم الجالسون هنا الا تروا حقيقة مايدور حولكم . لقد ارسل كل زعماء الدينكا الذين اعرفهم تقريبا اولادهم إلى المدارس . لماذا تعتقدون أنهم قد فعلوا ذلك ؟ اتظنون انهم يتوقعون ان يتعلم اطفالهم من المبشرين عن الله وكلمات الأسلاف اكثر مما يمكننا نحن آباءهم أن نعلمهم ؟ بالطبع لا .. لقد ارسلوا أولادهم إلى مدارس المبشرين ليتعلموا الكتابة والقراءة وليتعلموا اكثر عن الطب الاوروبى ، وليعدوا انفسهم للعالم الجديد الذى ادخلته حكومة الانجليز على قومنا . هذه اشياء لانعلم نحن عنها شيئا بما فينا الزعماء ، نحن فى هذا كالقوم العمى والصم البكم . كيف نكون قادة مؤثرين فى عالم لانفهمه . إن قيادة المستقبل هى فى أيدى هؤلاء الأولاد الصغار الذين ترونهم يذهبون إلى المدارس . لهذا أريد ان يكون بول هناك . اما عن ابنى الآخر الذى حطمه العرب ، فليس هناك مايمكن عمله ، دعوه يعانى هنا وسط أهله .

ومن الصمت الذى تبع ذلك القول ، ظهر أن ملينقديت قد قدم حجة قاطعة ، وتحدث أحد كبار القوم مؤيدا لما قاله الزعيم .

ـ يا أهل بلدنا . ألا تعلمون أن القائد حتى لو لم يكن متعلماً ، فإنه أبعد نظراً وأكثر حكمة من عامة الناس . إن الزعيم ملينقديت ينظر بعيدا فى المستقبل الذى لانراه نحن ، هذا هو السبب الذى من اجله يجلس هو فى موقع القيادة . وبهذه الطريقة يمكنه أن يقودنا فى الطريق الصحيح ويجنبنا العثرات . أيها الزعيم ، لقد اقنعتنى . برغم ان ابنى لن يكون قائدا ، ولكن بسبب الكلمات التى سمعتها منك ، فانى سوف ارسله إلى المدرسة لاعده للعالم الجديد الذى وصفته انت بتلك البراعة .

واعترضت ألويل على إرسال ابنها إلى المدرسة لنفس الأسباب تقريبا التى ذكرها الآخرون ، إلا أن ملينقديت تغلب على اعتراضها بقوله :

ـ انظرى ايتها المراة ، لقد دفعت انا ابقار اسلاف المقدسة لكى تحضرى انت وتلدى قائدا لقومى . إن بول ليس طفلك ، إنما انت مجرد وعاء استخدمه الله فى توصيله إلىّ وإلى قومى . إنه ابنى ، ابن ابقار الاسلاف وابن القبيلة . لاتعترضى على قولى .

كانت المدرسة الأولى التى ذهب اليها بول هى « نيامليل » إحدى مراكز تعليم المبشرين فى غرب بحر الغزال . كانت نيامليل مؤسسة نشطة تزدهر فيها التعاليم الكاثولوكية بسبب تفانى الدينكا المعهود ، حيث تبعث الحياة فى الرسالة المسيحية من خلال غناء الدينكا الجماعى المميز . كان القساوسة والراهبات الايطاليون يلبسون ثيابهم التقليدية ويزينون كنيسة المدرسة بصور المسيح ، ومريم والقديسين والملائكة . وبالخارج كان الموقع تزينه الأشجار والأزهار براقة الالوان . ورأى بول فى نيامليل رمزاً للجنة التى يعد بها أولئك الذين يتخذون المسيحية دينا . كانت حياة الدينكا التقليدية ودينهم توصف فى المدرسة بالبدائية والتحلل وعدم الاخلاقية ، بينما تستدعى مفاهيم الدينكا للأخلاق والرفاهية لدعم الرسالة المسيحية . كذلك لم ينج الاسلام من الادانة ، فبدلا من اعتباره كأحد الاديان السماوية ، كان يوصف بأنه مصدر شر وتلوث روحى ولايختلف كثيرا عن المعتقدات البدائية للوثنيين الأفارقة ، لا خلاص إلا عن طريق المسيح وكنيسته . تأتى الصورة واضحة وقوية فى الأغانى التى لقنت لبول وزملائه الذين تدينوا بالمسيحية ليغنوها فى الصلوات والعروض العامة .

وطننا نيامليل
مصيفنا نيامليل
قسيسنا من يحفظ النظام فى الديار
ياسيدى ، ياوالدى ، الأرض قد هددها الكفار
الأرض قد هددها « المحمديون »
ماذا ترى النصارى فاعلين
اميل هذى الناحية وروح الشر طالعة
يستقبل الشرق المحمديون
يستقبلون حيث الشمس مشرقة
يا للشقاء !! يا للشقاء !
تلفنا أرواح بائقة
وبعضها عيونها شريرة
وبعضها تصيب بالأسحار
وبعضها أشرار يقلقون الابرياء
الأرض قد تزلزلت
وراسها فى عقدة قد اولجت
وامنا مريم يرهبها الأشرار
عويل فى منتصف النهار
غوثاه ! ياماه ! ياماه !

غوثاه إذ نحارب الاشرار
كما لنا فى هذه الحياة ! كما لنا فى هذه الحياة
كما لنا فى الارض مانهواه

كان أساس نجاح المبشرين المسيحيين مع الدينكا ، كما ظهر من الحجج التى قدمها ملينقديت فى دعم قراره بإرسال بول إلى المدرسة ، وهو الربط الوثيق بين نشر كلمة الله وبين توفير الخدمات الدنيوية للناس مثل الطب الحديث والتعليم . إلا أن نجاح المبشرين كان جزئياً ، إذ أن الدينكا قد تقبلوا الرسالة الجديدة حيث رأوا المصلحة ، واستبعدوها حين تصادمت مع قيمهم الأساسية ورؤيتهم للعالم . وكان هناك بالطبع فارق الأجيال فى رد فعل الدينكا . فى بعض الأحيان ، كان الأطفال يتقبلون الرسالة التى يقدمها المبشرون بينما يصرفها البالغون على اعتبار أنها جزء من عالم الأوهام والأساطير التى تستهوى الأطفال ولكنها عديمة المعنى عند البالغين .

عندما طلب بول الإذن من والده ليتدين بالمسيحية ، تساءل ملينقديت لماذا يرغب ولده فى الانضمام الى دين يقيده هو ، ابن الزعيم ، بالزواج من امرأة واحدة .

اجاب بول شارحا :

- لانه اذا لم يتم للمرء الميلاد الجديد عن طريق التعميد المسيحى ، فان المرء لايدخل منزل الله فى الجنة وبدلا من ذلك ، فان المرء سيحكم عليه ان يحترق فى منزل النار .. الجحيم .

تساءل ملينقديت عن معنى هذه المنازل بعد أن يموت الانسان .

فشرح بول قائلا :

- انه فى يوم المحكمة الكبرى ، سيبعث كل الاموات مرة اخرى وسيقضى بين الناس على اساس اعمالهم فى هذه الحياة . من عاش حياة شريرة سوف يوضع فى النار ، بينما يوضع من عاش حياة الفضيلة فى منزل الله .

قال ملينقديت معلقاً : يالها من أكاذيب يلقنكم إياها المبشرون .

بعد ان يموت الانسان وتاكله افات الارض ، كيف يبعث مرة اخرى ويقضى فى امره ؟ .

صرف بول سؤال والده بأنه دلالة على جهله بكلمة الله ، ذلك هو على التحقيق الجهل الذى تعنيه اغانى المدرسة فى الابيات التى تدعو اساتذتهم الى ارشادهم :

العلم نور .. العلم نور
ياسيدى افتح مداركنا له ، افتح مداركنا له
وعقولنا مثل الصخور وعقولنا مثل الصخور
وعقولنا مثل الثرى وعقولنا مثل الثرى
سنضيئها بشعاع نور
وتصيح فينا الامهات :
ابناؤنا ضلوا الطريق

والأرض أضحت دون ابن

اماه لست بلائمك

إذ انت لاتدرين شيئا ، إذ انت لاتدرين شيئا

هى كلمة الدنيا تجىء

زحفا تجىء من البعيد

وهناك فى الخرطوم طفل

يأتى وينهض ماشيا

ارضيك من بيض البقر

ما أمر اقلامى اذن

ما أمرها بيض الثياب

أصبح الخوف من الجحيم والشوق إلى الجنة الذى يصرفه الكبار غير المتعلمين على اعتبار أنه اوهام الطفولة ، أصبح ذلك حقيقة راسخة عند الشباب الذى اتخذ المسيحية دينا .

ياأمنا البيضاء يا مريم

هيا لبيت الرب فى الأعلى

أواه بيت النار أواه

هذا مكان الحزن والبؤس

علق الزعيم ملينقديت على حديث ابنه بقوله :

- لو افترضنا ان المبشرين محقون واننا معشر الدينكا على خطا ، وان الذين يعمّدون سيذهبون الى منزل الله بينما يذهب غير المعمدين للحريق فى منزل النار هل ستكون سعيدا وانت وحيد فى منزل الله بينما تحترق باقى اسرتك فى منزل النار ؟

ومن وجهة نظر بول كانت تلك هى ايضا حكمة الجهل ، لأنه قد تعلم من المبشرين انه يوم المحكمة الكبرى ، سيواجه الناس الله كافراد وليس كجماعات أو أقرباء . ولا يعتبر أى شخص مسئولا عن خطايا الاخرين .. كما انه لن يكون من الممكن لأى شخص ان ينقذ شخصا آخر من عقاب الله .

ابتسم ملينقديت ابتسامة التفوق الروحى الذى يتمتع به الكبار .. وقال : **اذهب ياابنى ، ليتم تعميدك كمسيحى . على الأقل سوف توفر ماشيتى من ان تدفع للزواج المتعدد عند الدينكا .**

وهكذا تم تعميد بول واتخذ اسما مسيحيا هو الياس .

منذ أيامه الأولى فى نياملبل ، كان مدخل بول الى التعليم نقطة تحول مثيرة ظهرت منافعها بصورة واضحة وإن لم تتحقق كلها منذ الوهلة الأولى .. فعندما عاد الى أهله بعد ان تعلم القراءة والكتابة ، زاد من صيته ظهور ملكاته الحديثه . ومع ازدياد تعليمه ، بدأ والده فى الاستفادة منه فى كتابة خطاباته الرسمية والشخصية ومسك الدفاتر لأغراض الضرائب ، وكل ذلك يؤكد مركزه الاجتماعى بصورة واضحة .

ورغم ذلك ، حرص بول على صحبة مديت خلال العطلات المدرسية حيث كان ينطلق عاريا ويعاود ممارسة أسلوب الحياة التقليدية . ظل بول مولعا بمعسكر الماشية الذى كان

بوالى الذهاب اليه مع مديت . وقد تركت زيارة معينة للمعسكر اثرا قويا لا ينمحى . كان قد بدأ الرحلة تجاه المعسكر ذات يوم بعد الظهر فى رفقة بعض أعضاء المعسكر ، وعندما حل الظلام رأوا ضوء نيران المعسكر ينطلق نحو السماء ، وقد امتزج مع ضوء مغيب الشمس والدخان والغبار . وعند اقترابهم من المعسكر والذى يبلغ الميل عرضا ، لقيهم دوى من نباح الكلاب ثم صيحات السخرية العابثة من الشباب الذين سبقوهم الى المكان . تصايح الشباب كل بعد الآخر « **إنهم يأتون بالمرض إلى المعسكر** » . كذلك كانت روح التعالى والصلف عند أعضاء معسكر الماشية . ولكن عند بلوغهم الجزء الخاص بهم من المعسكر ، وجدوا الترحاب الحنون .

كانت الحياة فى المعسكر فى غاية الحيوية والتنويع ، حيث يسعى الرجال والنساء الى لفت نظر بعضهم البعض من خلال طريقة المشى والحديث والمداعبة والغناء والرقص والمغازلة . وفى كل ذلك ، كانت الماشية تمنحهم تميز الذاتية والتعبير عن الذات والمقام الاجتماعى . وبالنسبة للأطفال ، وبخاصة الاولاد منهم ، كان هذا جزءاً من فنون وخبرات عرض انفسهم بطريقة عنيفة ، وكثيرا ما يتخذ ذلك صورة العراك كنوع من انواع الرياضة . تنمى هذه القدرات فى الشباب كوسيلة لاعدادهم لدورهم الهام كمحاربين والذى يتولونه بعد التدشين فى احدى الفرق العسكرية .

وفى ثانى أيامهما بالمعسكر تأكدت لبول ومديت أهمية « مجموعة الانداد » كوسيلة لتطبيق الوسائل الاخلاقية والاجتماعية لتأديب وتربية الأعضاء . كان الصباح باكرا والماشية لاتزال مربوطة الى أوتادها . اجتمعت جمهرة من الشباب بسرعة خارج المعسكر وأخذوا يتصايحون صيحات الحرب وهم يزحفون تجاه جزء معين من المعسكر . لقد كانوا أعضاء المجموعة الحربية المهيمنة من « مجموعة الأنداد » المعروفين بلقب « التماسيح »، الذين تصادف وجودهم فى المعسكر فى ذلك الوقت . أخذ بعضهم يجرون ويقفزون فى رقصة حربية اسمها « قورا » ، وهم يتبارزون ويطعنون بحرابهم . وعندما اقتربوا من غايتهم التهبت العواطف وارتفعت الحمى إلى القمة . وفجأة ، جرى رجلان نحو ثور جميل المظهر وقد برز قرناه فى اتجاهين مختلفين . فى البداية ، وجه الرجلان حرابهما نحو الثور وكأنهما يستعرضان مهاراتهما الحربية . ثم طعن أحدهما بحربته نحو عنق الثور ، وصوب الآخر حربته نحو قلب الحيوان ثم قذفها . وخلال لحظات ، بدأ الحيوان وقد غمرته الحراب وهو يجاهد عبثا لإطلاق نفسه من مربطه . وحتى بعد أن سقط ، انهال عليه المحاربون بالحراب ، يمزقونه ويقطعون أوصاله بطريقة وحشية تدعو إلى التقزز . وبعد قليل ، بدا الثور وكأنه قد سقط ضحية لهجوم حيوانات متوحشة مزقته إلى قطع صغيرة .. وبعد ذلك أخذ كل من شاء شريحة من لحم الثور ، الا أن هدف العملية لم يكن اللحم وإنما هو معاقبة احد أعضاء المجموعة اتهم بأنه قد أهان الجماعة بارتكاب جريمة السرقة . وذلك بأن استولى على حمل شخص آخر ، وذبحه وسلخه وشوى جزءا من لحمه ليأكله هو . وبعد ذلك عاد ببقية اللحم الى المعسكر وزعم انه قد اصطاد ظبيا فى الغابة . ومع انه قد استوثق من ان بقية اللحم الذى احضره الى المعسكر لم يكشف عن هوية الحيوان ، الا انه كان قد شهد جرمه ولدان عادا فيما بعد الى الموقع ووجدا رأس وجلد الحمل وأخذاهما معهما لدعم روايتهما . وعندما علم الرجل ان أمره قد انفضح وأن البينة ضده قد أحضرت لم يجرؤ على مواجهة أنداده وبقية أعضاء المعسكر . فاختفى خلال

الليل دون ان يخلف اثرا على المكان الذى ذهب اليه . الا أن ذلك لم يؤثر على الطريقة التى تعاقب بها جماعة الانداد المذنبين من أعضائها .

تتم نفس الاجراءات العقابية ضد جرائم مثل الاغتصاب او اى تصرف غير اخلاقى قد ينتهك كرامة الفرد أو جماعة الانداد بدرجة خطيرة . ولم يكن ذلك العقاب وقفا على الأنداد من الرجال ، وإنما تتخذه جماعة الأنداد من النساء أيضاً ضد أعضاء جماعتهن . التى هى جماعة أنداد مكونة من النساء تعاقب أفرادها أو أعضاءها من النساء أيضاً . كان مديت وبول يعلمان عن حادث مشهور اتهمت فيه فتاة بسرقة إناء من القرع مليء بالزبد . فى تلك الحالة قتل « ثور الذاتية » الخاص بأخى الفتاة بنفس طريقة الطعن بالحراب بواسطة أعضاء جماعة أنداد الفتاة اللاتى عاونهن جماعة الأنداد المقابلة لها من الرجال ، كان الثور حيواناً جميلاً محلى بالزينة المعلقة على قرنيه وقد تعلق جرس حول عنقه . لقد كانت عملية مؤلمة للغاية إلا أن الأثر الأسوأ كان على حياة الفتاة نفسها .

فكأنما لم تكن الطريقة التى قطع بها ثور الذاتية لأخيها عقوبة كافية ، فقد جاء رجل الى المعسكر فى اليوم التالى وهو يرتدى الأساور والخرز وقد جعل ريشة على قطعة من القماش حول شعر رأسه ومجموعة من حراب الزينة فى يده اليسرى وعصا غليظة ذات رأس محدودب فى يده اليمنى . وكان هو خطيب الفتاة المفضوحة . ذهب الرجل وهو يغنى وينشد نحو ثور الذاتية الذى سبق أن دفعه كجزء من مقدم المهر للفتاة ، واطلق الثور من الوتد وهو يغنى ، وبذلك أشار الى انه يفسخ خطوبته من الفتاة ويستعيد الماشية التى دفعها كمهر لها :

لماذا لم انذر من قبل ؟ كيف يتوقع الناس منى ان اتزوج من لصة ؟ ليكن اخذى لثورى اشارة لقومى انى انفض يدى عن هذه الفتاة . حتى لو مت فانى لن ادنس شرف عائلتى بدفع ابقار اسلافنا من اجل فتاة مدنسة الاسم .

واصل الرجل الغناء بهذه الكلمات وهو يطلق الثور .

وبذلك اصبح واضحا لمديت وبول أن السرقة من أسوأ المخالفات للعرف الاخلاقى عند مجتمع الدينكا .

كذلك أوضحت هذه الأحداث المثيرة لمديت وبول الأهمية القصوى لنظام الانداد . بعد وصولهما الى المعسكر بيومين ، دعا الاولاد الكبار الى حفل رقص ليلى خاص بالاولاد فقط . وبمجرد ان بدأ الرقص ، صاح أكبر الاولاد وأعنفهم داعيا للانتباه ، فتوقفت أصوات الطبول وساد الصمت . وكان من الواضح انه متمكن من الموقف بصورة تامة . قال الشاب : **كما تعلمون فيما بيننا قادمون جدد وبهذا أعنى بالطبع مديت واخاه الصبى بول .**

وعندما لاحظ المتحدث ان بول قد امتعض لوصفه بأنه صبى أضاف موضحا بقوله :

- انى لا اقصد اهانتك يابول ، وانما اعنى فقط انك الاخ الأصغر ، ولذلك لا يجوز تحديك لاثبات جدارتك لتكون عضوا فى مجموعة اندادنا . اما بالنسبة لأخيك ، فاذا اراد ان ينضم الى مجموعتنا ، وهو فى العمر الذى يمكنه من ذلك ، فعليه أن يقاتل ليجد طريقه الى ذلك . نحن نعلم انه كسيح ولكننا نفترض ان خصيتيه كاملتان وانه لايزال رجلا فى القلب والجسد . ان نظامنا يحتم على الرجل الذى يرغب فى الانضمام الى مجموعة اندادنا ان يختار احدنا للقتال . واذا كسب المعركة او على الاقل لم

يضطر الى الاستسلام ، فانه يصبح مؤهلا للعضوية بينما تعنى الهزيمة ان عليه الذهاب الى مجموعة الانداد الأصغر سنا .

تشكل اعضاء مجموعة الانداد في هيئة حدوة حصان حول مديت الذى دعى لان يختار . لم يكن له أن يقبل العار برفض العرض لأن ذلك يكون جبنا مطلقا . كما انه لم يشعر بانه غير مؤهل لقبول التحدى . كانت مشكلته الوحيدة هى كيف يختار . بالطبع ، يكون من الحماقة أن يختار اعتى واشرس اعضاء المجموعة ، ولكن ليس من الرجولة البحث عن الأضعف . وبينما كان يستعرض أعضاء المجموعة رأى مديت صبيا ذا عين واحدة ولكنه بخلاف ذلك معاق وقوى ، فاختار ذلك الولد للمعركة وكأنه قد وجد أن عاهته هو تعادل عاهة الصبى .

كان الصراع هو الجزء الأول من المعركة ، وبسرعة اشتبكا بينما كانت الجماعة تشجع من غير تحيز مما ادهش مديت . هذا بالاضافة الى ان خصمه اثبت انه مقاتل متمرس كان قد فقد عينه في معركة كما علم مديت بعد ذلك . تمكن الخصم من اسقاط مديت الى الأرض بسرعة ، ولكن اثناء عراكهما على الارض تمكن مديت من التغلب على خصمه . وبعد ذلك رفعهما الحاضرون الى ارجلهما استعدادا للدورة التالية . ومرة اخرى تمكن الخصم من اسقاط مديت الى الأرض . واثناء العراك على الأرض تبادلا المواقع عدة مرات .

وبعد ذلك جاء دور الجزء الثانى حيث يعطى كل من الخصمين سوطا من فروع الأشجار ليضربا بعضهما البعض كما يشاءان . وفي هذا ابلى مديت بلاء حسنا . لم يكن قادرا فقط على تحمل الألم الجسمانى ، ولكنه كان ايضا ماهرا في توجيه ضرباته . وفي هذه المرة بدا أن تشجيع الجماعة كان الى جانبه هو . كانوا يتصايحون : « اجلده ايها الرجل الثور ، اره ان الرجولة ليست في الصلب (عظم المقعد).. هكذا ايها الرجل . اجعله يركع للكسيح . وفجأة ولدهشة الجميع ، ألقى الخصم بالسوط وقبض يد مديت اليمنى ليوقف الجلد ، وتصايح الجميع . « أوقفوهم » وبذلك انفتح المجال للمرحلة الأخيرة التى يستخدم فيها الخصمان أيديهما بحرية في ضرب بعضهما البعض . كانت نوعا من أنواع الملاكمة ، سوى أنه من حق المتعاركين قبض الأيدى أو تركها مفتوحة عند ضرب الخصم على الوجه أو أى جزء من الجسم . وقد عوق صلب مديت حركته كثيرا في هذه المرحلة بينما اظهر خصمه قدرة فائقة على الحركة الرشيقة مما حول المعركة الى مناسبة للترفيه عن المشاهدين . وتحولت الجماعة من الحياد في تشجيع المتعاركين حسب جدارة كل منهما الى مجموعة متحيزة ، تشجع في حماسة خصم مديت .

وبدلا من ان توازى حركات خصمه ، كانت حركات مديت مدعاة للضحك الساخر . صاح أحدهم : «إنه يقفز وكأنه قرد أكثر منه إنسان» . « هذا غير صحيح » أجاب آخر . « إنه يقفز كالضبع أكثر منه كالقرد » .

وعندما سمع مديت تشبيهه بالضبع ، انصرف جاريا وهو يبكى . وظل بول متنازعا بين أن يتبع اخاه او يبقى ويعارك اولئك الذين استفزوه ، ثم ما لبث ان صرخ بعدد من كلمات السباب تجاه الجمهور ـ

- اللعنة على امهاتكم يا ابناء الكلاب .. انه أفضل من اى واحد منكم ايها

الحيوانات . سوف تدفعون ثمن هذا ايتها الكلاب عديمة الرحمة » .

قال عباراته وهو يجرى، خلف أخيه .

اتجه مديت نحو الاحراش بعيدا عن المعسكر . الا ان خبر معركته سرعان ما وصل الى الكبار فى المعسكر الذين خرجوا للبحث عنه فى الغابة ، منادين باسمه واسم أخيه على التناوب . اجاب بول على النداء وتم إنقاذهما واعادتهما الى المعسكر .

سواء أكان بسبب الغضب او الشعور بالاهانة ، فقد مرض مديت بصورة شديدة . وتقرر ارسال الأخوين الى أهلهم حيث كان خبر الواقعة قد انتشر . وعندما استعاد مديت الصحة ، خاطبه ملينقديت قائلا : **كيف تقبل الهزيمة وتجرى وانت تبكى ؟ هل انت اول من يصاب بالكساح فى القبيلة ؟ الم تسمع ابدا عن الرجل المدعو كور اللور الذى كانت له ساق من الخشب ولكنه كان من اشجع المحاربين فى تاريخ القبيلة ؟ الم تسمع عن مالوك كيركو الذى كانت احدى قدميه عرجاء وملتوية وقاصرة عن الوصول الى الارض مما جعله يعتمد على عصا مع قدمه السليمة ؟ لقد كان أيضا رجلا شجاعا ، مغنيا ومحبوبا عند الفتيات . من اين ورثت هذا الجبن ؟.**

ذهب مديت بعيدا عن والده وهو يجاهد للتحكم فى نفسه . وبعد أن اطمأن الى أنه منفرد تحت الأشجار خلف القرية ، انفجر باكيا مرة أخرى . لقد أصبح البكاء هو الرد على الأحداث المتتالية الناجمة عن عاهته الدائمة . وكلما رآه الناس وهو يبكى حط ذلك من قدره فى عالم الدينكا الفخور المتعصب .

كان بعض خصومه أقدر على اكتشاف لحظات ضعفه ووضع الملح على جراحه العاطفية . ويوم ابتعد عن القرية ليبكى من عتاب والده ، ظهر له احدهم خفية من خلف شجرة وفجأة بصوت غير متوقع قال أدول فى صوت يفتعل التقارب والعطف بصورة مخادعة : **أصحيح إنك يا ابن عمى قد أسقطت إلى الأرض عدة مرات وأنك انسحبت من المعركة وجريت وأنت تبكى ؟ .**

دون أن ينتظر ردا من مديت الذى ظل جالسا ورأسه مطأطأ حزنا ، واصل أدول القول : ـ

كنت اظن أن أصحاب العاهات يعوضون انفسهم بطرق أخرى . باى طريقة تعوض نفسك ايها الكسيح ؟.

وكأنما ادخر قواه للحظة المحاسبة هذه ، وقف مديت غاضبا ودفع أدول الى الأرض وجلس عليه وقد وضع ركبتيه على يدى أدول ليمنعه من الحركة وضغط بيديه على عنقه . وجاهد أدول عبثا ليحرر نفسه وهو لا يستطيع اصدار أى صوت وعنقه مخنوق . وكأنما عقد العزم على قتل أدول ، واصل مديت الضغط على عنقه حتى جحظت عينا أدول وتناقصت مقاومته . وفجأة سمع مديت نداء بول له ليتوقف ، ثم شعر بأخيه يحاول أن يسحبه بعيدا عن أدول .

وكأنما كان لأخيه الأصغر نفوذ سحرى عليه ، توقف مديت فورا ثم انتصب قائما مخلفا أدول على الأرض ، جسدا بلا حياة .

وصاح بول : **إنه ميت ، لقد قتلته ، ماذا نفعل الآن ؟**

لم يجب مديت إلا بقوله : إنه يستحق ذلك .

كانت لدى بول ثقة طبيعية فى تقدير أخيه للأمور رغم أنه لم يجد ما يمكن ان يبرر قتل ادول . وهو كان يعلم على كل حال أن ادول يستنمر على من هو أضعف منه ويقدر على تسبيب الاستفزاز للآخرين كما دلت على ذلك الواقعة السابقة التى بدأها ادول وكادت أن تؤدى الى انقسام الأسرة . لذلك لم يرد بول حتى مجرد البحث فى دوافع المعركة . كان همه الأول هو ما سيحدث بعد ذلك وما ينبغى عمله ، هل يسرعان لإخطار كبار القوم أم يحاولان ابتداع رواية تغطى ما حدث وتحمى أخاه مديت ؟

وبينما هو يفكر فى الأمر ومديت لا يزال يلهث من الغضب بدأ أدول يتحرك ويتنفس ، صرخ بول بانفعال :

« **إنه حى** » ثم ركع إلى جوار ابن عمهما الذى عاود الحياة وأخذ يهزه بعنف منادياً :

« **أدول ، أدول ، استيقظ ، هيا أصحو** » .

فتح أدول عينيه ببطء وبدأ ينظر حوله وكأنه يسترجع ما حدث . ظل مديت واقفاً وهو ينظر بعيدا وكأنه لا يعبأ لعودة أدول الى الحياة . وظهر أن أدول استعاد وعيه تماما والم بما حدث . ولعله قد تذكر تصرفه المهين تجاه مديت وقرر بما أنه لم يؤذ بصورة واضحة ، فأحسن ما يمكن هو تقليل ما يقال عما حدث . وقف ثم ذهب الى مديت ووضع يده اليمنى على كتفه وقال :

- **يا ابن عمى ، اعف عنى . انى مخطىء واعدك الا يحدث هذا مرة أخرى .**

نظر اليه مديت وعلى وجهه ابتسامة صفح . وتصافحا بالأيدى وأخذا يضحكان بصورة شديدة ، وشاركهما بول بالضحك .

ولدهشة ورضاء الجميع ، أصبح أدول ومديت بعد ذلك أصدقاء مقربين ، رغم أن مديت ظل يعانى من التحيز الاجتماعى . ولم يكن ذلك صادرا عن سوء قصد . وفى الحقيقة ، كان أغلب الأمر انعكاسا طبيعيا لشعور الدينكا تجاه العاهة الجسمانية . سواء أكان الشخص أعمى أم كسيحا أم مختل العقل أو يعانى من أى شذوذ آخر ، فإن المجتمع يجعله دائم الشعور بذلك القصور بصورة لاذعة ، رغم أنه يجد العناية كذلك .

وكلما زادت السخرية على مديت زاد حقد بول على العرب لأنهم سببوا لأخيه تلك الاهانة ، وكان لا يزال يشعر بالذنب لكماله هو جسمانيا بالمقارنة الى أخيه . وكلما شعر بالذنب تعمق شعوره بالكراهية للعرب وأصبح همه الشاغل .

كان الوقت وقت ندرة قبيل موسم الحصاد عندما أتى التجار العرب الى بلاد الدينكا وقد حملوا الذرة على ثيرانهم لاستبدالها بالماشية والخراف والغنم . كان السلم النسبى قد استتب بين القبائل مما جعل التجارة تتم بلا عنف . إلا أن الشعور العدائى كان لا يزال سائداً بين الدينكا والعرب . صاحب مديت وبول وأدول والدتيهما لاستبدال عجل بالذرة .

وبينما كانوا يحاولون شق طريقهم فى الزحام صاح التاجر العربى للناس بالابتعاد .. ثم اختار مديت من بين الحضور وصاح فيه .

- أنت أيها الأعرج ، ارجع الى الوراء .

ورغم أن التاجر استخدم فقط الكلمة العربية الشائعة لوصف العاهة ، إلا أن مديت وأخاه وأدول استشاطوا غضبا . وبلا انذار ، انهالوا على العربى ضربا وركلا وهو يصرخ

طلبا للعون . وخلال دقائق معدودة تصايح الدينكا « **لقد انهار السوق** » وهى عبارة تعنى انه لكل من أراد أن يأخذ ما يشاء .

وعندما انتهى الأمر ، كان العرب قد فقدوا كل الذرة والحيوانات التى احضروها ، إلا انهم لم يؤذوا جسديا . وكان ملجؤهم الوحيد طلبا للعون هو الزعيم ملينقديت الذى نجح فى إيجاد حيواناتهم وإرجاعها لهم . كما انه جمع عددا اضافيا من الماشية من القبيلة ودفعها للعرب عوضا عن الذرة التى فقدوها .

تجاوز شعور بول بالاعتراض على العرب مجرد الغضب لفقد أخيه أشويل والاهانة التى أوقعوها بمديت . لقد فتح التعليم عينيه لصور من عدم العدالة التى فرضتها الحكومة المركزية على الدينكا تحيزا للعرب . رغم أن الرق قد أصبح غير مشروع ، إلا أن العرب كانوا يحتلون موقعا متفوقا يجعلهم ينظرون الى الدينكا باحتقار كجنس دونهم فى الدرجة وانهم يستحقون بأن يوصفوا بأنهم عبيد رغم أنهم كانوا أحرارا فى واقع الحال . ونتيجة لذلك زاد وعى بول السياسى وأخذ يؤدى دور المرشد السياسى لأهله .

وكلما زاد تقدير بول لصفاته المميزة حسب المعايير الحديثة ، كلما وضع نفسه دون موقع أخيه الكسيح الأمى . ولكن مديت كان فى الحقيقة شخصا عاجزا يستحق الشفقة والمساعدة ولا يليق اتخاذه نموذجا ومثلا أعلى للغير . كان بول يعلم ذلك ولكنه لم يرغب أن يتقبل الأمر الواقع ، مما خلق صراعا وتوترا فى نفسه .

وربما زاد من تعاطف بول مع مديت أنه لم يكن لديه اخ أصغر . عندما حملت ألويل مرة أخرى واكملت فترة الحمل ، ولدت طفلة ميتة . ومما زاد من وقع الصدمة أن ألويل فقدت أمها قبل ذلك بقليل . وبعد تلك المصيبة لم تقدر ألويل على الحمل مرة أخرى . تم استدعاء العرافين لتشخيص أسباب عقمها ، وعرضوا نظرياتهم ووصفوا تقديم القرابين من الحيوانات ولكن بلا جدوى . وقد قيل أن لعنة العرب التى سببت صعوبة ميلاد بول هى المسئولة عن عقم ألويل وتم تحديد طرق ازالة اللعنة ولكن بلا جدوى . وفى نهاية الأمر تقبل ملينقديت وألويل مصيرهما فركزا حبهما وعاطفتهما تجاه بول وكأنهما يعوضان نفسهما بذلك عن فقد أشويل وعاهة مديت ..

سمع بول أن أمه قد نظمت أغنية عن مصائبها ، ولكنه لم يعلم حقيقة محتوياتها حتى غناها أحدهم عندما كان بول يشاهد رقصة للنساء .

يجىء العام وأدفن طفلا
يجىء العام وأدفن طفلا
لقد حلت علينا لعنة البوم القديمة عندما جلست
بكوخ «ألويل» مولولة :
ألويل ، بنت الرجل الأسود
عند الفجر توارين الثرى طفلا
لقد اصبحت كلبا اسود فى أسرة الشيخ
تعايننى السواحر وهى تسخر بى :
« وذاك الأسود الكلب بلا ألوان »
أيا قومى ، أنا لم آكل الأطفال
ومن صنعت لروح الموت امهم طعامهم

اولئك لا يموتون
عشيرتنا غدت دوما من الهلكى
ومنذ بداية الخلق
تصب عيوننا ابدا دموع الموت
اطفل النحس ! لحكم الهك استسلم
انا لابد ان امشى ! انا لابد أن أذهب
الى برية الحيوان
اناس قبيلتى مهلا ! كفى لوما !
فإن الأم تبقى دارها أبدا لمن ولدت من الأطفال
اخى البير ! أخى ألبير
جلبت اليك سوء الحظ
ايا ملك ! ايا شيخى مالينقديت
هوت فى القبر ـ قبر النحس ـ
ابقار مقدسة
الا يالعنة البوم القديمة !

بينما واصلت النساء الضرب على الكفوف والرقص مع ايقاع اللحن انسحب بول إلى زريبة ماشية خالية وأخذ فى البكاء حزنا على الثقل المأساوى الذى تحمله أمه فى المجتمع ، ولكن خففه عليه أنه على الأقل لم يرد شىء فى الأغنية عن مصيبة مديت أو اشارة الى أن بول هو الأمل الوحيد لبقاء العشيرة .

الفصل الثامن

رغم أن مديت كان أصغر سناً بقليل من ابن عمه أدول ، إلا أنهما كانا فى أواسط العقد الأول من عمرهما ، وبذلك أصبحا مؤهلين للتدشين كأعضاء فى مجموعة أنداد واحدة . تم اختيار أكول والد أدول كأب روحى لمجموعة الأنداد . وبطريقة ما ، كان مديت يرى فى التدشين فرصة لتحرير نفسه من الوصمة الاجتماعية بالتحول بصورة من الصور من شخص كسيح إلى رجل من أسياد القوم ذوى الشأن ـ من صفة «نقول» إلى صفة « أدنيق » عند الدينكا ـ وبذلك يجد الاحترام . وهكذا ، رغم أنه كان بالكاد فى السن التى تمكنه من أحتمال عملية التدشين المؤلمة ، فقد تمكن من أقناع والده بأن يسمح له بقيادة مجموعة الأنداد إلى العملية . فهو على كل حال قد كان الابن الأكبر للزعيم . وبذلك هو المؤهل لقيادة مجموعته . وكان هذا يعنى أن يكون هو أول من يرقد على الأرض لتوضع عليه علامات التدشين .

كان الزعيم ملينقديت يشعر بالتنازع ، فمن جهة كان يريد أن يقود ابنه المجموعة وذلك حقه وواجبه بوصفه أكبر أبناء الزعيم سنا . ومن الجهة الأخرى ، فقد كان يدرك أن ابنه كسيح وقد تعرض لتجارب نفسية مؤلمة بسبب تلك العاهة مما جعل البكاء مثل الطفل حالة ملازمة له لدى الأزمات حتى عندما تقدم نحو سن الرشد . وهو ، بالاضافة لذلك ، قد كان أصغر سنا من أن يحتمل ألم التدشين . هل سيصبر على محنة الألم ؟ يالها من فضيحة لو أنه بكى عند إجراء العملية . وأخيرا قرر الزعيم ملينقديت اجراء الطقوس ولسان حاله يقول « **حتى لو مات أثناء عملية التدشين ، من المناسب أن يقود ابنى المجموعة** »

سميت مجموعة انداد مديت باسم « ايتر » اى الصراع ، كناية عن الغارات المأساوية التى يقوم بها العرب والتى أدت إلى فقدان الابن التوأم أشويل وعاهة مديت . وقد أظهر مديت قدرا مدهشا من الشجاعة عند اجراء الطقوس . فقد طلب السماح له بأخذ بعض الوقت اثناء العملية الدموية لينشد أناشيد الشجاعة والشرف أمام عائلته وبقية المشجعين . وهكذا ، بعد أن وضعت علامات التدشين المؤلمة على نصف جبينه ، سمح له بالوقوف والدم ينهال من وجهه ، وهو ينشد أبياتا نظمها هو بنفسه واستذكرها لهذه المناسبة :

ابن الشيخ الاكبر لاترهبه السكين
حتى لو سالت اوردتى كالخزان
لن اقبل عار بقائى طفلا
شوقى أن أصبح رجلا خلف الفتيات
حتى لو مت فلن يلحق عائلتى عار
لا لن يلحق عار بشيوخ الامة من مهد الخلق
استقبل تلك السكين بعين لاترمش
فاذا رمشت عينى اذبحنى
لامت أن عيرت قبيلا ذا عز أبدى !

وعاد جسده مبللا بالدماء ورقد لاستقبال باقى علامات التدشين . وفجأة ظهر صوت امرأة وهى تنشد بصوت عال . لقد كانت أجاك ! دون علم مديت ولا أفراد أسرته ، فقد حضرت أجاك من قريتها لمشاهدة هذا الحدث الفريد . وفى صوت جميل يعكس جمالها هى ، غنت فى انطلاق لايتيسر لدى الدينكا إلا فى الغناء .

ابن الشيخ يسير هناك ليستلقى ثانية
رجلى راس القوم صميم لايتردد
نرقبه فخرا إذ يستلقى بين القوم
واغنى للحرية كى امنح ودى سيد قلبى
ماعاد صغيرا يتخطى
رجلا قد صار
ماعدت فتاة تلزم بالصمت
انى امراة تجرى خلف فتاها
حتى لو مت هو سيد قلبى
من غمرت قلبى بالعز وبالفرح شجاعته !

لقد كان ذلك أمرا خارقا ومعجزة دالة على القيادة المقدسة التى يملكها اسلاف مديت . لم يكن من غير المعهود أن تبدى فتاة السعادة لتدشين حبيبها ، ولكن اجاك كانت على التحقيق مفرطة فى تعبيرها عن سعادتها . ماذا يعنى كل هذا فى الواقع العملى ؟ هل تقدم لها مديت طلبا للزواج ؟ وهل قبلت هى ؟ لابد أن يكون هذا هو معنى إعلانها . ولكن ماذا كان رد فعل الأسرة ؟ لم يكن احد يعلم .

وهكذا تمت عملية التدشين على أحسن ما يكون ، وقدم والد مديت الثيران للاحتفال ولعبت أجاك دور الفتاة المفضلة الحبيبة . ولكن لم يكن احد يعلم مايعنى كل ذلك . هل سيتزوجها مديت ؟ وهل تقبل هى الزواج منه ؟ لقد كان السؤال الأخير هو الذى يشغل

الناس اكثر وهم يشاهدون الطقوس والاحتفالات .

كانت مرحلة الاستشفاء هى اكبر مراحل الاحتفال بالنسبة للذين تم تدشينهم وهم يطعمون جيدا بالطعام المغذى ويتمتعون بحرية لاحدود لها وقد سكروا بالسعادة القصوى بسبب ترقيتهم من أولاد إلى أسياد . كانوا يغنون أغانى الشجاعة واحترام الذات وهم يحملون عددا من أعواد الذرة كناية عن روح التدشين ويستعرضون السيطان الطويلة وهى السلاح الوحيد المسموح لهم بحمله فى هذه المرحلة ، يشبعون من الطعام ويرقصون رقصة التدشين البطيئة الحركة وعموما يعيثون فسادا فى أى منزل يشرفونه بأدائهم . إنها مرحلة يكاد الانسان أن يود البقاء بها ولا يتجاوزها لولاأنه بعدها تأتى مرحلة الاحترام الأكبر وهى مرحلة الرجل السيد كامل السيادة .

تم الاحتفال بالتخريج لتلك المرحلة المتقدمة بليلة كاملة من الرقص والغناء أنتهت بمطاردة وهمية من مجموعة الانداد الأكبر منهم للذين تم تدشينهم حديثا نحو النهر ليعبروه سباحة ويخرجوا على الضفة الأخرى وهم رجال قد دخلوا مرحلة « ادينق » أى مرحلة الأسياد الذين تجب لهم كل فروض الاحترام الواجبة للمحاربين الشباب . وفى ذلك الوقت يقوم الأقارب والمعجبون « باطلاق » المدشنين وذلك بإهدائهم الحراب وثيران الذاتية او أى شىء آخر يدل على قيمة النضج .

«أطلقت» أجاك مديت بإهدائه الصداقة ، وهى هدية خاصة تعبر عن مرحلة متقدمة من العلاقة العاطفية التى تنتهى فى الغالب الأعم بالخطوبة الرسمية ثم الزواج . كان مديت فى غاية الفخر بتلك الهدية وعبر عن قوله بأغنية وجهها الى أجاك :

الحلو الأسمر
الحلو الأسمر يامن ادهشت قبيلتنا
اتلقى ودك جائزة نادرة
جائزة نادرة ندرة سن الفيل العملاق
ندرة عسجد تيجان ملوك وملكات اوروبا
اسالك تحيل صداقتك خيوطا
يرقصها فى فخر عجل الابرق
عجل المولود الأول لماليتقديت
اسالك تحيل صداقتك الى باقة أجراس .
منها يقرع عجل الابرق اجراس نحاس قبيلة جركل
كى يعلن مجد صداقتنا
صداقة بنت وابن النبلاء
اجاك ، لن اتركك بتاتا
حتى لو حملوك الى البدر
ساطير والحق بك
حتى لو حملوك الى الشمس
ساطير اليك لنحترق سويا
اجاك ،
هيا كى نوفى عهدا منذ طفولتنا قد صغناه
هيا نصبح رجلا وامراة ابدا متحدين

كانت الأغنية هى اعلان لنية مديت ان يتزوج من اجاك ، ولو قبلت هى فسيتم الاعلان الرسمى للخطوبة . ولكن لنفس السبب كانت الأغنية دعوة للمنافسين ليبرزوا للتحدى . وفعلا برز للتحدى نفس الصبى ذى العين الواحدة الذى تصارع معه مديت من قبل فى معسكر الماشية . كان مديت يعرف الصبى باسم « ليث » أى الصقر ، وهو اسم يتناسب مع شهرته كمحارب . كان ليث الابن الأكبر لأحد النبلاء الاغنياء ولذلك كان على استعداد « لشراء » أجمل النساء لابنه ذى العين الواحدة . لكن والده لم يشأ أن ينافس ابنه ابن الزعيم ، اذ قد لا يقدر على النهوض بواجب ذلك المستوى فى المنافسة . لذلك حاول والد ليث إثناء ابنه عن المنافسة ، ولكن بلا جدوى . واختار ليث أن يتحدى خصمه بأن يحاول استمالة الفتاة عن طريق التودد والمغازلة . تتم اجراءات الزواج عند الدينكا على مستويين : تجرى الإجراءات القانونية والاجتماعية عن طريق كبار القوم بينما يعتمد الحصول على موافقة الفتاة على التودد والمغازلة التى يقوم بها العريس بمعاونة انداده وأصدقائه واقاربه .

كان بول صبيا قد تجاوز العاشرة من العمر بقليل عندما دعاه أخوه مديت قرب نهاية عطلته المدرسية لأن ينضم له ولأصدقائه فى رحلة تودد وغزل لأجاك . وبما أن بول لم يتم تدشينه بعد ، لم يكن لدى الدقة سيداً مؤهلاً لمصادقة ومغازلة الفتيات فى عرف الدينكا . ولكن بما أنه كان متعلما مما رفع من قدره الاجتماعى ، فقد جازت معاملته كصبى أكبر سنا من عمره الحقيقى . كما أن بول كان حريصا على فرصة تسمح له بتجربة الغزل القبلى وهو قد بدأ يبتعد (بحكم تعليمه وسفره) عن ثقافة الدينكا .

تناول مديت وجماعته عشاء مبكرا وساروا لعدة ساعات ليصلوا الى قرية أجاك قرب وقت النوم . كانت أجاك قد علمت بمقدمهم مسبقا ودعت بدروها عددا من الفتيات الصديقات لمصاحبتها مع الزوار . كان هذا متوقعا فى مواقف المغازلة وخاصة عندما تكون العروس قابلة لعرض الزواج .

عندما وصلوا إلى منزل أجاك وقفت المجموعة المكونة من ستة شبان ، الاخوين وأربعة أخرين ، على البعد واقترب أحدهم من مجموعة الفتيات اللائى جلسن يتحدثن امام أحد الأكواخ القريبة . كان من الواضح أنهن كن يتوقعن حضورهم . بعد أن تنحنح ليلفت نظر المجموعة ، قال بول :

ـ هناك رجل يقف هنا ...

العبارة المعهودة فى هذه المناسبة ، استوثقت احدى الفتيات من تلك الحقيقة ثم فرشت حصيرتين طويلتين لجلوس الضيوف . حضرت أجاك وحيت الزوار ، وحسب العرف ، تظاهرت بأنها لا تعلم سبب حضورهم .

وعلق مديت مداعبا :

ـ انك لن تستطيعى مواجهة هذه المعركة منفردة . أرجو أن تكونى قد اعددت قواتك .

اجابت اجاك بقولها :

كانت عندى فكرة انك قد تحضر ولكنى لم اعلم ماذا اتوقع .

[بادر بول بالحديث قائلا :

ـ لابد من المواجهة حتى لو كان الهجوم مفاجئا .. فليس لديك الخيار .

قال أحد أصدقاء مديت :

ـ لكل ضيف غرض وحسب عادة أهلنا لا يطلب من الضيف الافصاح عن غرضه وهو

واقف او جالس خارج القرية . يجب الترحيب به اولا واستضافته .

كان يرمى الى الاستضافة داخل الكوخ لان ذلك يكون أدعى للمغازلة .

ـ ان الكلمات هى الكلمات لو قيلت فى الهواء الطلق او فى ظلام الكوخ .

بذلك اظهرت اجاك مظهر معارضة مفتعل للاقتراح الضمنى بادخال الزوار الى الكوخ .

تدخل صديق آخر لمديت فقال :

ـ يا اجاك ، نحن ضيوف ولا يجوز ان تتركينا فى الخلاء . وانما يتحتم عليك ان تقدمى حجتنا لأصدقائك فى القرية حتى لايطرد ضيوفك .

واضاف بول فى صورة استجلبت الضحك :

ـ من الافضل اذن أن تسرعى بالذهاب لادراكهم قبل ان يناموا .

اجابت أجاك بقولها :

ـ مع كل هذا الاصرار لا أملك الا ان انظر فيما يمكن عمله . ولكن لا تدهشوا اذا لم تجدوا سوى فتاة واحدة مغلوبة على امرها .

فقال أحد الرجال معلقا على ردها :

ـ اذا كانت عندك الثقة لتقاتلى منفردة فسوف نقبل تحديك .

غابت أجاك فترة بدت طويلة لدرجة ازعجت الجماعة الزائرة بأن خللا ما قد حدث فى الخطة . كانت القرية وقتها هادئة ومفترض أن الجميع نيام . ثم راوا شبحين مقبلين مما سبب لهم السرور . لكنهم تساءلوا : **الم تتمكن اجاك من ايجاد اكثر من فتاة واحدة لترافقها ؟** دب الشعور بخيبة الأمل فى عقولهم وقلوبهم من تلك الخاطرة . ولكن عاودهم الشعور بالارتياح عندما أخبرتهم أجاك بأن الفتيات قد وافقن وتم اعداد كوخ خال فى أطراف القرية وجاءت هى وصديقتها لصاحبتهم الى ذلك المكان . حملت الفتاتان الحصيرتين وقادتا المجموعة نحو الكوخ الذى بدا مهجوراً وقتها إلا ان كل ذلك كان جزءا من المغامرة الليلية . وعند الاقتراب من الكوخ سمعوا الضحك الخافت من الفتيات الأربع الأخريات . وفجأة خيم الصمت على الفتيات عند سماعهن لأصوات اقتراب الضيوف .

كانت أجاك وصديقتها أول من دخل الكوخ وهن يحملن الحصيرتين لإعداد المجلس . كانت هنالك نار صغيرة انارت الكوخ بصورة رومانسية خافتة . وعند دخول الجماعة الى الكوخ استقبلهم جو من الجدية . ثم جلس الجميع استعدادا لليلة كاملة من حديث التودد والمغازلة ، والذى بدأ بالتعارف وذلك بذكر اسم الشخص واسم الوالد والعشيرة والجزء من القبيلة . ومع تقدم الليلة ، تواصل الحديث وهم مستلقون على الأرض حيث رقد كل شاب وشابة معا على الحصائر ، واخذوا يلمسون ويداعبون بعضهم البعض فى حدود اللياقة . فى تلك المرحلة اخذ الحديث صورة الفكاهة والبراعة اللغوية الشاعرية . والغرض من ذلك هو خلق روابط بين عروس وعروسة المستقبل . ورغم ذلك لم يكن من الممكن قول اى شىء بصورة مباشرة ، وتحتم إخفاء كل شىء فى غلاف المداعبة الغزلية .

قال أحد الرجال بصورة مسرحية :

ـ هل نتوقع وجود قطيع من الخراف فى نفس الزريبة مع اسود ولا يحدث شىء من الجروح .

فردت عليه إحدى الفتيات قائلة :

ـ وهل تتوقع الاسود ان تنجو دون رد العدوان من جانب اصحاب القطيع ؟

فعلق أحد الرجال على قولها :

ـ ولكن كيف تمكنت الأسود من دخول الزريبة ابتداء .

ودعا تعليقه احدى الفتيات أن تقول :

ـ ان روايات الدينكا مليئة باخبار الناس الذين تم استقبالهم واكرامهم ثم تحولوا الى اسود كاسرة تستحق الطرد كالوحوش .

قال بول : لقد اوشك هذا الحديث على الخروج عن الطور . لماذا لا نستبدله بالحديث بقصص الاسود والثعالب .

رات احدى الفتيات الحكمة فى حديثه فقالت موافقة :

ـ هذا صحيح . لماذا نفكر فى حملان عديمة الحيلة لا تملك الا ان تسقط ضحايا للاسود ؟ ماذا عن حيوانات قادرة على الدفاع عن انفسها بذكائها رغم ضعفها الجسمانى .

ـ هذا ما قصدته . واصل بول الحديث .

« فى كل تلك القصص يخدع الثعلب الاسد ويورطه فى مواقف تدعو للسخرية بحيث ينتهى الوحش الذى بدا بالعدوان الى هزيمة مهينة . وفى غالب الحال لا يعرف الانسان هل يعجب بالثعلب ام يشفق على الأسد » .

قال صوت نسائى :

ـ ولكن اذا لم يتم التفوق بالذكاء على الاسد ، ماذا يكون مصير الثعلب .. على الاقل ان الثعلب لا يهدد بان ياكل الاسد وانما فقط ليحمى نفسه . من هذا يظهر مع من يجب أن يكون التعاطف » .

وواصل بول الهجوم بقوله :

ـ ولكن من مواصفات هذه الروايات ان خبث الثعلب يعود دائما ضده هو ، الا تكون حكمة الرواية دائما ان مخادعة الثعلب تنقلب فى نهاية الامر ضد صاحبها ؟

وهنا .. صاحت احدى الفتيات :

ـ يا اجاك .. ماذا احضر رجلك معه ؟ كنت اظن انك قلت انه الاخ الأصغر الذى حضر لمراقبة أمور التودد والغزل . بينما يظهر مما يقول أنه معلم وليس مجرد تلميذ .

وردت عليها اجاك قائلة : ـ

ـ لماذا تسالينني انا ؟ .. انه هنا . لماذا لا تسالينه هو ؟

فقالت الفتاة لبول : قل لى ايها الرجل هل انت ولد حقا ام انت روح قد تقمصت هيئة ولد ؟

أجاب بول : إنه أنا الذى يتحدث معك . إنى لاأعلم عن الروح أو الولد أو الطفل الذى تتحدثين عنه .

ضحك الجميع . فمن الواضح أن بول كان فى طريقه الى النصر فى معركة اللباقة ، وقررت إحدى الفتيات قبول التحدى فقالت :

ـ إذا طبقنا منطقك ، يجب أن احذرك بانك اذكى من اللازم ، واحذر ان ينقلب ذلك ضدك » .

أجاب بول على هذا وهو يستمتع بمجرى الحديث :

- اه .. ولكن الخبث يتحول ضد الشخص بعد ان ينجح .. او يبدو وكانه قد نجح فى تحقيق غايته . هل حققت انا غايتى ؟ هل ابدو وكانى قد نجحت ؟

ضحك الجميع مرة أخرى ، وهم مدركون تماما ما تعنيه تلك الغاية التى يرمى اليها بول . وقال صوت فتاة يرتفع فوق الضحك :

- لا تخف فانا لا اعرف هيئتك ، ولكن بعد الاستماع لحديثك اقول لك انك لن تجد اى مشقة فى تحقيق تلك الغاية ..

رغم أن المقارنة بين بول ومديت لم تكن مقصودة ، الا أنها خطرت ببال الجميع ، وربما ببال مديت نفسه الذى خفف من توتر الموقف بأن بادر بالحديث مكملا لقول بول :

- لقد تساءلت دائما لماذا تحرص النساء على الدفاع الغيور على ما قصد الله ان تتم المشاركة فيه ..

اجابت أجاك بقولها :-

« ولكن لايتوفر كل طعام للأكل فى جميع الأوقات . هناك أوقات يحرم فيها على النساء تناول لبن البقر وانما ياخذن لبن الماعز . هناك مواسم لأكل السمك والفواكه والخضراوات ومواسم أخرى توفر فيها الطبيعة انواعا اخرى من الماكولات . هناك وقت الصيد ووقت ذبح الحيوانات الأليفة . لقد منح الله الرجال والنساء قواعد سلوك لتنظيم هذه الأشياء . والله يعلم ما هو الافضل .

فقال مديت فى اصرار على موقفه :

- « لكن الله هو الذى منح العيون لهذه الأشياء لمتابعة بعضها بعضا ..

واجابت أجاك فى اصرار مماثل :-

- الا انه لم يعط العيون ارجلا لتذهب بنفسها ولابد ان يوجهها من يحملها . ولتحقيق الغرض الذى من اجله خلقت ، لابد من تدبيرها بحكمة . تماما كما يستخدم صياد السمك الطعم ليجذب السمك الى السنارة دون ان يعطى لحما يشبعه قبل الأوان ، على الرجال والنساء ان يتعلموا كبح رغبات بعضهم البعض حتى يمكنهم تحقيق ما اراده الله لهم منذ بدا الخلق » ..

وبذلك كانت لأجاك الكلمة الأخيرة فى الأمر وسعد مديت لمغزى ما قالته هى .

استمرت المحادثة طوال الليل دون توقف ، ورغم أن البعض قد أخذته اغفاءة النوم ثم عاود المشاركة ، لم يكن أى منهم قد نام لفترة طويلة حتى صاح ديك الصباح . أدرك الجميع أن عليهم انهاء جلسة المغازلة وازالة كل آثار مغامرة الليلة من الكوخ وأنه على الفتيات العودة فى صمت الى اكواخهن المعتادة قبل أن تستيقظ القرية . وعند لحظة الفراق قالت الفتاة التى عبرت عن اعجابها ببول :

- « دعنى ارى عن كثب هذا الأخ الأصغر الذى تحدث ببلاغة الليلة الماضية لأربط بين وجهه وكلماته » ..

وضحك الجميع .

- لا يوجد ادنى تعارض ، إنك صبى وسيم بنفس القدر الذى انت به فصيح .

فرد بول مختتما الحديث :

- ماذا استطيع ان اقول تجاه هذه الكلمات العذبة .

وهكذا افترقوا وهم يدركون انهم سيقضون اغلب يومهم فى حالة من النعاس

والخمول ، بسبب « اللوار » وهو التعب الناجم عن ليلة بلا نوم يقضيها الشخص فى حديث الغزل .

وبينما ظل مديت وليث يتنافسان فى الغزل كانت أجاك تظهر لهما معا أكبر مظاهر الادب وحسن المعاملة ، رغم أنها كانت من الواضح قد فضلت مديت . حاول ليث فى البداية إضعاف موقف خصمه بلفت النظر الى عاهته ، الا أنه لم يحقق الكثير من وراء ذلك وخصوصا لأنه نفسه كان أعورَ وبذلك ليس افضل حالا من الاعرج لدى قيم الجمال عند الدينكا . أخذ ليث يبحث عن نقطة ضعف أخرى حتى وجد نقطة زائدة الحساسية . ووصل الخبر فى النهاية الى مديت عن طريق أجاك ، وقد حدث ذلك بصورة مثيرة وغير متوقعة .

قام مديت بزيارة أجاك عدة مرات ، ولكن على العكس من استجابتها السابقة ، أخذت تتفاداه بأن تعتذر بصورة مؤدبة انها « ثقيلة الجسم » ، وهى طريقة مؤدبة للقول بأنها تعانى من العادة الشهرية . وعندما ظهر من كثرة التكرار أن العذر مجرد ذريعة ، أصر مديت على طلب التوضيح . فوافقت أجاك على أن تلقاه ذات ليلة صافية مقمرة .

كان كل منهما مشعا بحلى المغازلة . لبست أجاك أحزمة الخرز حول وسطها وأساور الفضة الملفوفة حول أذرعها واقدامها بينما لبس مديت سوارا كبيرا من العاج على ذراعه اليسرى وقد لف شعره الكثيف بقطعة من القماش وغرز فيه ريشة نعام . ولكن رغم الزينة ، كان الجو متوترا .

وعندما جلسا على الحصيرة وبينهما بعد واضح ، كان من الصعب أن يتصور المرء انهما كانا حبيبين منذ الطفولة . وادرك مديت أن هناك أمراً جللاً .. فقال : **اخبرينى بالحقيقة هل اسات اليك باى طريقة .**

أجابت أجاك وهى تتفادى النظر الى عينيه ..

- لا .. ابدا ..

- اذاً لماذا تتصرفين بهذه الطريقة ؟..

ظلت أجاك صامتة .

قال مديت باصرار :

- لابد أن اعرف الحقيقة هذه الليلة . لن ابقى فى الظلام الذى القى ظله على حياتى . هل هو ليث ؟

ظلت أجاك صامتة مما أوحى له بأن ليث هو السبب . استمر مديت فى محاولة استقصاء الأمر :

- هل تحبينه .

- « لا » .

- اذن لماذا تتصرفين تجاهى بهذه الطريقة ؟ هل توقفت عن حبى ؟.

لم تأت الاجابة وظل مديت حائرا عن معرفة سبب التغير .

وكأنما قرأت أجاك خواطره . فقطعت الصمت بسؤالها :

- ماذا حدث ليلة تصارعت مع ليث ؟

- اتعنين عندما كنا اطفالا ؟

- نعم .

ـ تقصدين ماذا حدث فى المعركة نفسها ؟
ـ لا ، اقصد بعد المعركة فى وقت لاحق من تلك الليلة .
اجاب مديت بصورة دفاعية :
ـ لا اعرف عن ماذا تتحدثين ولا علاقة ذلك بما هو بيننا الآن ؟
وعندما ادركت أجاك أنها قد أزعجته بصورة حادة .. ربما لأنها أصبحت اقرب الى الحقيقة مما يلزم . أوقفت الاستقصاء .. إلا أن حب الاستطلاع زاد عند مديت رغم انه بدا وكأنه خائف من الموضوع .
سأل مديت فى اصرار .
ـ الن توضحى ما تقصدين
ـ لا اعتقد انى سافعل ذلك .
ـ ولماذا لا تفعلين ؟
ـ لانى لا ارى موجبا لذلك .
تذكر مديت الحديث الذى دار بينهما فى الطفولة عندما كان الوضع عكس ماهو الآن وكانت أجاك هى التى أصرت على معرفة ما قالته امه هو عن صداقتهما . كاد ان يذكر لها ذاك الموقف ولكنه صرف النظر عن ذلك وبدلا منه قال :
ـ ولكن لماذا يهمك هذا الامر فى المقام الاول ؟
أجابت أجاك : أعتقد أنى قد غيرت رأيى ..
تقصدين أنك قد عقدت العزم ؟
قالت أجاك وقد بدأ صبرها فى النفاد : هل تعتقد أنه حقاً من المجدى لو أنى كنت أكثر صراحة مما أنا الآن ؟؟
ـ احب ان اعرف الحقيقة .
ـ هل تعانى انت من مرض الصرع ؟
وهكذا ألقت أجاك القنبلة التى كانت تحاول يائسة أن تمسكها واستطردت قائلة :
ـ هل حقا انتابك نوبة من الصرع ليلة المعركة وان ذلك هو السبب الذى من اجله اخذوك الى منزلكم ؟
جاء دور مديت ان يظل صامتا . لم يكن ذلك لانه لم يكن عنده ما يقوله ، وانما لانه كان يفور بالغضب . اراد ان يضربها ثم ينصرف . وكلما طال تردده زاد غضبه . ثم أخذ يتحول أمام عينيها . أخذ يمص شفتيه ويعبث بأصابعه ، وبعد ذلك فتح عينيه بصورة واسعة ومرعبة وقلبهما ثم أخذ ينظر بدون هدف . وفجأة توترت عضلاته وأخذت تصدر أصواتا وكأنها تتكسر بينما أخذ يمدد ويشد من أطرافه وكأنما يصارع نفسه ، ثم انطرح الى الارض وهو يتأوه ويئن وقد سال اللعاب والزبد من فمه وجسده يصارع بلا هدف واضح .
لم تستطع أجاك أن تتمالك نفسها اكثر من ذلك ، فصاحت فى صوت مذعور ، وبسرعة اجتمع الناس حول مديت المنكوب ، ولكن بمجرد أن ادركوا حقيقة ما حدث ، أخذ الكبار فى دفع النساء والأطفال بعيدا وشرعوا فى مساعدته حتى يمنعوه من ايذاء نفسه . ودعا الحال لمشاركة عدد من الرجال للتحكم فيه . وعندما انتهت النوبة ، ذهب مديت فى نوم عميق وتقرر أن يترك نائما حيث هو بدلا من حمله الى البيوت . وبقى أحدهم معه ليراقبه ..

عندما استيقظ مديت فى منتصف الليل ، استرجع فى بطء ما حدث ثم اخذ حرابه وانصرف . حاول الناس إقناعه ان يمضى الليلة معهم لكنه أبى . كما رفض الاقتراح بأن يصاحبه شخصان او شخص واحد على الأقل . وبما أن الكبار كانوا يعلمون انه من غير المحتمل ان تعاوده النوبة قريبا ، لذلك لم يصروا عليه وتركوه يذهب وحيدا .

لم يعد مديت إلى أهله ، وظل مكان اختفائه وما إذا كان حيا أو ميتا سراً محيراً للأسرة لسنوات عديدة .

الجزء الثالث
(النمو)

الفصل التاسع

كـان بول بعيداً عن أهله فى مدرسة «بوصير» المتوسطة عندما تلقى خطاباً من أحد رفاقه الدينكا مثيانيق بمدرسة نياملیل، وكان بول قد عاد لتوه من لعبة كرة القدم عندما وجد الخطاب الذى قال : «**عزيزى بول ، يحزننى أن أنقل إليك الخبر المفجع باختفاء أخيك المحبوب مديت**» .

فسر بول ، والذى كان وقتها فى الرابعة عشرة من العمر ، اختفاء اخيه بانه قد توفى ، وشعر بالدم الحار يغمر كل جسده ويصعد إلى راسه من اثر الصدمة . وبدات الدموع فى التكوين واراد ان يوقف القراءة ليبكى إلا ان نظره وقع على العبارة التالية فى الخطاب .

« لايعلم احد اين ذهب مديت ، كما هو معروف انه لا بد أن يكون قد شعر بالعار من حالته لدرجة لم يتمكن معها من العيش فى بلاد الدينكا . ولا يدرى احد هل ذهب مديت للعيش فى مكان آخر ام انه قد انتحر . دعنا نرجو ان يكون مازال حيا وانه سيوجد » .

أحس بول ببعض الراحة فى الامل باحتمال بقاء أخيه على قيد الحياة . ولكن أين هو وكيف يمكن الوصول إليه ؟ كان اول خاطر ورد إليه هو أن يعود إلى أهله للمعاونة فى البحث وقرر السعى للحصول على إذن مدير المدرسة لذلك الغرض . وبما أن الوقت كان مساء ، فقد تحتم عليه الانتظار حتى صباح اليوم التالى لمقابلة مدير المدرسة ، اختلى بول إلى نفسه ذلك المساء إذ لم يشعر بالرغبة فى الطعام ولا فى رفقة الآخرين . وبدلا عن ذلك ، انصرف إلى فراشه وأخذ يتفكر فى مصيبة أخيه الأكبر وتوالت السنوات التى عرفه فيها بالمرور على خاطره ، ابتداء بالليلة التى أغار عليهم فيها العرب واختطاف والدته وأخيه التوأم ثم نجاة مديت المشئومة وإنقاذ والدته مع الفقد الدائم لاخيه اشويل . والآن فقد مديت أيضا . اين هما ياترى ؟ وفى الصباح الباكر ذهب بول للبحث عن مدير المدرسة ،

وهو الأب اركانجلو . وعندما طرق بول الباب قال المدير : ادخل . دون أن يرفع رأسه .
وقف بول امامه لبعض الوقت قبل أن يلتفت إليه المدير . بدا الاب اركانجلو اصغر من سنى عمره التى ناهزت الخمسين ، وكان كثيف اللحية سمين الجسم . وعلى غير المعهود من القساوسة الكاثوليك ، فقد كان الأب يرتدى سروالا عاديا وقميصا بدلا من حلة الكهنوت .

قال الاب اركانجلو معتذرا :

- اه ، الياس . معذرة ، فقد استغرقتنى الاوراق . لماذا حدث ، تبدو عليك آثار الضيق والانزعاج ، هل اساء اليك احدهم ؟

كان بول محبوبا فى المدرسة ومن المقربين إلى المدير ، لذلك كان رد الفعل أكثر من مجرد التعاطف المعهود تجاه تلميذ فى حاجة للعناية . اجاب بول بصورة مقتضبة :

- ايها الاب ، اود الذهاب إلى اهلى .

وبما أن الاب اركانجلو كان يعتقد ان بول سعيد فى المدرسة ولأنهم كانوا سعداء به ، فقد كرر قول بول فى دهشة :

- إلى اهلك ؟ ماالذى حدث ياإلياس ؟ هل اساءك اى شخص ؟ .

اجاب الياس : لا ايها الاب ولكننى اود العودة إلى اهلى للمساعدة فى البحث عن اخى .

احس الاب اركانجلو بالراحة إذ ظهر أن الأمر اقل خطورة بكثير مما كان يخشاه . وشرع إلياس فى شرح الانباء التى تلقاها لتوه عن فقد مديت ثم اضاف الخلفية لمصيبة اخيه . واثناء ماكان يفعل ذلك ، اندفع إلياس فى التعبير عن شعور الكراهية تجاه العرب **إنى اكرههم لما فعلوه باخى** ، قال إلياس ذلك وهو يكاد ينفجر بالبكاء . انفعل الاب اركانجلو للرواية ، أم تراه كان سعيدا للبيئة التى وجدها لدعم العداوة بين المجتمع العربى المسلم فى الشمال والمجتمع الأفريقى فى الجنوب ؟ إلا أنه شعر بضرورة الوعظ من منظور المحبة المسيحية .

- يؤسفنى ان اسمع هذا ياإلياس . علينا كمسيحيين ان نعفو دائما عمن يؤذينا . إنى اقدر أن ذلك ليس بالامر السهل ولكن علينا المحاولة . وعلى كل حال ، فإن الحقد لايجلب لك إلا الالم والمعاناة .

احس الاب اركانجلو بالراحة لوعظه بمحبة قوم يحتقرهم فى الحقيقة .

كانت الحرب الأهلية بين الشمال العربى المسلم والجنوب الافريقى الوثنى الذى يعتقد بروحانية الكون قد عاودت الاشتعال فأصبحت على اشدها . تعاون المبشرون المسيحيون مع الإداريين الإنجليز فى إدخال المسيحية إلى جنوب البلاد . وقد وقع عليهم اللوم بإذكاء سياسة الانفصال التى عزلت جزاى البلاد عن بعضهما البعض ، فشجعت الاسلام والثقافة العربية فى الشمال بينما احتفظت بالاحوال البدائية فى الجنوب او تركته ينمو فى اتجاه متوقع على أن يلعب التعليم المسيحي فيه دور « التمدين » . وبعد الاستقلال حاولت الحكومات المركزية المتعاقبة إزالة النفوذ المسيحى فى الجنوب واستبداله بالإسلام والثقافة العربية ، إلا انها جميعها قد فشلت بصورة مزرية فى تحقيق تلك الأهداف . ونتيجة لكل ذلك فقد لازمت البلاد حالة دائمة من عدم الاستقرار السياسى .

بعد سنتين فقط من الاستقلال قرر الفريق عبد الرحيم عبدون ان الحكم المدنى قد فشل فى حل مشكلة الجنوب ، فاستولى هو على مقاليد الحكم وصعد الحرب على أمل فرض

حل عسكرى على الجنوبين . وخلال سنوات قليلة ، تجاوز الفريق عبد الرحيم التنظيم الصارم والتقييد للنشاط التبشيرى فى الجنوب فذهب الى الطرد الكامل لكل المبشرين الاجانب . كما أنه فرض مبادىء الأسلمة والتعريب كمنهج لتحقيق الوحدة الوطنية . من سخرية الأقدار أن الأب أركانجلو ورفاقه الكاثوليك قد نجوا من الطرد على اعتبار انهم معلمون وليسوا مبشرين ، وذلك رغم أنهم قد واصلوا حملاتهم من أجل المسيحية فى الجنوب .

ورغم ضراوتها ، فقد فشلت دكتاتورية الفريق عبدون فى فرض الحل العسكرى فى الجنوب . ومع ازدياد تصاعد الحرب ، زادت السياسة القمعية ليس فى الجنوب فحسب ، بل فى كل البلاد . وأخيرا أصبح الموقف لا يطاق فتمت الاطاحة بنظام الفريق عبدون بواسطة انتفاضة شعبية بمعاونة فريق من الضباط الثوريين الشباب . وخلال السنة الانتقالية الواحدة عقدت الحكومة مؤتمر المائدة المستديرة وحاولت إيجاد حل سلمى للصراع ولكن بلا جدوى . وأثناء تلك الفترة تم إجراء الانتخابات وإعادة الحكم الديمقراطى إلى البلاد . إلا أن الحكومة الطائفية التى أتت إلى الحكم عن طريق الانتخاب واصلت سياسات الأسلمة والتعريب فى الجنوب الذى قاوم بعنف . وتصاعد العداء المتبادل مع انهيار الجهود الرامية إلى ايجاد حل سلمى لحالة الحرب ومعاودة القمع ضد الكنيسة المسيحية فى الجنوب وإصرار الجنوبيين على استخدام كل وسائل المقاومة ، السلمية منها وغير السلمية .

إلا أن الأب اركانجلو لم يكن معنيا بتاريخ البلاد وإنه كان يهمه أمر ذلك الشاب الذى يقف أمامه . نصح الياس بعدم الذهاب الى أهله بقوله :

- لا يمكنك عمل شىء اكثر مما يعمله كبار الأسرة . تذكر ان التعليم هو اكبر مساعدة يمكنك تقديمها لأسرتك واهلك فى المدى البعيد وانك الآن الممثل لأخويك المفقودين . وبمشيئة الله ، فقد يكون تعليمك هو مصدر خلاصهما . لديك انت المدخل لعالم اوسع مما يجده كبار القوم من الأهل ، ومن يدرى ، فقد يقودك هذا الى حيث يوجد اخواك .

بدأ إلياس يقدر منطق مدير المدرسة وأن تعليمه قد لا يفيد أهله فحسب وانما يعين ايضا على ايجاد أخويه المفقودين .

قال له الأب اركانجلو بروح مرحة :

- هيا ، اطلق محياك . المهم هو أن نصلى من اجل سلامة اخويك حيثما يكونان .

وعرض عمل صلاة قداس ذلك المساء من أجل أخوى إلياس .

وعندما حان الوقت ، ذهب إلياس ، الذى تم تعميده بعد سنوات من تلقى تعاليم المسيحية ، ذهب إلى الكنيسة وهو ملء بروح العزاء والامتنان . وعندما دخل الكنيسة ، غمس أصابع يده اليمنى فى الماء المقدس الموضوع بجوار الباب ، وركع وهو يؤشر بعلامة الصليب ، ثم نهض ومشى إلى الصف الأمامى حيث ركع مرة أخرى وعيناه مركزتان على رسم السيد المسيح خلف حاجز المذبح فى الكنيسة .

وبدأ إلياس فى الصلاة حتى قبل أن يبدأ القداس بصورة رسمية : **« يا الله ، إنى اعلم بانى قد اذنبت من قبل ، ولكننى اعدك بان اكون صالحا فى المستقبل وان ابقى ابدا مخلصا لك إذا انت وعدتنى بان يبقى اخى مديت سالما حيثما كان »**. وقد ركز

دعاءه على مديت لان اشويل قد غاب منذ وقت طويل ، بل أن إلياس لم يعرفه على الاطلاق .

ظهر الاب اركانجلو فى حلة كهنوتية بيضاء يتبعه ولدان فى أردية بيضاء . انفعل إلياس كثيرا تقديرا منه لان يجد اخواه كل تلك العناية الروحية . قال الأب أركانجلو القداس باللغة اللاتينية بينما كانت مشاركة جمهور المصلين باللغة اللاتينية ولغة الدينكا . وقد توحدت الصلاة والانشاد والغناء فى إعطاء إلياس دلالات روحية عميقة ، بل ونشوة كبيرة .

بعد أن اعترف إلياس بذنوبه وشارك فى تناول العشاء الربانى ، جلس واغلق عينيه فى تأمل عميق وقد استغرقته هيبة الشعور بالروح القدس والحضور الربانى . ثم شعر بذبذبة مدهشة تبعها صوت أجراس الموسيقى فى راسه .. وأخيرا خاطبه صوت سماوى بالقول : **« لقد سمعت صلواتك . ليس هناك ما يوجب الخوف ، فاخواك حيان وعلى أحسن حال . حافظ على عقيدتك فى قدرة الله وسيكون كل شىء على ما يرام »**.

همس إلياس بقوله **« لك الشكر يا ربى ، لك الشكر ولك الشكر . لن اخيب املك »**.

انتهى القداس ونهض جمهور المصلين لمغادرة الكنيسة عندما لاحظ إلياس جلبة عند الباب . سمع إلياس صوتا يصرخ بالقول : **« الا تستحون من الحضور لمضايقة المؤمنين فى كنيستهم . إنى أؤكد لكم بانكم ستدفعون ثمن هذا بالعذاب فى الجحيم »**.

قال صوت آمر صادر من رجل فى حلة رسمية قدر إلياس أنه رئيس الجماعة :

- خذوه بعيدا

حمل الرجل ورقة يقرأ منها اسماء تلاميذ وردت التقارير بأنهم قادوا مظاهرة ضد الحكومة لسياساتها المعادية للمسيحية فى الجنوب . هذا بالإضافة إلى أنهم قد قاموا بتوزيع منشورات ربما تكون قد طبعت فى مطبعة المدرسة ، مما يورط سلطات المدرسة فى الأمر .

وعندما ظهر إلياس ، لاحظ أن أحدهم قد همس فى اذن الضابط الذى استدار نحو إلياس موجها جنوده :

« خذوا هذا أيضا ».

كاد منظر الجنود ، الذين يعتبرهم الجنوبيون كجيش الاحتلال من الشمال ، كاد منظرهم أن يدفع إلياس فى ثورة من الغضب ، لكنه تذكر وعده لله بأن يخضع لإرادته ، وأن المحبة ، حتى للأعداء ، هى طرف من ذلك الوعد . لذلك سلم إلياس نفسه للضابط فى طاعة وصمت .

وفى مقر سلطات الامن ، تم استجواب الصبيان حول نشاطاتهم المعادية للحكومة وعن مدى التورط التبشيرى فى ذلك . ولسبب ما قرر الضابط ، واسمه النقيب على أحمد الجاك ، قرر استجواب إلياس على انفراد .

سأل الضابط : **« هل شاركت فى توزيع المنشورات ؟»**

اجاب الياس فى امانة ورباطة جأش **« نعم »**

- لماذا ؟

- لأن سياسة الحكومة تتدخل فى حريتى الدينية

قال الضابط في سخرية متعمدة « تعنى دين التبشير ؟»
اجاب إلياس وهو يحتفظ بهدوئه ووقاره : « انا مسيحي ».
- إنك اصغر من ان تفهم حتي مجرد معنى الكلمة .
- رغم ذلك فانا مسيحي .
سأله الضابط « لماذا لا ترغب في ان تكون مسلما » .
فضل إلياس الصمت .
- اخبرني ، لماذا لا تود ان تكون مسلما ؟
كرر الضابط سؤاله في اصرار .
تضايق إلياس وبدأ يفقد صبره ، لكنه تذكر وعده لله قبل فوات الأوان . أضاف الضابط قوله : - احسب ان المبشرين قد سمموا عقلك ضد الإسلام .
فقد إلياس القدرة على كبح جماح نفسه فانفجر بصوت عال وهو يبكي :
- لا اعرف اى شيء عن الاسلام ولكني أعرف بعض الشيء عن العرب وهم مسلمون . إني اكرههم ، إني اكرههم .
فوجيء الضابط بذلك ووجد ان هناك شيئا ما في امر هذا الشاب يدعو الى الاحترام . وفي حقيقة الامر ، كانت اسئلته تهدف الى انشاء علاقة شخصية اكثر من اى شيء آخر . لهذا السبب اختار الضابط ان يستجوب إلياس على انفراد . وشعر بالحزن لانه استفز شعور العداء عند إلياس . وزادت شجاعة وامانة الشاب من إعجاب علي به ، فوضع يده حوله وقال :
- يا ابني ، اقدر شعورك .
صاح إلياس في وجهه :
إنك لا تقدر . إنك تعتقد انى اكره العرب لانى هنا . إنك لا تعلم ما فعلوه باسرتي .
وفجأة فهم النقيب على ان أسرة الصبي قد عانت في وقت ما ، هل كان ذلك خلال الحرب الأهلية أم قبل ذلك ؟
- اخبرني يا ابني عن الامر
قال علي ذلك في تعاطف جذب إلياس اليه وبذر بذور ثقته في الرجل .
بدأ إلياس في رواية غزوة العرب التي افقدته أحد أخويه وأدت إلى عجز الآخر الذى اختفى حديثا وكان ذلك هو سبب وجودهم للصلاة في الكنيسة . انفعل علي مع الرواية ، ولم يكن عنده ما يقوله لتهدئة الصبي سوى الادعاء المتفائل بان اخاه مديت سيوجد في غالب الحال . « أما أشويل، فيجب ان تثق في انه حي وانه سيجتمع يوما ما مع اسرتك ».
سر إلياس من تفاؤل علي ، فقد كان ذلك هو ما يحتاج له . كما ان عليا لم يكن مخادعا إذ انه ، بصورة ما ، قد احس بمشكلة إلياس بصورة صادقة . واصل النقيب [illegible] الحديث بقوله :
- ولكن عليك ان تتذكر ان واجبك الأول نحو نفسك ونحو اهلك هو ان تاخذ تعليمك مأخذ الجد . فمن خلال التعليم الجيد تزداد فرصك في الحياة وبذلك تزداد فرص بحثك عن اخويك ».

رفع ذلك مع روح إلياس بل وشعر بالامتنان تجاه على الذى اعتبره شخصا خيرا اكثر منه ضابطا عربيا من النوع المعهود . أراد على أن يطلق سراح إلياس لكنه لم يشأ ان يميز بينه وبين بقية التلاميذ ، فأطلقهم جميعا بعد أن حذرهم .

عمل إلياس جاهدا فى الإعداد للامتحانات النهائية متذكرا نصيحة على الذى لم يكتف بذلك النصح العابر بل عقد العزم على مواصلة علاقته بالصبى وتقديم التشجيع والعون له باستمرار . وقد أدرك على الضرر الذى يلحق بإلياس بسبب علاقته الوثيقة برئيس سلطات الأمن فى المنطقة . لذلك ظل يراقب إلياس عن كثب ولكن مع اتخاذ الحيطة والحذر اللازمين ، فكان يرسل خادمه بالهدايا البسيطة لإلياس ، وبعض المال من وقت لآخر ، ويدعوه إلى منزله حيث يسدى إليه النصح .

ورغم هذه التحوطات ، فقد سرت الشائعات فى المدرسة عن العلاقة بين إلياس وضابط الأمن . وذات يوم علم إلياس أن الأب اركانجلو يرغب فى مقابلته .

شرع الأب اركانجلو فى الحديث بقوله :

- يا ابنى ، يبدو ان بعض التطورات قد طرات منذ نقاشنا لمأساة اسرتك » .

كانت الإشارة اغمض من أن يدركها إلياس كما ظهر من صمته .

- حسبما أذكر ، فقد كان هدفى وقتها هو دفعك إلى عدم الشعور بالمرارة تجاه العرب وان تحاول العفو عنهم رغم الأشياء الفظيعة التى قاموا بها تجاهك وتجاه اسرتك . والآن ارى ان عفوك قد ذهب إلى ابعد مما كان متوقعا . لقد سمعت انك على صلة بالنقيب على . هل هذا صحيح ؟» .

أجاب الياس فى اقتضاب :

- نعم

- ولماذا تفعل ذلك ، إذا جاز لى السؤال ؟

أوضح إلياس بقوله :

- لقد كان النقيب على فى غاية الإحسان إلى منذ واقعة الكنيسة . لم يتغير شعورى تجاه العرب ، إلا ان النقيب على يبدو مختلفا ، فهو رجل شفوق ومتفهم وكريم .

قال القسيس معلقا :

- آه ، لا يا بنى لا ثم لا . يجب أن تعلم عن أساليب الشيطان الخفية . وهذا يعنى أنه سيقدم لك المغريات والخداع ليصرفك عن كلمة الله ويدعوك إلى اتباع طريق الضلال . حتى لو نسيت مصيبة اسرتك شخصيا وتوقفت عن تحميل عموم العرب المسئولية عن ذلك ، الا ترى انه أداة الاضطهاد والقهر ؟ الم يتم القبض على الشباب المسيحى بموجب اوامره هو ، ووقع التعذيب على بعضهم بسبب دفاعهم عن المسيحية ؟ اليس من الواضح انه اداة للشيطان ؟ تنبه يا بنى ولا تسقط ضحية للخداع والإغراء المادى .

وفجاة انهمرت الدموع من عينى إلياس . ورغم انه لم يدرك تماما حقيقة الخطأ الذى ارتكبه ، إلا انه شعر بالقوة الخارقة لكلمات مدير المدرسة الذى يتقبل إلياس تفوقه الروحى وسلطته عليه بلا أدنى شك . وعندما تفكر فى مدى الخطأ الذى لابد أن يكون هو الدافع لأن يخاطبه الأب بهذه الطريقة ، انفجر بالبكاء والعويل . نهض الأب اركانجلو

ووضع يديه حول إلياس وقال :
- لا تبك يا بنى ، إن الله رحيم وسوف يعفو عنك ويحميك . ولكن عليك الصلاة لله والثقة فى محبته وبركته .
ثم اشار بعلامة الصليب وبارك إلياس ثم همهم بكلمات الصلاة باللغة اللاتينية وقال مواسيا .
« اذهب الآن فى سلام الله . عد إلى استذكارك والإعداد للامتحان » .
وعندما غادر إلياس مكتب مدير المدرسة ، غمره شعور بالارتباك . فمع أنه يقدر كلمات الاب اركانجلو ومباركته له ، إلا أنه لم يقدر على حمل نفسه على التصديق بأن النقيب على هو أداة الشيطان . ام لعله كذلك ؟ فقد بدا له أنه بحكم العمر والعلم وبركة الله ، لا شك ان الاب اركانجلو يعلم اكثر منه هو . إلا أنه قد أصبح يحب النقيب على ويعتقد أنه رجل خير .
فكر إلياس كثيرا فى هذه المشكلة المزعجة وتجنب مقابلة على او الاتصال به ، ثم ركز على دراسته فكانت النتيجة متسقة مع اجتهاده حيث كان ترتيبه الثالث من ثلاثين طالباً وتم قبوله بمدرسة رمبيك الثانوية .
لم يدرك على أن إلياس قد قرر تجنب مقابلته لانه أراد من جانبه هو ان يترك الصبى لشأنه حتى يركز على دراسته . وعندما انتهى الامتحان أرسل على فى طلب الياس بغرض تهنئته لكنه اعتذر عن الحضور . وعندما تكرر ذلك عدة مرات ، تشكك على فى الأمر وصمم على مقابلة إلياس،وفكر فى طريقة يضمن بها حضوره . أرسل على مذكرة قصيرة إلى إلياس تقول « لدى رسالة هامة لوالدك أود مناقشتها معك قبل إرسالها له . إن الأمر فى غاية الأهمية . هلا التقينا بأسرع فرصة ممكنة » .
واستجاب إلياس كما هو متوقع منه ، إذ لا يمكنه تجاهل أمر يجمع بين والده وسلطات الامن . ما هى الرسالة ؟ يا ترى هل تعنيه هو أم لعلها تعنى أخويه المفقودين ؟ فذهب إلياس إلى على فورا .
لم يتمالك على من إبداء شعوره عندما رأى إلياس يدخل منزله ..
- إلياس يا بنى ، اين كنت ؟ لقد بدا القلق يراودنى عليك حقا » .
رغم أن إلياس قد حضر بشعور بالترقب والعزم على الحذر من هذا الشيطان الماكر ، إلا أن الصدق والحرارة التى تحدث بها على غيرت من حاله ، ومع ذلك ، فقد فضحت إجابته ما كان على يخشاه ، إذ أن الياس لم يتمكن من إعطاء اجابة مباشرة .
فقال بصورة مريبة : لقد كنت مشغولا بالامتحان .
- وماذا عن بعد الامتحان عندما أرسلت فى طلبك أول مرة ؟
ظل إلياس صامتا وقد شعر بالرغبة فى إخبار على بالحقيقة ولكن كيف يمكنه أن يفعل ذلك ؟ ماذا يستطيع أن يقول دون أن يجرح شعور الرجل ؟ كيف يتسنى للشخص أن يحضر إلى منزل الآخر ويخبره بأنه حاول تفاديه لانه يعتقد أنه أداة الشيطان؟
حاول إلياس تغيير مجرى الحديث بقوله :
- ما هى الرسالة التى قلت أنك تود إرسالها إلى والدى ؟
- سنأتى إلى ذلك قريباً ، أود أن أعلم أولا ما هى المشكلة . يبدوا أنك تخفى أمراً ، ما هو ياإلياس ؟

ورغم ان السؤال كان مباشرا بصورة لايمكن تفاديها الا انه كان من المستحيل عليه ان يخبره بالحقيقة كما يعلمها هو .. حاول إلياس تجنب الأمر مرة أخرى بقوله :

- لاشيء ..

- اخبرني يا إلياس

قال على فى اصرار وهو يشعر بغريزة الأبوة تحفزه إلى أن يحاول التعرف على المشكلة عله يعاون فى حلها .

- هل أساء اليك احد بالمدرسة .

- لا لم يحدث ذلك اطلاقا .

- حسنا إذن بما انك على ما يبدو توجه شعورك العدائى تجاهى دعنى اعيد صياغة سؤالى : هل أسات انا اليك باى صورة من الصور .

وحتى فى حالة الاضطراب التى كانت تعتريه بدا من المستحيل لالياس ان يكون هذا الرجل الظاهر التعاطف نحوه والشديد الحرص على مصلحته ، أن يكون أداة الشيطان فى صورة خفية . فشرع إلياس فى البكاء من معاناة التوتر والتناقض فى شعوره ثم قال والدموع تنهمر على وجهه : « ماعدت أميز بين الحق والباطل فمن ناحية قد حذرت من انك أداة القهر والظلم ضد أهلنا وعدو المسيحيين ووكيل الشيطان، ومن ناحية أخرى عندما اكون معك أرى شخصا رحيما شفوقا لا أصدق انه الرجل الشرير الذى حذرت منه . ياعمى على ، ماذ افعل ؟ من اصدق ؟ »

كانت المرة الأولى التى وصف بها النقيب على بعبارة« عمى »وقد فعل ذلك عمدا وبينما واصل البكاء أحاطه على بذراعيه وهون عليه وهو يقول :

- لا ضرر ياإلياس ستظهر لك الحقيقة فى نهاية الأمر لاتعبا بما يقول الناس فقط وجه قلبك تجاه الله وسوف يكشف لك الله الحقيقة » .

صمم على وقتها على عدم الغضب من الاتهامات التى وجهت إليه ولم يسأل حتى عن هوية الذين حذروا إلياس كما انه لم يكن ليدافع عن نفسه ضد تلك الاتهامات . إن أفضل رد هو بذل الشفقة والحب والدعم لإلياس وسيتبع كل شيء من الأرض المشتركة للرباط الانسانى وبموجب تلك الخواطر ، أخذ على منديلا من جيبه وناوله إلى إلياس قائلا :

- خذ هذا وامسح دموعك وتوقف عن البكاء انى فى غاية السرور لانك اخبرتنى بالحقيقة لقد بدا الشك يساورنى ان ذلك هو الموقف ، ولكن وقد اقررت انت بذلك شخصيا فليس هناك ادنى مشكلة . سوف نصفى الجو ولدى التحقيق ، فقد صفى الله الجو فعلا بأن جعلك تتحدث بهذه الصراحة » .

بتلك الكلمات أنهى النقيب على أى شك يكون قد بقى فى نفس إلياس تجاه قيمة الرجل الأخلاقية وهى كلمات محببة لإلياس إذ يمكن أن تصدر عن شخص من الدينكا أيضاً معبرة عن قيم دينهم التقليدى . وشعر إلياس بروابط تجمع بينه وبين على بأكثر مما شعر به أبدا تجاه الآب أركانجلو ولأول مرة ، لم يظهر له على كأحد العرب سواء أكان ذلك فى لون جلده أم فى سلوكه .

الفصل العاشر

وكأنما اطلع النقيب عليّ على خواطر إلياس فقد حكى له قصة فى غاية المناسبة لما حدث ، حيث قال فى صوت جاد :

دعنى أخبرك بشيء قد يصعب عليك تصديقه ، لكنه مناسب للموقف الراهن . فأنا نفسى من أهل دينكاوى ، فجدى من الدينكا وكان إسمه أجاك حوله العرب فيما بعد إلى الجاك وهو الأسم الذى نستخدمه الآن . اختطف تاجر الرقيق جدى وهو ولد صغير ثم عامله وكأنه ابنه هو ، ولذلك تدين جدى بالاسلام وتم تعريبه وإستيعابه فى ثقافة المجتمع العربى المسلم فى الشمال . وتزوج ابنة احد التجار الاثرياء وبذلك دخل اطفاله عرقيا وثقافيا إلى المجتمع العربى . ومع مضى الزمن ، اصبح العنصر الزنجى فى حكم التاريخ بالنسبة لاسرتنا . اتصور انك تعتبرنى عربياً ، وأنا أقبل ذلك وفخور به .

ولكن عودتى إلى الجنوب ايقظت فى نفسى وعيا قويا باصولى الافريقية وقد نبهنى ذلك كثيرا إلى انه بخلاف توفيق جدى فى ان يرعاه وينشئه عربى خير ، فقد كان حظ الرقيق السود الآخرين غير ذلك . وهكذا ، وحتى فى الشمال ، فرغم أن الرقيق السابق قد اتخذ الاسلام والثقافة العربية ، فان حالهم لا يرضى احدا . ومنذ حضورى إلى الجنوب ، فقد تعمق شعورى بالمهانة التى مازال أهلنا من ذوى الأصول الرقيق يتعرضون لها فى الشمال وقد جعلنى هذا اكثر حساسية لاحوال اخواننا فى الجنوب . انا جندى ، وعلى اداء واجبات محددة وطاعة اوامر معينة ، ولكنى ايضا اشعر بالتضامن القوى مع اهلنا فى الجنوب ويتسامى ذلك التضامن على واجباتى فى بعض الأحيان . وكثيرا ما احاول التوفيق بين هذين النوعين من الالتزام .

وهكذا ترى يا إلياس انى رغم تفهمى التام للشعور الذى يحفز الناس الى التفكير فى بالطريقة التى ذكرتها انت قبل قليل ، إلا انى املك وعيا واضحا بحقيقة نفسى . انى مرتاح الضمير كما انى اثق ان الله سيكشف حقيقة هويتنا الجماعية إن طال الزمن او قصر وحتى لو حاول الناس اخفاءها بالاكاذيب المختلفة .

ومرة أخرى شعر الياس بأن عليا يتحدث وكأنه من الدينكا من حيث المعتقدات الدينية والاخلاقية . لعله قد ورث عن جده ما هو اقرب إلى الدينكا منه إلى العرب أو الاسلام . وشعر إلياس بالسعادة لانه قد افصح عن الحقيقة لعلى وانهما قد اصطلحا مرة أخرى .

واصل على الحديث بقوله :

ـ والآن دعنى اخبرك عن الرسالة التى اود كتابتها لوالدك . لا شك انك تقدر تماما اهتمامى الشديد بمستقبلك . وقد شعرت ومنذ فترة من الوقت بان فرصتك فى المستقبل ستتحسن بدرجة كبيرة لو انك واصلت دراستك فى الشمال حيث تتعلم اللغة العربية وتتواءم مع الثقافة القومية .

وقد خطر لعلى ايضا أن تجربة الدراسة والحياة فى الشمال ربما تلطف من غلواء عداء إلياس للعرب ، لكنه لم يذكر ذلك الاعتبار رغم أنّ ما قاله له إلياس قبل قليل قد زاد من أهمية هذا الجانب من الأمر . واختتم على حديثه بالسؤال :

ـ «ما قولك فى اقتراحى هذا » ؟

كان إلياس وقتها فى حالة طيبة ، ورغم جهله بما تعنيه الدراسة فى الشمال ، فقد قبل منطق على بلا تردد ، فأمّن قائلا :

ـ اذا كنت ترى بان التجربة ستكون مفيدة ، وبانى سوف اقبل فى المدرسة هناك ويكون ادائى بالمستوى المطلوب ، فماذا يبقى لى سوى القبول ؟ والسؤال هو كيف نمضى فى التنفيذ ؟

رد عليه على بقوله :

ـ دع ذلك لى انا . ارجو ان تتقبل النصح الذى اسديه لك الآن بنفس الروح التى اتحدث بها انا . لعلمى بعقلية سلطات المدرسة ، وقد تكرمت انت بتاكيد ذلك قبل قليل ، فانى اعلم بانهم سيعارضون ذهابك إلى الشمال . سيخبرونك بأن أهل الشمال يختلفون عنك فى العنصر والدين واللغة والثقافة وبانك ستكون شقيا هناك . ولعلهم يقولون ما هو اسوا من ذلك . وعلى اى حال ، ومهما كان فيما يقولون من الصحة ، فلا ينبغى ان يصرفك ذلك عن الحصول على مميزات قومية . لذلك اقترح عليك انه ، بدلا من تعريض نفسك لضغوط زائدة ، لا تخبرهم بشىء من خططك . سوف ادبر الأمر بطريقتى الخاصة ، واذا تم التوفيق ، فسوف نسمع بالنتيجة أثناء وجودك عند اهلك خلال العطلة الصيفية .

وبعد اتفاقهما على ذلك ، عاد إلياس إلى المدرسة وقد ارتفعت روحه المعنوية كثيرا بسبب اقتراح على .

كتب على تقريراً أمنياً يطلب فيه من السلطات التدخل بالتوصية بنقل إلياس إلى مدرسة حنتوب الثانوية فى الشمال . قال على فى تقريره :

« ان إلياس ولد نجيب ، فهو طيب المعشر وذكى وحصيف بالنسبة لسنه . ونتيجة لبعض الأحداث المؤسفة التى حدثت له ، فانه يحمل شعورا بالضغينة ضد

العرب . واذا لم يتم احتواء هذا الشعور بطريقة بناءة ، فربما يحطم ذلك مستقبل الصبي او يجعله خطرا . اني اعتقد بان احسن وسيلة لاحتواء هذا الاتجاه الخطر الكامن في الفتى هو تعريضه لأفضل الدوائر التعليمية في الشمال . يجب اطلاعه على الجانب الآخر واعانته للتسامي على تحيزاته والتي لها اسبابها المعقولة في تقديري ».

عاد إلياس في تلك الأثناء لقضاء عطلة في القرية . وعند وصوله حيته الأسرة ، رجالا ونساء وأطفالاً - بانفعال شديد وقد بكى بعضهم إذ أن حضوره قد ذكرهم بغياب مديت . إلا أن دموعهم كانت دموع الفرح وليس الحزن . وأنب والده ملينقديت النساء على بكائهن بينما اخفى عاطفته هو كما ينبغي للرجل من الدينكا . طالما أن بول ، الذى يستخدم هذا الاسم الاصلي عندما يكون بين أهله ، بخير فان البكاء عليه طالع شؤم . واذا كان البكاء على مديت ، فذلك اسوأ لأنه يفترض انه قد مات .

وجد خطاب النقيب على أذناً صاغية لدى السلطات وبذلك تم قبول إلياس بمدرسة حنتوب الثانوية . كتب على ايضا إلى الزعيم ملينقديت وقرأ إلياس الخطاب لوالده :

« مع اني لاأعرفك ، إلا ان ابنك قد جمع بيننا . اني شديد الولع به واعتقد جازما بان له دورا في قيادة البلاد في المستقبل . وانا واثق بان فرصته سوف تتحسن اذا تلقى بعض تعليمه في الشمال حتى يتصل بعموم البلاد . كما اني ارى انه من الافضل لزعامتك انت ان يتلقى اطفالك تعليمهم في الشمال والجنوب معا ».

سر ملنقديت لذلك ، فرغم اعتزازه بجنس الدينكا ، فقد كان يدرك أن للعرب اليد العليا في البلاد ولذلك يكون من الخير لولده أن يتعلم أساليبهم ويكون قريبا منهم . احتفل ملينقديت بعودة ولده وقبوله في المدرسة الثانوية بتقديم وليمة ذبح لها ثور وأعدت لها الجعة (المريسة) والطعام بكميات وافرة . وحتى الطبول اخرجت للمناسبة وتم الرقص والغناء . إلا أن بول سرعان ماأدرك انه رغم مظهر الاحتفال ، فقد جمع الحزن لاختفاء مديت بين أطراف الأسرة ، وايقظ نفس الحدث حالة التوتر والعداء بين أسرتي والده وعمه اكول ، حيث ظهر توتر جديد بين الاسرتين قبيل عودة بول . عند سماعها بأختفاء مديت والملابسات التي تم فيها ذلك ، قيل ان ألويل قد ردت بصورة سيئة إلى نياندينق أخت أجاك ، حيث قالت :

- اليس هذا ماحذرت ولدي منه ؟ لقد اخبرت مديت بان يبتعد عن السلالة عديمة الرحمة . وبعد ان ضللته ثم قذفت به كقطعة من الخشب في سهول قريتها ، فما قيمة تلك العلاقة الحمقاء التي تابعتها هي بشهوانية .

واثناء بكائها ، توالى سيل كلمات الحسرة والحزن **« ياللمصيبة . ان يموت ولدى كالضبع في الخلاء . سيلاحق موت حبيبي مديت الساحرات اللائي جلبنه عليه مهما طال الزمن ».**

بلغت شكوى ولعنات ألويل مسامع نياندينق التي ردت على الشائعات بصورة لاذعة **« من الأفضل ان الله قد حسم الأمر من اجل اختي . لقد اخبرتها بان تبتعد من مصائب تلك السلالة لكنها لم تستجب لنصحي والآن قد فرض الله ارادته . لماذا يقذف البعض بكلماتهم جزافا على امل إلقاء اللوم على الاخرين ؟ هل كانت اختي هي**

التى اخذت التوامين إلى خارج الكوخ ليلا ليختطفهم العرب ام هى اختى التى اصابت مديت بمرض الصرع ؟ » .

وعلى عكس اقتتال النساء بسبب الأطفال ، فقد ذهب زوجاهما إلى التخفيف من شأن تلك الاهانات المتبادلة وصرفها على انها مجرد شائعات او انها من الامور المعهودة عن النساء والتى لاينبغى للرجال ان يتورطوا فيها .

وكما فهم إلياس من والده ، فإن تصرف اجاك نفسها هو الذى اعاد التعاضد والوئام للأسرة بعد الواقعة الاخيرة . عندما علمت اجاك بأختفاء مديت ، خلعت عنها كل الحلى وامتنعت عن الطعام لايام . وحتى عندما تم اقناعها بأنهاء اضرابها عن الطعام ، ظلت فى حالة حزن وانعزال عن المجتمع . كما انها طلبت من اهلها اعادة ماشية ليث لأنها قررت عدم الزواج منه أو من اى شخص آخر ، واعلنت عن تصميمها على الزواج من مديت إذا عاد ، وأنها ستبقى فى انتظاره مهما طال الزمن . ولما حاولت أسرتها اقناعها بالعدول عن ذلك ، هددت بأنها ستهرب وتذهب إلى أسرة ملينقديت لتنتظر عودته مالم تصل اسرتها إلى اتفاق مع أسرة مديت .

وهكذا أصبح اختفاء مديت مشكلة حقيقية بالنسبة لأسرة أجاك . وعندما أعيتهم الحيلة ، لجأ أهل اجاك إلى التشاور مع الزعيم ماينقديت .

ـ لقد اتيناك ليس لمجرد ان ابنتنا تشعر بالالتزام تجاه ابنك ، وانما أيضاً لأنك أبو كل الناس بحكم انك الزعيم . ان الفتاة تهدد بالهرب لتقديم نفسها لابنك رغم غيابه ، وترغب فى الانتظار هنا لحين عودته يوما ما . واذا لم يعد ، فهى تنوى اكرام اسمه بالبقاء زوجة له حتى تشيخ وتموت . وقد جئنا طلبا للنصح ، فماذا نفعل ؟ » .

ورغم أنه تأثر للأمر ، إلا أن ملينقديت لم ير كيف يمكنه تزويج فتاة من ولد لا يدرى ما اذا كان حيا ولايعلم عن مكان تواجده اذا كان على قيد الحياة ولا حتى عن احتمال عودته الى بلاد الدينكا ابدا .

اجاب الزعيم ملينقديت اسرة اجاك بقوله :

ـ لقد احسنتم الحديث ، وهذا هو معنى المعايشة فى بلد واحد . لم افهم ما حدث عندما علمت به . لقد كنت دائما حسن الظن بأجاك . وقد ازعجنى حقا انها اعرضت عن ابنى لمرض ابتلاه الله به بلا ذنب يمكن للعراف الكشف عنه . ان هذا النوع من السلوك هو الذى يغضب الأسلاف ، ولا ينسى اسلافنا الاهانة أبدا .

إلا ان اجاك قد تصرفت الآن بمستوى السمعة الطيبة التى استحقتها من قبل . فهى على كل حال قد غضت الطرف عن عاهة مديت واظهرت تعاطفا نبيلا . وانى فى غاية السعادة إذ أن أرواح اسلافها قد اعادت توجيهها الى الطريق الذى كادت ان تضل عنه . ولكن علينا اقناع اجاك بقبول الحقيقة . لم يعد مديت معنا والله وحده هو الذى يعلم اين هو الآن .

ثم واصل الزعيم ملينقديت الحديث وكأن فكرة قد خطرت له لتوها :

ـ ولأهلنا عادة معروفة باسم « لا أوت » تستخدم فى مثل هذه المناسبة . إذا علمنا او افترضنا ان مديت قد مات ، فإنه يكون لأخيه الحى ان يدخل كوخ ارملته ويلد منها

اطفالا باسم زوجها المتوفى . إننا نرجو الا يكون مديت ميتا ، ولكن الغيبة الطويلة بمثابة الموت . لننتظر ونرى ما يكون . إذا لم يعد مديت ، يمكن اتباع ذلك العرف . سأتحدث إلى بول عند عودته من المدرسة . إن نهج المتعلمين مخالف لنهجنا . ولكن هذه هي عادات أسلافنا التي ابتدعوها لإعانتنا في أوقات الحاجة . وبول هو جزء من الموقف الذي يواجهنا الآن ، وأعتقد أنه سيتفهم حاجتنا رغم أنه لايزال طفلاً » .

وعندما سمع بول لرواية والده لما حدث ، لم يصدق ما سمع . فقد سعد لاهتمام أجاك التي كان يرتاح لها والتي ازعجه حقا موقفها من إصابة مديت بمرض الصرع لأن ذلك السلوك لم يكن متسقاً مع شخصيتها . إلا أنه لم يكن يتصور مطلقاً أن يدخل هو كوخ أخيه لينجب الأطفال مع أجاك في مكان أخيه الغائب والمفترض أنه ميت . وقد تفاجأ بول بذلك الطلب تماماً .

شرع والده في الحديث بقوله :

- يابني ، إني اعلم انك متعلم وانك ، باعتبارك من ابناء المبشرين ، لك آراؤك الخاصة عن الحياة وما بعد الموت وربما يخبرك المبشرون بان الناس تبعث من الموت ليحكم الله في امرها ، فيذهب من عاش حياة خيرة الى بيت الله ويذهب من عاش حياة شريرة الى بيت النار ، الا ان هذا ليس هو علم اسلافنا . فحسب معتقداتنا ، عندما يموت الناس ويدفنون ، تاكل اجسادهم آفة الأرض ، ويمضي الموتى في صورة من الصور لمواصلة حياتهم في عالم الموتى المجهول . ومن يخلفون اطفالا وراءهم يصبحون هم الاسلاف الذين يراقبون ويحمون احفادهم من الشر رغم بعدهم عنهم . ويعاقب الاسلاف الاحفاد الذين يخالفون كلمتهم كما يجزون من يتبع كلمتهم . فما يسميه المبشرون بيت الله وبيت النار موجود هنا في هذا العالم في تقديرنا نحن حيث ينعم الناس باحدهم او يعاقبون بالآخر بمقتضى ما يفعلون ويتركون . واسلافنا هم القضاة بالتعاون مع الله وارواح العشيرة .

وكل شخص متوفى هو احد الأسلاف او ينبغي أن يمنح الفرصة ليكون احد الاسلاف . هذه هي حكمة العادة المعروفة باسم « لا اوت » ، وذلك لكي يوالى من توفى وخلف وراءه زوجة قادرة على الانجاب ، يوالى انجاب الأطفال الذين يرفعون راسه في هذا العالم . ولنفس السبب ، إذا توفى رجل قبل الزواج ، حتى ولو كان طفلا ، يجب ان تزوج امراة باسمه وتنجب الأطفال الذين يرفعون راسه ، هذا واجب يفرضه الاسلاف ، وإذا لم نوف به ، فقد يسبب لنا ذلك المرض وربما الموت .

وهكذا ، يا بني ، لو كان مديت حيا إم ميتا ، وحتى لو كان حيا ولكنه بعيد عنا ، علينا واجب احياء اسمه بيننا من خلال اطفال يولدون لزوجة باسمه هو . وفي هذه الحالة الراهنة ، فان اجاك هي الفتاة التي عرفها هو منذ الطفولة ، وصاحبها وخطبها لنفسه ، فهي زوجته ، وانت ايضا تعرفها جيدا . لذلك اعتقد ان اداء الواجب في هذه الحالة هو إنجاز لواجب الأخوة . إني أعلم أنك لاتزال طفلا ، لكنك قد اصبحت رجلا ايضا . وعلى كل حال ، فاننا لا نتحدث عن اكمال الزواج غدا واحضار اجاك الى اهلنا فورا . لديك عدد من السنين لمواصلة النمو . فما نحتاج له الآن هو اعلان الالتزام ، فماذا تقول يا بني ؟ »

وصعق إلياس بول لدرجة انه كان سينهار باكيا لو كان اصغر سنا . ولكن ، كما قال والده ، فهو يوشك ان يصبح رجلا ، وباعتباره رجلا عرضت عليه عروس اخيه ، فكيف يجوز له البكاء . وبدلا عن ذلك ، تذكر زيارة التودد والغزل التى كانت مع اجاك وكيف استمتع هو بلعبة البراعة والذكاء مع الفتيات وكأنه ند لمديت وباقى افراد الفريق . هل هى ارادة الله ان يتولى هو اداء هذا الواجب ؟

ثم عادت اليه الأسباب المعارضة للاقتراح . وبعد فترة مطولة من الصمت والتفكير ، أجاب والده بالاقرار بأنه متنازع فى اتجاهات مختلفة :

إن الواجب الاخلاقى الذى شرحته لى ليس عادة الأسلاف فحسب ، وإنما هو ايضا ما أود تحقيقه لمصلحـــة أخ أشعـــر نحـــوه بود وحب لاحدود له .. وأتألـــم كثيـــراً لاختفائه . لكنى يا ابى لا اقدر على الدخول لكوخه وانجاب الاطفال مع أجاك نيابة عن مديت . فهناك أولا فارق السن بينى وبين مديت وبينى وبين أجاك أيضا . الا ان العقبة الحقيقية هى شعورى الأخلاقى تجاه مسألة الاستحواذ على زوجة أخى أو حتى ارملته . لعل موقفى يعود إلى تأثير المبشرين على ، ولكنى اشعر بأن فى الأمر اكثر من ذلك ، ولا يتأثر موقفى بموت مديت او حياته . فلو كان حيا ، فانى اكون قد ارتكبت الزنا مع زوجة أخى . ولو علمنا بموته ، فقد يختلف الأمر نوعا ما ، ولكنى ايضا سأشعر بأن موته سيكون على فراشى مع اجاك كلما اجتمعنا بحيث يستحيل على ان انسى اننا معا بسبب ما جرى بينها وبين مديت .. لقد احسنت اجاك التصرف منذ اختفاء مديت وقد محا ذلك اى خطأ تكون قد ارتكبته قبل ذلك ، ولكننا بدخولى عليها سنوالى اعادة الفاجعة باستمرار . فبالرغم من نوايانا ، أشعر بأنى وهى سنكون على طرفي نقيض . هذا بالإضافة إلى أنى يا أبى لا أزال تلميذاً ومستقبلى أمامى . فأنا لا أستطيع أن أتولى مسئوليات الأسرة بعد .

استمع ملينقديت إلى ابنه فى تعاطف وهو يومىء براسه موافقا من حين لآخر . راقب إلياس بول رد فعل والده عن كثب وشعر بالتشجيع وهو يتحدث . وعند النهاية ، كان واثقا من انه قد تمكن من إقناع والده بصحة وجهة نظره .

تنحنح ملينقديت وتلفت حوله كانه يبحث عن مصدر للإلهام . وبعد ان تنحنح مرة اخرى بصورة تكاد تكون مفتعلة ، قال :

- لقد تحدثت يا بنى بكلمات قاهرة . دعنا نعيد التفكير فى الامر . وكالعادة دائما ، اعود انا إلى تقاليد اسلافنا واجد مخرجا اخر من الورطة . لعل اجاك تتصرف بهذه الطريقة خوفاً من لعنة أسلافنا بسبب ما فعلت . ويحق بالشخص أن يخاف لأن أسلافنا «شريرون» لأنهم لا يصفحون أبداً عن إهانة . ولكنى سأطلب منهم العفو عن أجاك وأن يباركوها ويردوا لها حرية العذراء بان تتزوج بمن تشاء . إنى موقن ان ابن رجل نبيل اخر سوف يطلق ماشيته من اجلها ويتزوجها . لنترك الامر فى الوقت الحاضر .

وفى الوقت المناسب ، بعث ملينقديت فى طلب اهل اجاك وافادهم بخلاصة ما توصل إليه هو وبول فى الأمر :

- إن الفتاة شابة وجميلة ومن اسرة نبيلة ، ولا ارى اى مشكلة فيما يتعلق بمستقبلها فى الزواج . ولا اخالنى فى حاجة لان اقول لكم بانى لا ارغب فى ارجاع ابقار الخطوبة . احضروا اجاك إلى فى الشهر القادم وسوف انثر عليها الماء المقدس

وامسح عليها الرماد المقدس من حريق روث ماشيتنا ، واطلق حبل الزواج من حول عنقها . بعد ذلك يمكننا إجراء طقوس الكفارة بين عشيرتنا لإزالة اى اثر للضغينة بيننا وإعادة علاقة الود وحسن المعشر . فعلى كل حال ، علائق الزواج قائمة بيننا ، إذ ان ابنتكم نياندينق زوجة كبرى وام لرجل مكتمل الرجولة فى هذه الأسرة . فلنبارك علاقتنا ونحافظ على وحدتنا وانسجامنا مع بعضنا البعض .

لم تمض أيام على اجتماع ملينقديت بأسرة أجاك عندما راى رجلا مقبلا تجاه مجلسه عند شجرة المحكمة . وبعد أن ركز حرابه على شجرة قريبة ، اقترب الرجل وحيا الزعيم أولا ثم واصل تحية بقية البارزين من الحضور ثم اختتم بأن رفع يديه فى تحية جماعية لبقية الجمهور من الحاضرين . وكانت على وجهه علامات حزن عميق .

وبعد دقائق ، أفصح الرجل عن أمره .

- ايها الزعيم ، لقد اتيت من أسرة والدة نياندينق وحين علموا انى فى طريقى الى هنا طلبوا منى ان اتوقف عندكم لافيدكم ان اجاك قد توفيت فجاة .

وتوقف الرسول وكانه يراقب رد الفعل عند ملينقديت .

- هل ماتت اجاك ؟

كرر ملينقديت القول وعيناه مفتوحتان وكأنه ينازع الرجل فى قوله المفجع ليحمله على انكار ما قال .

وأكد الرجل القول : نعم أيها الزعيم .

واتكأ ملنقديت على مؤخرة مقعده دون أن ينطق بكلمة وكأنه قد صعق .

وشرح الرجل بعد ذلك ملابسات الوفاة . بعد أيام قلائل من إفادتها بنتائج المباحثات مع الزعيم ، أسرت أجاك لأخيها بأنها تتوقع الموت خلال أيام وانه عليهم عدم التدخل لمنع الموت لأن ذلك هو مصيرها ، وأنها لا تلوم أحدا على موتها اذ انه من عملها هى . واذا رفع أحد مجرد عصا فى الثأر لموتها فان روحها سوف تسعى للانتقام فإن موتها يتم باختيارها فى معالجة امر عجزت عن معالجته بأى طريقة اخرى .

سأل ملينقديت :

- وكيف قتلت نفسها ؟

- يقال انها فعلت ذلك بان انتهكت حرمة شرب لبن البقر خلال فترة العادة الشهرية . بل ويقال انها شربت لبن ابقار الروح دينقديت المقدسة المخلوط بعصارة نبات سام لا يعلم احد كنهه . وكان اخوها قد اخذ يراقبها عن كثب واوصى النساء بمراقبتها خوفا من ان تشنق نفسها ، إلا انهم اخطاوا التقدير . وذات ليلة ذهبت إلى اخيها واخبرته بان الشىء الذى حدثته عنه سيحدث تلك الليلة وطلبت منه الايفاء برغباتها . وظل اخوها مستيقظا طوال الليل يراقب الكوخ اعتقادا منه انها ستذهب الى مكان ما لشنق نفسها ، إلا انها لم تغادر الكوخ . وصباح اليوم التالى وجدوا اجاك جثة هامدة .

وعندما بلغ خبر وفاة أجاك نياندينق ، أخذت تقذف بنفسها من مكان لآخر وهى تنوح بسيل من كلمات الحزن الذى تتفطر له القلوب مع التلويح اللاذع ضد أسرة زوجها والتى كانت تعتبرها هى المسئولة عن فاجعة أختها . وشعرت الاسرة بأن الوقت قد حان لابداء التعاطف والعفو بدلا عن الرد وتبادل الاتهامات ، وحزن الجميع أبلغ الحزن لوفاة أجاك . وتدريجيا عادت الأمور الى مجراها الطبيعى . ومع مضى الوقت ، بدا وكأن نياندينق نفسها قد نسيت تصرفها الذى ظهر ان الآخرين قد عفوا عنه وإن لم يكونوا قد نسوه تماما .

ومع أن بول قد حرص على إبداء التعاطف مع نياندينق بغية التسامى على الخلافات فى الأسرة ، الا أنه ، وفى قرارة نفسه ، كان يشعر بالمرارة مما بدا له من قسوتها تجاه أسرته هو ، وبخاصة تجاه مديت . وردت نياندينق بالمثل ، حيث أبدت الود الشديد تجاه بول ، وهى تجامله بمناداته بلقب الزعيم ، إلا ان الجميع كانوا يشعرون أن حقيقة شعورها تجاه ابن ألويل هو عكس ذلك ، ليس بسبب مديت واجاك وانما بسبب سمعة بول الشخصية . فقد كانت تشعر بالغيرة والحسد من ان ابنها هى ، أدول ، مجرد شاب عادى من الدينكا فى معسكر الابقار ، بلا مستقبل فى العالم الحديث ، بينما كان مستقبل بول يزداد فى البريق كل حين .

وقد بالغ الناس فى وصف انجازات بول التعليمية ، حيث قيل أنه قد فرغ من استيعاب كل ما يمكن تعلمه فى الجنوب لذلك سيرسل إلى الشمال . كما فسر خطاب النقيب على بفرص بول فى القيادة على أنه تأكيد جازم بأنه سيكون زعيما قوميا . وشعر بول بالحرج من كل ذلك ، لكن لم يكن فى وسعه عمل أى شىء فى المعارضة بخلاف إنكار تلك الروايات كلما لقيته .

وحان الأوان لسفره إلى حنتوب ، وازداد شعوره بالقلق لاقتراب موعد سفره للمدرسة فى الشمال . وذات صباح باكر جلس بول إلى جانب والده تحت الشجرة قبل أن يتجمع الناس وانتهز الفرصة للتعبير عن مخاوفه .

إنى يا والدى أتخوف نوعا ما من ذهابى للشمال . فأولا ان هذا يبالغ من تصاعد توقعات أهلى لمستقبلى . ثانيا ، فرغم أعجابى وارتياحى للنقيب على ، فانى لا ازال اشعر بالغبن تجاه العرب وشعورهم نحو أهلنا . ولا أعلم كيف اكون بالقرب الشديد من القوم الذين أنزلوا تلك المصيبة بأسرتى . فأنا لا ارغب حتى فى مجرد التظاهر بعدم كراهية العرب ، ولكن اذا أطلعتهم على حقيقة شعورى تجاههم ، فلا أرى كيف يتسنى لى العيش وسطهم . لذلك أتساءل عما اذا كنت أحسن صنعا بذهابى إلى الشمال

جمع ملينقديت أطراف ثوبه بين فخذيه كما يفعل عادة عندما يرغب فى الحديث ، واشار باصبعه تجاه بول ثم قال :

دعنى اخبرك يا ابنى . ان العداء المستحكم الذى تسمع عنه ليس بالامر الهين وهو يقتضى قلبا كبيرا . صحيح أنه بمقتضى عرف أهلنا لا ينبغى لك ان تشارك فى الطعام من تناصبه العداء . الا أن لأهلنا ايضا حكمة تقول بان تاكل من طعام عدوك لتكتسب القوة التى تمكنك من ضربه . والحكمة بين هذا القول وذاك .

لقد ذهب اخواك ، نعلم ان اشويل فى بلاد العرب اذا كان على قيد الحياة . واما بالنسبة لمديت ، فان من يغادر بلاد الدينكا يذهب ايضا إلى بلاد العرب . فاذا كان

حيا فسيكون هناك . اذهب يا بنى واكتسب المعرفة بالأشياء والقوة التى ربما تقودك يوما إلى طريق اخويك.. فاذا كان أسلافنا يرعون شئوننا ، فسوف تجدهما يوما ما ، وإن طال العهد . وأما الكلمات التى تهب بها الرياح فى هذه القبيلة ، فلا تنزعج لها لأنها ستذهب مع الريح . ولماذا تستحى من آمال قومك ؟ ألست أنت ابن زعيمهم ، وإذا أبقى الله على حياتك ، ألن تكون قائدهم فى يوم من الأيام ، سواء أكان ذلك هنا وسط القبيلة أم فى مكان آخر من البلاد ؟ لا تشغل بالك بهذه الهموم الطفيفة ؟ .

أراحته كلمات ملينقديت كثيرا وأحس إلياس بأن الذهاب للشمال ليس مجرد تطلع انانى وإنما هو جزء من واجبه تجاه أسرته وتجاه قبيلته . وشعر بأنه أهل للتحدى . الا أن ذلك لم يذهب بانزعاجه من البيئة الغريبة التى يوشك على الدخول فيها . وأثناء سفره بالقطار . أخذ يتفكر كيف سيكون العرب الذين سيعيش بينهم . فهو يعلم حقيقة شعوره تجاه العرب ، ولكن هناك أشخاص مثل النقيب على والذى ثبت أنه رجل كريم وانسانى ، رغم أنه رمز للاضطهاد فى الجنوب . لذلك ذكر إلياس نفسه بضرورة عدم التعميم الزائد فى أحكامه .

وخلال سفره إلى الشمال وردت الانباء بأن جابر المنير والذى سبق أن استولى على السلطة بالقوة العسكرية ووعد بحل « مشكلة الجنوب » ، قد تمكن من التفاوض مع الثوار الجنوبيين والوصول إلى اتفاقية سلام أنهت الحرب الاهلية التى استمرت منذ الاستقلال . منحت الاتفاقية الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب . ورغم أنها لم تقبل من جميع الاطراف . إلا أنها نجحت فى تحقيق السلام وقدر من الوحدة الوطنية فى كل البلاد . من المؤكد أن الأحوال قد تحسنت بين الشمال والجنوب ، وبين الدينكا والعرب .

الفصل الحادى عشر

خلال رحلة القطار التى استغرقت عدة أيام عبر إلياس مساحات شاسعة ذات تضاريس متنوعة، تمثل نطاق السافانا الغنى بالأعشاب الطويلة والغابات ذات الأشجار الضخمة وتحتها الأعشاب الكثيفة، تتخللها قرى على سهول ذات أرض صلبة لاتنبت عليها إلا أشجار السنط والأعشاب القصيرة. واصل القطار زحفه من محطة إلى محطة عبر القرى والغابات وسهول الأعشاب الكثيفة التى ترعى فيها قطعان الدينكا من الماشية والخراف والماعز ومعها الرعاة طوال القامة وهم عرايا الأجساد أو عليهم القليل من الثياب . ومن وقت لآخر يظهر رجل واقف على ساق واحدة وقد اتكأ على عود حربته بيده اليمنى ، ويبدو طويلا بصورة مبالغ فيها بالمقارنة إلى انبساط الأرض من حوله . وبينما واصل القطار تدحرجه نحو الشمال ، بدأت بقع من التلال والأراضى المرتفعة فى كسر رتابة السهول المسطحة . كذلك بدأت الأعشاب القصيرة شبه الصحراوية حتى جاءت مرحلة البساط الأخضر لأرض الجزيرة المروية على ضفاف النيل الأزرق ثم وصل القطار إلى واد مدنى حيث تقبع مدرسة حنتوب على الجانب الآخر من النهر .

وفى أول أيام المدرسة ، تم تقديم إلياس إلى مدير المدرسة واسمه مصطفى مختار ، وهو رجل متين البنية فى أوائل الاربعينات من العمر ويتمتع بمزاج فكه وإن كان خفيا نوعا ما . وبمجرد أن دخل إلياس إلى مكتب مدير المدرسة بصحبة عبد الرحمن موسى التلميذ المفوض (رئيس الفصل) علق مصطفى وهو يصافح إلياس :

– إنك اكثر منى عروبة من حيث اللون .

وضحك إلياس وعبد الرحمن على ذلك التعليق . وكان ذلك حقا حيث إن مصطفى ، الذى يصفه الشماليون امثاله بأنه « ازرق » اللون ، كان أسود اللون وزنجى الملامح كما يمكن لأى افريقى أن يكون . ولكن بمقتضى الاشياء فى السودان ، كان مصطفى عربيا .

وقرر إلياس أن يرد بتعليق مشابه حول أمر العرق واللون فقال :

- من ناحية امى ، وفى مكان ما فى جيل جدة جدتى ، يوجد دم عربى مركز .

فهم مصطفى مختار مرمى الإشارة وأراد الخروج على المقارنة فقال :

- حسنا يا بنى ، إنك تبدأ مغامرة مثيرة . لقد فرق الاستعمار بين جزاى بلادنا وحرص على التفريق بيننا من ناحية العرق والدين والثقافة . وعلينا العمل جاهدين لكسر الحواجز بيننا . إن حضورك هو خطوة عظيمة وبالغة الدلالة . لن يكون الامر هينا عليك ، لا فى قاعة الدرس ولا وسط زملائك خارج القاعة ، ولكن عليك المجاهدة لتحقيق حلم راعيك المخلص النقيب على .

امتعض إلياس من الاشارة للنقيب على بأنه الراعى المخلص لإلياس ، لكنه أراد أن يأخذ الأشياء بصورة إيجابية فقال :

- سابذل غاية جهدى .

واصل مدير المدرسة حديثه قائلا :

- بالنظر الى قامتك الجسدية ، فقد حصلت المدرسة على صيد ثمين للأغراض الرياضية .

ابتسم إلياس وهو يرى أن مقدراته الرياضية قد أخذت موقع الأهمية الأولى فى تقييم مؤهلاته . انهى مدير المدرسة المقابلة بقوله :

- إذا واجهتك اى مشكلة ، فلا تتحرج فى الحضور إلىّ .

وسرعان ما اثبتت حنتوب صحة نبوءة المدير حيث كانت مصدر تحد وتكوين لشخصية إلياس . كان إلياس متخلفا كثيرا فى اللغة العربية واحتاج فى ذلك لإشراف وتدريس خصوصيين ليحقق الحد الادنى للمرحلة الثانوية . كما كانت معرفته بالدين الاسلامى غائبة تماما . ورغم انه لم يتحتم عليه المشاركة فى دراسة الدين الإسلامى ، إلا انه اختار أن يدرس الإسلام وتاريخ العرب باللغة العربية .

ومع أن درجاته فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية قد خفضت من مستواه العام ، إلا أن أداءه فى باقى المواد كان جيدا . وكانت مشكلته الرئيسية هى التوازم الثقافى حيث أحس ، فى اغلب الاحوال ، بالعزلة لعجزه عن التعبير عن نفسه باللغة العربية ، فكان يشعر بالحرج فى تصرفاته وبأنه اجنبى فى بيئة غريبة . واكثر ما اثار الحيرة فى نفسه هو التناقض بين عزته العرقية بل وشعوره بالتفوق بأنه من الدينكا ، ومعرفته أن عملية التعريب التى كان يتعرض لها هى فى جوهرها عملية ترفيع ثقافى له ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، ولكن لذكائه وحساسيته وعزته ، فقد أمكنه التوازم بسهولة نسبية . وقد جعله ذلك ، بالإضافة الى قدراته الرياضية ، محبوبا فى مجتمع المدرسة .

وما كان لادائه الرياضى أن يكون بذلك التميز لولا السمعة الشائعة بارتباط جنسه بالقدرات الجسمانية . وقد أكد تلك الافتراضات العرقية مقدراته الرياضية فى كل أنواع الرياضة تقريبا . فبالاضافة لكرة القدم وهى اكثر الالعاب شيوعا ، كان يلعب كرة السلة والكرة الطائرة وتنس الطاولة ، كما كان يمارس الجرى والقفز العالى والقفز الطويل وقذف الرمح والسباحة . وفى عموم الحال ، كان يملأ كل موقع يحتاج للملء . وكان يدرك أن

هناك نوعا من التمييز العنصرى فى بروزه الرياضى وكان ذلك ظاهرا فى مناداته اثناء التشجيع « إلياس ، إلياس ، بول بول .. العبد ، العبد » . وأدرك إلياس أن الإشارة له بأنه العبد لم يقصد منها الإهانة إطلاقا من وجهة نظر السودانيين الشماليين . وعلى العكس من ذلك ، فقد كان لقبا يعبر عن المحبة والإعجاب على الرغم من جذوره العنصرية . فقرر أن يكون متفهما والا يرفض إعجاب زملائه الذى حول الإهانة إلى إعجاب وتقدير .

ومع كل ذلك ، فقد كان إلياس مستوحشا فى حنتوب ، وكثيرا ما انسحب خلسة للمشى على ضفاف النيل الأزرق وأخذ يتذكر أهله وأصدقاءه الذين خلفهم وراءه فى الجنوب . فكان يغنى أغانى الدينكا لنفسه وأحيانا يتحدث بصوت مرتفع ويضحك على نفسه وهو يتساءل ما إذا كان قد اصابه الجنون من شدة الوحشة . ورغم ذلك ، أدرك الياس أنه رغم حنينه إلى أهله ، فقد أخذت عاداته وثقافته فى التحول منذ حضوره إلى الشمال . وكان واعيا بصورة واضحة بعملية التعريب الواقعة عليه رغم انه لم يكن عربيا بحال من الأحوال . وعلى العكس من ذلك ، فكلما ازداد اخذه بالأساليب العربية تأكدت عزته وفخره بأنه من الدينكا . وكأنما كان قبوله للأساليب العربية هو مصدر لتوثيق عزته الداخلية والتى تذهب جذورها عميقا فى نسبه واصله الثقافى من الدينكا . إلا أن الأمور كانت من التعقيد بدرجة أعجزته هو عن تصنيف هويته العرقية فى مواجهة الشعور بالخضوع للتفوق العربى .

وذات صباح وبعد تناول وجبة الافطار وجد الياس معتصم محمود فى انتظاره وعليه حالة من الانزعاج حيث قال له :

- لقد حضر رسول للبحث عنك وقال أن مدير المدرسة يرغب فى مقابلتك .

واضاف فى حب استطلاعه المعهود :

- هل تعلم السبب الذى يرغب فى لقياك من اجله ؟

اجاب إلياس فى عدم اهتمام يشوبه التوتر :

- ليست لدى ادنى فكرة عن الأمر

ثم اسرع مبتعدا فى طريقه الى مكتب المدير .

ولدى دخوله المكتب ، حياه المدير بقوله :

- آه الياس ، ادخل . لقد ارسلت لأخبرك بالأخبار الطيبة .

وشعر إلياس بالراحة لذلك . واصل المدير الحديث بقوله :

- لعلك تعلم او لا تعلم ، فعندنا سياسة فى هذه المدرسة بعدم السماح للطلاب الذين لم يدفعوا كل مصروفاتهم المدرسية ، بما فى ذلك المتأخرات ، عند نهاية الفصل الثانى . بعدم السماح لهم بالاستمرار الى الفصل الثالث والذى تبدأ فيه مقررات الشهادة السودانية . ولكننا نستثنى من ذلك الطلاب الفقراء الذين يتلقون اعانات من مجالسهم البلدية او الريفية او من مصادر اخرى موثوق بها . تقديرا لظروفك كطالب جنوبى ، فقد كتبت لصديقك النقيب على ، والذى تمت ترقيته الى مقدم ، للسؤال عن طريقة دفعك للمصروفات . وقد تلقيت لتوى ردا منه ومعه شيك ليس فقط بالمتاخرات وانما ايضا بباقى المصروفات حتى نهاية فترتك بهذه المدرسة . انك

سعيد الحظ حقا ان يكون هذا المسلم الطيب هو راعيك المخلص . بالمناسبة ، كيف التقيت به ؟

شعر إلياس بالارتباك إذ انه لم يسأل مطلقا عن المصروفات المدرسية .

كيف جاز لمدير المدرسة أن يفترض انه أفقر من أن يقدر على دفع المصروفات ؟ فسأله بهدوء وهو يجاهد للتحكم فى نفسه :

- هل يمكننى السؤال عن قدر المصروفات المدرسية ؟

- اتعنى انك لا تعرف ؟ يا للعجب !

- لم يخطرنى احد ابدا !

واصل مدير المدرسة الحديث فقال :

- إنها خمسة عشر جنيهاً للعام . أتصور أنها تعادل قيمة بقرة فى اصطلاح الدينكا .

قال الياس فى اعتراض سريع :

- الا تعتقد يا سيدى ان والدى قادر على دفع تلك البقرة ؟

يا بنى لا تتفاخر

قال المدير ذلك فى صدق ثم أضاف القول :

«كن شاكراً ، كن شاكراً» وهو يكرر القول للتأكيد لو كنت مكانك ، لكتبت بالشكر للمقدم على . وعلاوة على ذلك وتقديراً لكرمه ، عليك بالاجتهاد للاستفادة من وجودك بالمدرسة . وبالمناسبة هل فكرت فى الانضمام إلى الإسلام ، دين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام؟ ألا ترى القدوة الحسنة للمسلم فى سلوك المقدم على » .

أصبح إلياس وقتها يغلى من الغضب وقد امتلأ ذهنه بالهيجان الذى أفقده القدرة على التفكير السليم . وفكر فى الخروج غاضبا من المكتب ، إلا أن ذلك لم يكن ليجدى فى شىء ، بل لعله يزيد من الأذى . وفكر أيضا فى ضرب المدير ، ولكن كيف يقدر الآخر الدوافع التى تحفزه إلى التصرف بتلك الطريقة الخرقاء ، وبدلا عن ذلك احتفظ إلياس بهدوئه الخارجى مما أوحى للمدير بأنه بسبيل من تحقيق أهدافه فواصل الحديث :

- هل رأيت بناتى ؟

دهش الياس لذلك القول إذ انه فى غاية الغرابة أن يتحدث مسلم عن نسائه بهذه الطريقة المباشرة . كان الياس قد سمع كثيرا عن جمال بنات المدير من أم مصرية تبدو كأنها أخت لبناتها أكثر منها أما لهن ، رغم أنها تجاوزت الأربعين من العمر . كن سمراوات فى لون النحاس ، طوال الأعناق هيفاوات الأعواد وكأنهن نماذج لرسوم الجمال الفرعونى العتيد .

أجاب الياس بقوله :

- لم انشرف بلقياهن ولكنى سمعت كثيرا من الاطراء لهن .

واصل مدير المدرسة الحديث وعلى وجهه ابتسامه عابثة :

- لا .. لو كنت مسلماً لما كان هناك مانع بينك وبينهن ولسعدت أنا بمنحك من تختار منهن . فبالنسبة لنا نحن المسلمين ، فان الذى يهم هو الدين . ولدرجة معينة هناك اعتبار اللغة والثقافة . وبفضل المقدم على ، فإنك الآن فى مدرسة تضمن لك

العنصرين الأخيرين وتعرفك بالعنصر الأول . وكل ما تحتاج له هو أن تقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وبذلك تصبح مسلماً فوراً وبذلك لاتقل درجة عن أى مسلم آخر .

قرر إلياس أن لا داعى للنقاش إذ ان ذلك سيؤدى حتما الى الشجار . وبدلا عن ذلك ابتسم بطريقة تخفى تعالى الرجل الاكبر والأكثر حكمة .

وشعر المدير بالتحدى فى رد فعل الياس ، فاتخذ حجة اخرى :

- اتعلم ان الاسلام هو دين الاغلبية فى ذلك البلد ..

- نعم ياسيدى ، اعلم ذلك .

- فماذا اذن ؟ الا تؤمن بالديمقراطية ؟ لماذا تضع نفسك فى موضع الضعف بالانتماء الى الاقلية ؟ فعلى كل حال ، لو كنت تحلم بالزعامة فى هذه الأمة ، فهل يمكن ان تحقق طموحك وانت مسيحى ؟ انك يابنى فى العمر الذى يمكنك من ان تكون حكيما . انى اتحدث اليك بهذه الطريقة لانى اود ان تكون مسلما عن قناعة وبلا إكراه . ان الاسلام هو دين التسامح والاقناع وليس دين الاكراه .

سخر إلياس من ذلك القول ، فقد علمه المبشرون المسيحيون ان الاسلام هو حقا دين العنف وأنه يصنف غير المسلمين بانهم اعداء يجب اخضاعهم الى الدين الاسلامى بحد السيف . ألم ينشر محمد رسالته بقوة السيف ؟ وعلى النقيض من ذلك ، فان المسيحية هى دين المحبة الذى يقتضى من معتنقيه ادارة الخد الآخر فى مواجهة الاعتداء العنيف .

إلا ان الياس لم يقدر على قول ذلك لمدير المدرسة واحتفظ بافكاره لنفسه .

- تفكر فى هذا يابنى ، وإذا اقتنعت بفضائل الاسلام فساكون انا اسعد الناس بذلك . انى اعتقد انك ولد نجيب ذو مستقبل طيب . اعن ربك على اعانتك لتحقيق ذلك .

- شكراً لك ياسيدى : قال الياس ذلك وهو يشعر بأنه أعزل تجاه عصبية المدير الساذجة ، ولم يدر هل يشعر بالغضب أم العطف تجاه الرجل وكل مايمثله بالنسبة له .

كان معتصم فى تشوق لمعرفة غرض المدير من طلب الياس . وعندما سمع الرواية ، قال :

- لا بد انه يرتاح لك كثيرا ، فمن غير المعهود عنده ان يكون بهذه الصراحة . أما بالنسبة لعرضه احدى بناته لك فانى اعرف الكثيرين ممن يقفزون لانتهاز الفرصة . لاتكن أحمق وانقذ روحك وخذ احدى بناته فى آن واحد . ماذا فعلت المسيحية من اجلك على كل حال ؟

كان الياس وقتها يعرف معتصم لدرجة تعصمه عن الشعور بالغضب لتلك الاهانات . وقدر الياس انه حسن النية ، او أنه على الاقل لا يقصد شرا أو اساءة له .

ولكن لم يكن كل من فى جنتوب يرغب فى تحويل الياس الى الاسلام . وعلى العكس من ذلك ، فقد دعم زملاؤه اليساريون شعوره المضاد للاسلام وشجعوه فى ذلك ضد خصومهم السياسيين وهم الاخوان المسلمون . كانت هناك جماعتان سياسيتان فى المدرسة : الجبهة الديمقراطية الى اليسار والاخوان المسلمون الى اليمين . كما كان هناك المستقلون الذين لايعنون بهذا او ذاك ، وكان معتصم من المستقلين ، وفى الغالب يوصف المستقلون بأنهم عديمو المبادىء ، سوى أنهم حريصون على الدرس ، وهو امر غير محترم وسط زملائهم الطلاب .

اتصل به السكرتير العام للجبهة الديمقراطية خلال ايامه الأولى بالمدرسة وقال له :

- اذا لم تؤيدنا فإنك بذلك تؤيد منافسينا الاخوان المسلمين وفى دولتهم الاسلامية سينحط قدرك بان تكون من « أهل الكتاب » ، وهم مواطنون من الدرجة الثانية ، هذا اذا لم تعتبر من اهل الحرب الذين يكون المسلمون معهم فى حالة حرب . لا ارى اى فرصة للشك فى الاختيار السليم بالنسبة لك .

- كانت ميول إلياس اليسارية هى طلب المساواة بقدر ماكانت عداء للاسلام والذى نجم عن تطبيعه المسيحى . ولأنه كان يفضل النقاش باللغة الانجليزية التى كان يجيدها اكثر من خصومه مما يقلل من جدواهم ويسعد رفاقه اليساريين .

كانت حجة الياس تقول:كيف تزعمون ان محمداً هو خاتم الانبياء فى الوقت الذى لم يزد هو عن تلميع مبادىء اليهودية والمسيحية ، التى التقطها فى اسفاره التجارية بين المسيحيين واليهود ؟ وكيف تبررون ان هذا الرجل الذى يمثل عندكم قمة الورع الاسلامى ، قد كون أرباحه المذهلة من التجارة لراعيته خديجة التى تزوجها فيما بعد رغم الفارق الكبير فى السن بينهما ؟ وكيف تفسرون تناقض مبادئه فى امر الزواج اذ سمح للمسلمين بزواج أربع زوجات كحد اقصى بينما تزوج هو اثنتى عشرة زوجة ؟ وقد احتار إلياس من ادعاء المسلمين أن القرآن هو كلام الله الذى أملاه حرفيا على محمد . فعلى كل حال ، لاتعدو أجزاء من القرآن أن تكون نصوصا مراجعة من التوراة والانجيل .

كما كانت للمسلمين حججهم أيضا : « **أليس من التجديف على الله القول بان لله ولدا ؟ واذا كان المسيح هو ابن الله كما يدعى المسيحيون ، فكيف يمكن القول بأنه قد صلب ؟ فحتى باعتباره نبيا كما يعترف به المسلمون ، فمن المنظور الاسلامى لم يشأ الله له أن يضحى به . وبدلا عن ذلك ، فقد توهم خصومه انهم قد صلبوه بينما انقذه الله ورفعه اليه فى السماء** » .

وهكذا تواصل النقاش بلا نهاية ، فكان ساخنا أحيانا وهادئا أحيانا أخرى ، بينما كان إلياس دائما هو محور الاهتمام مما أسعد رفاقه اليساريين .

كان الياس يقضى عطلته الصيفية عند أهله دائما . وبما انه قد ترقى فى المكانة الاجتماعية ، اذ أن التعليم الثانوى فى ذلك الوقت كان من الانجازات الكبرى ، فقد أخذ الياس الجلوس فى المقعد الامامى جوار السائق . ويعتبر ذلك الموقع بمثابة الدرجة الأولى ، حيث يجلس عامة الناس القرفصاء على الجوالات وأوعية البضاعة فى مؤخرة الشاحنة ، فى رحلة شاقة قلما تنتهى بلا شجار بين المسافرين .

وذات يوم كان إلياس والسائق مستغرقين فى الحديث عندما سمعا قرعا عاليا على سقف العربة . وعندما توقف السائق ، أطل عليه مساعد السائق الذى يجلس على السقف ، ليقول :

- ان العبيد يتشاجرون ..

وقفز الياس الذى كان يجلس فى الطرف الآخر من المقعد الامامى ، قفز الى خارج العربة بصورة تلقائية وقد استفزته العبارة المهينة اذ أن أغلب المسافرين كانوا من الدينكا ومعهم بعض الأعراب .

وقال إلياس للمسافرين فى صوت معاتب يجمع بين التضامن معهم والحرج :

- ماشانكم ايها الناس ، الا تدركون خطورة الشجار على عربة متحركة ؟ مع هذا الازدحام ، الا ترون ان احدكم قد يدفع به الى الارض ؟ ..

صعق المسافرون ، اذ كانوا يفترضون أن الرجل الجالس في مقدمة العربة مع الأعراب هو عربي أيضا ، فاذا به يخاطبهم في لغتهم بطلاقة تامة .

وفجأة تحول الشجار الى ضحك ، وسأله أحد الكبار - اين تعلمت ان تتحدث بلغة الدينكا بهذه الجودة ؟ » كاد إلياس أن يجيبه بأنه من الدينكا ، ولكنه غير رأيه وقال - في بلاد الدينكا » .

علق الرجل الكبير مبتسما : - اقسم انه يتحدث وكانه من الدينكا » .

وادرك إلياس أن أهله يتصورون ان كل شخص متعلم ، وخصوصا إذا كان يشعر بالاسترخاء في الدوائر العربية ويشارك في الثقافة العربية ، انه ولاشك عربي أيضا . ورد إلياس ذلك الى الجهل والتدني الاجتماعي معا . وتقديرا منه لعدم جدوى النقاش حول ذلك الأمر ، قفز إلياس مرة أخرى إلى داخل العربة بعد أن صوب نظرة حادة الى مساعد السائق وهو يقول : الا تعلم أن استخدام هذه الكلمات المستهترة قد يؤدى بك الى السجن ؟ »

علق مساعد السائق بلهجة معتذرة ، وقد شعر بالتواضع والخطر امام إنذار إلياس الحاسم في تسامح ، علق بقوله - إننا جميعا عبيد الله ، ولكن معذرة ، لم اقصد إهانة احد بما قلت » .

سكت إلياس على ذلك وتواصلت الرحلة . وعندما وصل إلياس الى قرية داك - جور حكى لوالده عن كرم المقدم علي ، وأراد ان يرد إليه ما دفع من اجله الا ان والده خالفه الرأى وقال

- يابني ، أنه من دواعي الرضا أن تعطى اكثر من ان تتلقى ، ولكنه من المهين للمرء ان ترد اليه هديته . لاترد عليه بدفع المال ، وسنفكر في هدية مناسبة عندما يحين وقت عودتك » .

كان ترقى إلياس من الناحية الاجتماعية والثقافية ظاهرا ، وقد أخذ يرتدى الجلباب الطويل الأبيض في المنزل ، مما أوحى بتطبعه بالثقافة العربية والتى تعتبر عموما من مظاهر الصعود إلى أعلى الهرم الاجتماعي على المستوى القومي . كما أخذ الياس يقوم بدور المترجم في القضايا والاجتماعات التى تشتمل على العرب ، وفي أغلب الأحوال كان اداؤه يحظى بعبارات الثناء والاعجاب من العرب . وقال أحد الاعراب ذات يوم لملينقديت في غرور ساذج :

- لم يعد ابنك من الدينكا وانما أصبح عربيا » .

وتجاوز ملينقديت الاهانة غير المتعمدة بطريقة كريمة حين قال :

- نعم لقد اصبح من ابناء السودان .

كان إلياس في عطلة العام الدراسي الثالث من حنتوب عندما تلقى الأنباء المثيرة من المدرسة . كان قد عاد لتوه من نزهته المعتادة على ضفاف النهر ذات عصر معتدل الطقس عندما ناوله والده مظروفا يحتوى على رسالة من مدير المدرسة . نزع إلياس المظروف في لهفة وأخذ يقرأ : « ايها الزعيم العزيز انى اكتب لك بشان ابنك الياس بول . كما تعلم ، فان الياس صبي نجيب ، حسن الخلق ، طيب المعشر ويتمتع بحب وتقدير

معلميه وزملائه الطلاب . ولكن لابد لى من اخطارك باننا فى غاية الانزعاج لمستقبله . رغم انه قد حقق تقدما ملحوظا فى اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، الا انه لايزال متخلفا فى هاتين المادتين ومن غير المتوقع أن يتمكن من اللحاق بزملائه عندما يحين وقت امتحان الشهادة السودانية . ونخشى ان تكون النتيجة هى عدم تحقيقه للمستوى الذى يؤهله لدخول الجامعة . هذا ، بينما لو ادى الامتحان فى الجنوب ، فانه سيتفوق على الطلاب الجنوبيين فى هذه المواد وتشرق درجاته بصورة اكبر . إنى اقترح هذا بكثير من التردد ، ولكنى افعل ذلك لمصلحته هو اذ من الخير له ان يعود مرة اخرى للدراسة فى الجنوب .

وقد اطلعت المقدم على على الامر بوصفه الراعى المخلص لالياس ، وهو يوافقنى الراى رغم انه يرغب كثيرا فى ان ينجح الياس فى الشمال . وبناء على ثقتنا فى انكم سترون حكمة قرارنا ، فقد مضينا قدماً فى تنفيذ تحويله إلى مدرسة فى الجنوب . اود ان أؤكد لكم ان هذا الاجراء يسبب لنا اشد الالم ، اذ اننا جميعا مولعون بالياس ، ونتطلع الى ان نراه يصعد سلم القيادة فى هذا البلد » .

اصابت الصدمة الياس اذ انه لم يدر بخلده أن اداءه المدرسى كان بذلك المستوى من الضعف . لماذا لم يخبره احد بأن اداءه غير مُرْضٍ ؟ وكيف يتواطأ مدير المدرسة ، وقد أصبح موضع تقديره بل وثقته ، يتواطأ بنقاش الأمر مع المقدم على من وراء ظهره هو ، ويكتب لوالده دون أن يشير مجرد اشارة مباشرة للأمر معه هو ؟ وشعر إلياس بالخيانة ، وأنه ليس هناك من يمكنه ان يثق به فى ذلك الشمال الشائك . وعقد العزم على عدم العودة للمدرسة فى الجنوب ولا لحنتوب . ولكن ماذا تراه فاعلاً ؟ كان عليه الإجابة على السؤال بنفسه إذ لا يملك أحد مساعدته . وذات عصر وهو يتمشى على ضفاف النهر ، خطرت له فكرة الانضمام الى الجيش . فعلى كل حال ، ورغم تعليمه ، فهو يأتى من ثقافة عسكرية . فكر فى « جماعات الانداد » التى ينشأ فيها الشباب ويتدربون ليصبحوا محاربين . كان سعيدا أنه قد أعفى من محنة التدشين ، ولكن ألا تتحقق له نفس العزة ونفس المبادىء التنظيمية من خلال التدريب العسكرى ؟ الا يمنحه الجيش مخرجا من ورطته التعليمية ؟ إذا كان الامر كذلك ، فسيحتاج للحصول على الشهادة المدرسية السودانية ، ولذلك الغرض يمكنه الاستفادة من عاطفة المقدم على الابوية تجاهه . لقد كان يعلم تماما ماينبغى عليه أن يقول ، ولكن هل يكون ذلك اكثر جدوى لو جاء منه هو أم من والده . وقرر أن يكون الحديث منهما معا .

قال فى خطابه : « عزيزى المقدم على . لقد اعنتنى كثيرا لدرجة انى لا اعرف كيف اشكرك ، دع عنك ان اطلب منك خدمة اخرى » . ثم واصل الخطاب فى تلخيص وقائع الموقف ثم اضاف « لقد خلصت الى ان الالتحاق بالجيش هو احسن البدائل المتوفرة لدى ، بل هو اختيارى الاول . انى فى حاجة لمساعدتك للالتحاق بالجيش ، وحاجتى اليك الآن اكثر من حاجتى اليك فى اى وقت مضى . يتحتم على النجاح فى الشهادة المدرسية وقد عقدت العزم على الحصول على النجاح كطالب منفرد وليس عن طريق إحدى المدارس . ارجوك ان تساعدنى ..

أما خطاب والده ، الذى كتبه إلياس ايضا بالطبع اذ ان والده كان اميا ، فقد كان مصاحبا للهدايا المختلفة التى ارسلها والده تعبيرا عن الشكر والامتنان للمعاونة التى

اسداها المقدم على لالياس . اشتملت الهدايا على وعاء من العسل وآخر من السمن وعدد من الاطعمة المنتجة محليا والأعمال الفنية اليدوية التى يقدرها العرب من أهل المدن كثيرا . وأضاف الخطاب - أعلم أن ابنى يطلب منك خدمات اخرى . ليس لدى ما اضيفه الى خطاب ابنى فى ذلك الخصوص سوى أن أقول أنه قد اصبح ابنك انت كما هو ابنى انا ..

وبعد أيام من ذهاب الخطابين الى المقدم على ، حيث حملهما باليد احد المسافرين الى الخرطوم ، تلقى إلياس زيارة مفاجئة من خاله البير الذى كان مقدمه مصدر سعادة خاصة لالياس ولوالدته الويل . أجلس البير وقدم له الماء للشرب بينما بدأ الاعداد لانواع الضيافة الأخرى . كان البير يزور الياس كلما عاد من المدرسة وكذلك قرب موعد سفره ، وذلك لتقديم مباركة الخال المعهودة - ولكن ماهو غرض تلك الزيارة ياترى ؟ وبعد أن تجاذب البير أطراف الحديث مع الأقارب والضيوف الآخرين ، طلب أن يختلى بابن أخته : فذهبا للجلوس تحت شجرة .

- يابن اختى ، لقد سمعت شيئا ازعجنى كثيرا ، فقررت ان احضر لاتعرف منك مباشرة على حقيقة الامر ..

لم يتمكن إلياس من التعرف على الشىء الذى يمكن أن يزعج خاله لهذه الدرجة . على كل حال لم يتصور أن يكون ذلك شيئا قد فعله هو . وظهر القلق وحب الاستطلاع على وجهه العابس .

- لقد سمعت انك تود الالتحاق بالجيش ، فهل هذا صحيح ؟ »

ارتاح الياس لأن يكون ذلك هو السبب الوحيد لانزعاج خاله ، فأجاب بالايجاب .

تحدث البير بلهجة السلطة الاخلاقية لمن هو أكبر سنا فقال :

- استمع لى جيدا يابول . حسب أعراف أهلنا الدينكا ، فان الزعامة تنقسم الى قسمين . هناك الذين يؤدون مهام الحرب من التخطيط وأداء الطقوس قبل الهجوم او لمواجهة الهجوم . ولا اعنى من يقاتلون فعلا اذ ان الجميع يقاتلون عندما تواجه الحرب أهلينا ، ماعدا الزعماء وكبار السن (الذين لايقومون بالقتال) . ولكن هناك نوع آخر من الزعامة وهو الاكثر اهمية لأهلنا ، الا وهى الزعامة فى السلم ، زعامة الكلمة المقدسة ، وقد خص الله اهلنا بهذا النوع من الزعامة منذ بدأ الخلق الأول . اولئك هم الزعماء الذين نطلق عليهم لقب « زعماء اللحم » ونصفهم بهذه الصفة لأن سلطتهم الروحية تجرى فى دمائهم . عندما تنهار الامور وعندما ينشأ العراك او الشجار بين افراد المجتمع وعندما تقوم الحرب بين طوائف اهلهم او يكونون فى حالة حرب مع الآخرين ، فان « زعماء اللحم » هم الذين يتدخلون لاحلال السلام . اولئك هم الزعماء الذين تقدر كلماتهم على اصلاح العلائق بين الناس عندما يلحقها الوهن والفساد .

من كلا طرفى أسرتك ، من ناحية والدك ومن ناحية أمك ، فقد كان أسلافك هم زعماء السلم وليس زعماء الحرب . ولا يعنى هذا أن افراد عشيرتنا لا يذهبون الى الحرب ، فنحن نقاتل . ولدى التحقيق ، فنحن مشهود لنا بأننا مقاتلون

ولكن زعيم العشيرة لايذهب الى الحرب ، ولاينبغى له حتى مشاهدة الدم عندما تذبح البهائم فى الفداء ، دع عنك مشاهدة الناس وهى تتحارب ويقتل بعضها بعضا . إن دور الزعيم هو البقاء فى منزله والصلاة من أجل السلم أو من أجل النصر لمن هو على حق والهزيمة للمعتدى . لاينبغى للزعيم التسامح عن العدوان ، وعليه مناهضة العدوان بواسطة قواه الروحية . عليه أن يرسم خطا على الأرض ويضع حرابه المقدسة على ذلك الخط ويدعو الله والأرواح أن تعاقب من يعبر الخط .

بول ، ياابن اختى ، ليس للزعيم مليتقديت ابن آخر ليتولى تلك الزعامة . انت هو الابن . كيف يجوز لك ان تاخذ السلاح وتقاتل ؟ من الذى يبقى ليقاتل بقوة الكلمة ؟ لا ، .انى أرفض هذا .

تاثر إلياس لكلمات خاله ، وبخاصة لثقته بقدرة إلياس على القيادة ، إلا انه كان واثقا ايضا ان ذلك الحديث هو صوت الماضى إذ أن نوع الزعامة التى يتحدث عنها البير فى سبيلها الى الانقراض بسرعة . إن نوع الزعامة التى تجد أدنى حظ من الجدوى فى العالم المعاصر هى الزعامة المدعومة بقوة السلاح . لم يتورع إلياس عن مخاطبة خاله بكل الصراحة اللازمة .

- ياخالى ، لقد لمست كلماتك قلبى ، ولكن يتحتم على أن اخبرك بان عالمنا يتغير ، وان ماكان حقا بالنسبة لمجتمعنا بالأمس لم يعد كذلك اليوم . مع ان الزعماء لايزالون فى خدمة اهلهم من خلال كلمات الحكمة ، فان السلطة الحقيقية التى تدير شئون البلاد اليوم هى سلطة الحكومة والتى تعتمد ، فى نهاية الأمر ، على الشرطة والجيش . حتى السياسيون الذين يسعون الى السلطة عن طريق الانتخاب لا يقدرون على فعل شىء عندما يعارضهم أولئك الذين يحملون السلاح ويقررون الاستيلاء على السلطة . ان الرجل الذى اسمه منير يحكم هذا البلد اليوم ليس لأنه مدعوم بسلطة روحية وليس بسبب قوة كلماته وانما لمجرد السلاح الذى يحمله هو وجنوده . اعتقد انه قد آن الأوان لأن ندعم قوة كلماتنا بقوة السلاح . لهذا السبب قررت انا الانضمام الى الجيش ..

أجاب البير بقوله :

- انى اسمع ماتقول يابول ، ولكنى سمعت والدى يقول بانك ستكون زعيما لقومنا فى يوم من الأيام . ولم يكن والدى من الذين يلقون بالقول جزافا . كانت كلمات والدى عزيزة ولم يتحدث فى ثرثرة فارغة . كل ما يتنبا به والدى يتحقق تماما كما رآه هو وان طال الزمن . لقد كان شديد الولع بك كما تعلم ، الا ان ذلك ليس هو لب الموضوع . فحقيقة الامر انه قد راى شيئا عنك انت وعن مستقبل اهلنا . وانتظر انا أن تتحقق نبوءته . لا اعتقد ان والدى قد راى زعامتك المدعومة بقوة السلاح ، اذ كان ممن يعتقدون فى قوة الكلمة المدعومة بارادة الله ..

مع تقدير إلياس لمنطق خاله ، إلا انه لم يراوده الشك أن ذلك المنطق انما يعبر عن قيم نظام خلفه الزمان ولم يعد له مكان أو قيمة كبيرة فى عالم الدولة القومية الحديثة .

ورغم قوة قناعته الأخلاقية ، فقد كان البير هو الذى اختتم الحديث فى محاولة توفيقية :

ـ لندع الأمر الآن .. ان والدى يراقب احوالك ، واذا كان لما قاله اى قيمة فى عالم اليوم ، فسيجد طريقا ما لتحقيقه فى الواقع . التحق بالجيش وتحصل على قوة السلاح ، وسوف تصاحبك قوة الكلمة ايضا حيثما ذهبت وسترى يوما حق ما اقول لك » .

أجاب العقيد على ، وقد ترقى الى تلك الدرجة ونقل الى الرئاسة بالخرطوم ، أجاب بأنه يفضل أن يكمل إلياس تعليمه المنتظم ، ولكنه ينزل على رغبته ويضمن له القبول بالكليه الحربية اذا تحصل على الشهادة المدرسية وكانت تلك هى رغبته الحقيقية . وقرر إلياس الجلوس للامتحان خلال سنة واحدة . عرض العقيد على أن يقيم إلياس معه فى منزله بأم درمان ، حيث يتمكن من الاستذكار فى هدوء نسبى ويجد العون من الدروس الخصوصية ، قبل إلياس العرض وسافر إلى الشمال فورا .

تواءم إلياس بسرعة مع أهل على حيث كانت زوجته خديجة تعامل إلياس معاملة الابن وكان هو بالنسبة لبناتها الأربع ، وتتفاوت أعمارهن بين السادسة والسادسة عشرة ، كان بالنسبة لهن بمثابة الأخ الاكبر ، بخاصة لأنه لم يكن لهن اخ .

ورغم ذلك ، حرص إلياس على الاحتفاظ بمسافة مناسبة بينه وبين نساء الأسرة ، وذلك مراعاة منه لشعور أصحاب الثقافة الإسلامية من ناحية ولتجنب أى إغراء او حتى سوء فهم قد ينشأ حول الأمر من ناحية اخرى .

وقد زاد تقديره لضرورة الحذر ما حدث ذات يوم عندما مرت نادية ، وعمرها ست عشرة سنة ، مرت بالقرب من حجرته ورأته عرضا وهو فى ثيابه الداخلية . وبصورة غريزية ، توقفت نادية واخذت تنظر اليه ، والتقت نظراتهما . وكأنها عاجزة عن الحراك ، ظلت نادية واقفة وهى تشع بابتسامة خجولة توحى بالرغبة القوية . وابتسم الياس أيضا وهو يشعر بالارتباك . ولم يكن فى الأمر مشكلة لولا أن لاحظت خديجة الطريقة التى وقفت بها نادية وهى تنظر الى داخل حجرة الياس . وكأنها مدفوعة بحماية غريزة الأمومة ، صاحت خديجة فى صوت عال سمعه الاثنان :

ـ نادية ..

أعادتهما الى وعيهما الطريقة التى نادت بها خديجه . وانزعج الياس لأن يساء فهم تلك المغازلة البريئة من جانب نادية وليس من جانبه هو ، أن يساء فهمها فى اطار المجتمع المسلم الذى يعزل بين الرجال والنساء بصورة صارمة . وأراد الياس أن يهدىء الخواطر حول الأمر ، الا أنه فضل الا يثير الأمر بنفسه خشية أن يبعث ذلك على الاعتقاد بأنه يحس بوخز الضمير .

وذات يوم ، بينما كان الياس والعقيد على يتناولان شاى الصباح ، بدأ على فى الحديث بلهجة صارمة بعثت الخوف فى نفس إلياس للوهلة الأولى :

ـ ياإلياس ، اود ان اخبرك بشىء أرجو الا تسىء فهمه . كنت اتحدث وخديجة حول امر البنات . إن نادية قد كبرت ، بل يمكن القول بانها قد اصبحت سيدة شابة . وكما تعلم ، فلدى الشباب حب الاستطلاع الشديد وشهوة الحياة . ولتفادى اى احتمال للمغامرة ، فان الثقافة الاسلامية تضع الضوابط الصارمة للقاء الرجال بالنساء ، والاولاد بالبنات . لا احتاج لان اقول لك بانى انا وخديجة نعتبرك كابن لنا واخ بالنسبة لبناتنا . ليس لدى ما يوجب التشكك فى

شعورك نحوهن ايضا . ولكن خطر لى ، بوصفى اكبر سنا منك ، ان أؤكد لك مخاطر احتكاك البنات الشابات بمن هو ليس بالأخ الكامل بالنسبة لهن . فى المجتمع المسلم يجب التفريق حتى بين البنت وابناء عمها او خالها لإمكان الزواج بينهما ، دع عنك التفريق بين البنت ومن لايمت لها بصلة القرابة . لذلك ، فان ثقتنا التامة فيك هى التى تجعلنا لا نضع اى حواجز بينك وبين البنات . اود أن اقول هذا لك حتى تعلم بواقع الحال ..

انزعج الياس ، فى بداية الأمر ، لأن يكون لدى على مايحمله على التشكك فى سلوكه ، لكنه قدر تماما الاسباب التى ذكرها على وكذلك سعد لاجلاء على للجو بعد الحادثة المتعلقة بنادية . اراد ان يعلق على تلك الحادثة لكنه خشى ان يسبب ما يقول الحرج وربما يثير الشك . لذلك اكتفى بالقول :

- ياعمى على ، انى اقدر حديثك لى حول هذا الأمر واحب ان انتهز هذه الفرصة لاعبر عن امتنانى وتقديرى للطريقة التى تقبلنى بها وسط اسرتك . بعون الله ، لن اخون هذه الثقة .

وهكذا ، منذ ذلك اليوم ، حرص إلياس على الاحتفاظ بمسافة كافية بينه وبين البنات دون أن يخلق جفوة فى علاقته بهن كفرد من افراد الأسرة .

ورغم فشله عن مواصلة الدراسة فى حنتوب ، فقد تمكن إلياس من المعرفة باللغة العربية والاسلام لدرجة يصعب معها التعرف على أنه جنوبى من غير معرفة شخصية بخلفيته الاجتماعية . وكان ذلك عنصرا هاما من عناصر هويته بين أهل العقيد على . ففى مرة من المرات خلال شهر رمضان سألت حليمة ، ذات التسع سنوات ، فى براءة تامة لماذا لا يصوم إلياس الذى أجاب بأن السبب هو أنه غير مسلم .

- ولماذا ؟

تساءلت حليمة وهى لاترى اى فرق بين الياس ومن حولها من الناس . حاول الياس الشرح لكنه لم يكن مقنعا ، فحفزه ذلك لأن يثير الأمر مع العقيد على :

وقد حرص الياس ان يعرف وبصورة خاصة ما اذا كان العقيد على يشعر بخيبة الأمل فى أن الصبى الذى اعانه كثيرا لم يغير دينه ليتناسب مع دين رب نعمته . تساءل الياس بصورة عرضية :

- احب أن أعرف رأيك حول اختلافاتنا الدينية

- فى الماضى ، ربما حفزتك لأن تكون مسلما ، واعتقد انى قد قلت لك ذلك عند لقائنا الأول . أما الان ، فمن وجهة نظرى ، اعتقد اننا جميعا بشر فى نظر الله . مايهم هو قيمة الشخص ، ومن هذه الناحية لا اشك انا فى قيمتك انت شخصيا ولا فى قيمة اهلك عموما . لقد تعرفت على الناس فى الجنوب بصورة جيدة . اذا كان الاسلام يعنى بالسلوك الاخلاقى للشخص تجاه الناس الاخرين ، فلا اعتقد ان اهل الجنوب فى حاجة الى دين غير دينهم الحالى . ولكن اذا تحدثت الى اخى محمد ، فانى اثق بانك ستسمع قولا مختلفا .

كان الشيخ محمد أحمد الجاك اكبر سنا بصورة واضحة من اخيه على ، وكان فى الماضى من تجار الماشية فى غرب السودان وقد اشيع عنه انه تعامل فى البشر الذين يختطفون خلال الغارات بين القبائل ، دع عنك التعامل فى القطعان

المنهوبة . ومن وجهة نظر الشيخ محمد (على الأقل فيما سمع الياس عنه من على وأسرته) فإن العالم منقسم إلى قسمين : عالم المؤمنين وهم المسلمون ، وعالم بقية البشر وهم انصار الشيطان،وبذلك يصبحون صيدا حلالا فى غارات طلب الرقيق والنهب والاخضاع . ولم تردعه عن ذلك حتى اليد القوية للحكومة ، سواء اكانت حكومة الاستعمار ام العهود الوطنية .

انقضت سنة إلياس فى منزل العقيد على بسرعة وهو منكب على دروسه ولاينضم الى اجتماع الاسرة الا لدى الضرورة . وقد نجح العقيد على ايضا فى الترتيب لأن يأخذ الياس امتحان اللغة العربية الخاص بالجنوبيين وذلك كطالب منفرد .

وعند وقت الامتحان ، شعر الياس بانه على اهبة الاستعداد وان لم يكن مفرطا فى الثقة . وكل ما اراد هو النجاح بالقدر الذى يؤهله لدخول الكلية الحربية ، لكنه حقق اكثر من ذلك اذ تحصل على درجات تؤهله لدخول الجامعة . وبما ان رغبته فى الكلية الحربية كانت مؤكدة فقد تم قبوله فيها بكل حماس .

وقد جعل لبسه الزى الرسمى وقبضه لراتب فورى ، جعل ذلك دخول الكلية الحربية الترقية المهنية التى احتاج لها الياس بعد الفشل فى حنتوب . وقد استمتع بوضعه كطالب حربى وتطلع الى وضعه كضابط . وكان ذكيا ونموذجا طيبا للتمازج الثقافى وذلك مايحتاج له السودان الجديد .

احسن الياس الأداء فى الكلية الحربية حيث ناسبته حياة الانضباط والرفقة العسكرية . وعند التخرج كان العقيد على يشعر بفخر خاص عندما راى الياس يتقدم وهو منتصب القامة ليتلقى فى فخر وثقة بالنفس الجائزة كاجد افضل الضباط المتخرجين . كما انه القى بكلمة فى لغة عربية تكاد تكون خالية من الخلل ، وقد تخللتها من حين لآخر كلمات باللغة العربية كما يتحدث بها الجنوبيون ، وكانه بذلك يؤكد التحول الذى حققه بين الثقافتين .

قال إلياس فى خطبة :

ـ بينما تم تدريبنا وإعدادنا على رد العدوان الخارجى ، نود أن نرى السلام والوحدة يسودان فى الجبهة الداخلية . «دشمان بين أخوان بعد دا مافى» (لا قتال بين الاخوان بعد الآن) وكان ذلك تحويلاً طريفاً لآية قرآنية فحواها إننا قد جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .

الفصل الثانى عشر

كانت السنوات التالية شديدة التأثير بالنسبة لإلياس . فلدى عودته إلى الخرطوم لمزاولة مهامه بعد أجازة قصيرة قضاها بين أهله ، علم أنه قد تم تسجيله لعام أكاديمى بأكاديمية منير التى أنشئت حديثاً لتقديم التدريب الشامل فى الإدارة القومية لموظفى الحكومة من المدنيين والعسكريين على جميع المستويات . خلال عام من الدراسة المكثفة ، يكتشف الطلاب من الشباب والمتقدمين من المسئولين وحتى من هم فى مستوى القيادة الرفيع ، يكتشفون أن علمهم بشئون الحكم والسياسة الدولية لا يعدو أن يكون إلماما بأولويات الأمور . ويتنوع خليط الطلاب من أصحاب المهن والعلوم المختلفة ، منهم الاقتصاديون وعلماء الدين وعلماء الطبيعة وضباط الجيش والدبلوماسيون . كذلك تشتمل هيئة التدريس على تنوع مشابه من المعلمين الدائمين بالاكاديمية والمحاضرين الزائرين . يجاهد الطلاب فى الحصول على الدبلوم الذى تمنحه الاكاديمية عند نهاية العام ، يحفزهم الى ذلك ادراكهم بقيمة ما يدرسونه .

وقد قوى إلياس امتياز أدائه فى الكلية الحربية وشحذ همته المدخل العريض للعلوم وطريقة تطبيقها الاكاديمية ، مما جعل سنته تلك تجربة فى غاية الافادة . وقد امتاز إلياس فى أدائه الا أن بعض زملائه وجدوا أن مساهماته تبعث فيهم الخليط من المشاعر حيث إنه كان سريع البديهة ولكنه يميل الى الناحية الاستعراضية فى آن معا .

كان عاما عامرا بالنسبة لإلياس وقد مر بسرعة كبيرة . فبخلاف زيارات عطلة نهاية الاسبوع من حين لآخر للعقيد على وبعض الاصدقاء الآخرين ، كرس الياس كل وقته للدرس والتحصيل ، وكان بعض أصدقائه بالاكاديمية يداعبونه بوصفه « كُبّاب » ، أى عديم الاهتمام بأى شىء سوى الاستذكار .

وعندما أوشك العام على الانقضاء ، زار الفرقة العميد عوض محمد نمر ، وهو يرتدي حلة مدنية . وكان الغرض من الزيارة هو مناقشة تقييم الطلاب لفترتهم الدراسية وللاكاديمية بصورة عامة . وكما هو متوقع ، فقد أسهب الجميع في الاطراء ، الا أن الياس لم يكن مرتاحا لذلك . هل كان الطلاب يتوددون لرجل كان في موقع التفضل عليهم بمنحهم الدبلوم؟ ورفع الياس يده طالبا الفرصة للحديث .

- بالطبع انا أوافق زملائي فيما قالوه عن امتياز هذه المؤسسة . فهي ليست مصدرا هائلا للمعرفة فحسب ، بل ويمكنها ان تساهم في اعداد المواطن ليلعب دورا ايجابيا في بناء هذه الامة . ولكن لدى سؤالان لا اوجههما نحو الاكاديمية وانما نحو الحكومة . اولا ، لماذا يقتصر هذا المدخل الممتاز الى المعرفة على مؤسسة واحدة ؟ صحيح أن طلاب الاكاديمية ياتون من خلفيات مهنية مختلفة ومن دوائر الحكومة وانه من المتوقع أن يعودوا الى مواقعهم لتطبيق ما تعلموه هنا . ولكن مهما كانت الاعداد التي تقبل هنا ، فهي لا تزيد عن القطرة في المحيط ، وستظل جدواهم محدودة . ان حقيقة ما نفعله هنا هو تدريب القلة المختارة لتكون صفوة سطحية لا مكان لها في عالم الواقع خارج هذه المؤسسة ، وليس ذلك لعجزهم عن العطاء وانما لأن ما يتعلمونه لا يتناسب مع من سيعملون معهم .

ومع ذلك ، فان النظر الى المعرفة كنظام شامل ومتداخل هو انعكاس للعالم الحقيقي ، سواء أكان ذلك من حيث الاداء الفعلي للحكومة او الحياة بصورة عامة . ان منهج الاكاديمية هو منهج يمكن تطبيقه في كل مؤسسات التعليم تقريبا ، من المدارس الاولية وحتى الجامعات . لماذا ننتظر حتى هذه المرحلة المتقدمة من العمر ، ثم نقصر هذا المنهج على مؤسسة واحدة اسمها اكاديمية منير . فان دل ذلك على شيء ، فانما يدل نجاح هذه الاكاديمية على فشل نظامنا التعليمي ، على الصعيدين الاكاديمي والمهني . لعل هذه عبرة وإشارة يسوقها المسئولون عن الاكاديمية الى القائمين على أمر البلاد .

وسؤالي الثاني اكثر حساسية ولكني اقول به بروح الولاء والتفاني لهذا البلد . اني اتساءل لماذا سميت هذه الاكاديمية باكاديمية منير ؟ مع كل الاحترام والتقدير للسيد رئيس الجمهورية ، فاني اعتقد ان التسمية توحي بانها مكان لخلق الولاء السياسي . فمع أن المدخل السياسي جزء معقول من المقررات الدراسية ، الا أن غسل الدماغ لاغراض سياسية لا مكان له في الاكاديمية . لو جاز لي اختيار التسمية ، لسميتها اكاديمية السودان للدراسات القومية والاستراتيجية . ربما تفكر ادارة المؤسسة في تقديم اقتراح للحكومة باتخاذ اسم يعكس محتوى الاكاديمية بدلا عن اسم ذي دلالات سياسية او ايديولوجية .

قدم إلياس حجة متماسكة ، وكان واضحا من انتباه المستمعين أن ما يقوله يجد قبولا حسنا عندهم حتى نهاية الحديث حين ظهر انه قد دخل منطقة خطرة . فالنظام السياسي القائم قد كان في حكم الديكتاتورية . فبما أن النقد الذي قدمه الياس موجه ضد قائد البلاد ، فمهما كانت قيمة ما يقول ، فلا يمكن قبوله حسنا ، دع عنك الاقرار بذلك علنا . وظهر الحرج على العميد نمر . ربما يوافق إلياس فيما يقول ، لكنه لا يقدر على أن يغض الطرف عن أي نقد للحكومة ، وبخاصة اذا كان ذلك يوشك أن يلحق بقمة السلطة .

ومن ناحية أخرى فإن تأنيب ضابط شاب على حصافته لم يكن بالأمر الهين . وبدا على العميد نمر الارتباك والتردد وهو يرد على ما قاله إلياس بالثناء على اعترافه بالإطار الأوسع للعلوم التى تقدمها الأكاديمية ، لكنه واصل الحديث ليباعد بين نفسه وأى نقد للحكومة فقال :

لا أعتقد أنه من المنطق والعدل أن ننتقد الحكومة على عمل الشيء الصحيح فى مكان واحد وعدم تطبيق ذلك فى كل مكان على الفور . إن الأكاديمية حديثة التكوين وقد بدأنا الآن فقط فى رؤية ثمار تجربتنا ، فكيف يمكن القول بأنه يتحتم علينا أن نعلم أن الفكرة ستنجح بهذه الدرجة ونقدر ضرورة تطبيقها فى كل مكان ؟ فعلى كل حال هذا هو مضمون المعرفة . عليك أن تجرب وتتعلم من التجربة ثم تجد بعد ذلك الطرق إلى تطبيق الدروس التى تعلمتها . لم يتسع الزمن لنعلم ما تعلمنا دع عنك أن نطبق الدرس فى مكان آخر .

وكأنما زادت جرأته بسبب قوة منطقه ، تصاعد غضب العميد نمر على إلياس وهو يواصل الحديث :

أما بالنسبة لانتقادك للتسمية فهذا أمر من أمور السياسة العليا لا مجال فيه لإظهار النظرة الأنانية . هل أنا فى حاجة إلى تذكيرك أنك تتجاهل وبسذاجة حكمة كل الحكومة القومية . إنى أجد أن آراءك فى ذلك ضرب من الوقاحة .

وبدلاً من أن يسلم إلياس بقول العميد ، فقد قرر التصدى لتفنيد ما قاله إذ شعر بالحافز السياسى لأن يعبر عن ارائه بوضوح وصراحة : رفع يده وهو يكاد ينتصب إلى قدميه وهو يقول بصوت مرتفع :

-معذرة يا سيدى ولكن على ان اعترض على معاملتك لملاحظاتى . إذا كانت هذه الطريقة التى تعامل بها القيادة شبابنا المتعلم فيجوز لى ان اقول ان هناك اساسا لما يشاع فى الطرقات العامة من ان الثورة هى نظام ديكتاتورى . إنى أرجو مخلصا ان ما رايناه الآن لا يعدو ان يكون موقفاً شخصياً لا يعكس راى قيادتنا القومية وإلا فان هذه البلاد فى ورطة حقيقية . وبصراحة فإنى لا اعبأ لما يحدث لى لأنى آت من مكان يربى فيه الشباب على التعبير عن وجهة نظرهم كرجال .

فاجأ غضب إلياس العميد نمر الذى أدرك أن تعليقه كان لاذعاً لكنه لم يتوقع مثل هذا الرد من احد الطلاب . ومن الغريب ان غضب إلياس قد كان له اثر مهدىء على العميد الذى تحدث بهدوء مغاير للحديث السابق :

- إذا جاز لى ان اقول كلمة اخيرة فإن احد الدروس التى نامل ان نعلمها لطلاب هذه المؤسسة هو قيمة الحديث ومعرفة ما يقال ومتى يقال . أخى إلياس ان هذا هو كل ما أحتاج لأن أقوله لك فى الوقت الحاضر . أرجو لكم كل توفيق عندما تعودون إلى مؤسساتكم . السلام عليك .

ومع هذه الكلمات نهض العميد نمر وخرج من القاعة . ظل إلياس يشتعل من الغضب وهو لا يزال فى حالة ارتباك . لم يكن فى مقدوره أن يقول أى شيء فى تهدئة الموقف من غير أن يمتهن كرامته فانسحب فى صمت للتفكير فى الأمر . شعر أولئك الزملاء الذين كانوا يغارون من ظهوره شعوراً بأنه قد وجد ما يستحق ، وقد أخبره أحد زملائه الجنوبيين فيما بعد أنه أثناء مغادرتهم للقاعة سمع هو أحدهم يقول «**لقد أوقعها العبد على نفسه**» وأخبره ذلك الزميل بأنه قد شعر بالغضب الشديد ليس على من قال تلك العبارة فحسب إنما على إلياس أيضاً لما يبدو وكأنه على ثقة عمياء فى العرب .

- لا أدرى يا أخى ما هو الذى تراه فى هؤلاء الناس مما يجعلك تثق فيهم . أقول لك أنى أوشكت على البكاء عندما سمعت ذلك الصوت وتذكرت معاملتك لهم .

ظل إلياس صامتاً وهو يتلقى ذلك القول إذ قدر أن زميله الجنوبى يخاطبه من القلب وبكل إخلاص . غير أن إلياس شعر بعدم الاحترام والدهشة لأن شخصاً غاضباً بهذه الدرجة لم يهتم بمعرفة هوية من قال ذلك وبمواجهته بصورة مباشرة ورأى إلياس بأنه شخصياً لم يكن ليسكت على تلك الإساءة التى أراد زميله الجنوبى بنقلها له أن يجعله يشعر بالإهانة ويصبح معادياً سياسياً للعرب .

فكر إلياس فى الذهاب لمقابلة العميد نمر لمحاولة توضيح مقصده وإصلاح ذات البين إلا أن عزته منعته من عمل ذلك . لقد أفصح عن قناعته وهو لايزال مؤمناً بما قال ولكن لعله قد أفرط فى سوء الأدب مع الرجل .ولم يملك إلياس إلا أن يتساءل عن النتائج المحتملة لما حدث .

ولكن مضى الوقت ولم يحدث شىء وبدأ إلياس يستجمع توازنه ، لعلها كانت حادثة منسية .

وعندما ظهرت قائمة الطلاب المتخرجين لم يرد إسم إلياس فيها فأدرك ان السبب لابد أن يكون هو ما حدث بينه وبين العميد نمر . ذهب إلياس فوراً إلى مكتب العميد طالباً موعدا لمقابلته ولكنه أفيد بأن العميد كان ، وإنه سيظل ، مشغولاً طوال اليوم ووعده السكرتير بأنه سيخطره فيما بعد بموعد للمقابلة . وظل إلياس منتظراً لأيام ، كما لم تجد طلباته الاستجابة . ووقتها أدرك أن هناك خللاً خطيراً .

قرر إلياس استشارة على ، وقد كان وقتها فى درجة اللواء ، وقد وعده بأن يتصل بالعميد نمر وطلب من الياس الحضور الى مكتبه صباح اليوم التالى . وعندما وصل الياس الى المكتب ، حياه اللواء على ثم تناول الهاتف وهو يقول .

« دعنى ارى ما شان هؤلاء الناس »

وسأل على عندما أجابه السكرتير : **هل العميد موجود ، هذا هو اللواء على .**

كان على مرموقا فى الدوائر العسكرية حيث كان اسمه مفتاحا للتعاون .

- « الو » ، أجاب العميد نمر فى صوت عميق ، وتبادل الرجلان عبارات التحية المعهودة . وقد ظهر من الصمت الطويل وتحول الابتسامة بوجه على الى نظرة عابسة ، ظهر أن التفسير الذى أعطاه اياه العميد نمر كان طويلا وغير مقنع فى أن معا .

- وهكذا ترى ان عليه الانتظار حتى يجيب الرئيس ؟

طرح على ذلك السؤال الذى كشف لإلياس عن حجم المشكلة . وكانت الإجابة بالإيجاب ..

- حسنا ، شكرا لك ايها العميد ومع السلامة .

استدار على الى الياس بوجه حزين وقال :

- لعلك قد استنتجت جلية الأمر ، فهو لم يفصح عن الكثير ولكنه قال ان هناك بعض المسائل المتعلقة بتخرجك لا تزال فى موضع نظر رئيس الجمهورية .. وانه لا يقدر على الشرح اكثر من ذلك . إلا انه يتوقع ان يعلن الرئيس رايه فى الامر قريبا ، لذلك يقترح هو ان تنتظر .

سأل الياس :

- اى امر يمكن ان يستوجب قرار رئيس الجمهورية ؟

فوضح على بقوله :

- إنك تعلم حال هذا البلد . إن ما قلته لى كاف لأن يبنى عليه شخص ما اتهاما كاملا ضدك . على كل حال ، دعنى أتحدث مع نائب رئيس الجمهورية ، الفريق خالد عبد المجيد . إنه رجل متفهم ، هل تعرفه ؟

أجاب إلياس : نعم ، فقد التقيت به لأول مرة عندما حضر إلى الأكاديمية لإلقاء محاضرة عن الاستراتيجية ، وأعتقد أنى قد أخبرتك بأنه كان يدرسنا فى الكلية الحربية مادة الديلوماسية والاستخبارات العسكرية . إنه رجل حصيف » .

كان الفريق خالد عبد المجيد يشغل منصب وزير الدفاع بجانب كونه نائبا لرئيس الجمهورية ، وقد كان معروفا بالشجاعة الفائقة والأمانة ، وهو رجل أصغر سنا مما توحى به رتبته العسكرية وموقعه فى الحكومة ، وكان أول دفعته فى الكلية الحربية وتلقى الدراسة فى الأكاديميات العسكرية بالخارج ، وقد تلقى عددا من الترقيات الاستثنائية حملته وبسرعة الى القمة . وهو رجل يجمع بين التأهيل العسكرى والولاء لضباطه وجنوده . كما انه كان رجلا مهذبا يبدو مؤمنا بأنه على القادة احترام من يقودون بقدر ما يجدون هم من احترام .

وفى حالته هو شخصيا يدعم كل شق من المعادلة الشق الآخر حيث يجد هو أعلى الاحترام للاحترام الذى يحمله هو لمن هو تحت أمرته .

وكما هو الحال مع الطلاب الأذكياء ، فقد شعر الفريق خالد بود ودعم خاصين تجاه إلياس ، إذ استمتع دائما بمشاركته فى المحاضرات . لذلك ، عندما عرض عليه على قضية إلياس وطلب منه مقابلة الضابط الشاب ، تم تحديد الموعد فورا . وسعد الياس بالمقابلة الحارة التى لقيه بها الفريق وأدرك أن حالته لا يمكن أن تكون ميئوسا منها للدرجة التى ظهرت بادىء الأمر .

وبعد فترة قصيرة للتحية ، دخل خالد لأصل الموضوع إذ قدر أن إلياس قد حضر لمقابلته فى مشكلة خطيرة . فتح الفريق الموضوع بقوله :

- انى سعيد بلقائك ولكننى أعلم انك قد حضرت لغرض ما ، فما هو ؟

عرض الياس تفاصيل المسألة بينما ظل خالد يستمع فى انتباه عميق وبلا مقاطعة ، وعندما فرغ الياس لم يزد خالد على القول :

- لا شك انك تقدر بانى لا أملك أن أقول شيئا قبل أن أتحصل على المعلومات الكاملة عن الموقف . وبمجرد أن أعرف ما يجرى ، سأتصل بك . ولكن ثق بأنى سأسعى لتحقيق العدالة إذا كان هناك اى ظلم . ومن الناحية الأخرى ، إذا اظهرت الوقائع أن هناك تفسيرا آخر لما حدث لا تعلمه انت ، فسوف افيدك بذلك .

انتظر إلياس لفترة اسبوع بدا وكأنه شهر كامل، وكلما مضى يوم وساعة تناقصت آمال الياس الذى تساءل عما إذا كان عليه معاودة الفريق خالد ولكنه صرف النظر عن ذلك . فلو بادر الياس مرة أخرى ، فإن ذلك يدلل ليس على قلق مفرط فحسب وانما على نقص فى ثقته فى الفريق أيضا . وعلى كل حال ، فإذا كان عند الفريق خبر خير لسمع منه الياس على التحقيق .

كاد الياس ان يرضى بسوء طالعه عندما بلغته رسالة من سكرتير العميد نمر تفيده بأن العميد يرغب فى مقابلته . وعندما وصل الى المكتب ، وجد العميد فى مزاج ودى مفتعل بصورة واضحة .

وقف العميد محييا بصوت عال .

- اهلا .. اهلا .

وصافح الياس الذى جلس بعد ذلك عبر منضدة مكتب العميد . بدأ العميد بالقول :

-أعتذر عن عدم تمكنى من مقابلتك قبل الآن ، إلا انى كنت فى غاية المشغولية . اظنك قد اسات فهم عجزى عن الرد على تساؤلاتك بانه نوع من التشاغل والانصراف عن امرك .

شرع الياس فى الحديث بقوله :

فى الحقيقة .

-ولكن العميد قاطعه قائلا : لا ، لا داعى للشرح ، فانى اقدر تماما اذ انى كنت ساستخلص نفس الشىء فى ظروف مشابهة . على كل حال ، لا تنزعج للامر .

وابتسم العميد نمر بحرارة اكبر وهو يعلن وكأنه قد حل لتوه معضلة عويصة :

ساكون صريحا معك يا إلياس كل الصراحة،وارجو ان تقدر انت موقفى . بعد لقائنا الذى تحدثت انت فيه عن الاكاديمية وواجب الحكومة أن تطبق نفس الفكرة فى المؤسسات التعليمية الاخرى ، حدث ما كنت اخشاه اذ التقط بعضهم قولك ورفعوه الى رئيس الجمهورية . ومن العدل له ان اذكر انه قد استدعانى لمناقشة الأمر . وكان همه الاول ليس هو ان هناك شيئا ضارا او حتى خطا فيما قلت ، وانما كان همه النظر فى كيفية تعاوننا معك للبحث اكثر حول افكارك وامكانية تطويرها لتكون سياسة الحكومة . لهذا السبب نصح رئيس الجمهورية بتاجيل موعد تخرجك الى موعد لاحق .

وبعد أن تحدثت انت مع نائب رئيس الجمهورية ، يبدو انه قد ذهب لنقاش الامر مع رئيس الجمهورية واتفقا على خطة اخرى . سيتم تخرجك والحاقك بمكتب نائب رئيس الجمهورية ، وهو مكتب وزير الدفاع برئاسة القوات المسلحة . وهو يرغب فى أن تتعاون انت عن كثب مع شعبة الاستخبارات العسكرية حيث يامل فى العمل معك على صياغة وتنمية الافكار التى عبرت عنها هنا .

ويسعدنى كثيرا ان اخطرك الآن بانك لم تتخرج فحسب ، وانما كنت من احسن الطلاب فى دفعتك . تهانى الحارة لك ..

غمر إلياس الشعور بالامتنان والتقدير لمن حركوا عجلة العدالة لدرجة أعجزته عن التعبير . فقد علم أن الفريق خالد كان هو المحرك الاساسى وان لم يفعل العميد نمر شيئا . وادرك الياس ان السودان هو بلد المساواة العميقة الجذور وان اى قائد لا يمكن أن يتجاهل اى فرد ، مهما كان صغير الشأن ، إذ أن يومه فى الرد على التجاهل قد يجىء . لذلك ، وبجانب عمله فى تنفيذ تعليمات رؤسائه الذين يحرص على عدم معاداتهم ، فقد أراد العميد نمر أن يصلح علاقته بالياس ، خصوصا لانه قد اقترب الآن من مركز السلطة السياسية .

ورغم أن اسماء المتخرجين قد سبق نشرها ، الا ان التعديل فى حالة إلياس قد تم قبل

وقت كاف لإلحاقه بزملائه وحضوره حفل التخريج معهم . وقد حضر المناسبة الرئيس منير الذى قدم الجوائز لأفضل الطلاب . وعند تلقى إلياس لجائزته ، علق الرئيس مداعبا :

- كان يجب منحك جائزة التقدم الى مركز اصابة الهدف بعد ان كدت ان تخطئه .

وكما توقع إلياس ، فقد استمتع كثيرا بمهمته مع خالد عبد المجيد . فمن خلال مكتب نائب رئيس الجمهورية ، تحصل الياس على رؤية عميقة لطريقة عمل نظام الحكم ، ولم تكن مصادره فى ذلك مجرد الاوراق التى تمر على مكتبه ، وانما اشتملت ايضا على الناس الذين حرصوا على تقديم المعلومات كجزء من محاولاتهم الخفية احيانا والمفضوحة احيانا اخرى فى التاثير على القرارات على مستوى نائب رئيس الجمهورية .

وخلال صلاته بالاستخبارات العسكرية تفهم الياس أيضا الوضع الجغرافى السياسى للبلاد والمصادر المحتملة لعدم الاستقرار من خارج الحدود مع جيران البلاد الثمانية . استمرت الحدود الاثيوبية كمشكلة ومصدر تدفق غزير للاجئين ، كما كانت يوغندا وزائير مناطق تازم ومصادر للاجئين . اما الفتنة فى تشاد فقد فاضت عبر الحدود السودانية بينما تارجح ميزان القوى فى ذلك البلد من جهة الى اخرى . وكانت هناك أيضا ليبيا على الحدود الشمالية الغربية ، وهى تتربص بكل فرصة لتتدخل فى الامور . وقد سبق ان غزت قوى المعارضة البلاد من ليبيا قبل سنوات قلائل ، وذلك بتهريب اعداد كبيرة من السلاح والذخائر وترجيلها خفية الى المدن . وبعد أن وضعوا انفسهم فى مواقع استراتيجية فى كل انحاء العاصمة المثلثة ، انتظروا ساعة الصفر لشن هجوم شرس تمكن النظام الحاكم من رده ولكن بتكلفة باهظة فى العتاد والانفس . ومع أن المصالحة التى تمت بعد ذلك مع قوى المعارضة قد حسنت من الموقف الامنى فى تلك الجبهة ، الا أن العداء ظل مستحكما وحادا بين الزعيم الليبى والرئيس جابر المنير .

ومع كل مصادر المشاكل المحيطة بوجوده وبحدوده الدولية الطويلة التى يستحيل التحكم فيها ، فقد بدا السودان وكانه جزيرة تحيط بها المياه الصاخبة التى تهدد بانتهاك كل حد من حدودها . الا أن الجبهة المصرية كانت هادئة نسبيا ، وقد جمع بين البلدين تعاون قريب سماه البعض تكاملا بينما وصفه آخرون بانه توحيد كامل . وحتى من تلك الناحية ، فقد حفز دعم السودان لاتفاقية كامب ديفيد بين مصر واسرائيل ، حفز ذلك بعض المشتطين فى العالم العربى الى التباعد بينهم وبين السودان الفقير والمحتاج لدعمهم المادى ، وبخاصة فى المجال الحيوى للطاقة . وقد ذهب بعضهم لدرجة النظر بعين الرضا الى اى ضعف داخلى قد يؤدى الى سقوط النظام الحاكم فى السودان .

وقد كانت البلاد حقا فى حالة ضعف داخلى . فقد بدات اتفاقية الصلح التى منحت الجنوب الحكم الذاتى الاقليمى وانهت الحرب الاهلية التى دامت سبع عشرة سنة ، بدات الاتفاقية فى التهالك عندما تناحر الزعماء الاقليميون فيما بينهم وسقطوا صيدا سهلا للاستغلال على المستوى القومى . وبينما حافظت اتفاقية السلام على توازنها الدقيق ، اخذت اقاليم اخرى فى الشمال فى تاكيد ذاتيتها المحلية

والمطالبة باستقلال اقليمى شبيه بالذى حصل عليه الجنوب عن طريق الحرب . وقد ابرزت الاقاليم الغربية ، ودارفور بخاصة ، ابرزت تحديا قويا ضد مركزية السلطة . وعلاوة على ذلك ، فقد تصاعدت الحروب القبلية ، وتكررت الصدامات العنيفة بين القبائل العربية وغير العربية فى الغرب والجنوب الغربى ، حيث فقد المئات من الناس حياتهم ، ونهبت الآلاف من الماشية والقطعان الاخرى ، كما اختطفت النساء والاطفال وتعرضوا لعديد من أنواع المهانة والاذلال .

مضى الوقت سريعا وقد تتابعت الأنباء على الرئاسة بوقوع الواحد تلو الآخر من احداث عدم الاستقرار الذى تمر به البلاد . وبالنسبة لالياس ، ورغم مأساة الاحداث اليومية ، فقد كان هناك جانب ايجابى فى الطريقة التى اتسعت بها رؤيته لتشمل البلاد كلها . وكان ذلك لدرجة نبهته الى الابعاد القومية للمشاكل التى كان يفترض فيما مضى انها خاصة بالجنوب . فقد آخذ يفهم أكثر كيف أن ما عانى منه الجنوب قد أثر على الغرب والشرق وربما أجزاء من الشمال أيضا . تلك هى أعراض بلوغ الأمة لسن الرشد واكتشافها لنفسها . وشعر الياس بأنه يتعلم الكثير عن بلد اختار أن يدافع عنها ، حتى بحياته لو دعا الحال .

بدأت كراهيته للعرب تلين . فما كان يكرهه ليس العرب كجنس وانما هو تحيزاتهم وعدم عدالتهم ضد غير العرب ، وبخاصة أهل الجنوب والغرب . وحتى فى ذلك المجال ، فقد أدرك أن هناك استثناءات ، اذ اكتشف أفرادا من الشماليين هم نماذج ممتازة للبشر بكل المقاييس . كيف يصنف أشخاصا مثل على والفريق خالد اذا واصل هو كراهيته المطلقة لكل العرب وتحيزاتهم وعدم عدالتهم . بل ولاحظ الياس أن هناك نمطا منتظما للفضيلة بين ذوى الكفاءة ، بينما ينتعش وينمو على ثمار التحيز والظلم الجماعى من تتملكهم حالة عميقة من انعدام الثقة فى النفس والعجز الذاتى وكأنهم يجدون فى ذلك التحيز والظلم مصلحتهم الانانية الخاصة . وفضل الياس أن يصاحب ويلتصق بالأفراد الفضلاء الذين رأى فيهم فرص الزعامة والمسئولية عن تشكيل مصير الأمة .

كان الياس يتفكر فى تلك المسائل عندما وضع على مكتبه ملف يحمل الأنباء المفجعة لمعارك قبلية جديدة بين الرزيقات من جنوبى دارفور والدينكا من شمالى بحر الغزال . اكتفت التقارير من دارفور بالافادة بفقد الأرواح ونهب الماشية من الجانبين.واضافت بأن قوات الأمن قد أعادت حالة الأمن وتمكنت من التحكم فى الموقف . الا أن التقارير من بحر الغزال كانت أكثر تفصيلا حيث قالت أن المعارك قد نجمت عن تصعيد لاحداث صغرى بين أفراد من الدينكا والعرب . أساء أحد العرب الى الدينكا بأن وصفهم بأنهم عبيد فضربوه حتى مات . وكنتيجة لذلك ، تربص العرب ببعض شباب الدينكا وعذبوهم ثم قتلوهم . وبعد ذلك بتروا أذرعهم واستخدموها فى ضرب طبولهم . وعندما رد الدينكا الهجوم ، واجهتهم قوات من الأمن المخلوطة بما يسمى « العرب المرحلين » ، وهم مليشيات من القبائل العربية المسلحة ، وقد أطلقت تلك القوات النار وقتلت العديد من الناس . وعندما هرب الدينكا ، سمحت قوات الأمن للقبائل العربية بأن تاخذ قطعانهم .

طلب من الياس اعداد تقرير للوزير وإضافة ما يراه من تعليق . وكانت المهمة صعبة بطبيعة الحال اذ أن الامر يتعلق بصراع بين أهله هو والعرب . الا أن

الياس وجد في ذلك ايضا فرصة لاظهار رؤيته القومية العريضة وليطمئن امثال الفريق خالد ان استثمارهم فيه كان خدمة للأمة كلها . صمم الياس ان يحتفظ باتزانه وموضوعيته في تحليل المعلومات المتوفرة لديه من التقارير المحددة المعروضة عليه ومن مصادر اخرى .

كتب الياس في مذكرته عن الموقف :

- ما يطالع المرء من اختلاف طريقة رواية الاحداث من اقليمي بحر الغزال ودارفور هو ان الصراعات القبلية تضع عبئا ثقيلا على قوات أمننا في تلك المناطق . من المفترض ان يكون الجيش قوميا ووظيفتنا هي الدفاع عن الوطن ضد التهديد الخارجي . علينا الدفاع عن كل بوصة من ارض بلادنا وعن حياة كل سوداني ضد العدوان الخارجي . الا ان الجنود معرضون للضعف البشرى ولا يتسامون دائما عن المشاكل المحلية ، بل على العكس من ذلك ، فكثيرا ما يجندون من نفس المجتمعات المحلية المتناحرة والتى يطالبهم واجبهم بالتسامي عن عداوتها المتبادلة . فعندما تكون الامة مقسمة الى قبائل واجناس أو ديانات متعددة ومشتبكة في حروب داخلية ، فان القوات العسكرية تواجه بخيار صعب . فمن ناحية ، عليهم ان يكونوا فوق الخلافات وان يقاتلوا لحفظ الأمن والنظام بصورة محايدة . ومن الناحية الأخرى ، فهم يشاركون في مشاعر وولاءات مجتمعاتهم التى لا يملكون فكاكا منها . ينجح الكثيرون في الصعود الى مستوى التحدى بالمحافظة على كيان الجيش ، ولكنى اتصور أن عددا مشابها يهبط دون ذلك المستوى النموذجي .

ان اكبر التحديات التى ستظل تواجه قادة هذه الأمة لبعض الوقت هي ، في اعتقادى ، كيفية التسامى عن عوامل الفرقة والعمل لمصلحة الشعب السوداني ككل ، دون تحيز على أساس القبيلة أو الجنس أو الدين . ومجال الاختبار لهذا النوع من القيادة في الوقت الراهن هو الجيش لأنه إحدى المؤسسات التى تفخر بقومية فلسفتها وتكوينها وطريقة أدائها .

بعبارة اخرى ، على مايبدو لى ، فمع أن الجيش قومي ، فإن تحدى الانقسامات الداخلية من حيث القبيلة والجنس أو الدين تظهر وكانها امر مسلم به لدرجة انه لا يواجه بصراحة أووعى في الكلية الحربية أو على مستوى التدريب في موقع العمل . إننى اعتقد انه في بلد شاسع ومتنوع مثل السودان ، فيه العديد من القبائل المحـاربة التى تكرس القيم العسكرية في شبابها منذ الصغر ، لابد من اعطاء هذا البعد اهتماما خاصا في اعداد جيشنا لمواجهة التهديد الداخلي لأمننا ووحدتنا وبناء قوميتنا »

وبعد يومين من تقديم تقريره ، استدعى الوزير إلياس الذى شعر بضربات قلبه : هل تورط في مشكلة جديدة بسبب الآراء التى عبر عنها .

ومع ذلك ، فلقد أحس بالثقة من أنه قد عبر عن قناعته التامة ، إلا أنه تساءل : هل تم نقاش هذا التقرير في الكلية الحربية أيضاً وهل سيجد النقد لآرائه ؟ إلا أنه شعر بالراحة الفورية من الترحيب الحار الذى لقيه به الوزير عندما دخل عليه في مكتبه :

قال له خالد وهو يشير إلى أحد المقعدين أمام منضدة مكتبه الفاخر : تعال واجلس .

- لقد قرأت تقريرك . من المؤكد انك قدمت تعليقا جريئا حول ردنا على هذه المعضلة المزمنة فى امر الحروب القبلية ، وعلى عموم الحال فانى اتفق مع تحليلك ولكن كيفية معالجة المشكلة على مستوى وضع المناهج للكلية الحربية اوالتدريب الميدانى للضباط والجنود امر آخر . وقد دعوتك لأن قراءة تقريرك قد اوحت إلى بفكرة رايت ان اعرضها عليك لأرى مدى استعدادك لها :

انت رجل شاب ، وبحكم ادائك حتى الآن فلك مستقبل جيد فى قيادة هذا البلد ، لااقول هذا بسبيل الاطراء الفارغ وانما لأواجهك بتحديد ، لقد خطر لى إنه ربما ينبغى ان تخدم انت فى مواقف تعرضك للمشاكل التى احسنت وصفها وتعينك على توسيع فهمك لتلك المشاكل وتطوير منهج لمعالجتها بطريقة خلاقة ومفيدة فى آن معاً ، لذلك أقترح عليك مهمة فى دارفور تقضى الجمع بين واجباتك العسكرية ومسئولياتك فى البحث والاستخبارات . أريد أن تراقب عن كثب كيف تتعامل قوات أمننا مع الصراعات المحلية وكيف تتداخل تلك المشاكل مع مسائل الحدود التى تواجه الأمة . هل ترغب فى ذلك ؟

أجاب إلياس بدهشة ممزوجة بالسعادة . لأقصى درجة يا سيدى . يبدو ذلك العمل فى غاية التشويق لى .

علق الوزير بقوله :

- حسناً إذن ، عليك متابعة مهامك بصورة عادية على أن تطلعنى على ملاحظاتك وتحليلاتك عن هذا الأمر بصفة خاصة وذلك عن طريق تقارير توجه إلىّ شخصياً من وقت لآخر . إنى أقدر أن مهامك المعتادة قد تقضى جهداً لا يسمح لك بأداء هذه المهمة الأخرى ولكن لاتنزعج لذلك . فأى وقت تتمكن من تخصيصه لهذا الجانب سيكون كافياً ، ولكن تذكر أن هذه المهمة خاصة وهى جديدة تماماً ولاداعى لأن أقول لك بضرورة الكتمان والتحوط فى أداء هذه المهمة .

- إنك فى غاية اللطف يا سيدى ، وإنى شديد التقدير للثقة التى تضعها فى شخصى .

أجاب الوزير بقوله :

- إنك جدير بذلك ، وبالمناسبة ، عندما تذهب أقترح أن تسافر إلى الغرب براً لأن ذلك سيعطيك فرصة للاسترخاء والتأمل كما يمكنك بطريقة عملية من التعرف على طبيعة البلاد التى ستعمل فيها .

قال إلياس موافقاً « حسناً يا سيدى » وقد قرر بحصافة أن يحتفظ بأمر تكليفه الجديد سراً لنفسه . إذا أراد الوزير أن يقول شيئاً لشخص ما فذلك أمر يعنيه هو . وفى الوقت المناسب ظهرت قائمة التنقلات ، وكما توقع إلياس ، فقد تم نقله إلى الفاشر .

الجزء الرابع

(الخدمة)

الفصل الثالث عشر

وخلال أيام من استلامه لمهمته ، ركب إلياس القطار متجهاً إلى نيالا حيث يواصل رحلته في الشاحنات العسكرية. وبمعاونة أصدقائه وزملائه، أخذ إلياس أمتعته وشق طريقه وسط الزحام في محطة القطار متجهاً إلى مركبات الدرجة الأولى . وهناك أخذوا يبحثون عن اسمه بين قوائم الركاب المعلقة على الأبواب . كان قد حجز لنفسك مكاناً في إحدى المقصورات يشاركه فيها ثلاثة ركاب آخرون.

وبين الركاب في مقصورته كان هناك رجل يبدو في اواخر العشرينات من العمر ، داكن السحنة وقد ارتدى حلة صيفية . وقد ظهر لالياس منذ الوهلة الاولى أن الرجل كان متشوقا للحديث معه . وما كادا يجلسان حتى ابتدر الرجل الحديث باللغة العربية بلكنة كشفت انها لم تكن لسان امه ، واستنتج الياس ان يكون الرجل من احدى القبائل غير العربية في غرب السودان .

تساءل رفيق السفر :

- اين تذهب انت ؟

- الفاشر

- هل تزور اقاربك هناك ام انت ذاهب للعمل ..

- اني ذاهب للعمل في موقع جديد .

- موقع جديد ؟

كرر الرجل العبارة ثم تساءل :

- واين كنت من قبل ؟

- كنت في الرئاسة حيث وضعت بعد تخرجي من الكلية الحربية . ليس ذلك بالقول الدقيق الصحة ، اذ انى قد ذهبت أولا الى اكاديمية منير .

- انك من الجنوب ؟
- الياس بالايجاب .
- صدقك القول بانك يمكن أن تكون من الغرب .
- وهل انت من الغرب ؟ ..
- نعم على التأكيد بالمناسبة ، انا اسمى عثمان جار النبى وانا تاجر .
- اسمى الياس بول مليك . من اى جزء من دارفور انت ؟
- من الفاشر واتاجر بين الفاشر والابيض وأمدرمان ..
وسأله الياس :
- وما هى تجارتك ؟
- انى ابيع كل ما يخطر ببالك ، وقد أشترى ذلك ايضا .
رد عثمان وهو يضحك بصوت خافت .
وكان فى الطريقة التى ضحك بها ما يوحى بأن فى تجارته شيئا مريبا نوعا ما . ويبدو أن نفس الخاطرة قد راودت كل من فى المقصورة : هل يعمل عثمان فى تجارة غير مشروعة ، ربما فى العاج او بضائع اخرى ممنوعة ؟ ولكن يبدو أن عثمان قد اطلع على خواطرهم ، فأضاف :
- بحق ، فانى اتاجر فى الصمغ العربى ، الماشية ، الفول والجلود . كما ترى ، فذلك جمع من الأشياء ، ولكن اغلب عملى فى الماشية والصمغ العربى . وإن كان الزحف الصحراوى قد اثر على انتاج الصمغ .

أخذ المسافران الآخران يتحدثان مع بعضهما البعض ، تاركين إلياس وعثمان وحدهما بعض الوقت . وعندما انضما اليهما ، قدم الآخران نفسيهما ، فكان احدهما مدير مدرسة متوسطة فى الدلنج بينما كان الآخر يعمل مهندسا مع شركة شفرون للبترول فى المجلد . وكلا الموقعين فى جنوب كردفان . ومع تنوع أعمالهم . كان لكل منهم ما يشارك به فى الحديث مع تقدم المساء .

وكأنه قد وزن الجماعة وقدر انه يستطيع الاسترخاء بينهم ، اخرج عثمان زجاجة من الوسكى من نوع « جونى واكر لابل » واقترح أن الوقت قد آن لتناول بعض الشراب قبل أن يناديهم الفراشون الى عربة الطعام للعشاء . ورفع الزجاجة وكأنه يعرض على رفاقه ما يقدمه لهم ، علق عثمان بقوله :
- هل تصدقون أن الرجل الذى ترون صورته على هذه الزجاجة قد ولد خلال أعوام ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ولا يزال صحيحا ومعافى لانه يشرب هذا المشروب ؟.
وتساءل مدير المدرسة فى سذاجة :
- بالله العظيم
- لقد تمكنت من خداعك .
علق عثمان مداعبا بصورة استهوت الآخرين الذين ادركوا الدعابة فى اعلان الوسكى .
- سأتناول الجرعة الاولى ليس لانى انانى ، وانا حقا انانى ، وانما لأثبت لكم أن المشروب غير سام .
وضحك رفاقه بينما تجرع هو الجرعة الاولى بمتعة ظاهرة ومعها أصدر صوت « أبيه »

ثم اضاف :

ـ لا عجب أن ربنا قد حرمها ، فهى ف غاية الامتاع . اعتقد أن عندى كوبين .

قال عثمان ذلك وهو يبحث ف حقيبته وينتظر الرد من الآخرين . فرد عليه المهندس :

ـ سأشاركك انا مع جزيل الشكر .

صب له عثمان ف الكوب ثم صب ف كوب آخر وناوله الى مدير المدرسة الذى قال ف تأدب :

ـ لازم يعنى (هل لابد من ذلك) ؟» .

ـ هيا يا أستاذ ، لا تكن غامضا وإلا لحصلت على مشروب من نوع « هيق » بدلا من نوع «جونى واكر» ، وبذلك كان عثمان يستدعي عبارة إعلان كانت معلقة فى وسط الخرطوم باللغة الانجليزية وتقول : «دونت بى فيق ، أسك فور هيق (وهى تعنى لا تكن غامضاً واسأل عن نوع هيق) .

أدرك المهندس النكتة فضحك . وبعد أن شرح النكتة لمدير المدرسة . أضاف عثمان قائلاً :

ـ يا أستاذ ، أمامنا طريق طويل وأؤكد لك ان هذا المشروب سيجعله أقصر . هذا بالاضافة الى أننا نحتاج للمعلمين ف الجحيم أيضا .

وضحك الجميع بينما استسلم المدير قائلا ـ

ـ مادمت تصر على أن أشرب

ـ انى أصر بكل تأكيد .

اضاف عثمان بالرد المتوقع وهو يصب المشروب .

وجاء دور إلياس حين أعلن عثمان وهو يصب له ويناوله الكوب .

ـ وأخيرا وليس آخر يا أخى الضابط . لقد جاء دورك ف النهاية بحكم السن وليس بحكم الوظيفة .

قال الياس :

ـ لك الشكر ولكنى لا أشرب ، ولكن ليس لأن الرب قد حرم ذلك .

ـ لعلك لا تشرب لاعتبارات اللياقة

علق عثمان باعتراض خفى . أدرك الياس سبب حساسية عثمان فرد عليه بقوله :

ـ لقد أخذت نصيبى ف الطفولة اذ أننا نشرب المريسة (الجعة) بحرية تامة . ولكن كلما كبرت بى السن قل ميلى للشراب . ولكنى أؤكد لك بأنى لا أعترض على استمتاع الناس بأنفسهم .

تجرع عثمان الخمر وهو يتنفس بعمق ويبدو وكأنه يتعمد اطلاق نفسه وباستعجال . ولم يكن ذلك بصورة مزعجة وانما كان طرفا من الشخصية المنبسطة التى أظهرها من قبل .

قال عثمان ف مزاجه الجديد :

ـ حسنا أيها الضابط ، لا أدرى ما اذا كنت انا أهلا للوصف بالاعتدال ، ولكنى قد ضقت ذرعا بهؤلاء الرجال الذين يدعون القداسة ويأتون الى الغرب للوعظ ضد الخمر ، بينما يرتكبون جرائم أشد فظاعة ضد الانسانية . وكأنهم يظنون أن ف مقدورهم خداع الله تعالى بأنهم أبرياء ، بل وفضلاء ، لأنهم لا يشربون الخمر . انى أؤكد لك انهم من الاشياء التى تدفعنى الى الشرب » .

قال إلياس وكأنه يدعو عثمان الى التبسط معه :

- حسنا ، كما ذكرت انا بدلا من تحريم المريسة ، فمن وجهة نظرنا ، ان الله والاسلاف يتوقعون ان نكرمهم بها فى المناسبات الخاصة ، وفى جميع الاحوال دائما ما يجدون نصيبهم من الخمر المسكوب فى اى احتفال بشرب المريسة . عليك أولا صب بعض الخمر على الارض قبل ان تشرب انت » .

علق عثمان بقوله :

- هذا هو الدين الذى اجده جديرا بولائى . ماذا تسمى دين قومك ؟»

قال إلياس موضحاً : ليس له اسم معين ، إنه جزء من منهج متكامل للحياة ويلمس كل أنحاء لمعيشة تقريباً . إن السؤال عن اسم ديننا مثل سؤال الناس عن اسم ثقافتهم . إن الثقافة هى الناس وكذلك معتقداتهم وممارساتهم الدينية .

قال عثمان :

- يبدو هذا مقنعاً مادام لم يأت من يدعى أنه المتحدث باسم الله ليخبرنى بما ينبغى أن تكون عليه الثقافة بدلا عما هى عليه فعلا . فغالبا بينما يظهر اولئك الناس وكأنهم المتحدثون باسم الله ، انما يمتصون دماء الابرياء ويقتلونهم بالاستغلال » .

ثم استدار عثمان تجاه الجماعة كلها وواصل الحديث « اسألكم باسم الله . هل يمكن لأى منكم ايها الرجال الشرفاء أن يخبرنى من اين يكسب رزقهم اولئك الاشخاص المتعاظمون الذين تقود اسرهم الطوائف الدينية ؟ دعونا نعود الى التاريخ : هل يمكنكم ان تخبرونى عن مصدر كسب آبائهم وجدودهم ؟ انى اقول لكم انهم قد سخروا الجماهير الفقيرة الجاهلة لفلاحة الارض من اجلهم من خلال الاعتقاد الخرافى بأنهم سيباركونهم ويضمنون لهم الجنة بعد الموت . هذا اذا لم يستخرجوا المساهمات من الفقراء الذين لا يقدرون على دفعها ، ولكنها تكدس لتجعل من أسيادهم مليونيرات قبل أن تعرف لغتنا ذلك الرقم فى الحساب . فكما تعلمون لاتوجد عندنا الكلمة لهذا الرقم ، ولا حتى فى اللغة العربية ، وانما نستخدم الكلمة الانجليزية لذلك » .

ظهر أن رفاق عثمان يستمتعون بطرافته وإن كانوا يدركون انه قد بدأ يسكر .

اتجه عثمان تجاه مدير المدرسة مخاطبا اياه بلقب « شيخ » وهو لقب ذو دلالات روحية توقيرية :

- ايها الشيخ ، اجبنى فأنت رجل علم والعلم يجلب الحكمة التى يخفيها الله . من الذى ينبغى أن يذهب الى الجحيم ، الرجل الذى يشرب الخمر وقد يسكر لكنه لا يؤذى احدا ام اولئك الذين يستغلون الجماهير الجاهلة ويجعلونهم عبيدا لهم .

اجاب مدير المدرسة فى تفاد مهذب : انى أفهم ما تعنى

- كان ينبغى أن أعلم بأنك أكثر تهذيباً من أن تعطينى إجابة صريحة » قال عثمان ذلك فى دعابة قدرها الجميع ، بما فيها المدير ، فضحكوا .

ثم استدار تجاه الياس وقال :

- أخى الضابط .

ثم توقف وتساءل : هلا اعدت لى اسمك مرة اخرى »

- الياس

ـ نعم بالطبع ، انت أحسن اسلاما منى ، مع أنك جنوبى . دعنى احصل على رأيك فى هذا الأمر .
أفاده الياس بقوله :
ـ ولكنى لست مسلما وانما انا مسيحى .
فعلق عثمان بقوله :
ـ بالله ؟ وماذا يفعل مسيحى باسم مسلم ؟
قال إلياس موضحاً : ولكن إلياس اسم مسيحى ايضا .

. لقد علمت منذ أن رأيتك انك شخص ذكى . تصور ، احتفاظك بعقيدتك المسيحية وباسم يجعل الأغلبية المسلمة تعتقد أنك مسلم . إن هذا فى غاية البراعة .
ـ لم يكن الأمر مقصوداً بهذه الصورة . قال ذلك إلياس بينما ضحك هو والآخرون .
ـ دع عنك ما إذا كان الامر مقصودا ، إن النتيجة هى التى تهم .. وذلك بحق فى غاية البراعة .
وفى ذلك الوقت ، بدا عثمان وكأنه قد نسى سؤاله الاساسى . وبدلا عن السؤال ، وكأنه قد استقصى الأمر ، اقترح عثمان أنه قد آن أوان الطعام .
ـ انا دائما آكل عندما اشرب . يقولون أن الخمر يحب اللحم وعندما لا يجد لحما فى الأمعاء ، فانه يشرع فى اكل الامعاء نفسها . ووقتها تؤدى الخمر حقا الى الجحيم .
ووافقوا جميعا على الأكل ، ولكن بدلا من الذهاب الى عربة الطعام ، قرروا طلب احضار طعامهم الى المقصورة . ومرة اخرى كان عثمان هو الذى نهض للتفاوض مع الفراشين وعاد منتصرا .
ـ صحيح أن المال لا يشترى كل شىء لكنه يحقق الكثير .
كان الفراش فى غاية التعاون إذ أحضر طعامهم ثم قام بنظافة المقصورة بعد أن فرغوا من الأكل . ووقتها عدل مدير المدرسة والمهندس من مقعديهما استعدادا للنوم . وسرعان ما كشف شخيرهما عن نومهما العميق .
فكر الياس ايضا فى النوم عندما فتح عثمان معه موضوعا جديدا حين قال :
ـ أخى ...
ثم ادرك انه قد نسى الاسم مرة اخرى فأعانه الياس بقوله : إلياس .
ـ أخى إلياس . إنك موال للنظام الحاكم . لابد أن تكون كذلك ، فأنت فى نهاية الأمر ضابط فى الجيش . لذلك لابد أن تكون مواليا للنظام . اليس هذا صحيحا ؟
لم يجب الياس بكلمات ، وانما بابتسامة توحى بالسعة المهذبة ، ولكن لم ينصرف عثمان عن الأمر بهذه السهولة فكرر القول .
ـ هل أنا على صواب ؟
إلا انه لم ينتظر الاجابة هذه المرة فواصل الحديث :
ـ حسنا ، دعنى اخبرك بحقيقة الأمر : أنا لا ابالى بما يحدث لى ، واعتقد بضرورة قول الحق . وإذا قتلنى قول الحق فسيبقى أطفالى ليفخروا باسمى .
وكأنه بذلك قد اثبت مؤهلاته ، واصل عثمان الحديث :
ـ ان الناس لا يعدلون فى أمر منير هذا . فمن يشيد به ومن يدينه ، كلاهما محق وغير

محق . للرجل فضائله ونقاط ضعفه . هل يمكن أن تنكر الفضيلة الكبرى التى أظهرها بمنح الجنوب الحكم الذاتى؟ أقسم بالطلاق بأن التسوية مع الجنوب هى أكبر منجزاته .

ولكن خطأه هو الاعتقاد بأن الجنوب هو الجزء الوحيد من البلاد الذى يستحق الحكم الاقليمى . وما السبب الذى قدمه لذلك ؟ لقد قال بأن الجنوب يتميز عرقيا وثقافيا عن الشمال . اقسم بالله ان الرجل يعتقد بأن باقى انحاء القطر ، الغرب والشرق والشمال ، كلها عربية . ما هو مدى جهل الشخص فى هذا البلد ؟ إنك لا تحتاج لدراسة التاريخ والجغرافيا لتدرك أن الشمال كله ليس بعربى . اعنى القول ، مثلا هنا فى دارفور ، كم من القبائل عربية ؟

وذهب يعدد القبائل العربية على اصابع يده .

– البقارة (رعاة البقر) وتضم الهبانية والتعايشة والرزيقات وبنى هلبه . ومعهم اخوانهم رعاة الابل وهم مهاريا وفروعهم الاريقات والجلاب . ولكن ماذا عن الناس الذين تسمى باسمهم الاقليم ، الفور ، وهم اهلى ؟ لسنا بعرب . وخذ الأعداد ، فأهلنا كثيرو العدد بحق . وكم هى فروع الفور ؟

واستخدم يديه فى العد مرة اخرى :

– هناك الداجو والبرقيت والمساليت والتاما والزغاوى . كذلك عندنا قبائلنا من الفرتيت وهم ليسوا بعرب . لاتظن أن الفرتيت يوجدون فقط في مديرية بحر الغزال من الجنوب . أعتقد انك من بحر الغزال ، اليس كذلك ؟

اجابه إلياس :

– نعم انا من بحر الغزال .

– لا أعرف لماذا خطر ذلك ببالى ، لعله لانك من الدينكا ، هل انا على صواب ؟

– انك على صواب فانا من الدينكا . كيف عرفت ذلك ؟

قال عثمان مشيرا الى راسه :

«ألم أقل لك بأن لى كليتين» . يعنى أنه ذكى ، وضحك الرجلان . « من هو بخلاف الدينكا الذى يكون فى مثل طول قامتك ؟ »

– حسنا ، هناك النوير والشلك والقبائل النيلية الاخرى .. بالطبع . وحقيقة الأمر أن فى دارفور ايضا قوما طوال القامة لكننى قد ابتعدت عن موضوعى الأساسى . ما هو موضوع حديثنا ؟

– كنت تتحدث عن قبائل دارفور العربية منها وغير العربية

قال إلياس مذكرا :

– كنت تعدد قبائل الفور والفرتيت كقبائل غير عربية فى المنطقة .

– نعم ، شكرا لك . على أن اعترف أن النسيان هو أحد شرور الخمر . على كل حال ، دعنا نعود الى موضوع اهل دارفور . فحقيقة الامر انه حتى القبائل التى توصف بأنها عربية هى فى واقع الحال غير خالصة الدماء العربية ، بل هم خليط من الدماء العربية وغير العربية .

– انا كثير الاسفار فى هذا البلد وقد رايت اهل الشرق ، القبائل المعروفة باسم البجة مثل الهدندوه . لا يختلف أولئك الناس عن الاثيوبيين ، وهم يتحدثون بلغاتهم الخاصة . أما

بالنسبة للغة العربية ، فهم يتحدثونها كلغة أجنبية وبمستوى ضعيف للغاية . وإذا اتينا الى المناطق الداخلية ، فللدناقلة أيضا لغاتهم الخاصة ، وبالطبع فان النوبة فى اقاصى الشمال يفخرون أشد الفخر بجنسهم ولغتهم غير العربيين حتى يومنا هذا .

ـ فكيف يجوز اذن لأى شخص أن يقول بأن هذا البلد منقسم عرقيا وثقافيا بين الجنوب الإفريقى والشمال العربى ؟ ان هذا محض افتراء .

توقف عثمان عن الشرب ، بل واصبح فى غاية الوعى والتوقد السياسى . وكان الياس مهتما بما يقوله عثمان حتى عندما كان مخمورا بعض الشىء . والآن وقد أصبح أكثر وضوحا ، فإن قوة كلماته كانت تزداد كلما ازدادت قوة حجته .

واصل عثمان الحديث قائلا : إن الحكام بالخرطوم يجهلون البلد الذى يحكمون . انهم يتعاملون مع أنفسهم ويتوهمون أنهم هم أهل هذا البلد بينما يبقون منعزلين فى مواقعهم المكيفة الهواء هناك فى العاصمة المثلثة . بل هم ينسون أن دارفور كانت مستقلة حتى عام ١٩١٦ بينما أخضع البريطانيون باقى القطر ، أو الشمال على الأقل . بالطبع ، فقد اتخذنا الاسلام وبعض عناصر الثقافة العربية ، ولكننا طوعنا ذلك لظروفنا المحلية . لم ندع مطلقا بأننا عرب . ماالذى يدعوهم الى الاعتقاد بأننا سنكون افضل بادعاء العروبة ؟

ما أريد قوله فى حقيقة الأمر هو أن الظروف التى بررت منح الحكم الذاتى للجنوب تنطبق على الغرب والشرق أيضا . وتتضمن هذه الظروف عدم عدالة التوزيع للسلطة والموارد القومية بين الوسط والأقاليم . وبالنسبة للكثيرين منا فى الغرب ، يشتمل ذلك أيضا على التدليس بعرض قيمنا على العالم بوصفها بأنها عربية .

تذكر أننا هنا فى الغرب ، فى دارفور وكردفان ، قد ضغطنا على النظام ليمدد الحكم الذاتى للجنوب لينطبق على مناطق أخرى فى الشمال وبخاصة فى الغرب . أؤكد لك أن أهلنا كانوا على استعداد لحمل السلاح والنضال مثلما ناضل الجنوب . إلا أن منير ليس بالأحمق ، فاستجاب بمنح الاستقلال الأقليمى لباقى انحاء الشمال . لذلك يستحق منير الاطراء .

أصبح إلياس متأثرا بحصافة وعى عثمان السياسى . لا يمكن أن يكون مجرد التاجر البسيط الذى يزعم ، فمن هو حقا ؟ وما هو موقفه السياسى من المسائل الحرجة التى تواجه البلاد ؟

اطلع عثمان على خواطر إلياس وقرر مواصلة الحديث فقال :

ـ دعنى أخبرك بقصور منير . لا يزال يعتقد بأن الشمال مختلف عن الجنوب وبأن الغرب جزء من الشمال . فماذا تراه يفعل ؟ انه يمنح الشمال نظاما للحكم الأقليمى أضعف بكثير مما منح الجنوب . وعلاوة على ذلك ، يحتفظ لنفسه بسلطة تعيين حكام اقاليم الشمال . حتى أنه حاول فرض ارادته على أهل دارفور . ولكن قومنا وقفوا بصلابة مرة أخرى وكانوا على استعداد للقتال والموت من أجل حقوقهم .

ومرة أخرى أيضا ، اظهر منير الذكاء وتنازل فى الوقت المناسب . وفى الحقيقة ، فقد تنازل فى مسألتين : أولا ، قبل مطالبة دارفور بأن تكون اقليما منفصلا بدلا من جمعها مع كردفان حيث نكون خاضعين لارادة الأغلبية وأسيادها فى الخرطوم . وعندما اراد أن يعين رجلا من كردفان ليكون حاكما لنا ، وقفنا بصلابة حتى نزل عند رغبتنا بتعيين أحد أهلنا ليكون قائدنا . تلك هى الطريقة التى عين بها حامد الدرقاوى ، حاكمنا الحالى .

واسمه ، وأعتقد انه اسم جده ، مشتق من درقة أو درع ، وهو درعنا ضد سلطات الخرطوم .

رغم أن الوقت قد بلغ الساعات الاولى من الصباح ، إلا أن إلياس كان مستغرقا في الحديث ، وشعر بأنه ما كان ليتمنى تقديما للأقليم أفضل مما وجد في حديث عثمان . كما بدا أن عثمان ايضا كان سعيدا بفرصة تعريف ضابط بحقيقة الأحوال ، وخصوصا انه ضابط جنوبي على وشك ان يتولى مهام وظيفته في الاقليم .

ـ دعني أخبرك يا أخي ...

ـ الياس

ـ أخي الياس . مع ان اهلنا قد حققوا بعض الانتصارات ضد السلطات في الخرطوم ، فان نضالنا بعيد عن الانتهاء . وفي الحقيقة ، فقد بدأ لحينه . أقول لك بكل أمانة ان اكبر عقبة تواجه أهلنا في الجنوب والغرب هو انعدام الوحدة . اننا مقسمون بواسطة الحكام الأذكياء من الخرطوم ، وهم يستغلون الاسلام والثقافة العربية لخلق الحواجز بين الناس . هذا هو قصور زعمائنا .

لم تتجاوز رؤياهم الاسوار التي نصبها أعداؤنا ببراعة وذكاء للتفريق بيننا .

لأكن في غاية الصراحة معك يا أخي . إن الكثيرين منا في الغرب يرونكم في الجنوب كعبيد ، بل وكفار . ولكن انظر الى أنا ، هل هناك فرق بين لوني ولونك ؟ وإذا حكم الناس على تقاطيع وجوهنا ، هل يفرقون بيني وبينك الى جنسين مختلفين ؟ أعني أن هذا البلد في غاية الارتباك في الحقيقة . والمسئول عن ذلك هو هؤلاء الناس القابعون في الخرطوم بعزلتهم التامة عن السودان الحقيقي ، ومع ذلك يتلاعبون بحياتنا بصور عرقية وثقافية ودينية يجهلونها تماما وهي على التحقيق لا تعكس الواقع . ويسمح لهم قادتنا في الجنوب والغرب بهذه الاهانة لكرامة وعزة أهلنا .

لم يعد الياس يرى عثمان كمخمور عابث بل كزعيم له رؤية قومية صحيحة .

سأل إلياس في جدية :

ـ ماذا ترانا فاعلين لتصحيح هذا الخطأ ، أم لعلك ترغب في تسميته بأنه شيء أخطر من ذلك ، سوء الفهم الشنيع لحقيقة البلاد ؟

تفهم عثمان السؤال وأراد الاجابة بنفس المستوى من الجدية فقال :

ـ يا أخي ..

ـ الياس

ـ اني في غاية الأسف لنسياني لاسمك باستمرار . لعلي غير قادر أن اقرر هل أنت مسيحي أم مسلم . على كل حال ، أود أن أكون صادقا معك . هناك شيء فيك يجعلني اثق بك . لعلي أكون مخطئا تماما ولدى وصولنا الفاشر ، فقد اكتشف أني قد ارتكبت اكبر غلطة في حياتي . ولكن دعني أخبرك بالحقيقة كما اراها .

إذا لم نتحد نحن المستضعفين في هذه البلاد ونعتبر أقليات مع اننا الأغلبية ، إذا لم نتحد ونغير النظام بحيث نتحصل على حقوقنا كأبناء وبنات البلاد الحقيقيين فسنبقى عبيدا للعرب أو لمن يسمون انفسهم العرب . لقد عرف قومنا المعاناة والإهانة لكرامتهم وعزتهم الانسانية . عندما نتحد ونحرر انفسنا من القيود ، سوف نخلق السودان الذي لا تفرض فيه القبيلة أو الجنس أو الدين وضع مواطنة من الدرجة الثانية على أي مواطن .

هل تصدق القول بأن السودان بلد واحد ، وان الخرطوم هى عاصمة كل السودانيين ، وعندما يفر اهلنا من الفقر الذى يعانون منه ويذهبون الى الخرطوم بحثا عن فرص العمل ، يجمعون ويحشرون فى ميادين كرة القدم مثل الماشية ثم يحملون على الشاحنات لتنقلهم عائدين الى اريافهم وكأنهم اجانب غير مرغوب فيهم ؟ وماذا تقول الحكومة فى تبرير هذه « الكشات » كما يسمون هذه الحملات على المواطنين الابرياء ؟ انهم يبررون ذلك بأنه ضرورى لأمن اهل المدن . انى اقول لك ان هذه الامة تجلس على قنبلة زمنية وأن وقت الانفجار ليس بالبعيد .

قال إلياس فى صوت متعب : إنى أوافقك تماما .

وسكت كلاهما وكأنهما قد استقصيا الموضوع ، فمن المؤكد أن الأمور واضحة لهما تمام الوضوح . وعلى كل حال ، فقد كانا متعبين لدرجة لا تمكنهما من مواصلة البحث اكثر من ذلك . وهكذا ففى الثالثة صباحا ، والقطار يغادر كوستى ، قررا محاولة الحصول على بعض النوم قبل وصول القطار الى المحطة التالية حيث ستوقظهما الجلبة فى غالب الحال .

استغرقت الرحلة الى نيالا عدة ايام عبر مناطق متنوعة لدرجة كبيرة ، حيث تبدل إقليم الشمال بمناطق السافانا الجنوبية الغربية . كان موسم الأمطار قد بدأ ، ورغم أنه لم يؤثر كثيراً على المناطق الصحراوية المحيطة بالخرطوم ، إلا أن النباتات فى تلك المناطق قد بدأت فى الاخضرار . مر القطار على كوستى ثم أم روابه وبعد ذلك اتجه جنوباً إلى أبو زبد فبابنوسه حتى انتهى إلى نيالا . كانت رحلة طويلة عبر العديد من المحطات المزدحمة بأصوات الباعة الذين يحاولون البيع لركاب القطار ذوى القدرة على الشراء .

يدفع الباعة بكل انواع البضائع ، من انواع الطعام الى الأعمال اليدوية ، يدفعون بها من خلال نوافذ القطار وهم يتصايحون بمختلف عبارات العرض فى حديث أو غناء باللغة العربية واللهجات المحلية . وعادة ما يتجول قوم فى جلابيب وعمامات بيضاء ويحملون السبح فى أيديهم وهم عميان او يتصنعون العمى ويتلون آيات القرآن التى تحض على عمل الخير والاحسان للفقراء وجزاء الله المحسنين . يتجول هؤلاء الشحاذون « النبلاء » فى انحاء القطار بصحبة الأطفال الذين يحملون الأوعية ليضع الناس هباتهم فيها .

ومن حين لآخر يقذف بعض الأفراد بقطع النقود المعدنية ، والورقية فى أحيان اندر ، فى داخل الأوعية ، ولكن من الواضح أن اغلب المسافرين قد سمعوا النداء من قبل فيتجاهلونه فى هدوء .

وهناك نوع آخر من الشحاذين الذين لا يمكن تجاهلهم ، ويتحتم على الشخص أن يعطى أو يمنع بصورة صريحة ، اولئك هم العميان بحق أو الكسحاء وغيرهم ممن تظهر عليهم علامات الحاجة الحقيقية ، والذين يسألون بأنفسهم أو من خلال وكيل . وبينما يعطيهم بعض يعتذر آخرون بعبارة « الله يعطينا ويعطيكم » وتكفى هذه العبارة لانصراف الشحاذ .

لم تكن المرة الأولى التى يستقل فيها إلياس ذلك القطار ، ولكنه لم يكن يركز من قبل فيما يجرى من حوله ، وهذه المرة واصل إلياس التفكر فيما قاله عثمان ، ولأول مرة تساءل عما يشاع من ان الجنوب هو افقر انحاء البلاد بينما لا يتذكر ابدا رؤية هذه الدلائل للفقر والشقاء فى الجنوب كما يراها الآن فى الشمال . ومع أن الجنوب اقل « حداثة » أو

« تطورا » من الشمال ، فكيف يفسر المرء هذه الظاهرة الشاذة ، حيث نجد فى الجزء الأغنى من البلاد أولئك الناس الذين يظهرون اكثر عوزا مما نجد فى الجنوب ؟

ومع تقدم القطار الى الغرب ، حيث فارقهم مدير المدرسة والمهندس ، أصبح الياس وعثمان صديقين حميمين ، فقد ارتاحا لبعضهما البعض كثيراً ، وعندما وصلا إلى نيالا ، قال عثمان :

أخى إلياس ، وانا لست بحاكم دارفور بحال من الأحوال ، إلا انى استمتع ببعض النفوذ فى هذا الأقليم . اود ان اقول لك بأنى سعيد بأنك تبدأ تجربتك الميدانية هنا .

وجد إلياس مدينة الفاشر مختلفة بدرجة ظاهرة عن المدن التى رآها من قبل فى الجنوب والشمال معا . فمن بعض الجوانب كانت شبيهة بأغلب مدن الشمال حيث كان المعمار فى غالب الحال عديم التميز لكنه عملى وقد انعكست معالم البيئة الثقافية ومظاهر الفقر فى اكواخ القش والصفيح والورق المقوى . تتجول الجمال والجياد والحمير فى كل انحاء المكان وتزاحم العربات التى تجرها الحيوانات فى الطريق مع السيارات والراجلة من الناس . ولكن اكثر ما لفت نظر إلياس هو الملامح العرقية والثقافية للمدينة ، وبخاصة العنصر غير العربى فى بيئة كان يفترض انها شمالية ومن ثمة لابد أن تكون عربية . ظهر ذلك فى عدة وجوه من الملامح الجسدية الى نمط الزى والملبس الذى كان اقل عروبة واسلاما مما يتصور هو ، الى اللغة التى تتفاوت من اللغة العربية بلهجة اعجمية قوية الى لغات محلية غير عربية . لم تكن الفاشر بحال من الأحوال ما يتوقع الجنوبى للمدينة العربية التقليدية . بهذا المستوى ، يمكن لمدينة واو أو مدينة ديم الزبير فى منطقة بحر الغزال أن تكونا مدينتين « شماليتين » وهكذا تكشف لإلياس خلال ساعاته الأولى فى المدينة صحة ما قاله عثمان فى القطار .

ولكن كان للفاشر أيضا صفة مميزة كرمز لماضيها الغريب . يذكر قصر السلطان على دينار ، أخر سلاطين دارفور ، والذى أصبح الآن متحفا ، يذكر بأن هذا الجزء من البلاد قد ظل دولة مستقلة تتحدى الاستعمار البريطانى حتى تم اخضاعها فى آخر الأمر عام ١٩١٦ . ولم يكن ذلك محض تاريخ غابر ، إذا بقى أثره فى عقول زعماء الفور ولدى الحكومة المركزية . إذا جاز لأى اقليم أن يتطلع للانفصال ، فلماذا لا يكون ذلك للأقليم الذى كان دولة مستقلة ذات حضارة لا تزال آثارها ظاهرة للعيان وموضعا للاعزاز والتقدير ؟

بعد أكثر من شهر بقليل لوجود الياس فى الفاشر ، تلقى دعوة من عثمان « لحضور عشاء خاص وغير رسمى وذلك لتقديمك لبعض الأصدقاء » .

ارتدى إلياس حلة غير رسمية واختار أن يأخذه الى مكان العشاء سائق عسكرى لأنه لا يعرف المكان ، على أن يقود السيارة بنفسه فى العودة .

وعندما أعطى إلياس العنوان وسأله إذا كان يعرف الطريق الى هناك أجابه السائق بسرعة .

- من من سكان الفاشر لا يعرف منزل عثمان جار النبى .

وبمجرد دخول إلياس من بوابة المنزل ، لفتت نظره مظاهر البذخ التفاخرى ، فناء فخم على رقعة شاسعة من الأرض محاطة بسور عال ، وداخل الأسوار حديقة مزينة بصورة جميلة ، وفى وسطها موضع للجلوس وضعت عليه مقاعد ستة فى شكل دائرى . كان إلياس أول الحضور واحتضنه عثمان بحرارة وكأنه صديق قديم وقال موضحا :

ـ كما ذكرت فى مذكرتى ، هذا اجتماع غير رسمى مع بعض الأصدقاء . ستشعر بالراحة وسطهم فهم من الإخوان .

ما كادا يجلسان حتى انفتحت البوابة وصاحب ذلك صوت يقول :

ـ السلام عليكم .

نهض عثمان لتحية رجل فى أواسط الاربعينات من العمر ، قصير القامة ومستدير لدرجة ما . قال عثمان :

ـ أخى الياس ، أقدم لك أخى الاكبر قاسم .

رد عليه إلياس بقوله :

ـ اذن فرئيس مجلس الشعب الاقليمى هو أخوك .

قال قاسم :

ـ لقد سمعت الكثير عنك من أخى .

تساءل الياس بصورة مرحة قائلا :

ـ آه ؟

واضاف قاسم مستعجلا :

ـ أؤكد لك أن كل ما سمعت عنك فى صالحك .

علق الياس بقوله :

ـ لا شك أن عثمان قصد المفاجأة ، ولكن من العدل له ان اذكر بانه سبق أن قال أنه يتمتع ببعض النفوذ .

ـ لا تعتقد أيها الضابط أن لأخى كل ذلك النفوذ على ، فعليه أن يثابر اكثر من الآخرين ليحظى بتأييدى .

حضر أخران وتم تقديمهما كأعضاء فى مجلس الشعب الاقليمى ، ثم جاء أخر كان من الواضح من عباءته وعمامته أنه من الاعيان التقليديين وقدمه عثمان بقوله :

ـ أقدم لك أحد كبار سلاطين الفور ، الشيخ ابراهيم الدرقاوى ، ابن عم حاكمنا حامد الدرقاوى .

صافح الشيخ إلياس وهو يقول :

ـ أنا هو الذى يتشرف باللقاء ، فنادرا ما نلتقى بأخوتنا من الجنوب .

وبعد دقائق قليلة سمع صوت طرق على البوابة المفتوحة ودخل رجل طويل القامة يرتدى جلبابا وعمامة ، وتمت دورة أخرى من التحايا « السلام عليكم » .

نهض عثمان وأسرع تجاه الباب لملاقاة القادم وهو يعلم أنه ، ولا شك ، هو السيد حامد الدرقاوى ، حاكم الاقليم .

أحضر خادم المشروبات : بعض المشروبات الباردة وزجاجة ويسكى « جونى واكر » وإناء من مكعبات الثلج .

أعلن عثمان بقوله :

ـ ان أول واجباتى هو اداء أحد الطقوس التى علمنى اياها الأخ الياس خلال رحلتنا بالقطار . يقدم للاسلاف قدرا معتدلا من الشراب قبل أن نمتع انفسنا ..

وأثناء الحديث ، صب عثمان بعض المشروب على الأرض .

وضحك الجميع مما أوحى بأنه قد حكى لهم من قبل عن ذلك العرف .
ويأتى بعد الاسلاف مباشرة دور شخصين ، هما السلطان وحاكم الاقليم .
أعتقد أنهما قد اختارا فصل السلطات بينهما ، يمثل أحدهما الاسلاف الذين سبق تكريمهم بينما يمثل الآخر نحن معشر البشر العاديين ولذلك يكون أول من يتناول من هذا السائل الخبيث الممتع .
وقوبلت كلمات عثمان بهدير من الضحك .
- يا صاحب المعالى، اليك « بلاك جونى واكر » من اسكتلندا ، الذى ولد فى أعوام ١٨٨٠ وما زال يتمتع بكامل الصحة .
قال عثمان وهو يناول كوباً من الويسكى لحامد الدرقاوى .
وتم بعد ذلك تقديم الشراب الذى اختاره كل منهم . وكما ظهر من الحديث السابق ، فقد امتنع السلطان عن شرب الخمر وذلك لأسباب صحية وليس لاعتبارات دينية أو اجتماعية ، إلا أن إلياس احس بأن الحجة كانت واهية نوعا ما . طلب البقية مشروبا من الخمر .
تذكر عثمان موقف إلياس من الخمر خلال الرحلة ، فقدم له مشروبا من المياه المعدنية ، إلا أن الحاكم اعترض على ذلك بطريقة مميزة :
- إذا كان دينك لا يحرم عليك الشرب أو لديك ضده حساسية شديدة ، فانى ادعوك وبإلحاح أن تشارك إخوانك فى مباركة الاسلاف .
وجد إلياس نفسه فى ورطة . فمع انه لا يتناول الخمر بخلاف الوهم الشائع عن الجنوبيين ، فانه لا يود أن يظهر بطبيعة مفرطة فى الترفع الصفوى بل يريد أن يبدى مشاعر التضامن مع مضيفيه من الغرب . لذلك قبل عرض الخمر عليه وقال وهو يمسك بالمشروب الرمزى فى شىء من المجاملة .
- أرى الآن كيف حققت الفوز الساحق فى انتخابات حاكم الاقليم .
وظهر من الضحك الذى لقيته عبارته ان الجماعة قد بدات لقاءها فى احسن احوال التفاعل الاجتماعى .
قدر عثمان فى حكمة أن احسن ما يمكن هو الحديث على مستوى اجتماعى من غير افراط فى الحديث عن السياسة . وحتى عندما اقحم قاسم لمحة جادة فى الحديث ، لم يفسد ذلك انفتاح وصراحة المجلس .
دعا قاسم للانتباه بقوله :
- أخوتى ، لا أود أن افسد عليكم هذه المناسبة الاجتماعية بالخطب ، ولكننا جميعا شديدو المشاغل ولا نجد العديد من الفرص للقاء والحديث الودى عن المسائل الجادة . كما تتصورون ، فقد أخبرنى عثمان بالكثير عن أخينا إلياس ، ومن التوفيق الكبير أنهما التقيا فى القطار . وحسب علمى ، فان هذا اللقاء يعد بالفرص الطيبة للصداقة وتبادل الآراء بيننا وأخينا الجنوبى إلياس بول . لنرفع كؤوسنا للتحية والترحاب بالياس وسط إخوانه وأخواته فى دارفور .
قالوا وهم يرفعون كؤوسهم ويشربون نخب الصداقة :
- مرحبا بأخينا الياس .
بدأ الحاكم فى التصفيق وسرعان ما تبعه فى ذلك البقية بعد أن وضعوا كؤوسهم جانبا .

قال الياس :
- يبدو انه من المحتم على أن اقول شيئا ..
فاضاف عثمان القول :
- بكل سرور
بينما استدار الجميع تجاه الياس الذى شرع فى الحديث :
- اشكركم جميعا على صداقتكم ، فقد زادت قناعتى بأن هذه المهمة ستكون هامة بالنسبة لى . لقد منحنى الأخ عثمان تقديما مفيدا خلال رحلة القطار .
انى هنا حقا للتعلم وكل ما تقدرون على تعليمى اياه سيجد عندى كل التقدير وربما امكننى الاستفادة منه لمصلحة بلادنا .
ولقى إلياس تصفيقا عفويا كان مخلصا بقدر ما كان عاليا .
وتدخل عثمان بقوله :
- ايها السادة ، انى لم اقصد أن تكون هذه مناسبة للخطب الرسمية ، وانما قصدت فقط ان اقدمكم الى بعضكم البعض . والآن اعتقد أن موعد العشاء قد حان .
واعترض حامد الدرقاوى بقوله :
- ولكن ليس قبل أن يتحدث الحاكم . لقد كانت الكلمات التى قيلت جميلة وذات مغزى ، وحكما بما سمعت وشاهدت هذا المساء ، فبيننا اخ حقيقى . انى سعيد بمبادرة عثمان ، وكمساهمة منى فى المناسبة ، أود أن احكى لكم نادرتين .
حكى لى الأولى صديق جنوبى حيث قال انه عاد الى الوطن بعد غياب دام عدة سنوات بالخارج واستغل سيارة تاكسى من المطار الى الفندق . سأل السائق الذى استنتج من سحنته ولهجته انه من دارفور : كيف الأحوال فى الخرطوم .
اجابه السائق : ليست على ما يرام . اعتقد انه قد آن الأوان لأمثالك وأمثالى أن نتولى مقاليد الامور فى هذا البلد .
« ولاحكى لكم رواية أخرى حكاها لى صديق جنوبى حديثا . كان خارجا من مكاتب الاتحاد الاشتراكى عندما اقترب منه جمع من الناس من دارفور وقالوا : « لقد كنا نبحث عنك ولم نجدك لعدة أيام . اننا فى حاجة للمساعدة لاننا نبحث عن العمل ».
طلب منهم الصديق الجنوبى الذهاب الى مكتب حاكم دارفور لعله يقدر على مساعدتهم . ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك انهم كانوا يعتقدون بأنه هو حاكم دارفور .
ينبغى أن نعلم من هاتين الواقعتين أننا بحق شعب واحد وأن وقتنا مقبل ، بل لعله قد وصل ولا نعلم نحن ذلك .
ومرة أخرى قوبلت كلماته بالتصفيق الحاد .
وعلق عثمان فى تصميم :
- والآن لابد لى من تقديم العشاء لكم قبل أن اتهم بالاستغلال السياسى .
وقضوا باقى الأمسية فى حديث خفيف الظل لكنه لم يستمر كثيرا إذ سرعان ما انصرفوا بعد تناول العشاء .
لم يقل إلياس اى شىء عن امسيته مع أعيان دارفور لزملائه برئاسة القوات المسلحة ، الا أن الفاشر كانت محدودة وشعر إلياس بأن قائده على الأقل قد سمع عن الأمر . ومن الناحية الأخرى ، فقد رأى إلياس أنه إذا لم يطرأ الأمر بصورة طبيعية ، لم يكن هناك داع لإثارة الموضوع مع أى منهم . فلو فعل غير ذلك لكان الأمر وكأنه قد جعل من مسألة خاصة مهمة فى

الاستخبارات ، بل لكان الامر وكانه يبلغ عن مضيفيه ، وفى ذلك خيانة لعلاقة شخصية .

تتكون مهام إلياس فى غالب الحال من دوريات فى المنطقة ، وعلى الحدود الليبية والتشادية بصورة خاصة حيث ظل الموقف الأمنى متوترا وضعيفا . لم يحدث شىء مثير ، الا أن الجميع كانوا يقدرون أن اظهار القوة على الصعيدين الداخلى والخارجى كان ضروريا لحفظ الأمن والنظام فى المنطقة . وقد كانت السلطات الاقليمية أيضا حريصة على أمن واستقرار المنطقة .

وبعد عدة أشهر من مناسبة العشاء بمنزل عثمان ، استلم إلياس مذكرة من حاكم الاقليم يدعوه فيها لمشاركة من تناولوا العشاء بمنزل عثمان ، بالاضافة إلى أشخاص آخرين ، فى رحلة للنزهة بقرية الحاكم على بعد ستين ميلا تقريبا من الفاشر . وسعد إلياس بفرصة الاطلاع القريب على الاحوال فى قرية للفور بعيدا عن مظاهر الرسمية العسكرية . وبما أن الرحلة تستغرق عدة ساعات ، فقد استوجب ذلك البداية المبكرة صباح أحد أيام الجمع .

لبس إلياس بدلة صيفية بينما ارتدى رفاقه الجلابيب ، وهى الزى المعتاد لعطلات نهاية الأسبوع فى شمال السودان . سارت الجماعة فى عربتى جيب على طرق وعرة غير مرصوفة وملتوية خلال الشجيرات المتناثرة عبر المنطقة الصحراوية . وقد ظهرت دلائل الصحراء المحيطة بهم وآثار الجفاف الذى وقع بالمنطقة فى الآونة الأخيرة ، ظهر ذلك على البيئة المقفرة التى انتشرت فيها هياكل وبقايا الجمال والجياد والخراف والماعز على طول الطريق .

وعند منتصف الفترة الصباحية ، وقد ارتفعت حرارة الشمس المرتفعة الى كبد السماء وظهر السراب المرتجف ، برزت فى الافق قرية شامخة ، وقد امتدت أشجارها واكواخها نحو السماء مما جعلها تبدو وكأنها قلاع وحدائق ملوكية أكثر منها بقايا بيئة تحتضر . وأشار الدرقاوى فى اعتزاز نحو القرية وهو يقول : « تلك هى قريتى المعروفة باسم « ظليل شادر » نسبة الى جمع الأشجار التى ترونها هناك ».

ولدى اقترابهم من القرية ، ظهر أن ما بدا لدى الوهلة الأولى وكأنه جمع أشجار ظليلة هو فى الحقيقة عدد من أشجار السنط الشائعة المبعثرة حول المساكن القليلة الموزعة على مساحة قطرها حوالى الميل تقريبا وبينها مزارع الأسرة . وعندما تقدمت العربتان نحو القرية ، تم ذبح ثور ووضعه عبر الطريق الذى يتوقع مرورهم به ، وقف الشيخ ابراهيم الدرقاوى ، السلطان وابن عم الحاكم ، وقف على الجانب الآخر من حيوان الضحية . نزل الضيوف من العربتين وذهبوا ، يتقدمهم الحاكم ، تجاه الثور المذبوح . قفز الحاكم الدرقاوى فوق جثة الثور وتبعه رفاقه فى ذلك . وتذكر إلياس مناسبات فى الجنوب يتم فيها أداء طقوس شبيهة بذلك بعد غيبة طويلة من الأهل . من الواضح أن تلك عادة سابقة للاسلام فى المنطقة .

وبعد أن قفزوا فوق الثور ، حياهم الشيخ ابراهيم ثم واصلوا لتحية الجموع التى كانت تتجمهر باطراد . تتكون منازل عائلة الدرقاوى من مجموعة من «التكلة» (ومفردها «التكل» وهو كوخ دائرى) والكرانق (ومفردها كرنق وشكله مستطيل) « والكرنق » ، مثله مثل « التكل » ، يتكون من جدران من الطين وسقف من القش . كانت هناك ايضا « راكوبة » او سقيفة مستطيلة وقد بنيت من أعواد قصب الذرة من ثلاثة جوانب ، وترك الجانب الرابع مفتوحا تماما ، وفيها وضعت كراسى من القنب من داخل الجدران الثلاثة

وفرشت الابسطة من « البروش » براقة الالوان فى وسط المكان .
واصل الناس الظهور من جميع أنحاء القرية ، والنساء يزغردن فى تحية الضيوف الكرام . وواحدا تلو الآخر ، تزايدت الجموع حتى بدا وكأن القرية قد اجتمعت عن بكرة ابيها ، رجالا ونساء واطفالا . لبس بعض الرجال الجلابيب والجبب الناصعة البياض ، وقد لفوا العمائم بأناقة وإتقان حول رؤوسهم ، بينما ارتدى آخرون قمصانا أقصر ، وهى معروفة باسم « عراقى » وتحته « السروال » الذى يمتد الى أسفل القدمين ، وقد القوا الشالات على اكتافهم . وارتدت جماعة أخرى البدل الصيفية الأوربية المظهر . كذلك تنوعت ازياء النساء بدرجة كبيرة ، من آخر الموضات من الثياب الملفوفة حول الوجه فى احتشام ، تاركة فتحات صغيرة للعينين ، الى ملابس براقة الالوان ملفوفة حول الوسط وقد تركت الصدر عاريا بخلاف الحلى من المعادن والخرز . لقد كان خليطا من مظاهر الثروة والاناقة من جهة والفقر والاحتشام من جهة أخرى . الا ان كل ما ظهر من اختلاف كان سطحيا فقط وغير حقيقى ، اذ أن معظم أهل القرية كانوا يتشاركون فى الثروة بصورة تمنع التفاوت الكبير فيما يعيشون فيه من منازل وما يأكلون من طعام وما يتمتعون به من ثقافة .

واكثر ما لفت نظر إلياس انه ، بخلاف الأثر العربى الاسلامى على ملابسهم ، فإن أولئك القوم يشبهون الى حد بعيد الناس الذين رآهم فى مختلف أنحاء الجنوب . حتى أن نكهة القرية تذكره بما الف فى الجنوب اكثر منها بأجزاء عرفها فى الشمال . وبصفة خاصة ، وجد إلياس أن انفتاح المجتمع ، الاكواخ مكشوفة بدلا من أن تكون مغلقة ، والرجال والنساء مختلطون بدلا من الانعزال عن بعضهم البعض ، وعدم الاهتمام للفقر ، وجد أن كل ذلك من الخصائص التى يشارك فيها اهله الدينكا هؤلاء الرفاق من السودانيين من دارفور .

حتى أن البيئة السريعة التدهور كانت من المظاهر المشتركة ، رغم التفاوت فى درجة التدهور . فقد سمع إلياس أهله يتحدثون عن الانهار التى كانت تحتفظ بمياهها لأغلب موسم الجفاف وهى الآن تجف قبل دورتها الطبيعية . ويتحدث اهله عن الاحجام الكبيرة التى كانت للأشجار ، وهى الآن تنكمش فى الحجم وتموت قبل الأوان . كما أنهم يدركون أن أعداد الحيوانات الوحشية تتناقص وأن التنوع الكبير فى الطيور والحيوانات مثل الزراف والجاموس التى كانت تنوع غداءهم من وقت لآخر قد ظهر اختفاؤها فى السنوات الأخيرة . حتى أن الازعاج الذى كانت تسببه الأفيال وفرس البحر أو الحيوانات المفترسة قد أخذ فى الاضمحلال ، وذلك بشارة لسلامة البشر الجسدية ولكنه من الدلائل المفجعة لما يحدث للبيئة .

وهكذا ، ما كاد الضيوف يجلسون حتى تناول الحديث موضوع الأمطار المتناقصة والجفاف المتزايد . حاول الزعماء من الفاشر أن يشرحوا لأهل القرية ظاهرة الزحف الصحراوى ، وهو أمر قد راقبوه يتزايد خلال السنين الطويلة ليأكل أرضهم الغالية . ولم يغنهم الشرح بشىء ، بل على العكس من ذلك ، فقد أكد لهم أنهم ضحايا لقوى أكبر منهم . وكانت دلائل الجفاف والمجاعة التى اجتاحت المنطقة ظاهرة على الحيوانات ، بخاصة الجياد والحمير التى وقفت فى قيظ شمس الظهيرة وهى تضطرب بنفس الحياة العزيز .

ومهما كان خطر العطش والمجاعة في المنطقة ، فما كان لذلك أن يؤثر على كمية ولا نوعية كرم الضيافة الذى تبذله القرية . وكما هى العادة ، فقد قدمت المياه والمشروبات الباردة للضيوف اولا لتطفىء من عطش المسافرين . وبدأ الحديث خفيف الظل . وقد جلس اعيان القرية لمؤانسة الضيوف .

غير أن بعض الواجبات العائلية كانت تقتضى الاجابة . همس الشيخ ابراهيم للحاكم بأن أمه قد جاءت لتحية الضيوف ، فأفسح لها المجال فورا . نهض الجميع عندما تم تقديم الحاجة عائشة وهى ترتدى ثوباً طويلاً يغطى رأسها دون أن يحجب وجهها ، وكانت الحاجة عائشة متوسطة القامة مستقيمة الوجه . حيّتْ الجميع في صوت ناعم لكنه قوى في ثقة تناسب السيدة التى تقف خلف الرجل الذى يعتبره أهل دارفور بمثابة درعهم الواقى . لم يملك إلياس الا أن يتذكر قريته والنساء البسيطات ، شبه العاريات في غالب الحال ، وهن في الحقيقة سيدات عظيمات يقفن خلف رجال عظام ، وقد دفعوا جميعا إلى فراغ الذات المنسية ، بل ما هو انكر من ذلك الا وهو انعدام الذات . تشجع إلياس لأن التجربة تقع على نطاق القطر ، ولكنه شعر بالقنوط أيضا لنفس السبب .

بدأ ضرب الطبول بينما تقدم اليوم ليصبح مناسبة عطلة واحتفال للقرية . بالاضافة للثور الذى ذبح ليكون لحمه للجميع ، تم ذبح خروف ايضا وشرع في إعداد كل انواع الأطعمة .

تابع الشيخ ابراهيم الخروج والدخول وهو ينظم أمور الضيافة والترفيه عن الضيوف . وذات مرة وقف أمام ابن عمه ليقول :

- لدينا مشروباتكم الحديثة ، إذا رغبتم في ذلك ، كما قامت نساؤنا باعداد المشروبات الوطنية لإعطائكم الخيار . فبجانب الويسكى من المدينة ، عندنا « كوشيف » و « دوما » و « عسلية » بالإضافة « للمريسة » العادية بالطبع . فما هو طلبك ؟

أجابه الحاكم الدرقاوى :

- احضرها جميعها ودع ضيوفنا يختارون ما يروق لهم .

وهكذا أحضرت زجاجات الويسكى مع أوعية المشروبات المحلية .

وبدأت الاحتفالات بينما أخذت جمهرة الحضور تثرثر في سعادة . وسواء أكان الأمر باختياره هو أم لاعتبارات اجتماعية ، فقد علا صوت الحاكم فوق أصوات الجميع وهو يقول :

اريد أن أوضح شيئا لكم جميعا : يقول لكم من يزعمون بأنهم أصوليون اسلاميون (الاخوان المسلمون) أن أولئك الذين تسمح تقاليدهم بتعاطى الخمر منكم بسبيل من التضامن الاجتماعى بأنهم يسلكون سلوكا مشينا . إن هذا الأخ من الجنوب لا يشرب الخمر في العادة ، لكنه اختار اليوم أن يشرب بعض الخمر المحلى ليس فقط لكى يتذوق ما تنتجون ، ولكن أيضا ليعبر عن التمازج الاجتماعى والتضامن معكم . اخبرونى بالحقيقة كما تمليها عليكم ضمائركم ، أى الاثنين هو الأخ الحقيقى : الاخوان المسلمون الذين يحتقرون ما تشربون عادة كجزء من غذائكم المعتاد أم الأخ من الجنوب الذى يتشوق لأن يحيا حياتكم ويضع نفسه في جانبكم ؟

كانت الاجابة واضحة من صيغة السؤال ، إلا أن الرد بصوت جماعى كان من دواعى الغبطة والسرور : - أخونا من الجنوب .

واستدار الحاكم الدرقاوى تجاه إلياس ثم قال :

ـ إليك الاجابة عن الاختلافات المزعومة بين الشمال والجنوب والوحدة المفترضة فى الشمال على أسس عربية اسلامية . وتذكر أن هؤلاء القوم ليسوا بالسياسيين ، وإنما يعبرون عما توحى به لهم عقولهم وقلوبهم .

وابتسم إلياس وهو متأثر بصورة واضحة . وحرص الجميع على غياب الرسميات ، فلم يكن الا الاسترخاء والمتعة . وبعد احتساء عدة أقداح أو كئوس حسب مقتضى الخمر التى اختار المرء أن يشرب ، ذهبت الجماعة الى موقع الرقص حيث شاركوا فى اللهو . كانت الفتيات فى مقتبل العمر يقذفن برؤوسهن الى الوراء ويدفعن بصدورهن الى الامام بينما ينحنى زملاؤهن من الشباب نحوهن وهم يضربون الارض بأرجلهم بعنف ويقفزون ويهتزون ويتمايلون .

وتجلى عثمان فى استعراض شخصيته المنبسطة ، وهو ينثر مئات الجنيهات على رؤوس اجمل الفتيات أثناء الرقص . ولم تظهر الغيرة على أحد اذ ادرك الجميع أن الامر لا يتجاوز الاستمتاع بالجمال والاشباع البرىء . ولا يمكن للرجال والنسّاء اللعب بهذه الطريقة عادة فى انحاء العالم الاسلامى . وهكذا ، كانت المناسبة من وجهة نظر إلياس مظهرا أخر من مظاهر التشابه مع الجنوب ، وقدر أنه قد حظى بفرصة نادرة للغاية بأن يكون جزءا من الدائرة الخاصة للفور .

ومع المشروبات تم تقديم طبق « المرارة » الشهى عند أهل المنطقة وهو عبارة عن قطع من الكبد والرئة النيئة المغسولة بالماء الحار وقد وضعت عليها الكثير من البهارات . كان الطبق مثيرا للتقزز لدى حس التذوق عند الدينكا ، الا أن الياس أخذ قطعتين تأدبا وعلق تعليقا مهذبا . وبعد ذلك أحضرت « الشية » ـ اللحم المشوى بطريقة معينة وقد أعجب ذلك الطبق إلياس . ومع الشرب وتناول الطعام والرقص تواصل الحديث المرح بلا قيود . وكان مدهشا أن ترى الحاكم يداعب ويضحك مع الناس وكأنه زعيم وسط اقرانه ، وذلك من مظاهر الممارسة الفعلية للديمقراطية الحقيقية . وبدلا من أن تقلل من هيبته ، فقد أفصحت العفوية فى سلوك الحاكم عن لمسة انسانية وبراعة فى الوصول الى أدنى مستويات الهرم الاجتماعى .

ثم جاء دور الوجبة الرئيسية وقد وضعت الأوانى على الصوانى الضخمة وغطيت بالأطباق الكبيرة من السعف الزاهى الألوان التى اشتهرت بها دارفور فى كافة أنحاء القطر . وتتابع وصول الصوانى حتى امتلأ المكان فى وسط « الراكوبة ». وكان عدد الذين يتوجب اطعامهم كبيرا أيضا ، وقد جلس بعضهم مع الحاكم وضيوفه فى « الراكوبة » بينما جلس آخرون فى « الكرنق » ووجدت البقية أماكنها فى ظلال الأشجار بالخارج .

وعندما حان أوان الأكل ، رفع الشيخ ابراهيم الدرقاوى أغطية الأطباق ليرى ما تحتها حتى يتمكن من تحديد طريقة التوزيع . وكان غرض الاختيار هو تفادى التكرار أكثر منه للتمييز بين الناس فى تناول الطعام . وعندما اكتمل توزيع الطعام بالطريقة المناسبة ، نهض الحاكم وأعلن :

- تفضلوا يا اخوانا واجلسوا الى الطعام .

نهض الجميع وخرجوا من « الراكوبة » ليصب لهم الماء من « الأباريق » لغسيل الأيدى ، ثم عادوا وجلسوا فى دائرة كبيرة على الحصير وقد وضعت أوانى الطعام فى وسط الدائرة . وأثناء الأكل ، توالى حضور وذهاب الأوانى وهى تفسح المجال لأوانى أخرى .

وكانّ من الواضح انهم يراعون قواعد دقيقة لكنها قوية فى الادب ، اذ يحاول كل واحد تفادى المزاحمة على أطباق الطعام ويتناول لقيمات صغيرة ويمضغها بطريقة تجمع بين الوقار والأدب واحترام الطعام . وبدأ الناس فى النهوض قبل أن يتركوا أثراً واضحاً على الكميات الموضوعة أمامهم .

صاح الحاكم فى احتجاج :

– بدرى ، بدرى .. (لقد أسرعتم بالتوقف عن الطعام..)

بينما نهض الشخص تلو الآخر وهو يزعم بأنه قد شبع . ووالى الحاكم دعوة الضيوف لتناول المزيد من الطعام بقوله : زويدا ياأخوانا .

وكان الرد من الذين ينهضون هو قولهم « الحمد لله » وهم يخرجون الى حامل « الابريق » بالخارج لغسل ايديهم مرة اخرى ، ولكن هذه المرة بشدة أكثر مع استخدام الصابون لإزالة آثار رائحة الطعام .

وتبع « الحلو » (الحلوى) بعد قليل ، ثم الشاى الذى يقدم فى أكواب صغيرة ضيقة الوسط ومزينة بلون ذهبى من أطرافها العليا .

ولا تكتمل وجبة قبل تناول « القهوة » المقدمة فى أنية من الفخار اسمها « الجبنة » وقد حليت بأطواق الخرز الملفوفة حولها ، وتقدم فى اكواب صغيرة « فناجين » تفوح منها رائحة البهارات القوية النكهة .

واصبح الوقت عصرا متأخرا . وبحكم طبيعة الطريق ، فقد كان من الحكمة أن يعود الركب الى الفاشر قبل غروب الشمس . ومع التعبير عن الشكر بعبارة « عامرين باذن الله » ، ودعت الجماعة الشيخ ابراهيم وباقى أفراد القرية وركبوا عربتهم وعادوا إلى الفاشر ، وهم يتابعون مرحهم أثناء الطريق .

شعر إلياس بغاية الامتنان لحفاوة وحرارة الاستقبال الذى وجده عند زعماء دارفور . بما أنهم لم يكونوا يعرفونه من قبل ، وكان هناك ضباط آخرون غيره فى المنطقة ،بما فيهم ضباط رفيعو الرتب فى رئاسة القوات المسلحة بالفاشر ، فان التفسير الوحيد لتلك الحفاوة والترحاب هو انه جنوبى وانهم يتعاطفون معه كافريقى وغير عربى . ولابد لذلك من التأثير الواضح على نظرته السياسية .

وتساءل إلياس الى اين ينتهى كل ذلك ياترى . ومع انه يقدر وجهة النظر وربما يتعاطف معها ، إلا أنه يعبر عن التزام شخصى بالاتجاه نحو الوحدة من خلال احترام التعددية . لكنه قدر أنه من دواعى وظيفته أن يطلع هو على هذا المظهر العام من مظاهر الموقف القومى العام .

الفصل الرابع عشر

ربما كان ذلك بسبب ما يبدو من تصاعد السياسة العرقية ، فقد توجس زملاء إلياس ، بخاصة كبار الضباط ، من العلاقة الوثيقة بين إلياس وزعماء دارفور . فبعد أيام من رحلة النزهة إلى قرية الحاكم ، دعاه قائده ، العميد عبدالباقى محمود ، إلى مكتبه .

شرع القائد فى الحديث وعلى وجهه ابتسامة ودودة فى مخادعة ، فقال :

- اخى الياس ، قد علمت بأنك قد ذهبت مع الحاكم الى قريته فى عطلة نهاية الاسبوع الماضية .

- نعم ياسيدى .

- كذلك سمعت انك قد التقيت به واعيانا آخرين على العشاء قبل عدة أشهر ؟

ورد الياس بالايجاب .

تساءل القائد بصورة مهذبة نوعاً ما : إنى أكره أن أتطفل على الشئون الخاصة لضباطى ، ولكن ألا تعتقد أنه من الضرورى أن تخطرنى أنت بصورة مباشرة عن مثل هذه العلاقة الوثيقة بزعماء المنطقة ؟

- لقد فكرت فى ذلك ياسيدى ، ولكنى رايت انه بالاضافة الى ان الأمر شخصى ، فقد لا يكون مناسبا فى حق أولئك الزعماء ان أبلغ عن شئونهم الخاصة بهذه الطريقة .

قال إلياس ذلك فى محاولة لاجابة السؤال بأكبر درجة ممكنة من الصدق .

علق القائد بقوله :
- إنى اقدر اهتمامك بخصوصية شئونهم الخاصة .. ام لعله شعور بالولاء منك تجاههم . ولكن الا تعتقد انك مدين بالولاء لنا ايضا ؟ بل على التحقيق ، الا ترى واجبك بالولاء فى الدرجة الاولى هو تجاه الجيش وليس تجاه اصدقائك ؟
حاول الياس الشرح بقوله :
- ياسيدى ، ما كنت اعتقد أن فى الامر تنافسا بين هذا الولاء وذاك ، وانما فكرت أن الأمر غير هام بالنسبة للجيش .
- ولكنك قلت ياأخ الياس انك فكرت فى اطلاعى على الأمر فى البداية ، ثم صرفت النظر عن ذلك لانه سيكون من غير العدالة والادب مع أولئك الافراد . أليس فى ذلك تنافس بين هذا الولاء وذاك ، وأنك قد قررت أن تعطيهم الأسبقية على الجيش ؟
- ياسيدى ، حياتى فى المجالين منفصلة تماماً عن بعضها البعض ، وأن قبولى لدعوات من هؤلاء القوم لايؤثر على واجباتى بحال من الأحوال . وما زلت لا أرى أى علاقة بين هذين الأمرين .

وقرر إلياس أن دوره فى الهجوم قد اتى ، الا يقولون أن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ؟ وقد شعر إلياس بالغضب إذ انه من الواضح أن القائد كان يتجسس عليه ، فسأل :
- وعلى كل حال ، كيف علمت بالأمر ؟ من الذى أخبرك به ؟
- الحاكم الدرقاوى .
- الدرقاوى .

كرر إلياس الرد لنفسه بهدوء وتساءل عن السبب الذى جعل الدرقاوى يقرر انه من الضرورى ابلاغ القائد بالأمر . ولوهلة ، أحس إلياس بشعور بالخيانة ، لكنه سرعان ما قرر أنه لابد أن يكون هناك سبب معقول لتصرف الحاكم .
واصل العميد عبدالباقى الحديث بعد فترة قصيرة من الصمت .
- وعلى كل حال ، فقد رايت أن أشركك فى افكارى ياأخ إلياس لأن الأمر من تلك المواقف الدقيقة التى تختلف فيها الآراء والمشاعر بسهولة . وفى نهاية الأمر ، فان تقديرك أنت هو العنصر الحاسم . ولكنى أريد أن تعلم أن واجباتنا كجيش قومى تقتضى الحساسية . لابد أن نحاول الابتعاد عن أولئك الذين قد يسعون لخدمة اغراضهم الخاصة عن طريقنا . إنى لا أقول أن هؤلاء القوم بصفة خاصة لهم تلك الأغراض ؛ ولكنك ولاشك توافقنى أن هذا الاقليم فى غاية التنوع . ومع أن الحاكم الدرقاوى قد تم انتخابه ، فانه ينتمى إلى قطاع من القطاعات التى قد تصطدم بنا فى يوم من الأيام . ارجو أن ترى ما اهدف إليه . انى أدعوك فقط لأخذ ذلك فى الاعتبار .

- اشكرك ياسيدى .
تحدث إلياس بصوت مخلص ، وهو سعيد بأن المسألة قد انتهت إلى حالة من التصالح والانسجام . وهنا صرفه القائد .
احتفظ إلياس بمذكرة يومية لمناشطه منذ وصوله إلى دارفور ، وقد سبق أن كتب عدة خطابات للفريق خالد بث من خلالها المعلومات التى رأى انه من المفيد اطلاعه عليها . فقد

كتب ، مثلا ، عن لقائه بعثمان وعن اجتماعه بالحاكم والشخصيات البارزة الأخرى فى دارفور . وبالطبع ، أبلغ الياس عما قدر انه مناسب وحرص على استبعاد الاشياء التى شعر بانها قد تكون مسيئة للوزير . فمن الواضح انه لم يكن يقدر على ابلاغ آراء قادة دارفور عن الموقف العرقى فى البلاد والحاجة الى موقف موحد بين الجنوب والغرب . ذلك سر بينه وبين قادة دارفور . كذلك كتب إلياس للوزير عن زيارة عطلة نهاية الاسبوع مع الحاكم ورد الفعل الذى وجده من القائد ، فقد قدر أنه من الراجح ان يبلغ القائد عن الامر الى رؤسائه فى الخرطوم ، ورأى انه من الحكمة ان يضع روايته هو فى المضابط الرسمية . الا انه اكتفى بابلاغ الوقائع فقط ، ولم يطلب رأيا أو عملا من الوزير .

ومضى العام سريعا وإلياس يجمع بين أعبائه المعتادة والصداقات الشخصية ليس مع زعماء دارفور فحسب ، وإنما مع الناس العاديين . وقد اثبت عثمان جار النبى بصورة خاصة أنه صديق مخلص وذو علاقات واسعة فى كل طبقات المجتمع . وكلما احتاج إلياس إلى تفسير للأمور أو رغب فى إنماء رؤية خاصة فى التكوين العرقى والقبلى المعقد فى المنطقة ، فقد كان يلجأ إلى عثمان فى ذلك ، ولم يخيب عثمان امله ابدا . كما أنه قد وثق فى إلياس لدرجة أنه كان يعبر فى حرية وصراحة عن رأيه فى التحيز العرقى فى سلوك قوات الأمن بقيادة العميد عبد الباقى محمود . وقد أبلغ إلياس أيضاً عن المعلومات التى تحصل عليها من عثمان ، لكنه صاغها بصورة لا تضر بأى شخص .

وذات يوم تلقى إلياس نشرة دورية من العميد عبدالباقى تبلغه عن اجتماع بين الضباط وقائد قوات الشرطة لإطلاعهم على الموقف الأمنى فى الاقليم . تم الاجتماع فى غرفة المؤتمرات حيث جلس الحضور فى شكل « حدوة حصان » . كان كل الحضور من الضباط ، وجميعهم ، فيما عدا إلياس ، من الشمال مما يعرف بالقبائل العربية من منطقة البحر (أواسط نهر النيل فى شمال السودان) وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث العابر عندما دخل عليهم العميد عبدالباقى بصحبة قائد قوات الشرطة ، العميد يحيى عبدالعال ومعه ضابط شاب يحمل أوراقا ، ولعله السكرتير أو المساعد الشخصى لقائد الشرطة . وقف الضباط فى حالة انتباه وادوا التحية العسكرية ، ورد عليهم القائد التحية ثم اشار إليهم العميد عبدالباقى بالجلوس .

قدم العميد عبدالباقى العميد يحيى فى اقتضاب وسرعان ما شرع الأخير فى تحليل الموقف الذى يشكل تهديدا خطيرا ليس لأمن واستقرار الإقليم فحسب وانما لأمن واستقرار كل القطر .. واصل العميد يحيى الحديث بتقديم سلسلة من الاتهامات المدعومة ، كما قال ، بالوثائق التى تثبت ان الدينكا من بحر الغزال يعدون لهجوم للانتقام من عرب الرزيقات عندما يتحرك الرزيقات فى هجرتهم الموسمية الى « بحر العرب » . كما قال ان البينات توحى ايضا ان بعض الوحدات العسكرية من القيادة الجنوبية وقوات شرطة بحر الغزال متورطة فى الأمر لدرجة انها قد تكون القائمة على تدريب الأفراد من الدينكا . ويقال إن الدينكا انفسهم يبيعون ماشيتهم من أجل الحصول على السلاح ، ويزعم ان بعض السلاح يأتيهم من مصادر رسمية .

واصل العميد يحيى الحديث . وإذا لم يكن هذا سيئاً بالقدر الكافى . فلدينا معلومات تفيد بأن

بعض العناصر من القبائل غير العربية في هذا الإقليم على صلة بالدينكا وتتعاون معهم ضد العرب . وبالتحديد هناك زعم أن بعض الأفراد من الفور يمررون المعلومات عن تحركات القبائل البدوية فى دارفور، والرزيقات بصفة خاصة، بما فى ذلك الطرق التى يحتمل أن يتخذوها فى العام المقبل . ويزعم أيضاً أن بعض الفور يساعدون الدينكا للحصول على الأسلحة النارية من ليبيا . وعلى ما يبدو ، فإن هؤلاء الأفراد يقايضون السلاح بالماشية ، وكل العملية مربحة لهم اقتصادياً ، ولكن يظهر أن الدوافع اكثر من العائد المالى ، وفى الحقيقة ، فإن هذه التجارة تنبعث من اعتبارات السياسة العرقية هنا فى دارفور وعلى نطاق القطر كله . لهذا السبب فان الامر يتجاوز بصورة واضحة اختصاص الشرطة ويقتضى تعاوننا مع القوات المسلحة .

وصعق إلياس لما سمع ، فلو كان صحيحا ، فإن الموقف فى غاية الخطورة على التحقيق . ولم يملك إلياس إلا ان يتذكر الحديث الذى سمعه عن الحاجة للتضامن بين الجنوبيين وغير العرب الذين يعيشون فى دارفور . ولكن كان هناك اختلاف جذرى ، على الاقل من حيث الدرجة والمقدار ، بين أى شىء سمعه هو شخصيا وما يزعمه رئيس الشرطة الآن . فكل ما قاله العميد يحيى يمكن ان ينطبق وبسهولة على أصدقاء إلياس ، وعثمان بخاصة . ورغم ذلك ففى كل محادثات إلياس مع عثمان وآخرين ، لم تصدر اى إشارة ، دع عنك النقاش الصريح ، لدلائل تعاون عسكرى بين الفور والدينكا ضد الرزيقات . هل كان ذلك لأن اصدقاءه لم يثقوا فيه بعد بالقدر الكافى ليجعلوه موضع سرهم ؟ أم لعلهم قد عرضوا عليه الأمر . لكنه فات عليه لفرط سذاجته ؟ أم لعله من الممكن ان أحدهم قد اختلق خطة بارعة لتوريط الفور والدينكا فى مؤامرة كبرى تبرر اتخاذ اجراءات منعية ؟ كان إلياس اكثر ميلا إلى تصديق هذا الاحتمال الاخير ، لكنه فضل الاحتفاظ بذهن مفتوح .

واصل العميد يحيى الحديث بقوله :

– والآن نأتى لما أعتقد أنه الموضوع الأكثر صعوبة من وجهة نظر سلطات الشرطة . ان هذه المسألة اكثر صعوبة مما يمكن معالجته بسهولة وذلك ليس فقط لان الأشخاص المتورطين يعملون على مستوى الاقليمين، مع احتمال أنتشار المتعاونين معهم فى انحاء اخرى من البلاد وبالخارج ، وإنما ايضا لأن الاشخاص المتورطين هنا فى دارفور يمتدون إلى أعلى مواقع السلطة الاقليمية .

ووقتها فهم إلياس أن أصدقاءه ، عثمان وأخاه قاسم وربما الحاكم نفسه ، جميعا متورطون فى الأمر . ورغم أن إلياس لم يصدق ، إلا أن العميد يحيى ظهر مقتنعا بما يقول . ماذا تراه يصدق ؟

واصل العميد يحيى الحديث بقوله :

– لن أصل إلى درجة ذكر الأسماء فى هذه المرحلة ، ولكنى اعتقد انكم تقدرون تماما على تصور الصعوبات التى أتحدث عنها . ماذا ترانا فاعلين ؟

بهذا السؤال اختتم الحديث وأنتظر ردكم .

كان العميد عبدالباقى اول من بادر بالرد فقال بأنه يعتقد ان مصلحة الأمة تفوق كل الاعتبارات الاخرى . لا يعلو أى شخص فوق القانون ، ثم اضاف التحذير بعدم الافصاح عما دار فى ذلك الاجتماع الى اى شخص آخر .

تحدث احد الضباط فقال :

ـ يبدو لى ان أدق نواحى المسألة كما قدمها لنا العميد هى خطورة وإلحاح الموقف ، فقد تنجم عن العجز عن التصرف الحاسم والسريع اضرار اكبر بكثير مما ينبغى ان يكون .

وذهب ضابط آخر إلى أبعد من ذلك بقوله :

ـ ايها العميد ، إنك تبدو وكأنك تعلم بالتحديد هوية أولئك الاشخاص ، على الاقل فى هذا الاقليم . فما هى الصعوبة فى القبض عليهم ؟

وضحك الحضور :

سأل العميد وهو ينظر تجاه عبدالباقى :

ـ هل اجيب على هذا السؤال ؟

وعلق العميد عبدالباقى :

ـ حسنا ، اعتقد ان الاجابة مضمنة فيما قلته من قبل ، لكن ربما من الأفضل أن نستمع اولا إلى المزيد من التعليقات ثم نعود لنأخذ ردك .

وعلق آخر بصورة شبه هزلية :

ـ ارجو ان يكون احدهم قد أطلع الرزيقات عن الخطر الذى ينتظرهم .

وتبع تعليقه ضحك ساخر .

وتساءل إلياس فى نفسه هل يتحدث أم يظل صامتا ، ولكن من الواضح من وجوه كل الحاضرين فى الغرفة انهم يتوقعون منه أن يقول شيئا . وقرر أن صمته قد يفسر بأنه يخفى شيئا ، ولكنه قدر أنه لو تحدث على الإطلاق ، فعليه أن يقول شيئا مفيدا . وقرر أن يقول ذلك حتى لو لم يرض قادته وزملاؤه عما يقول .

ـ سيدى ، من الواضح أن الموقف الذى تصف فى غاية الخطورة ، ومن المؤكد أن تكون التبعات فى غاية الشدة ، سواء اتخذت إجراءات منعية أم تطور الموقف إلى نتائجه المنطقية . لقد استمعت لحديثك جيدا وسمعتك تستخدم كلمات مثل « يبدو » و« يحتمل » و« يزعم » وما إلى ذلك من عبارات . إنك توافقنى أن هذه الكلمات غير جازمة ولا توحى بالبينة القاطعة . لا أود أن أطعن فى صحة تقييمك العام للموقف ، وخصوصا لأن الخطر كبير لدرجة تقتضى اتخاذ اقصى الاحتياطات . ولكن وبالتحديد لأن الاتهامات فى غاية الخطورة ، ولأن واجبنا هو عدم التعرض لحياة الأفراد بهذه الشدة ، فيبدو لى أن الحاجة لدقة المعلومات تصبح أمرا حيويا . فمثلا هناك تلميح إلى احتمال القبض على بعض الاشخاص . فإذا لم يتم القبض عليهم بموجب سلطات استثنائية ، وهو أمر خاضع للضوابط القانونية ، فانى لا أرى كيف يمكن اتخاذ إجراء ضدهم على أساس بينات ظرفية واحتمالية لهذه الدرجة بدون المغامرة بحدوث آثار أسوأ وأشد خطرا .

وتبع الصمت ذلك القول ، فكان من الصعب معرفة ما إذا كان إلياس قد نجح فى اقناع أى شخص أم انه قد أكد ما كانوا يشكون فيه ، لاعتبار أنه من الدينكا ولأنه صديق معروف للأشخاص المتورطين فى المؤامرة المزعومة . وبعد فترة صمت ملحوظ ، أجاب العميد يحيى فى أدب مخادع .

ـ أخى الضابط ، إنى اؤكد لك اننا حريصون على عدم إلحاق الجرم الجنائى بأشخاص ابرياء .

وقاطعه الياس بقوله :
- إنى لم اقل ذلك ، كل ما أقول هو ان التصرف على اساس بينة غير كافية للتدخل فى حياة اناس أبرياء ، وخصوصا من ذوى النفوذ للدرجة التى توحى بها انت ، فإن ذلك يثير مخاطر الظلم ويهدد الأمن العام . إن هذا لا يعنى بأنى أعتقد بأنك حريص على انتهاك حقوق أشخاص ابرياء .

بدا العميد يحيى متمالكاً لأعصابه وهو يتحدث : على كل حال ، دعنى أطمئنك بأن قصدنا من وضع الأمر أمام هذه المجموعة هو التشاور والوصول إلى أفضل السبل لخدمة المصلحة القومية .

والآن ، دعنى أرد على بعض الأسئلة التى أثيرت . أولا ، أمر اعتقال من نشك فيهم . ما قاله الأخ هنا حق . لابد من التأسيس الصحيح جدا لأى قبض وعلينا اتخاذ التحوطات اللازمة ضد اى ردود فعل او آثار محتملة . هل يتم هذا القبض والاعتقال . ومتى يكون؟ ذلك هو السؤال الهام والجدير بالبحث الجاد . أما عن التعليق حول أخطار الرزيقات , فأنا لا أعرف الإجابة ، ولكنى سأدهش إذا لم يكن لهم شبكة استخباراتهم الخاصة والتى من الراجح ان تكون واسعة الاطلاع . وفى الحقيقة ، هذا سبب اضاف لخطورة التأخير الزائد فى العمل .

دعنى اضيف تعليقا عاما . إن السبب وراء إحضارنا لهذا الأمر لعناية القوات المسلحة والشرطة معا هو ليس مناقشة ما ينبغى عمله حول المسائل الأكبر فحسب ، وإنما لتسهيل عملنا من اجل أمن المنطقة . إن العلم بما يجرى سرا من الوسائل الناجعة لضمان عدم بروزه إلى السطح . لذلك ، لا تعتقدوا بأننا سنظل مكتوفى الأيدى فى انتظار انفجار القنبلة الزمنية . من المؤكد اننا لن نفعل ذلك .

وأضاف العميد عبدالباقى القول :
- أعتقد أن الأخ قد وضع أصبعه على مفتاح المسألة . ينبغى أن يفتح ما سمعناه اليوم أعيننا إلى ما يدور فى هذا الإقليم وفى الإقليم الجنوبى . إن هذا فى حد ذاته جانب هام من جوانب المسألة . اما عن المسائل الاكبر ، كما يصفها الأخ يحيى ، فإن واجبنا هو إبلاغ الامر الى سلطات الأمن القومى بالخرطوم وانتظار تعليماتهم أو ارشاداتهم . فإذا لم يكن لأى شخص آخر اضافة لما قيل ، اقترح ان تكون هذه هى الخلاصة الرئيسية لاجتماعنا .

إن جهاز الأمن القومى الذى يرفع إليه التقرير هو الذى يترأسه اللواء إدريس عبدالجبار ، والذى يشاع عنه أنه منافس للفريق خالد مما يسبب التوتر بين المؤسستين اللتين يقودانهما . ورغم أن وزارة الدفاع تعنى اكثر بالتهديدات الخارجية للأمن بينما يعنى جهاز الامن القومى بالتهديدات الداخلية فلاشك فى تداخل وظيفتيهما مما يوجب التعاون الكامل بينهما .

وكان إلياس شخصيا متنازعا من عدة جهات ، فهو يعلم أن الموقف الذى ناقشوه يعنى أصدقاء شخصيين له هو ، ولذلك ينشاء السؤال عما إذا كان عليه أن يقول أى شىء لهم . وقرر انه لا يجوز له ذلك لأن المعلومات كانت سرية بصورة قاطعة . وماذا عن إبلاغ الأمر للفريق خالد ؟ فهو يعلم ان التقرير الرسمى سيذهب إلى جهاز الأمن القومى ، وربما تذهب نسخة منه إلى وزارة الدفاع ، ولكنه شعر ايضا بواجب إبلاغ الفريق خالد بصورة شخصية ومباشرة . واقنع نفسه أن ذلك لا يشكل افشاء للأسرار الرسمية وان تقريره

هو ، على كل حال ، قد ينجح فى إضفاء بعض الوزن والاعتدال الذى قد يفيد أصدقاءه بصورة من الصور .

وهكذا كتب إلياس تقريرا أعاد فيه رواية الوقائع كما قدمها العميد يحيى ثم اضاف تحليلا القى بعض الضوء على الإطار السياسى والقبلى والاقليمى الواسع والمتداخل الذى ينبغى ان ترى من خلال تلك الوقائع . وبصورة لبقة ، كان الياس يشير الى المواقف العرقية الخفية التى قيل له عن وجودها والتى اعتقد أن التقارير المقدمة قد دغمتها بصورة مقصودة أو غير مقصودة. فقال إلياس :

- فى تقديرى أن هؤلاء القوم يطلقون الكثير من الدخان من نار واهية ، وتنطلق عربات إطفاء وصفارات إنذارها على أشدها ، لتطفىء الحريق . لعل ذلك لا يضر شيئا فى حالات الإنذار غير المؤسس عموما ، ولكن فى الحالة الخطيرة للأمن القومى ، فان الرد الزائد عن الحاجة قد يهدد ، فى تقديرى ، الأمن الفردى والأمن القومى .

كان الياس يعلم ان تقريره هو وتقرير سلطات الامن يذهبان الى الخرطوم فى نفس الوقت ، وظل الجميع فى انتظار الرد من العاصمة . وتحولت الأيام الى أسابيع والاسابيع الى شهور ، واعتقد إلياس أن الخرطوم كانت أكثر حكمة من السلطات الاقليمية وأن الأمر قد سمح له بأن يموت موتا طبيعيا .

وفجأة ، ذات يوم ، دعا العميد عبدالباقى الضباط لاجتماع فوق العادة ، وشعر الجميع غريزيا بأن الاجتماع يتعلق بالموقف الأمنى ، فأسرعوا الى قاعة الاجتماعات فى ترقب كبير .

دخل العميد عبدالباقى وجلس فى صمت لدقائق وقد تركزت عليه العيون ، وكأنه بذلك يريد أن يزيد من توترهم ويعمق لديهم الشعور بخطورة الامر الذى سيفصح عنه بعد قليل . واخيرا قال :

- ايها الإخوة ، كما تتوقعون ، فعندى لكم اخبار خطيرة . لا ينبغى ان تدهشوا للأمر لأنكم ولا شك تذكرون اجتماعنا الاخير مع العميد يحيى عبدالعال . لقد ردت الخرطوم . صدر لنا الأمر بأن نكون على أهبة الاستعداد اعتبارا من اليوم لأن إجراءات صارمة سوف تتخذ . سيتم القبض خلال الايام القليلة القادمة على شخصيات هامة فى هذا الاقليم وفى بحر الغزال وفى الخرطوم وأنحاء أخرى أيضا . وعلينا التحوط ضد اى اضطرابات قد تنتج عن هذه الاعتقالات .

وتابع العميد الحديث بتوزيع المهام ، لم يحصل إلياس على أية مهمة . تساءل فى نفسه هل يسأل عن السبب لكنه صرف النظر عن ذلك . وعندما انتهى الاجتماع وأخذ الضباط فى الانصراف ، دعاه العميد عبدالباقى ليبقى :

- الاخ إلياس ، تلاحظ انى لم أوكل لك اى مهمة .

ثم قال وهو يأخذ صحيفة من الورق من الملف ويناولها لإلياس .

- اقرأ هذا .

قرأ إلياس :

- إلى العميد عبدالباقى محمود ، لقائد منطقة دارفور . عليك الإعداد للسفر الفورى للضابط إلياس بول مالك بالطائرة للخرطوم إذ ان خدماته مطلوبة عاجلا بالرئاسة . لك التحية . رئيس هيئة الاركان .

قرأ إلياس البرقية دون أن يتفوه بكلمة .

ـ ستكون طائرة من طراز هيركيوليز جاهزة لك فى تمام السابعة من صباح الغد . يمكنك الانصراف عن المكتب فى أى وقت اليوم لجمع حوائجك . لك التوفيق .

ـ لك الشكر ياسيدى .

تمكن إلياس من قول ذلك وهما يفترقان ، اذ كان مندهشا لدرجة لم تمكنه من ان يقول اكثر من ذلك .

قرر إلياس السفر دون ان يودع اصدقاءه فى دارفور ، لأنه قدر ان ذلك هو أحسن وسيلة لابلاغهم بشعوره عن الظروف التى صاحبت رحيله .

لم يتمكن أى شخص فى رئاسة القوات المسلحة من ان يشرح لإلياس السبب وراء استدعائه المفاجىء . حتى أن العميد على نفسه لم يعلم اى شىء ، وقد حضه إلياس على عدم عمل أى شىء وأن يتركه هو ليكتشف الامر لنفسه . ولم يكن حتى رئيس هيئة الاركان الذى وقع برقية الاستدعاء ، لم يكن لديه أى تفسير للأمر . وكل ما قاله ردا على استفسار إلياس هو :

لقد نفذت تعليمات الوزير .

وبعد اللقاء مع رئيس هيئة الاركان ، قرر إلياس أنه مادام الأمر صادرا من الفريق خالد ، فعليه توقع التفسير منه هو . لذلك سجل طلبا لموعد لمقابلة الوزير وانتظر . ظل الياس منتظرا بالخرطوم لأربعة أيام عندما سمع فجأة خطاب اللواء ادريس عبدالجبار إلى الأمة حول الموقف الأمنى . قال اللواء ادريس :

ـ لقد ظللنا نراقب تطورات الموقف الخطير خلال الشهرين الماضيين ، ونحن ننتظر أن يعود الاشخاص المعنيون الى صوابهم وينهوا تآمرهم . ولكن بكل أسف ، فيبدو أنهم قد أساءوا فهم صمتنا واعتبروه ضعفا . فقد تابعوا التآمر فى داخل حدود كل أقليم وعبر حدود الاقاليم لدرجة أنهم قد مددوا شباكهم الى خارج حدود البلاد :

مواطنى الأعزاء ، إخوتى وأخواتى ، بقلوب يملؤها الحزن نشعر بأن واجبنا هو اتخاذ الخطوات الحاسمة والصارمة لإنهاء هذه الخيانة الخبيثة قبل أن تلتهم الامة . لقد قررنا القاء القبض على عدد من الافراد فى دارفور وبحر الغزال وبينهم شخصيات بارزة للغاية . وفى الوقت المناسب سوف نقدمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . لقد كانت فلسفتنا وممارستنا هى إخطار شعب هذا الوطن بكل نواحى الموقف الأمنى وبأى إجراءات قد نتخذها نيابة عنهم ، وسوف نواصل هذا العمل . وفقنا الله لما فيه خير البلاد» .

وسرعان ما علم إلياس أن من بين من تم اعتقالهم رئيس مجلس الشعب الاقليمى بدارفور ورجل أعمال بارز فى الفاشر ومحافظ مديرية بحر الغزال وسياسى جنوبى بارز بالخرطوم وعشرات الاشخاص من الغرب والجنوب . ولم يراود الياس أدنى شك أن عثمان هو رجل الاعمال وأن أخاه ، رئيس مجلس الشعب الاقليمى ، من ضمن من تم القبض عليهم .

وكأنما تحول النهار الى ليل ، حل الظلام مكان الضوء ، لم يتمكن إلياس من فهم ما حدث . وفجأة ، أصبح الوجود فى السودان فى ذلك الوقت وكأنه كابوس مزعج ، الا انه لم يكن نائما وانما كان متيقظا ويعيش الكابوس فى الواقع المحسوس . وأخيرا بلغه الخبر بأن وزير الدفاع ، الفريق خالد ، سيقابله . وعندما دخل المكتب وأدى التحية العسكرية ، نهض الوزير ودار حول منضدة المكتب ليضم الضابط الشاب اليه ، ثم سأل إلياس :

ـ متى حضرت ؟
ـ منذ حوالى أربعة أيام خلت .
ـ اربعة أيام ؟
كرر الوزير القول فى دهشة .
ـ لقد بلغنى طلبك المقابلة بالامس فقط . لقد أردت أن أراك بمجرد عودتك .
اشار الى الياس بالجلوس على أحد المقاعد أمام منضدة المكتب ثم قال :
ـ حصل خير .
وهى عبارة توحى بأنه « لا بأس فيما حدث » ، الا أن الياس كان يأمل ان تعنى العبارة أكثر من مجرد المصطلح السائد ، وأن يكون كل شىء على ما يرام حقا .
كان من الواضح أن الفريق قد طلب ملف الياس لانه فتحه وقلب صفحاته أثناء تبادلهما عبارات التحية .
ـ أتصور أنه لاداعى لأن أسألك انت عن أحوالك لأنك فى غالب الحال ترغب أن تعلم عما يحدث .
ابتسم الياس بالموافقة وهو ينظر نحو الوزير فى انتباه شديد . أخذ الوزير بعض التقارير من الملف وناولها لالياس وهو يقول .
ـ اقرأ هذه أولا وبعد ذلك سنتحدث .
قرأ إلياس عدة خطابات من العميد عبدالباقى عن سلوكه هو ، وقد ابلغت تلك التقارير عن وجبة العشاء والنزهة مع الحاكم والاعيان الآخرين ، وعن الصداقة العامة التى نشأت بين قادة دارفور والضابط الشاب من الجنوب . وكذلك عن الاسباب وراء تلك العلاقة . ومع استخلاص أن العلاقة كانت ولاشك منبعثة من بواعث عرقية ، حللت التقارير الآثار المترتبة على ذلك نحو أمن المنطقة وصحة موقف الجيش فى دارفور . واصل العميد عبدالباقى الحديث ليقول بأنه لا سبيل له للعلم بالمعلومات السرية التى ينقلها الضابط الشاب الى اصدقائه وما قد يعنيه ذلك للمحافظة على السلام والامن فى الاقليم . وهناك البعد الجنوبى . بحكم أن مشاكل المنطقة كثيرا ما تعبر حدود الاقليم فى علاقة الدينكا بالعرب ، وبحكم الابعاد العرقية لعلاقة الشاب بقادة قبائل الفور ، فاننا نخشى أن يكون الهدف الاكبر او النتيجة هى تهديد مصالح العرب ولمصلحة خصومهم ، الدينكا . وانتهى التقرير الاخير بالقول . « ان القرار متروك لكم أنتم فى القيادة العامة ، خصوصا واننا نملك ما يحملنا على الاعتقاد بأن الشاب من صنائع نائب رئيس الجمهورية الذى نعلم أنه يرسل له تقارير دورية . ولكن حسب تقديرنا الرسمى ، فان وجود هذا الضابط الشاب هنا يشكل عنصر نشاز لمهامنا على أحسن تقدير ، وفى أسوا الاحوال يشكل تهديدا للأمن . يحفزنى الشعور بالواجب والولاء للوطن للتوصية بنقله الفورى من هذا الاقليم والله على ما اقول شهيد » .
فرغ إلياس من قراءة الخطابات واستدار تجاه نائب رئيس الجمهورية وهو لا يجد ما يقول إطلاقا .
قطع الفريق الصمت بقوله :
ـ لا حاجة لك بأن تقول اى شىء ، فانا اعلم بتفاصيل ما يجرى وحقيقة الموقف . وما أريد لك أن تعلم هو انى قد وافقت على عودتك لتقديرى للصعوبات . بل والخطر الذى تتعرض له . لقد كتبت تعليقاتى الخاصة على هذه الخطابات وهى موجودة بالملفات . أمل أن تتمكن

من تخمين ما تحويه تعليقاتى . انا بالطبع لا أملك الاطلاع على المستقبل ، ونحن دائما ما نركب المخاطر فيما نفعل . ولكنى أعتقد انه مع وجود هذه التعليقات منى فى ملفاتك ، فإن مستقبلك المهنى لن يتأثر بهذه الملاحظات المثيرة للسخرية .

ثم تحول الى صورة ايجابية أكثر لما يتصوره من خطط لالياس وقال : والآن ، دعنى اخبرك بأفكارى حول الموقف . سأتجاوز موقعى الرسمى واخاطبك كأخ أصغر » .

وخفض نظره فى تحرج وهو يتخذ معه صفة شخصية «أعتقد أنى أملك أن اقول بأنى الآن اعرفك معرفة طيبة . من المؤكد انى أحمل لك الاعجاب الكبير بل والمحبة منذ أن رأيتك لأول مرة فى قاعة الدرس .. انك شاب له مستقبل ، ولا أريدك أن تسقط فريسة لجنون الاضطهاد السياسى الذى يبدو وكأنه يغزو هذا النظام . كيف يمكن للمرء تفسير هذا الرد المفرط والمثير للسخرية بخلاف انه محض جنون ؟

على كل حال ، فان ما قررته انا ، والذى ارجو أن يتفق مع مصالحك وطموحك ، هو ارسالك فى بعثة دراسية الى الولايات المتحدة الامريكية لدراسة ومواصلة البحث حول امر القيادة فى بلد متنوع عرقيا وثقافيا مثل بلدنا هذا . من الواضح ان الجيش من حقائق الحياة الهامة فى تطور البلاد النامية ، ولا يستثنى السودان من هذه القاعدة . وفى حدسى ، رغم أننا قد نمر الآن بمرحلة يتحول فيها البندول من جهة الى اخرى حول دور القوات المسلحة ، فإنها ستظل هامة وحاسمة . وإذا كان للجيش أن يلعب دوره البناء فعليه أن يحسن من نوعية قيادته . نحن بالطبع لا نقدر على تعليم الجميع ، ولا نستطيع اعداد كل ضابط للقيادة . ولكن علينا أن نبدأ من نقطة ما ، وانا اضع ثقتى فيك أنت » .

لم يصدق إلياس ما يسمع ، فما ظهر وكأنه طريق الهلاك قد تحول فجأة الى بوابة الفرصة الذهبية ، فقال :

ـ ليست لدى الكلمات الكافية لشكرك يا سيدى وكل املى هو ان اثبت جدارتى بثقتك .

واصل الوزير الحديث بقوله ـ لقد كتبت الى مستشارنا العسكرى فى واشنطن ليجد جامعة تعتبر تعليمك العسكرى والدبلوم الذى حصلت عليه من الاكاديمية وخبرتك العملية ، تعتبر كل ذلك فى تقرير قبولك للدراسات فوق الجامعية . أعطنى المستندات اللازمة لإرسالها الى الملحق العسكرى وسننتظر رده . وفى هذه الاثناء ، اقترح أن تذهب فى عطلة .

ابلغ إلياس هذه التطورات الايجابية الى العميد على الذى رد بخليط من المشاعر . فقد وافق على الطريقة التى عالج بها الفريق الموقف ، بل وسر غاية السرور لاحتمال الدراسة بالولايات المتحدة . لكنه كان حزينا لمهزلة دارفور برمتها ، فقال بشعور مأساوى .

ـ انى فقط لا أدرى ماذا يحدث لهذا البلد .

وبعد صمت كئيب ، سأل على إلياس عما ينوى أن يفعل خلال عطلته .

ـ ارجو أن اتمكن من الذهاب إلى اهلى .

رد عليه على بصورة قاطعة :

ـ لا تفعل ذلك ، فلا داعى للمغامرة بما يبدو فى غاية الوضوح . الا ترى انهم قد شرعوا فى مطاردة كل من يقدرون على إلصاق التهم بـه ؟ كيف تنجو من المشاكل فى منطقة غالبا ما يعتقدون بأنها منطقة مواجهة وصراع .

احتج إلياس بقوله :

ـ ولكن اذا تحققت هذه البعثة الدراسية للخارج وسافرت فيها ، فلن اتمكن من مشاهدة أسرتى لعدد من السنوات .

ورد على الحجة بقوله :
ـ وماذا فى ذلك ؟ إن الأمر لا يستحق المغامرة يا بنى . ابق هنا حيث يوجد على الاقل الناس القادرون على منع هذا الجنون من تجاوز حدود معينة .

وافق إلياس باعتبار أنه سينفق أغلب وقته فى الأطلاع بمكتبة جامعة الخرطوم استعدادا لفترته الدراسية بالخارج . وبعد ظهر أحد الأيام اتاه صديق برسالة مفادها أن الحاكم الدرقاوى يبحث عنه وأنه يرغب كثيرا فى مقابلته بمنزل ضيافة اقليم دارفور والكائن بالخرطوم بحرى ، وذلك فى عصر أو مساء اليوم التالى . سعد إلياس كثيرا لفرصة مقابلته للحاكم مرة أخرى ، لما كان يشعر به من مشاعر الاحترام العميق والود تجاه الرجل الذى كان يراه نموذجا للقائد الشعبى . فقد رأى إلياس فى الحاكم القدرة على معاملة الآخرين كأنداد له ووجد فيه خصال التواضع واحترام شعور الغير مع الحزم والوقار وجاذبية الشخصية القيادية .

وجد الياس الحاكم والسلطان ابراهيم الدرقاوى جالسين خارج المنزل على ضفاف النيل الازرق ، وكان معهما شخص ثالث لم يعرفه الياس لكنه ظهر وكأنه من الفور . قدر الياس ان الحاكم والسلطان قد حضرا لتقصى امر الاعتقالات الحديثة لبعض أهلهم .

وعلى المنضدة أمامهم كانت زجاجة من الويسكى واناء للثلج وعدة زجاجات من المياه المعدنية ، وبعضها فارغ . وبحكم الاكواب نصف الفارغة الموضوعة أمام كل منهم ، فقد كان من الواضح أن الثلاثة كانوا قد شربوا بعض الخمر .

واول ما لفت نظر إلياس أنه رغم قوله السلام عليكم بصوت عال وحماس كبير ، فقد وجد ردا باردا للغاية . وعندما فتح ذراعيه لمعانقة الحاكم بالتحية ، صعقه أن يرى الحاكم يمد يده ببرود ليصافحه بدلا من معانقته كما هو العهد بين الاصدقاء . صافح إلياس الحاكم ثم مد يده لتحية السلطان ابراهيم وقد وعى الدرس المهين من معاملة الحاكم له فلم يحاول معانقة السلطان .

ولما لم يبادر أى منهما بتقديم الرجل الثالث له ، فقد مد إلياس يده قائلا : اسمى الياس بول .

قال الرجل وهو يصافح إلياس : وانا عبدالله جاموس .

بالطبع رد الياس وهو يربط بسرعة بين الرجل والعضو البارز فى مجلس الشعب القومى .. لم يقابل إلياس الرجل من قبل ، إلا أن عبدالله جاموس يعتبر ، عند غالبية الناس ، أفصح وأقدر نواب الغرب فى المجلس القومى . ووقتها علم إلياس السبب فى عدم تقديم الرجل له ، إذ كان ينبغى عليه ، بالطبع ، أن يعرف العضو المحترم .

إلا أن إلياس كان لايزال يشعر بالضيق من موقف الدرقاوى وابن عمه ، وتساءل : لماذا طلبوا مقابلته اذا كان غاية ما يقدرون عليه هو اظهار كل ذلك التباعد بعد الصداقة الوثيقة التى تمتعوا بها فى دارفور . وعلى التحقيق ، فقد شعر إلياس بالتنازع حول بقائه معهم ، وكان الخيار بين أن يدير ظهره وينصرف عنهم أو يبقى ويحاول أن يعرف بأسرع فرصة ممكنة سبب تصرفهما . وبما أنهما قد بادرا بطلب مقابلته ، فقد أراد أن يعلم باعثهما على ذلك .

ـ ماذا حدث ، هل هناك مشكلة .

سأل إلياس ، ثم تذكر امر الاعتقالات الحديثة وقدر أنها المشكلة فقال :
ـ انى اسف ، فقد كان ينبغى أن أبدأ بالتعبير بالمواساة . ولكن ماذا استطيع أن أقول سوى انى فى غاية الأسف لما حدث .

قرر إلياس انهما ولاشك يتصرفان بتلك الطريقة بسبب الحزن لما حدث . وكان عبدالله جاموس ، وليس أى منهما ، هو الذى عرض عليه بعض الشراب .

ـ هل ترغب فى كأس من الويسكى ؟

ـ لا ، شكرا لك .

ظل الحاكم الدرقاوى يتفكر فى كلمات الياس فى المواساة ثم قال فى سخرية واضحة .

من الذى قال انه ما كان ينبغى لكلمة « آسف » أن تزحف الى لغات الشعوب المتمدينة ؟

أحس إلياس بلسعة التعليق لكنه لم يفهم مدلوله تماما ، فقال .

ـ لا أملك أن افعل أكثر من ذلك .

واصل حامد الدرقاوى الهجوم فأضاف :

ـ ما يعنيه المثل هو انه لولا كلمة « اسف » لحرص الناس على التصرف الصحيح منذ الوهلة الأولى بدلا من الاعتماد على الاعتذار وطلب المغفرة .

فكر الياس لنفسه أن هناك علة ما المت بالحاكم . هل هو بخير أم أن صدمة الهجوم السياسى قد أخلت بعقله ، وفضل إلياس عدم الرد على الحاكم تأدبا . وعلى كل حال ، فإن الأمر لا يعنيه بشىء على الاقل حسب علمه هو . ولكن يبدو أن الحاكم الدرقاوى قد قرر أن ما أراد مناقشته مع الياس لا يمكن إخفاؤه خلف عبارات المجاملة والأدب ، ففتح الموضوع بصورة مباشرة :

ـ يا أخ إلياس ، كلنا الجالسون هنا أكبر منك سنا ، وقد شاهدنا الكثير فى العالم وهو كاف ليجعل الرجل يتشكك فى نوايا الناس ومقاصدهم . ولكننا قادة لأهلنا ولا يجوز لنا أن نتشكك فى نوايا الناس ومقاصدهم . اننا نأخذ الناس بجدية ونعاملهم بمقتضى رأينا فيهم ، سواء أكانوا من الاقارب أم غرباء عنا ، وسواء اكانوا اصدقاء ام أعداء . ومن خلال التجربة فى التعامل مع الناس ، ينمى الشخص طريقة صحيحة بدرجة معقولة فى الحكم على الناس . وبالطبع قد يخطىء الشخص فى تقييمه للناس ، فكما يقولون ، فان الكمال لله وحده . وقد يحدث أن يثق المرء فى شخص ما لدرجة معاملته معاملة الأخ ثم يتحول ذلك الشخص الى عدو لدود . والسؤال الذى ارغب فى أن اسألك اياه هو .

ثم توقف الدرقاوى للتفكر برهة ثم واصل الحديث فقال .

ـ فى الحقيقة عندى عدد من الاسئلة . أولا ، هل حدث هذا لك أبدا ؟

أجاب الياس :

ـ لا اذكر شيئا من ذلك فى الوقت الحاضر .

اذن فسؤالى الثانى هو :

ـ ماذا يكون رد فعلك اذا حدث هذا لك ؟

أجاب إلياس :

ـ بكل صراحة ، فان السؤال افتراضى لدرجة تجعلنى اقول بأنى لا اعرف ماذا يكون رد الفعل عندى .

وتدخل السلطان ليقول :
ـ انك رجل سعيد الحظ .
وضحك الآخران . ضحكة ساخرة ، فقرر الياس أن يأخذ بزمام المبادرة فقال :
اخبرانى ، فانى فى حيرة من أمرى ، ماذا يحدث هنا ؟ يبدو أنى غافل عن شيء هام .
تساءل الحاكم الدرقاوى :
ـ هل هى يا ترى غفلة متعمدة ؟
قال الياس وهو ينهض واقفا :
ـ فى هذا ما يكفى أيها الحاكم . لن أجلس هنا لأستمع الى زعماء يتحدثون بطريقة صبيانية ، السلام عليكم .
وبينما سار إلياس مبتعدا ، سمع صوت عبدالله جاموس يقول :
ـ عيب عليكم يا جماعة ، كيف تتصرفون بهذه الطريقة ؟
وجرى جاموس وراء الياس وهو يقول :
ـ قف يا أخى ، لا يمكن أن تتصرف بهذه الطريقة عليك أن تقدر أننا فى غاية الانزعاج لما حدث . ولكن ليس هناك داع لإدانتك انت قبل اعطائك فرصة لتوضيح وجهة نظرك . تعال ودعنا نناقش هذا الأمر حتى النهاية .
اجاب الياس جاموس بقوله :
ـ أوضح وجهة نظرى حول ماذا ؟
ـ هذا ما ينبغى أن نتحدث عنه .. أرجوك أن تعود . لم يسبق لنا اللقاء من قبل وهذا أول طلب أطلبه منك . بالله عليك أن تعود .
ووافق الياس على مضض . وعندما اجتمعوا مرة أخرى كان جاموس هو أول المتحدثين :
ـ أيها السادة ، اننا نتعامل مع موقف فى غاية الخطورة والدقة . ولا ينبغى لنا أن نتناوله بطريقة عاطفية . فبدلا من الغمز واللمز الذى يبدو كإهانة ، عليكم إطلاع إلياس على ما تعلمون وسماع ما يود أن يقول .
كان الدرقاوى قد دفع نفسه الى حالة من الغضب الظاهر الذى لا يسهل الخروج منه ، فقال :
ـ اسمع يا اخ جاموس . اننا نتحدث عن حرية وربما حياة أناس أبرياء . فى هذه اللحظة هناك العديد من اخواننا الذين يعانون خلف قضبان السجن . ولماذا ؟ ماذا فعلوا ليستحقوا ذلك ؟
واحتج جاموس بقوله : حسنا ، تحدث عن الأمر لأخينا هنا . ماذا تعرف حقا عما فعل بخلاف ما قيل لك ؟ هذه فرصة نادرة ، فنادرا ما يعرف المرء الشخص المعنى بالدرجة الكافية ليسأله عما حدث ويتوصل الى معرفة الحقيقة . والحمد لله فأنت تعرف الأخ الياس بالقدر الكافى . بالله عليكم ، دعونا نتصرف كإخوة حتى نجد البينة الدامغة التى تثبت العكس .
وتدريجيا ، بدأ غضب الحاكم الدرقاوى فى الانحسار وعاد الهدوء الى صوته وهو يقول :
ـ دعنى أحاول الاستجابة لدعوة أخينا للحوار الودى . يا أخ الياس ، لقد استدعيناك لأننا بصراحة لم نتمكن من إقناع انفسنا بأن الرجل الذى اتخذناه اخا لنا يمكن أن

يتصرف بتلك الطريقة تجاهنا . لقد بحثنا عقولنا وقلوبنا عسى أن نجد الخطأ الذى يستوجب تلك العقوبة . ماذا أعطوك لتخون اناسا أبرياء اتخذوك كواحد منهم .

كان الغضب هو رد الفعل الاول عند إلياس ، لكنه تمالك نفسه وقرر العفو عنهم عندما ادرك انهم يتوهمون انه هو المسئول عن اعتقال أهلهم وتمكن إلياس من أن يقول فى صوت هادىء نوعا ما :

– هل تحاولون ايها السادة اخبارى بأنكم تشكون بأنى قد ساهمت فى الاعتقالات التى تمت ؟

وعندما لم يجد الاجابة ، الح الياس فى السؤال :

– هيا ، اخبرونى هل تشكون بأنى قد خنت صداقتنا ؟

وظلوا صامتين وظهر عليهم قدر من الارتباك وكأنهم لا يعرفون ماذا يقولون . ومرة اخرى ، كان جاموس هو الذى تجاوز المأزق فقال : لماذا لا تخبرا الياس بكل الرواية ؟

أجاب السلطان ابراهيم بقوله :

– حسناً إذاً . . . انت تعرف كل شىء فلماذا لا تخبره ؟

وافق جاموس وقال :

– سأحاول جهدى . حسب فهمى للموقف ، يا أخ الياس ، فبعد سفرك المفاجىء من الفاشر ، سأل اخواننا عنك فأخبروهم بأشياء أثارت تشككهم فيك . وقد أكد ودعم العميد يحيى رئيس الشرطة الكثير مما قاله العميد عبدالباقى قائد الجيش فى المنطقة . وعندما أعلنت أوامر الاعتقال ، عاد العميد عبدالباقى الى اخواننا واوحى لهم بأن ما سبق أن قاله عنك قد تحقق . وبصراحة ، لا اقدر انا على رواية ما قاله بالضبط مما أدى بأهلنا الى تلك الخلاصة ، ولكن لم يكن هناك أدنى مجال للشك بأنك لم تهدد سلامة الرزيقات تحيزا للدينكا فحسب وانما أوشيت بالفور ايضا للحكومة المركزية ، وكل ذلك من أجل طموحك الشخصى .

قال إلياس :

– يا الله ، إن هذا لا يصدق . وأنتم يا من أعتبرهم اصدقاء واخوة لى صدقتم ما قيل لكم بدون أن تعطوا أى فرصة للشك فى الأمر ؟ انى أرى الآن انكم بينما خدعتمونى لأعتقد بتحالفى معكم ضدهم ، كنتم أنتم على طول المدى متحالفين كشماليين ، وكنت أنا هو الغريب . ان ما يجرى بينكم وبينهم لا يعدو أن يكون خلافا وسط أفراد العائلة الواحدة ، بينما ما يجرى بينى وبينكم جميعا هو الصراع الحاد بين الغرباء . انى اشكركم على تلقينى درسا أرجو أن أقدر على الاستفادة منه .

قال جاموس فى محاولة لتهدئة الموقف :

– هون عليك يا أخ الياس ولا تكن غير معقول فلو افترضنا بأننا قد خدعنا بالظروف واخطأنا الحكم عليك ، فهل يكفى هذا لتقفز أنت الى طرف النقيض وتخطىء فى الحكم علينا ؟

فأجابه الياس :

– الا ترى انك لا تزال تقول « لو افترضنا » ، وهذا يعنى انك لا تزال تصدق ما قيل لك . الا ترون أيها القوم ما انتم فاعلون ؟ انكم تتهموننى بالخيانة ، وهى احط الاعمال فى تقاليدى الاخلاقية . انى أرى الآن بأنى لا أعرف الفور بالقدر الكافى لأفهم أخلاقهم ، فلو شككت أنا بأن أحدهم قد قام بما تظنون بأنى قد فعلت تجاهكم انتم ، فلن افكر حتى فى

مجرد الحديث معهم ، دع عنك أن أدعوهم الى منزلى واعرض عليهم الشرب .
قال جاموس :
- لا تلم الاخوان على ذلك ، فأنا الذى اقترحت هذا اللقاء . فإذا كانت فكرة خاطئة ، فأنا وحدى الملوم . ولكنى لا أعتقد أنها فكرة سيئة . وفى الحقيقة ، فأنا واثق بأنها كانت التصرف الصحيح .

اجاب الياس فى حدة :
- نعم هى كذلك بالقدر الذى علمتنى به اقدار الرجال واين هو موقعى الصحيح .
وتساءل ابراهيم الدرقاوى وقد بدأ يتأثر برد الفعل عند الياس فقال :
- هل تقول لنا بأن فى الأمور سوء فهم ؟
فأجابه الياس :
- انى لا أتحدث عن سوء الفهم ، فان ذلك هو حكمكم انتم وليس حكمى انا . انما اتحدث انا عن الوقائع كما اعرفها وهى ما حدث عندما كنت فى دارفور وموقفكم الراهن تجاهى . بالله انكم لمن أخون من عرفت من الناس ابدا ، إذ توهموننى بأننا اخوة بينما تتآمرون مع أعدائى من وراء ظهرى . وأنا افهم الآن لماذا اخطرت انت العميد عبدالباقى باجتماعاتى معكم .

سأل الحاكم الدرقاوى :
- ماذا تعنى ؟
فاجاب الياس :
- كنت قد قررت الاحتفاظ بلقاءاتنا الاجتماعية كأمر خاص لا احتاج لاخبارهم به .
وعندما احتج العميد عبدالباقى على عدم اخطارى له بالأمر ، لم اكتف باخباره بأنى اعتقد بأن الأمر لا يعنيه فحسب ، وانما سألته عن الطريقة التى سمع بها ، فقال ان الحاكم الدرقاوى هو الذى أخبره . والآن أعلم بأنك انت العميل السرى للقائد .
غضب الحاكم الدرقاوى بدوره ، لكنه شعر بالواجب بأن يشرح لالياس ما حدث فقال :
- أخبرنى الرجل بصورة مباشرة بانه قد سمع بأننا قد ذهبنا الى قريتى فى عطلة نهاية الاسبوع . وكل ما فعلت هنا هو تأكيد صحة ما حدث ، واضفت بأننا اردنا تقديم هذا الضابط الشاب الجنوبى للحياة فى دارفور . هذا هو كل ما حدث . كيف تجرؤ أنت على وصفى بأنى العميل السرى للقائد ؟
تدخل عبدالله جاموس بقوله :
- لا داعى للاساءة يا الياس . ان السلطان على حق ، فقد بدأت معالم الاشياء فى الظهور . دعونا نستجلى الامر بدون انفعال . أيها الاخوة ، الا ترون أن هؤلاء الاعراب لا يحجمون عن شىء فى سبيل خلق الفتنة والصراع بين الإخوان ؟
جلس الحاكم الدرقاوى وقد دفن راسه بين راحتيه ، فقد بدأ يشعر بخليط من الغضب والحرج والخجل من الطريقة التى استغلوا بها .
قرر الياس ان يكون اكثر اصلاحا فقال :
- بصراحة ، انى لا اكاد اقدر على التفكير السليم من شدة الغضب ، ولكنى سأحاول الاستجابة لدعوتك لاستجلاء الموقف ، فحتى تجربة دارفور هذه ، لم اعرف انا حقا درجة

الخبث والشر التى يهبط اليها البشر . فقد رأيت الناس يتشاجرون ويتعاركون بل ويقتل بعضهم بعضا . ولكنى لم اشاهد أبدا هذا المستوى من السعى لتحطيم الناس بطريقة خبيثة وجبانة بقدر ما شاهدت فى دارفور . اذا أردتم الوقائع ، فسوف اذكرها لكم واترك لكم استخلاص ما ترونه منها . على الأقل ، سأخبركم بما أعلمه أنا ، ولا أقول الا الحق والله شاهد على ما أقول .

وبعد أن تحرر من قيود السرية بسبب الطريقة التى انتهك بها رؤساؤه فى دارفور كل قواعد السلوك الاخلاقى والمهنى السليم ، قرر الياس أن يحكى تفاصيل تسلسل الاحداث ، بما فى ذلك استدعاؤه الى الخرطوم بصورة مفاجئة وكل ما اطلع عليه فى القيادة العامة للقوات المسلحة عن التقارير السرية التى كتبها رؤساؤه عن علاقته بالفور .

اختتم إلياس الرواية بقوله :

– لايمكن أن تتصوروا درجة امتعاضى على الطريقة التى اضطررت بها على المغادرة . وقد قررت أن أغادر بدون الاتصال بأى منكم لأنى قدرت أن تلك هى أحسن الوسائل لاشعاركم بحقيقة ما حدث ، والآن تم تحريف كل شيء واستغلاله لتحقيق الغرض المعاكس تماما . اقسم بالله بأنى لن اترك هذا الأمر هكذا ، وسوف أصل الى جذوره ولو قضى ذلك على حياتى ، دع عنك مستقبلى .

ونصحه عبدالله جاموس بقوله :

–.أنك يا أخى بهذه الطريقة انما تسقط فى الفخ . لا تكن أحمق ، لأن ذلك هو بالتحديد ما يودون أن تفعل . علينا تمالك أعصابنا ، وثق تماما بأننا لن نفضح سرك . فلنحول هذا الدرس القاسى الى شيء مفيد .

علق ابراهيم الدرقاوى فقال :

– ان عبدالله على حق . وانى سعيد للغاية لاصراره على حديثنا معك . وبكل صراحة ، فقد اعترضت أنا على المقابلة لأنى لم أر أى خير فى النقاش بعدما حملنا على الاعتقاد بصحته . ونعلم الآن الملابسات المحيطة بهذه الاحداث المثيرة للغضب ، وهذا هو ما يهم فعلا . ان أهلنا أبرياء والحقيقة باقية . فحتى لو حاولوا اخفاءها بالدخان ، فسوف ينجلى كل ذلك الدخان وتتكشف الحقيقة ، مهما طال الزمن . استمع الى النصح ودعنا نتمالك أعصابنا ، فاننا سنخسر الكثير اذا خرجنا عن طورنا .

سمع صوتاً يقول عند بوابة المنزل : السلام عليكم معلناً وصول المزيد من الناس . ففى البيئة الاجتماعية السودانية ، يكفى مرور الحاكم بمحنة سياسية لحضور الزوار للتعبير عن مواساتهم الشخصية . وبحكم تأخر الوقت ، فلابد أن يكون أولئك الناس من خاصة الحاكم .

أجاب الحاكم ورفاقه من الفور :

– وعليكم السلام ..

بينما ظل إلياس صامتاً .

ثم قال الياس : ينبغى أن انصرف .

أجابه جاموس : لا تنصرف بعد ، فينبغى أن يلقاك بعض هؤلاء الاخوة .

لكن الياس لم يشأ أن يكرر للمرة الثانية التعرض للأذى الذى ألحقته به قوات الأمن ، فمرة واحدة تكفى للامسية . فقال فى اصرار :

– انى آسف ، ولكن لابد من انصرافى .

وكأنما اطلع أحد القادمين الجدد على خلفية انصراف الياس فقال :

ـ ارجو الا نكون قد تطفلنا على جمعكم ؟

ـ اجاب الحاكم : لا ، أبدا .. تفضلوا بالجلوس .

وعندما دعا الحاكم الضيوف الجدد للجلوس ، قال عبدالله جاموس للحاكم وللسلطان :

ـ دعونا نخرج لوداع أخينا .

وتبعوا الياس ، وعندما وصلوا الى البوابة ، توقف عبدالله جاموس ليقول : عبارات ختامية موجزة :

ـ اننا نعلم الآن حقيقة ما حدث ، واني أقدر أن هذا الأمر الحق الكثير من الضرر بالثقة والتضامن الذي يسود بينكم . لم أكن أعرف الأخ الياس من قبل ، لكنني سمعت عنه الكثير . وما شاهدت هذا المساء يؤكد السمعة الممتازة التي سبقته . أعتقد انه علينا الاعتذار له وطلب العفو واستعادة الاخوة والتضامن بيننا .

ثم استدار جاموس نحو حامد الدرقاوي وقال :

ـ ايها الحاكم ، هيا ، خذ بيد اخيك واعتذر .

تحدث الحاكم الدرقاوي بكل صدق واخلاص .

ـ اخي الياس ، اني لا أستجيب لدعوة الاخ عبدالله فحسب ، وإنما اتبع توجيه ضميري ومشاعري القلبية . فأرجوك أن تعفو عنا لاتباعنا للتضليل ، ونحن الآن نعرف الحقيقة . وصدقنا حين نقول أن مشاعرنا تجاهك لم تعد الى ما كانت عليه فحسب ، بل زادت عمقا .

وتعانق الرجلان .. وقال السلطان ابراهيم :

ـ بطبيعة الحال ، فان حامد يتحدث نيابة عنا جميعا . ليكن هذا درسا للمستقبل بالنسبة لنا جميعا .

ثم عانق الياس كذلك . بينما قال عبدالله وهو يعانق الياس أيضا :

ـ مع السلامة يا أخي . أمامنا معارك أشرس ، فيجب الا تصرفنا الخلافات الداخلية .

اتجه إلياس إلى مكان سكن الضباط ليتفكر في أحداث الأمسية ويختار أحسن السبل لمعالجة الموقف . ومع انه احتفظ بذهن مفتوح تجاه الأمر ، إلا أنه شعر بأن اصدقاءه الفور ربما كانوا على حق بأنه من الافضل عدم اثارة ضوضاء حول الموضوع . وعلى كل حال ، ألم يتعلم من تقاليد الدينكا أن الحق ينتصر دائما في النهاية وأن الحقيقة تتكشف مهما طال الزمن ؟

الفصل الخامس عشر

سواء كان ذلك بسبب مواجهته لأصدقائه الفور أم بسبب الموقف العام، فقد قضى إلياس ليلته يتقلب فى الفراش فى عالم الأحلام المزعجة . أخذته أحلامه عائداً إلى طفولته الباكرة فى أرض الدينكا ، ثم عبرت به مراحل المؤسسات التعليمية فى الجنوب والشمال ، إلى تدريبه العسكرى والتجارب العملية فى الخرطوم ودارفور . وعندما استيقظ صباح اليوم التالى ، بقيت إحدى الرؤى واضحة فى ذهنه . فقط ظهر جده لوالدته منثول وقال :

- يابن ابنتى . لقد سمعت أنك على وشك الذهاب إلى بلد غريب ، ويقولون ربما تنقضى أعوام قبل عودتك . انى أطلب منك أن تعود الى وطنك وتزور أحباءك قبل أن تغادر بلدك . سيحزن أهلك اذا ذهبت بدون زيارتهم . إن رؤية طفل المرء كالطعام ، قدمها وستكون قد اقمت أود قومك ، وامنعها وستكون قد أهلكتهم جوعا .

ذهب الياس الى العميد على صباح اليوم التالى وشرح له رؤياه وقراره أن يذهب فى زيارة أهله . « لا أملك أن أتجاهل رغبة أسلافى ، وعلىَّ الذهاب مهما كانت المخاطر » . وعلق على بقوله :

- حسنا ، ماذا املك أن أقول ؟ من الواضح انى لاأستطيع أن أنصحك بتجاهل رغبة أسلافك . كل ما أستطيع أن أقول هو أن تأخذ حذرك وكان الله فى عونك .

وبمجرد وصول إلياس الى اهله ، وجد أن المشاكل التى شهدها لأول مرة فى دارفور قد ظهرت آثارها فى قرية داك - جور وانعكست على قومه الدينكا ماثيانق . وكان والده هو أول من أخبره عن حالة عدم الأمن السائدة فى المنطقة ، فقال :

ـ يابنى ، اننا سعداء برؤيتك ، ولكن ماكان ينبغى حضورك فى هذا الوقت بالذات . لقد انطلق العرب بلا حدود ، ولا أدرى ما الذى أعتراهم فيتصورون أشياء ثم يتصرفون بمقتضى تصوراتهم فيسببون الأذى للآخرين وحتى لأنفسهم .

ثم اوضح مالينقديت بعد ذلك أنه بمجرد سماع الأنباء من الخرطوم عن الحملة المعادية للعرب فى دارفور وبحر الغزال ، فقد حضر لمقابلته قائد قوات الأمن المحلية وشرح له الموقف فقال :

ـ لاتزال منطقتنا هادئة ، ولكن علينا مراقبة الموقف واتخاذ اجراءات منعية بمجرد اكتشاف اى شىء وذلك لحماية منطقتنا من العناصر المخربة .

قال مالينقديت لابنه :

ـ لم أر ضررا فيما قال ، لكنه سرعان ماأخذ يعتقل الناس هنا وهناك ويستجوب آخرين وكأنه يشك فى الجميع . فهو لايسمح حتى للشرطة بأداء عملها فى حفظ الأمن ، وقد أستولى على كل مقاليد الأمور . ولن أستغرب اذا كان يعتقد بأنى أنا أيضا أحد الزعماء المارقين .

سأل الياس :

ـ ماهو اسم الضابط القائد ؟

فقال والده :

ـ أنه ضابط شاب اسمه على عثمان . ويبدو كأنه لايكاد يكون فى السن التى تسمح له بأن يكون جنديا ، دع عنك قائدا لقوات الأمن . وبدلا من التعاون مع الزعماء أحاط نفسه بمجموعة من الوشاة الذين يغريهم بالفتات للحصول على معلومات باطلة ضد الابرياء . وكنتيجة لاستهتاره هذا ، فأنى أخشى أن الكثيرين من شبابنا قد دفعوا الى التمرد والخروج على السلطة . وقد تم تعذيب عدد من الناس حتى الموت ، كما أعترف على عثمان نفسه بأنه قد قتل بالرصاص شابا من أكيو دينكا جاء الى هذه المنطقة بماشيته بحثا عن المرعى . والآن ، بمجرد أن يرى الناس رجلا قد تم اعتقاله وأخذه بواسطة الجيش بدلا من الشرطة ، فانهم يتوقعون له أن يعذب ، اذا لم يقتل .

لقد اعتقلوا ابن عمك أدول وعذبوه حتى ذهبت أنا وانفجرت غضبا ، وكان ذلك لمجرد أن الوشاة قد زعموا بأن ادول هو زعيم الحملة المعادية للعرب وسط الشباب المحاربين فى القبيلة . والآن ، وبسبب الطريقة التى عاملوه بها ، فقد ذهب ادول الى الغابة وشرع حقا فى خلق ثورة محلية . لم يعد لنا أى تحكم ولا نفوذ على مايجرى فى الغابة .

كما أنهم قد أعتقلوا خالك البير لمجرد انه قدم وليمة شارك فيها « الشباب المحاربون » . وقد فسر الضابط ذلك بأنه تجمع للتخطيط للهجوم على عرب الرزيقات . وعندما رأى خالك الأصغر ماريال الطريقة المهينة التى عامل بها العرب الابن الأكبر لوالده ، غضب وانضم الى فريق انداده فى الغابة . وقد نجحت فيما بعد فى اطلاق سراح البير ولكن سبق السيف العزل ووقع الضرر فعلا . وفى الحقيقة ، فان العديد من الشباب يدفعون الآن للثورة بسبب سلوك هذا الضابط الشاب ولما يسمعونه عن التوتر والصراع بين العرب والدينكا .

قرر إلياس القيام بزيارة ودية لهذا الضابط الذى أثار سلوكه الكثير من الجدل فوجده شابا فاتح لون البشرة ، فى أوائل العشرينات من العمر ، ووديا فى التعامل . وقد أستقبل

على عثمان إلياس بحرارة واحترام . ورغم ان إلياس لم يعرف عليا لانه كان أصغر منه بعدد من السنين ، إلا ان عليا كان قد سمع عن سمعة إلياس كضابط جنوبى واعد تخرج فى اوائل دفعته . ولم يكن يعلم بان الياس من قرية داك ـ جور ، كما انه ، على مايبدو ، لم يكن يعلم بأن إلياس قد تتبع تطورات الموقف الامنى المتدهور فى دارفور وبحر الغزال . ومع أن الياس قد قدم لعلى عثمان معلومات من دارفور والخرطوم ، إلا أنه حرص على عدم تقديم التفاصيل التى تثير التشكك أو الحذر لدى الضابط الشاب . وفى عموم الحال ، فقد كان لقاء وديا ، وإن كان على عثمان متوترا ومتوجسا نوعا ما على مايبدو ، وربما كان ذلك لتوقعه بأن يكون إلياس غير راض عما كانوا يفعلون بأهله .

كان الياس هو الذى قدم موضوع الموقف الأمنى بقوله :

ـ لقد سمعت بعض الأشياء عن الموقف الامنى المتدهور . وبالطبع ، فمع أن بعض هذه الأشياء قد بلغنى من والدى وهو رجل مسئول فى المنطقة ، إلا أن أغلبها قد بلغنى من الشائعات التى لايقبلها المرء بلا تحر واستيثاق من صحتها . لذلك رأيت أنه من الواجب أن اسمع روايتك أنت عما يحدث وأرى ما اذا كان بوسعى المساعدة فى تحسين حالة أمن المنطقة .

ـ شكرا لك ياأخ الياس على عرضك الوطنى البناء ..

قال على ذلك بروح من التعالى الساذج ، وكأنه هو الضابط الأعلى درجة ثم أضاف قائلا :

ـ حسب تقديرى لتطورات الموقف ، فانى أرى أن الأسر القيادية ، وهى أيضا الأكثر نضجا سياسيا ، أنما تحاول أن تجمع بين السلطات الحكومية وزعامة التمرد المتصاعد . يمكن أن يتطور هذا الى موقف خطير لأن الزعماء قد لايكونون حازمين بالقدر الكافى ضد قادة التمرد . أنا أعلم بأنك ابن الزعيم وأن من أتحدث عنهم قد يمتون لك بصلة القرابة بطريقة أو أخرى . فاذا كان بمقدورك المساعدة فى هذا الأمر ، فسأكون أنا فى غاية الامتنان .

علق الياس بقوله :

ـ بصراحة ، ففى تقديرى الشخصى ، على سلطات الامن أن تتعاون مع القادة المشروعين للمجتمع لانهم أيضا يحرصون على الامن والاستقرار . ربما كان بين أفراد أسرهم الكبيرة ، أو حتى أقرب الاقربين من له غـرض شخصى فى التمرد . ولكنهم اذا هددوا أمن المنطقة لاسباب لا يراها الزعماء مقنعة ، فانى لا أعتقد أن الزعماء سيتعاونون معهم . ويعنى هذا شيئين : أولا ، على المرء أن يتعاون مع الزعماء . وثانيا ، على المرء بذل الجهد لحرمان المتمردين من المبرر الاخلاقى الذى قد يكسبهم تعاطف الزعماء وعامة الجمهور فى المنطقة .

رد الضابط بقوله :

ـ انى لا أختلف مع هذا القول ، بل فى الحقيقة فانى أوافقك تماما .

فقال الياس بشعور من الرضا :

ـ حسنا إذاً . فى هذه الحالة ، فانى أرغب فى مناقشة والدى وباقى زعماء القبيلة حول كيفية التحرك على جبهتين :ـ تركيز تعاونهم معك مع التأكد من انك لن تعطى المتمردين أى مبرر أخلاقى مقبول لدى عامة الشعب .

- هذا طيب

قال على عثمان ذلك بشىء من التشكك لكنه ظهر مقتنعا نوعا ما . ثم اضاف وكأنه يغير موضوع الحديث :

- دعنى اعطيك نموذجا لما اعنيه من تعاون الزعماء مع المتمردين . ان هؤلاء المتمردين المزعومين ليسوا فى الحقيقة قوة نظامية ، بل هم جماعة من المجرمين الذين يتجولون فى المنطقة لارهاب الناس ونهب الطعام والمال منهم . ينضم اليهم بعض الشباب خوفا منهم اذ يواجهون بالاختيار بين أن يكونوا مع المتمردين أو ضدهم وذلك فى الوقت الذى تكون فيه تبعات معارضة المتمردين فى أشد القسوة والعنف . وقد لا يعنى ذلك الموت ، لكنه يعنى أن يفقد المرء كل ما يملك . وهناك من الزعماء القبليين من يعمل على تسهيل الاتصال بين قادة التمرد والمحاربين الشباب ، من رجال القبيلة . فى هذه اللحظة يبحث رجالى عن رجل يقدم الدعم للمتمردين . فقبل يومين مثلا ، قضى المتمردون ليلتهم فى منزل ذلك الرجل الذى ذبح ثورا لضيافتهم . اذا لم نعاقب مثل هذا السلوك فان مصداقية واحترام قوات الأمن سيذهب من صدور الناس .

نهض الياس وهو يقول :

- سأذهب للحديث مع والدى وباقى الزعماء وسأتصل بك قريبا .

- حسنا

أجاب على عثمان ، وتصافح الرجلان ثم افترقا . وعندما عاد الياس الى قرية داك - جور ، وجد خاله البير فى محكمة والده . كان البير قد سمع بوصول ابن اخته فأسرع لمقابلته ، وبما انه رغب فى الحديث مع الياس ، فقد انتحيا جانبا بعيدا عن الناس .

شرع البير فى الحديث بقوله :

- يا ابن أختى ، لم أتمكن من النوم منذ أن سمعت بحضورك . اذا كان بمقدور الناس ارسال رسائل من خلال الاحلام ، لبعثت اليك باعتراضى على حضورك . لقد أصابت العالم لوثة من الجنون . انك تعيش بين العرب ولكن يبدو أنك لا تفهمهم . فهم لا يقسون علينا فحسب بل هم يحسدوننا أيضا . فعندما يرون أن رجلا أسود قد تعلم مثلك ، فانهم يعلمون بأنك أمل الخلاص لاهلك وهم لا يودون ذلك . لذلك سيبذلون غاية جهدهم لخلق المشاكل لك .

لم يملك الياس الا أن يتذكر ما حدث له فى دارفور ، فلو كانت تلك التجربة معيارا للامور ، لكان البير محقا بصورة مذهلة .

واصل البير الحديث فقال :

- ان الامور سيئة يا ابن أختى ، اذ يجمع الناس السلاح النارى والمؤن . ان ما أراه من تفاقم جمع السلاح فى هذه المنطقة يوحى بأنه ستكون هناك حرب ، ومن المستحيل تفاديها . ويقع علينا جميعا الضغط لننضم الى هذا الجانب أو ذاك . وكيف يتشكك المرء فى الجانب الذى ينتمى اليه ؟ فنحن من الدينكا وانما هم العرب الذين يودون أن يعودوا بنا إلى أيام كانوا يصطادوننا كالحيوانات ويحملوننا بعيداً عبيداً لهم. أن شبابنا محقون فى مقاتلتهم لرد العدوان وأنه واجبنا نحن كبار القوم أن نعاونهم بكل الوسائل المتاحة لنا .

استغرق الياس فى تحليل خاله للموقف السياسى من وجهة نظر الدينكا . ورغم شعوره بأن

هناك قدراً من التبسيط الزائد ، فعلى العموم ، لفت نظر إلياس مستوى وعى ألبير وغضبه .
توقف بمنزلى قبل أيام قلائل جماعة من هؤلاء المحاربين الشباب الذين يسمونهم رجال الغابة ، فقمت بذبح ثور لهم وأعددت كمية من الطعام تكفيهم لعدد من الأيام .
لم يكد إلياس يصدق ما يسمع ، فسأل :
- تقول أن هؤلاء المتمردين قد قضوا الليلة بمنزلك وأنك ذبحت ثوراً لهم .
اجاب البير بقوله :
- نعم ، وكان معهم ابن عمك ادول وماريال ابن والدى .
- يا الهى ! (صاح الياس فى دهشة) يا خالى ، انك لا تعلم مقدار المشكلة التى ورطت نفسك فيها .
ثم واصل الحديث ليشرح لألبير بأن الجنود يبحثون عنه وربما يكونون فى قريته فى تلك اللحظة .
وعلق البير بقوله : انك ترى اننا معشر الدينكا نستحق المعاملة التى نجدها من العرب . تصور أن أحدهم يشى بشخص لمجرد أنه قدم الطعام لابناء البلد الذين يحاربون من اجل كرامة أهلهم ! كيف يتوقع العرب منا ان ندير ظهورنا على ابنائنا ؟ .
الا أن الياس لم يكن حريصا على سماع الاسباب ، فالذى يهم هو ان خاله فى ورطة حقيقية .
قال إلياس : تعال معى ، علينا الذهاب فورا .
- إلى أين ؟
- إلى الضابط برئاسة الأمن
أوحت غريزة البير بعدم الذهاب ، فتردد ، لكنه أيضا كان يثق فى حكمة ابن أخته .
قال الياس باصرار .
- لا مجال للتفكير . ربما يكونون فى طريقهم اليك هنا هذه اللحظة ، واذا وجدوك قبل أن تقدم نفسك اليهم فقد يفوت الاوان على الدفاع عنك . هيا لنذهب .
دهش على عثمان لعودة الياس بهذه السرعة ، ودهش أكثر لرؤية البير الذى كان رجاله يبحثون عنه ، لكنه لم يعلم العلاقة بين الرجلين .
أبلغه الياس بقوله :
- لقد أحضرت اليك الرجل الذى تبحثون عنه . انه خالى .
فأجاب على :
- لم أكن أعلم ذلك .
قال على غاضباً وهو يخاطب ألبير :
- هل أخبرك ابن أختك بأننا نبحث عنك هذه اللحظة ؟
ثم أكمل وهو يزداد غضباً أثناء الحديث :
- وعلى كل حال فما هى روايتك ؟
مع أن إلياس وألبير لم يتفقا على رواية معينة ، فقد وجد إلياس أن ما قاله ألبير كان مقنعاً أكثر مما توقع هو . قال ألبير للضابط :
- حضر المتمردون إلى منزلى وهم يحملون السلاح وأمرونى بتقديم الضيافة لهم ، ومع وجود أقارب لى بينهم ممن أشعر بالواجب الأخلاقى بتقديم الطعام لهم على كل حال ، فقد

كان الخيار الحقيقى الذى واجهنى هو اما أن اكرمهم جميعا أو اطردهم باعتبار انهم متمردون. وحقيقة الامر انى لم أملك سوى الرماح بينما كانوا هم يحملون الاسلحة النارية. وإذا منعت منهم الطعام، فحتى أقاربى منهم كانوا سيعتبروننى عدواً لهم. وقد قدمت لهم الضيافة على أمل أن تقدر السلطات ضعف موقفى. وسمعت بوصول ابن اختى بمجرد انصرافهم عنى، فقررت أن اذهب لابلاغه هو ووالده بما حدث. فبحكم انه هو شخصيا ضابط فى الجيش، فقد قدرت انه وأنت فى موقع واحد. واقترح ابن أختى أن نحضر معا لابلاغك بالامر شخصيا، وها نحن قد حضرنا.

كان رد على أن قال:

- هل تحاول أن تخدعنى؟.

فقال البير:

- ما علاقة الخداع بالحقيقة؟ لقد اخبرتك بالحقيقة كما اعرفها انا. وعلى كل، الم أحضر اليك لانك أرسلت فى طلبى؟ الم ابادر انا من عند نفسى بابلاغ الامر؟

- هل أظهرت لهم أى مقاومة على الاطلاق أم قررت التعاون معهم منذ الوهلة الاولى.

- هذا ما أحاول أن أوضحه لك. لم يعد أولئك القوم من أهلنا وقد كونوا مجتمعهم الخاص فى الغابة. لم يعودوا يعرفون أباءهم ولا اخوانهم. كيف أقدر على معارضتهم وأنا خالى اليدين ثم أتوقع أى تعاطف منهم؟.

قال على:

- انك رجل سعيد الحظ حقا بحضور ابن أختك فى هذا الوقت بالذات. اذا لم يحضرك هو ووجدك رجالى بمنزلك لتم احضارك الى هنا فى الاغلال.

علق إلياس بقوله:

- ليس الامر بالحظ وانما هو أن الله يعلم الحقيقة ويحمى الاخيار.

قال على:

- أيا كان الحال، فتقديرا لابن أختك وهو اخى فى السلاح، فسوف أسمح لك بالذهاب. ولكن لدى شرط واحد: عليك الانضمام لنا وافادتنا بنشاطات المتمردين فى منطقتك.

كان الياس هو الذى رد على عرض على بقوله:

- لا، إن هذا لايكون لعدة أسباب. أن خالى من كبار القوم الذين يتمتعون بالاحترام والتقدير فى المجتمع. يجب أن تعلم أن وشاتك، مهما كانوا مفيدين لك، لايتمتعون بأى قدر من المركز الاجتماعى فى المنطقة. وعلى التحقيق، فهم محتقرون فى نظر الجماعة. وسيتعرض خالى لخطر الاذى الجسمانى الاكيد لانه بارز بدرجة لاتمكنه من التحول إلى عميل سرى لسلطات الامن دون أن يلفت النظر الى ذلك. هذا بالاضافة إلى أن خطتى، كما ناقشتها معك من قبل، هى توثيق عرى التعاون بين الزعامة القائمة وسلطات الأمن. سيتعاون خالى معكم على هذا الأساس وليس كمخبر لك.

وافق على بقوله:

- أرى صحة ماتقول، ولكن فى هذه الحالة عليك أن ترحل لتسكن بالقرب منا هنا أو بقرية الزعيم ملينقديت وذلك حتى لايستخدم المتمردون منزلك كقاعدة لتقديم الدعم لهم. فهذه هى المرة الثانية التى تتهم انت فيها بتقديم العون لهم.

اجاب الياس :

- اعتقد ان اقتراحك جيد . وإن كان سيسبب بعض المشقة ، فلا اعتقد ان خالى سيمانع من الاقتراب منكم للحماية . لقد اصبح الريف منطقة خطرة .

قبل ألبير ذلك الاقتراح بقوله :

- لقد اصبحت انا شخصيا أتوجس خيفة من تكرر حالات الاتهام واحتمال المشاكل مع سلطات الأمن .

اجتهد إلياس خلال الأيام والأسابيع التالية لتنمية علائق الفهم المتبادل والتعاون بين والده وسلطات الأمن . واقترح الدعوة لاجتماع عام ليناقش الناس الموقف الامنى العام ويتعرفوا على المشكلة . أصر على أن يلتقى الياس بالناس على انفراد بلا خوف أو تردد ، وقبل إلياس الاقتراح . وخلال الاجتماع ، كانت هناك ادانة دامغة للوشاة من الدينكا كمصدر لعدم الثقة والتوتر والصراع بين سلطات الامن وعامة الشعب فى المنطقة . وقد قال عدد من الناس أن الموقف سيتحسن كثيرا لو أمكن إقناع سلطات الأمن بالتعاون مع الزعماء الشرعيين فقط وتفادى حملة الشائعات ومن ينصبون انفسهم وشاة ومخبرين عن احوال الناس من منطلق المصلحة الشخصية لهم هم .

بعد ان تحدث عدد من الناس ، اتخذ اكول ، الاخ غير الشقيق للزعيم ملينقديت ، اتخذ طريقه للحديث فى نفاد صبر واضح . وعندما وجد الفرصة للحديث قال فى غضب :

- انى اخبرك يابول بألا تدفع بأهل والدك الى تعرية انفسهم لضباع هذا البلد التى لاتميز بين الصالح والطالح . كيف تثق أنت فى العرب ؟ ستنصرف خلال ايام قلائل وسيبقى الناس تحت رحمة سلطات الامن ووشاتهم . ستنصب لهم الفخاخ وسيعذبون بسبب الكذب الذى يختلقه من يعيشون على لحم ودم الناس الابرياء . وسيحصل الوشاة على جوائزهم ويواصلون عملهم فى اختلاق المزيد من الاكاذيب وهم آمنون على انفسهم . ولن يقدر حتى والدك على انقاذ الابرياء . وبصورة ما ، يبدو انه حتى الله والاسلاف قد ابعدوا أنفسهم عن هذا العالم . ففى الماضى ، كانت قوى خفية تصعق أمثال اولئك الوشاة وتقتلهم . كان ذلك عندما كانت الارواح ترعى أحوال البشر . لكن الارواح قد ارتبكت الآن بسبب هذا التداخل الذى حدث بين الاجناس واللغات . فى الماضى رفض ابن أحد زعماء الدينكا أن يتعلم اللغة العربية وعندما سئل عن السبب أجاب : « بمجرد أن تتعلم اللغة العربية سوف تتحول الى شخص خبيث » . وهو قد قصد مثل الأشياء التى تحدث هنا الآن ، حيث يتعلم الناس بعض الكلمات العربية ثم يسرعون لرواية الأكاذيب عن الأخرين . أن لغة الدينكا لاتصلح لذلك لأنها لغة تخاف الله . أن من يتعلمون اللغة العربية لكى يغذوا انفسهم على حساب الآخرين لايعرفون الله . إننى أناشدكم بهذه الطريقة لأنى لاابالى . فاذا قتلونى فليفعلوا ، لانى قد رزقت الابناء الذين أخلفهم ورائى . أما بالنسبة لك يابول ، فاذا أردت مساعدة اهلك حقا ، فعليك أن تفعل ذلك من هنا . عليك إسماع الحقيقة لأولئك الناس هناك ، واذا كانوا يهتمون حقا لكل اهل السودان ، فعليهم أن يفعلوا شيئا .

أنى أشك فيما اذا كان منير حقا يعلم بما يجرى هنا . إلا أن منير قد فاجأنا دائما بتصرفاته المتقلبة . فى البداية ، لم نفهم من اين اتى الله بعربى من الشجاعة بحيث يقول لأهله بالتوقف عن قتل الرجل الأسود . والآن يبدو انهم يتحدون مرة أخرى ضد

الجنوب .. اذا كان منير يهتم حقا بالعمل الطيب الذى بدأه فى هذا البلد ، فإذن اخبره واخبر قومه فى الخرطوم بما يحدث هنا وسنرى ماهم فاعلون . وفى الوقت الحاضر ، عليكم ياأهل أبى بالصمت وأن تظلوا صامتين » .

قوبلت كلمات اكول بالتصفيق الحاد ، وكأن كلماته قد ألقت بالصمت على الجماعة ، لم ترتفع يد واحدة بطلب الفرصة للحديث .

فى بداية الأمر ، حاول إلياس الاتصال بالقادة المحليين للتمرد لاقناعهم بأن أغلب المشاكل الحديثة قد نجمت عن سوء الفهم والأقاويل المختلقة ، وانه سيعيد التفهم والتعاون الكاملين بين الشعب وسلطات الأمن . عارض على الفكرة فى البداية بحجة أن الاتصال بالمتمردين يشكل جريمة يعاقب عليها القانون ، إلا أن إلياس تمكن من إقناعه بأن ذلك العمل يخدم المصلحة العامة ولايمكن أن تعترض عليه السلطات المركزية . ولكن رغم جهوده المضنية ، فقد عجز إلياس عن إعادة قادة التمرد المحليين الى المجتمع لأنهم قالوا بأنهم لم يعودوا قادرين على الثقة بالعرب . فلم يجد إلياس بدا من أن يحاول أن يوثق عرى التعاون بين سلطات الأمن والقادة التقليديين للمجتمع ، وأن يخلق من ذلك سدا بين اتباع أولئك القادة والمتمردين .

واثناء ذهابهما الى الاجتماع الذى يتم فيه الاتفاق النهائى للتعاون بين المجتمع وسلطات الامن ، احتج على عثمان لالياس على ما قاله عمه اكول خلال الاجتماع السابق . ودهش الياس عندما علم أن على عثمان قد أرسل عملاءه لحضور الاجتماع رغم التزامه باحترام حرية التعبير وخصوصية الاجتماع .

واعترض على بقوله :

- كان على أن افعل ذلك ..

فرد الياس :

- انى أختلف معك تماما وان كنت أتفهم الاسباب التى دعتك الى ذلك .

- وبكل صراحة ، لولا احترامى لك ، لكان عمك فى ورطة حقيقية لحديثه بتلك الطريقة غير المسئولة فى مكان عام . ويمكنك أن ترى فى سلوكه الاسباب التى تدعونى الى تغطية الاجتماع والحرص على معرفة ما يدور فيه . إنى أعفو عنه من أجل خاطرك أنت ، ولكنى ارجو أن تطلب منه ومن بقية الاعضاء البارزين فى عائلتك بالتوقف عن لعب دور مزدوج وأن يصدقوا فى تعاونهم معنا . واذا لم يفعلوا ذلك ، فسوف نضطر الى الافتراض بأنهم يتعاونون مع العدو ونعاملهم بما يقتضى ذلك .

وأدرك إلياس أن لا جدوى من مناقشة على فى الأمر ، فاكتفى بتقدير الاحترام الذى أظهره له على وذلك بعدم التصرف ضد اكول .

وخلال الاجتماع العام ، عبر الناس عن رأيهم بأن عودة الياس قد اعانت على انقاذهم من موقف شديد الخطر . وظل الياس متفائلا ولكن فى حذر ، وان ظلت المشاكل عويصة ومستعصية الحل . وعندما حكى الياس لعمه وكبار القوم الآخرين ما قاله على عن الدور المزدوج وعن ضرورة التعاون التام مع سلطات الامن ، قال اكول :

- هل يتوقع العرب حقا أن نتعاون معهم ضد اطفالنا الذين يقاومون استرقاق اهلهم ؟ هل يمكن أن يفكروا فى احترامنا اذا كانوا يعتقدون بأننا سنهبط الى هذا الدرك المنحط ؟ .

وضحك كبار القوم بطريقة أوحت بأن اكول قد عبر عن خواطر يوافقونه فيها جميعا .

وعندما حان وقت رحيل الياس ، قام خاله البير باداء الطقوس المعتادة لمباركة السفر . وبعد أن فرغ ، أخذه الياس جانبا وقال له :

ـ يا خالى .. اتعلم بأنى لم أكن لاحضر فى هذه الزيارة لولا جدى منشول ؟ .

وظهرت الحيرة على البير فشرح الياس بقوله :

ـ لقد اتانى فى النوم ودعانى باصرار لاحضر وأرى أهلى قبل ذهابى الى بلاد غريبة . لقد نصحنى عدد من الناس ، بما فيهم كبار موظفى الدولة ، بعدم الحضور خوفا من مثل المشاكل التى وجدتها هنا فعلا . ولكننى لم اقتنع بنصحهم وذلك بسبب كلمات جدى منشول .

اجاب البير بقوله :

ـ يا ابن أختى ، لقد أخبرتك بأن والدى حدثنى بأنك طفل مقدس وصاحب رسالة فى هذه الحياة . وهذا هو الفرق بين الناس العاديين والقادة المقدسين . لقد راى والدى ورأيت انت شيئا لم يره أصدقاؤك ولم أره أنا أيضا . لقد أخبرتك بأنى لو اطلعت على المستقبل وامكننى أن أرسل الرسائل خلال الاحلام لنصحتك بعدم الحضور تماما كما نصحك اصدقاؤك فى الخرطوم لكن والدى علم بالرسالة المقدسة التى من أجلها صلى عليك وسبب لنفسه الموت المبكر لينقذك . لقد تمكنت أنت الآن من انقاذ حياة العديد من الناس الذين كانوا سيسقطون فريسة للجيش وكلامهم فى سلطات الامن . انى سعيد بأنك اخبرتنى عن هذا الحلم . عندما أعود لمنزلى ، سوف أقدم القربان لوالدى لاشكره على كلماته . ان الاسلاف يرعوننا حقا .

الفصل السادس عشر

زار إلياس العميد على صباح الجمعة التالية لعودته إلى الخرطوم ليحكى له عما وجد فى الجنوب وليتحصل على أنباء ما يدور فى القيادة العامة . وصل إلياس إلى منزل على حوالى الحادية عشرة صباحاً فوجد أن بعض أقارب على الذين كانوا فى زيارة له على وشك المغادرة. فتم أول لقاء لإلياس بأخى على، الشيخ محمد أحمد الجاك وأسرته، كان محمد يكبر عليا بعدة سنوات ، إلا أن رحلات شبابه حيث كان تاجراً فى الغرب له مغامرات فى أعماق الجنوب حين كان يغزو طلباً للرقيق والماشية ، خلف كل ذلك أثره عليه فجعله يبدو أكبر سنا مما هو فى الحقيقة ، كان محمد يرتدى جلبابا ويلقى شالا على كتفه وقد لف عمامته حول رأسه بصورة متراخية ، وارتسمت على وجهه ملامح ساخرة ، ونادرا مايبتسم الرجل ، وعندما يفعل ، يبدو وكأنه يضطر الى ذلك مما يجعل من يبتسم لهم يشعرون بالامتنان غير المريح .

عندما قدم على إلياس لمحمد تفرس محمد فى وجه الضابط الشاب ثم سأل فى روح من التعالى وكأنه لم يسمع عن إلياس من قبل .

ـ من اى جزء من الجنوب انت ؟

ـ انا من قرية اسمها داك ـ جور فى شمال غربى بحر الغزال .

ـ يبدو أن ذلك من بلاد الدينكا ..

قال محمد ذلك فى صوت لايكاد يخفى معرفة الرجل بالمنطقة .. ثم اضاف إلياس موضحا :

ـ نعم بلاد الدينكا ، فانا من الدينكا فرع مثيانق .

قال على :

ـ على ماأذكر فان محمد يتحدث بعض لغة الدينكا ،

ـ أحقا ؟ ..

علق الياس ببعض الانفعال .

وجد محمد نفسه فى ورطة ، ولسبب ما رغب فى التقليل من معرفته بلغة الدينكا فهمهم بقوله :

ـ ان معرفتى لاتزيد عن بعض الكلمات وقد كان ذلك منذ وقت بعيد .

تصاعد حب الاستطلاع لدى إلياس فسأل :

ـ متى كنت فى بلاد الدينكا ؟

الا ان شيئا ما عن الياس ازعج محمدا الذى ظهر وكأنه منصرف عن الحديث اكثر منه ضائقا ذرعا به ، لكنه كان جافا فى تعامله . اجاب محمد بصورة عابرة :

ـ لم أكن حقا فى بلاد الدينكا .

ثم اشاح بنظره بعيدا بصورة متعمدة .

وظل الياس مستغرقا فى الأمر فألح فى السؤال بقوله :

ـ ولكن كيف تعلمت لغة الدينكا ؟

استدار محمد تجاه إلياس ورمقه بنظرة جادة ظهرت وكأنها تخترق الشاب . وكأنه قد تعمد عدم الارتياح للشاب ، قال محمد :

ـ لقد مررت من خلال بلاد الدينكا والتقطت كلمة هنا وكلمة هناك .

ولكى يمنع إلياس من اثارة سؤال آخر استدار محمد منصرفا وهو يقول اثناء انصرافه :

ـ شد حيلك .

وهى عبارة تدعو الى الاجتهاد واثبات الجدارة ، ودون ان ينتظر ردا من الياس ، صاح محمد الى اهله وهو يسير تجاه السيارة :

ـ هيا بنا ، دعونا نذهب !

وكأنه يعوض عن سوء معاملة أخيه لإلياس ، لفت على نظر الياس لابنة محمد واسمها فضيلة ، فعرفها بالياس قائلا وهو يمسك بذراعيها :

ـ وهذه ابنة اخى المفضلة .. تعالى وقابلى ابنى المفضل والوحيد الضابط الذى افخر به كل الفخر .

كان على ملحا لدرجة انست فضيلة دعوة ابيها للخروج بينما ظهر ابوها وكانه يفضل الاختفاء بدلا من ان يسمع إلياس صوته مرة أخرى .

كانت مهنة فضيلة غير عادية (على الاقل في نظر والدها) اذ كانت معلمة بمعهد الخرطوم للفنون الجميلة . كان اهتمامها الاساسى هو التصميم الا انها كانت تمارس النحت والرسم ايضا ، وقد كانت منبسطة الشخصية وغير متحفظة لدرجة مذهلة بمقياس الشمال المسلم . كانت متوسطة القامة سمراء اللون ، وذات اسنان ملتوية بعض الشىء مما اضاف شيئا من النشاز الغريب واللافت للنظر بخاصة في مقابل لثتها السوداء اللون .

- إذن فانت الشاب الذى سمعت عنه كثيرا .

علقت فضيلة وهى تمد يدها لإلياس وتبتسم ابتسامة لعوبا وتلوى من قوامها النحيف ، وكان إلياس مأخوذا بالسيدة الشابة لدرجة اعجزته عن الرد على تحيتها بصورة مناسبة فلم يجد مايقول سوى عبارة « كيف حالك » .

استغرقت فضيلة في التناقض الظاهر بين سمعته الرفيعة وتواضعه الظاهر . قالت في ثقة اخاذة ومهيمنة :

- لقد قررت قبل أن ألقاك أن أطلب منك أن تقف نموذجاً لأنحت عليك تمثالاً . وبالطبع سيكون ذلك في اطار العائلة ولايثير الريبة .

بما ان فضيلة على مايبدو قد فكرت في التبعات المحتملة لطلبها ونجحت في حلها بصورة مرضية ، فقد قرر إلياس الا يشغل نفسه بردود الفعل الاجتماعية . وهو قد فوجىء بالطلب وشعر بأنه اسيرها بصورة غريزية ، وقال مداعبا :

- والآن وقد رأيت هدف خططك الفنية ، فهل انت واثقة بأنك ترغبين في مواصلة المشروع .

فأجابت عابثة :

- بل وخاصة بعد أن شاهدت موضوع المشروع

وخوفاً من أن يتوهم إلياس أنها غير جادة ، أضافت القول ..

- لعلك تظن انى عابثة ، ولكنى في غاية الجدية .

- هل تعلمين ان ذلك لابد أن يكون في الامسيات او خلال عطلة نهاية الاسبوع فقط .

قال إلياس ذلك مشيرا إلى انه سيواصل العمل بوزارة الدفاع في انتظار القبول بجامعة امريكية .

- اجابته بقولها :

- انا لامانع من ذلك ، فانا اعمل في الامسيات على كل حال .

- ورغم ان عليًا كان منصرفا عنهما في البداية إلا أنه عرف مضمون حديثهما ، فقال :

- لإلياس بعض المشغوليات الجادة هذه الأيام .

ولكن من الناحية الاخرى فقد يكون هذا هو افضل الاوقات اذ قد يروّح عليه المشروع من عناء تلك المشغوليات ذاتها . ولن يكون بالامر السيىء ، أليس كذلك ؟

- لا ابدا ..

فكان رد فضيلة المتشوق هو :

- متى نبدأ اذن ؟

فرد إلياس بلا تردد :
- بأول فرصة ترغبين فيها أنت .
- ماذا عن أول أيام الأسبوع المقبل ..
- هذا يناسبني تماما .

واصل علي وإلياس حديثهما بعد انصراف الأسرة حيث لخص إلياس ماجرى في قرية داك - جور لعلي واتفقا على أن الحد الأدنى من رد الفعل على الهوس الذي يحدث هو أحسن وسائل معالجة الموقف .

وعند وداع علي لإلياس ، عاد حديثهما إلى مشروع فضيلة ، فقال علي :
- إني أعترف بأني مستغرق في المشروع . إن فضيلة فنانة مبدعة وأصيلة ، وهذا المشروع جدير بالاهتمام .

ولم يعرف إلياس إلى أيهما يرمي علي بالإطراء :
- من الذي يهمه أمر هذا النحت ، يا عم علي ؟

سأل إلياس بطريق تستجدي المزيد من الإطراء أكثر مما تقلل من شأنه هو أو من شأن ملكات فضيلة الفنية .
- أرجو أن تعنى به أنت وعلى التحقيق هي معنية به وإذا لم يعن به أي منكما ، فأنا معني به بلا أدنى شك .

أصبح من الواضح لإلياس أن عليًا كان حريصا على استمرار المشروع لكنه لم يعرف السبب وراء ذلك . فقد لفت شيئا ما عن فضيلة نظر إلياس ، ولكن ماذا يكون ياترى ؟ فهي ولاشك امرأة جذابة ، لكنها مسلمة وهو مسيحي . فماذا يمكن أن يكون بينهما أكثر من اهتمامها الفني المهني ووضعه هو وكأنه الابن المتبنى لأسرة عمها ؟

انقضت الجلسة الأولى على أحسن مايكون من وجهة النظر الفنية ، حيث جلس إلياس طوال الجلسة دون أن يفصح عن أي دوافع خفية ، أما فضيلة ، فما كان من الممكن أن تكون أكثر جدية في العمل . وفي الحقيقة ، فقد كانت صامتة بصورة مدهشة خلال عملها ولم تتفوه إلا بعبارات التوجيه من وقت لآخر كقولها : مل رأسك إلى اليمين قليلا ، احن رأسك قليلا ، أبرز ذقنك للضوء الطبيعي .. وما إلى ذلك . انحسر ثوبها عن رأسها عدة مرات ، فكشف عن عنقها الطويل حتى الكتفين ، لكنها أعادته إلى موضعه بصورة عملية ، ولم يفسر أي منهما مظهرها بخلاف أنه مظهر طبيعي .

وبعد اليوم الأول علقت بقولها :
- إنك نموذج ممتاز ، وأعتقد أننا سنعمل معا بصورة جديدة للغاية ، تذكر أن كل الأمر يتم في إطار الأسرة .

وأوحى شيء ما في عبارتها الأخيرة بأنها تلقي بالأفكار في ذهنه لكنه فسر الأمر على أنه لايزيد عن الدعابة العابثة لتجد عنده الضحك المناسب ولا تؤخذ مأخذ الجد .

كانا قد فرغا من خمس جلسات وبدأت ملامح الشكل المنحوت في الظهور عندما حضرت فضيلة إلى الاستديو ذات يوم وعليها آثار الانزعاج . اتخذ إلياس موضعه وجلست فضيلة على مقعدها الطويل وبدأت في العمل بهدوء بدون أن تنطق بكلمة لكنها كانت تنطوي على شعور عدائي لم يفهمه إلياس ، دع عنك القدرة على تفسيره . وقد انزعج هو لمزاجها لدرجة أفقدته القدرة على الاسترخاء وكان حالتها قد انعكست على شكله هو وأثرت على تكوين النحت . قرر إلياس أن يفعل شيئا تجاه البرود في العلاقة

بينهما فقال :
- يافضيلة ، ينبغى أن يكون هناك المزيد مما تسمينه انت بالأمر فى إطار العائلة .
- ماذا تعنى ؟
سألت فضيلة وهى لاتزال باردة وإن ظهر على صوتها بعض الود .
- أعنى اننا منذ البداية فى هذا المشروع ، كان الأمر مهنيا أكثر من اللازم . فنحن لانفعل اى شىء آخر مع بعضنا البعض .
ظهرت على وجهها ابتسامة دافئة ، تعبر عن شخصيتها المنبسطة التى عهدها إلياس وسألت : ماذا تقترح أن نفعل ؟
- لماذا لانذهب إلى السينما ؟
أجاب إلياس وكأنه يقول بأن أى شىء بخلاف العمل فى التمثال يكفى .
- وهل هذا من المناشط العائلية ؟
تساءلت فضيلة وهى تبتسم بصورة مداعبة :
- اذا لم يكن ذلك فهل تفضلين متحف الفن الحديث ..
أجابت فضيلة بجدية اكثر :
- إنك تعلم بأنى لاأمانع . وفى الحقيقة فإنى ارغب فى ذلك كثيرا ، ولكنى خائفة .
- خائفة من ماذا ؟ .
فأجابت وقد عادت إلى حالة التفكر والاكتئاب : أنت تعلم .
علق إلياس بصورة جادة نوعاً ما : أرجو ألا تكونى خائفة منى .
فنظرت إليه وقالت مبتسمة .
- ربما ينبغى لى أن اخاف منك ولكن لست انت بالذى اخشاه .
الح إلياس فى طلب التوضيح فسأل :
- فمم تخافين إذن ..
- لاأعلم اين ابدأ وماذا اقول .
وخوفا من أن يكون قد الح عليها اكثر مما ينبغى ، قرر إلياس اتخاذ مدخل اخر فقال :
- لعل تغييرا فى الجو يساعد فى جلاء الموقف . ماذا عن تناول العشاء فى نادى الضباط ؟
فردت بقولها :
- ربما يعقد ذلك فى الأمر . فأنت تعرف نوع المجتمع الذى نعيش فيه .
ومن ذلك فهم إلياس أن فضيلة كانت تخشى الشائعات أو الفضيحة الاجتماعية ، فمن الواضح أن علاقتهما ليست فى إطار الأسرة . ورغم أنه فى مقام الابن المتبنى لأسرة على فإن الأسرة المباشرة للشيخ محمد والتى تنتمى إليها فضيلة ، هى شىء آخر .
ومن الناحية الأخرى فقد شعر إلياس بحاجة اكبر للحديث الهادىء مع فضيلة . كما قدر أن نادى الضباط هو المكان اللائق للقائهما .. فقال موضحا :
- يعرف أغلب الضباط عن علاقتى بالعميد على ومن المؤكد أن تناولى لطعام العشاء مع ابنة أخى على سيعتبر أمرا عاديا أو على الأقل لائقا .
- أخشى مايمكن لوالدى أن يستخلص من ذهابى معك لو علم عن ذلك.
قالت فضيلة ذلك وهى تنظر بعيداً وكأنها تفكر بصوت مسموع ، ثم استدارت نحو إلياس مرة أخرى وهى تبتسم ابتسامة أخاذة وأضافت :

- ومن الناحية الأخرى ، فما الذى يمنع من ذهابى معك ؟ هيا بنا .

يقع النادى بالقرب من مطار الخرطوم . وهو مبنى ضخم ذو حديقة واسعة ومؤثثة بالمناضد والمقاعد رفيعة الذوق ومحلى بأنوار النيون . وداخل المبنى حجرات ذات أحجام متفاوتة وقد تم تأثيثها بصورة فخمة لمختلف الأغراض ، منها حجرات الجلوس والاجتماعات الرسمية وأخرى لتناول الوجبات .

رأى رئيس الندلاء الشابين وبصورة غريزية اختار أن يأخذهما إلى حجرة صغيرة هادئة شبه منعزلة ، داخل المبنى ، ومع أن ذلك يضمن لهما الخصوصية فإنه يفوت عليهما جمال الخضرة بالخارج . نظرا إلى بعضهما البعض وكأنهما يتشاوران فى صمت ، ثم أشار إلياس بيده موحيا بأنهما يفضلان الجلوس بالخارج ، أجاب النادل بقوله : حسناً .. ثم ساقهما إلى مائدة فى الطرف الجنـوبى من الحـديقة بلا أدنى أثر لامتعاض لرفض عرضه الأول .

كان المساء حلوا وقد جلس الأزواج والجماعات على بعد من بعضهم البعض ، كل يستمتع بلطف الهواء البارد العليل بعيدا عن حرارة المناخ الصحراوى للمدينة . وعلى بعد كانت الطائرات تقلع وتهبط فى المطار حيث تصل أصوات محركاتها إلى آذان الحضور بصورة خافتة .

وعندما جلس إلياس وفضيلة فى ركنهما ، كان من الواضح أنهما أحرص على الحديث منهما على تناول الطعام ، طلبا كوبين من شراب الليمون ثم أمرا بإعداد طعام العشاء لهما وأخذا فى الحديث .

جلس إلياس مائلا إلى الأمام وقد عقد ذراعيه وأراحهما على المائدة وركز نظره على وجه فضيلة وعيناه تشعان بالنشوة أكثر من كلماته التى قال فيها :

- هل يمكن أن تخبرينى الآن بما يشغل بالك ؟

ويبدو أن فضيلة قد أحست بما يوحى به لكنها تظاهرت بعدم المعرفة ، أعاد إلياس طلبه منها فقال :

- هل تمانعين إذا الححت فى طلب الإجابة ؟

فأجابت فضيلة :

- لامانع ولكن ذلك لايهون من أمر الحديث .

تلاعبت بشوكة وسكين الطعام لوهلة ثم واصلت القول :

- ربما يكون من الأفضل أن أقول لك ، لقد تشاجرت مع والدى قبيل حضورى إلى الاستديو فهو يسأل لماذا أقوم بعمل تمثال لك ؟

سكتت فضيلة وكأنها تحاول أن ترى أثر كلماتها على إلياس الذى لم يملك أن يقاوم الإغراء بأن يسأل :

- وماذا قلت أنت ؟

- لقد قلت بالحرف الواحد : ياوالدى أنا فنانة .

كان يمكن لإلياس أن يضحك وقد أراد طرف منه أن يضحك ولكن حسه الغالب أوحى له بأن الضحك لايناسب فى ذلك الموقف . وبدلا من ذلك ظهر جادا وهو غارق فى تأمل عميق .

سألت فضيلة وهى مستغربة نوعا ما لرد فعل إلياس :

ـ ماذا حدث ؟ .. هل أخطأت أنا القول ؟

فقال إلياس مطمئنا :

ـ لا .. أبدا

ـ إذن لماذا يظهر عليك الشعور بالغضب .

ـ ليست عبارة الشعور بالغضب بالوصف الدقيق لما اشعر به .

قال إلياس ذلك دون أن يغير من هيئته أو نبرة صوته .

واصلت فضيلة استقصاءها للأمر بقولها :

ـ على كل حال ماذا حدث ؟

ـ اتصور بأنى قد كنت آمل فيما هو أكثر من الاهتمام الفنى .

كانت فضيلة قد رفعت نظرها تجاه إلياس فخفضت نظرها وظلت صامتة لبرهة من الزمن . فضل إلياس عدم إزعاجها فى صمتها وقدرت هى ذلك منه وبعد أن تفكرت لبعض الوقت رفعت عينيها وصوبت نظرها تجاه إلياس . ألم إلياس بنظرتها بطرف عينه ورد على نظرتها بينما ركزت هى نظرها ثم ابتسمت .

احضر النادل طعامهما واستمر صمتهما اثناء وضع الطعام على المائدة بخلاف عبارات الشكر للنادل من وقت لآخر ..

وعندما أصبحا وحيدين مرة أخرى ، ظهر أنهما اقل حرصا على الطعام وإن ظلا يتلاعبان به ويتناولان لقمة منه بين وقت وآخر .

تذكرت فضيلة أن إلياس كان آخر من تحدث وأنه قد عبر عن بعض خيبة الأمل حول تركيزها على الجانب الفنى فى علاقتهما . رغبت هى فى تصحيح ذلك لكنها فضلت أن تترك الأمر على غموضه الأول . لعل ذلك يكون أبلغ أثرا من الرد المباشر والصريح . وبدلا عن الرد الصحيح قالت :

ـ يمكننى أن أقدر أسباب انزعاج والدى وحال مجتمعنا المسلم على ماهو عليه ، ولكنى امرأة ناضجة بل وصاحبة مهنة محترمة .

استرجع إلياس ما اكتسبه من تنشئته الدينكاوية حول كيفية التدخل الإيجابى فى صراع يكون أحد أطرافه أقرب إليك من الطرف الآخر . فى هذه الأحوال على المرء أن يأخذ جانب الطرف الأبعد عنه ، وبذلك يحمى مصلحة الطرف الأقرب بطريقة أفضل .

ـ اذا كان على المرء كما تقولين أن يحاول تفهم موقف والديك من وجهة نظر المجتمع الذى نعيش فيه فإذن عليك أن تقدرى أن الإسلام يجعل المرأة غير المتزوجة معتمدة على والدها ، كذلك لايجوز لك أن تلومى الشيخ لعدم تفهمه لأمر لايفهمه جيله ولا دينه .

ـ هل أنت فى صفه أم فى صفى أنا ؟

تساءلت فضيلة بصورة مداعبة أبانت لإلياس أن أسلوب الدينكا الذى اتخذه قد أدى مفعوله .

أعاد إليها السؤال بقوله :

ـ هل يمكنك التخمين ؟

وفهمت فضيلة مرمى سؤاله فتساءلت بنفس الطريقة المداعبة :

ـ ماذا تقترح إذن ؟ هل أخضع لإرادة جيله ودينه .

. ابدئى اولا بتفهم موقفه .

قال إلياس ذلك وقد بدا يتحدث بصورة جادة .

. من خلال ذلك الإطار يمكنك التفكير فى حلول تتجنب الصراع وتنمى التفهم المتبادل .

اجابت فضيلة وهى تبدو جادة ومداعبة فى أن معا : إنك تتحدث بكل الحكمة . ولكن هل يمكن أن تخبرنى مايعنى ذلك بصورة محددة ؟

وبذلك حاصرته بسؤال حاسم لايملك هو الإجابة عليه بصورة مرضية .

اجاب إلياس بقوله :

- ارجو الا يعنى ذلك انه ينبغى علينا الامتناع عن مقابلة بعضنا البعض. هل صحيح أن لك اخا .

- نعم .. واسمه بركة وهو اكبر منى سنا . بركة قاضى بالمحاكم الشرعية .

وواصل إلياس تتبع الأمر بسؤاله :

- هل ياترى يتصرف والدك بالتشاور مع اخيك بركة .

قالت فضيلة مطرية على إلياس : إنك عبقرى حقا كيف خمنت ذلك ؟

وقرر إلياس اعادة الفكاهة التى استخدمها عثمان جار النبى خلال رحلة القطار إلى القاشر فاشار بأصبعه إلى راسه وقال : « إن لى كليتين » .

فهمت فضيلة النكتة وارادت أن تصقلها فقالت :

- إنه الذكاء ياغبى ..

وضحكا معاً ولعلهما للمرة الأولى قد شعرا بانهما يقفان على ارض مشتركة .

واصل إلياس الحديث بقوله :

- فى حقيقة الامر أنا لاافترض اى شىء ، ولكننى بكل جدية اتساءل عن موقف بركة وهو من جيل مختلف عن جيل والدكما .

- أصدقك القول بأنى لاأعرف ايضا ، فانا لم أتحدث معه . وكل ما أعرفه هو ما قاله والدى .

تساءل إلياس : وماذا قال ؟ حقاً أود أن أعرف المزيد عما دار بينك وبين والدك .

ظلت فضيلة صامتة ونظرت إلى اسفل تجاه المائدة ثم حولت نظرها تجاه إلياس وابتسمت وهى لاتزال صامتة . وكان من الواضح انها تحاول إخفاء شىء ما ، وربما كان ذلك لحماية مشاعر إلياس او الحيلولة دون نشوء العداء بينه وبين اسرتها .

حثها الياس بقوله :

- أرجوك أن تخبرينى ولا تخافى من إيذاء مشاعرى .

- ومالذى يجعلك تظن بأنى اخاف من إيذاء مشاعرك ؟

فقال إلياس مصرا على معرفة الحقيقة .

- يمكننى أن أخمن لك ولكن أرجوك أن تخبرينى على كل حال .

- ولماذا تريد أن تعرف ؟

قالت فضيلة ذلك فى محاولة لتفادى الامر .

- وعلى كل حال لايهم الامر كثيرا . علاوة على ذلك فإنى واثقة بأن لك أمورا أخرى تعنيك وتشغل بالك .

فقال إلياس فى إلحاح : لقد نجحت فى جعل هذا الأمر هو همى الأول . فى هذه اللحظة أرجوك أن تخبرينى .

ظهر التنازع على فضيلة . فبالطبع يتحتم عليها الآن أن تقول أكثر لإلياس ، لكنها كانت تخشى أن تسبب بذلك المزيد من التعقيد فى الأمور . تنهدت وظلت صامتة لوهلة ثم بدت وكأنها قد قبلت المخاطر الموجودة فى الموقف وقالت « حسنا ، مادمت مصرا على معرفة ماحدث ، فسوف أخبرك بكل الحق ولا شىء غير الحق كما يقولون فى المحاكم . وأنا على وشك مغادرة المنزل فى طريقى الى الاستديو سألتنى أمى عن موعد عودتى فقلت بأنى لا أعرف لأن الامر يتوقف على سير العمل فى التمثال . سمع والدى ماقلت فبدأ فى استجوابى وكأنها المرة الأولى التى يسمع فيها عن المشروع . وعندما سقت له حججى قال والدى : لا يمكن لأحد أن يفهم كيف يقف ضابط شاب كنموذج لنحت تمثال بكل براءة . وعلاوة على ذلك ، فإن هذا الشاب نصرانى (مسيحى) . وأنت تعلمين أن أخاك بركة قاضى شرعى له تطلعات للزعامة فى هذا البلد . كيف يفسر الناس حقيقة أن أخته معجبة بنصرانى ، بل وجنوبى أيضا ، لدرجة أنها تنحت تمثالا له .

وعندما صمتت فضيلة تساءل الياس :

- ثم ماذا بعد ذلك ؟

- قلت له ، يا أبى ، أولا ، دعنى أخبرك بأنى فنانة وأنى اهتم بموضوع عملى وليس بالرجل .

طأطأ إلياس رأسه فى حالة من خيبة الأمل ، لكنه كان يأمل سرا بألا تكون فضيلة قد عنت ما قالت . وبدلا من إحراجها بسؤال محدد عن ذلك ، طلب منها الاستمرار .

وبعد ذلك واصلت الحديث بقولى : « وعلاوة على ذلك ، ماالذى يجعلك تظن أنى أوافقك أنت وبركة فى رؤيتكما السياسية . الا تعلم بأنى كامرأة إنما ينحط مقامى إلى الدرجة الثانية فى الدولة الإسلامية . إنى امرأة محترفة لمهنة محترمة يا أبى وأتطلع لأن أكون مساوية للرجال فى مهنتى . وعلى كل حال ، فأنا ناضجة بالقدر الذى يؤهلنى للتقرير فيما أود أن أفعل بحياتى . لماذا لا تقدر على تفهم هذا ؟

- وماذا قال هو ؟

تساءل إلياس وقد بدأ يستغرق فى الحديث .

- كان رده أن قال « اصمتى يابنت » وقد ظهر لى أنه كاد أن يضربنى ، ثم واصل الحديث : « من الواضح أن هذا الجنوبى قد سمم تفكيرك . لا أريد لك أن تقابليه مرة أخرى ، وهذا قول نهائى » .

ونهضت وقلت وأنا أغادر الغرفة « فى هذه الحالة فإنى ذاهبة وهذا قول نهائى أيضا » . ثم خرجت غاضبة . وهأنتذا تعلم الآن لماذا جئت وأنا متعكرة المزاج .

- وماذا تفعلين الآن ؟ ..

قالت فضيلة :

- من المؤكد بأنى لن أعود إلى المنزل فأنا لى كرامتى أيضا .

ولم يملك إلياس إلا أن يتساءل :

- ولكن أين تعيشين الآن ؟

- هذا ما أعنيه بقولى بأنى ناضجة .. إنى متأكدة أن أبى لايصدق بأن لى بدائل عن منزله ، ولكن لى زميلة وهى صديقة لى واسمها عواطف . إنها تعمل بالتدريس فى المعهد وهى غير متزوجة . لقد تحدثت إليها بعد شجارى مع والدى وعرضت علىّ شقتها .

- عرضت عليك شقتها ؟

وعلق إلياس وهو مندهش بصورة واضحة :

- وهل ستشاركينها العيش فى الشقة ؟ ..

- لا ، فقد سافرت هى لزيارة اقاربها فى بورسودان واعطتنى المفاتيح قائلة أن بوسعى أن استخدم الشقة متى شئت .

- ولكن يا فضيلة هذا يؤكد شكوك والدك !

فقالت موافقة : أنا أعلم ذلك ولكن ينبغى أن يعلم والدى بأنى امرأة ناضجة ولى آرائى الخاصة فى الأشياء . كما أنى ذات مهنة محترمة وقادرة على الاستقلال بأمرى . هل يعتقد هو بأنى أعيش معهم لأنى غير قادرة على تدبير أمرى بنفسى ؟ أريد أن أثبت له بأنى غير محتاجة للمأوى الذى يقدمه لى .

- كانت فضيلة مندفعة فى حالة من الغضب . فتدخل إلياس بقوله :

- يا فضيلة ، هدئى من روعك ، عليك بالصبر مع الشيخ .

اجابت فضيلة بقولها :

- ماذا تعنى بالصبر ..

فقال الياس :

- فى الوقت الحاضر يعنى ذلك عودتك إلى المنزل :

تفكرت فضيلة لوهلة قصيرة . هل من المحتمل أن يكون إلياس قد أساء فهم نواياها ؟ هل يكون قد ظن بأنها توحى إليه بأمر ما ؟ وكلما فكرت فى الأمر زاد شعورها بالإهانة ، وفجأة صمتت عن الحديث .

لاحظ إلياس ذلك فسأل :

- ماذا حدث ؟ هل قلت لك شيئا مسيئا ؟ .

- لا ، ولكن الوقت تأخر وعلى التجهيز للتدريس غدا .

فهم إلياس أن فضيلة قد اساءت فهم مقصده فقال :

- لا تكونى حمقاء يا فضيلة . بالطبع لم أقصد أنا ما أعتقد بأنك تظنين أنى قد قصدت :

صمت الياس لوهلة ثم واصل الحديث .

- دعينى أجيب عن سؤالك عن الصبر بصورة كاملة . الم تسمعى عن القول بأن الوالد هو من الدرجة التالية بعد الله .

وكان إلياس بذلك يكرر قولا كثيرا ما سمعه فى بلاد الدينكا .

- إذن فليتصرف كما ينبغى لله أن يتصرف » .

علقت فضيلة بذلك وهى لا تزال تشعر بالمهانة .

فأجاب إلياس :

- هل تعتقدين بأن الله يتصرف دائما كما ينبغى لله أن يتصرف ؟ الم تشاهدى مايبدو وكأنه عمل عشوائى يكون الله مسئولا عنه ؟ .. ورغم ذلك نبذل غاية جهدنا لنجد المبررات لتصرف الله ، بل ونقول له بأنه دائما على حق . ولماذا نفعل ذلك ؟ جزء من السبب هو خوفنا من أن يفعل ماهو اسوأ من ذلك ، إذا غضب ، والطرف الآخر من السبب هو شعورنا بالامتنان له لخلقنا وحماية حياتنا .

قالت فضيلة :

- إنك تتحدث الآن كواعظ .

فاحتج إلياس بقوله :

- لا أبدا ، فكل هذا بديهي . فإذا أنت أقحمت نفسك في صراع طويل مع والدك فإنك لاتؤذينه بشدة فحسب ، وكذلك تؤذين والدتك ، وإنما تؤذين نفسك أيضا . وسوف يشكو والدك بمرارة وستتهمين أنت بالخيانة ونكران الجميل . وحتى الله سيستمع إلى شكواه . وبمختلف الطرق ، بعضها واضح والآخر خفي ، سوف تشعرين أنت باللوم وتعانين العقاب . وفي نهاية الأمر ، سوف تندمين أنت وتشعرين بالذنب لدرجة أنك ستعاقبين نفسك . ومثل الابن العاق ، فقد تختارين أن تعودي لوالدك وتطلبين الصفح بكل تواضع أو تفضلين مواصلة السير في طريق العناد نحو تحطيم الذات . فلماذا تذهبين في تلك الرحلة الرهيبة ؟ ..

وشعر إلياس وكأنه هو أيضا قد اتخذ طريقا لم يتصوره ، كما أحس بالأثر الذي خلفه على فضيلة .

وقرر أن يثبت مصداقيته فقال :

- لو كنت أنا الشيطان الذي يزعم والدك بأني أضلك عن طريق الله ، فمن وجهة النظر الأنانية الصرفة ، فاني لاأحقق أي مكسب من مصالحتك مع والدك . ولكني أعتقد بأني أخلص لك النصح بلا غرض خفي . أعتقد بأنه عليك العودة والاعتذار لوالدك قبل أن تسوء الأحوال بينكما .

وحل الصمت بينهما وهما يحدقان في المائدة . ثم استدار إلياس نحو فضيلة ورأى الدموع تتكون خلف رموشها . وعندما أدركت أنه ينظر اليها ، أمسكت بطرف ثيابها ومسحت الدموع بسرعة .

قالت فضيلة وهي تجهش بالبكاء : لا أعرف ماذا أقول له .

- فقط عودي وتجاوبي مع الموقف كما يبدو لك . إذا كان نائما ، فهذا حسن ، اذهبي للنوم وسترين مايكون غدا . واذا كان مستيقظا ، فقولي بأنك آسفة للطريقة التي تصرفت بها تجاهه ولاتزيدي على ذلك . وإذا أجابك فأستمعي بانتباه لما يقول وردي عليه حسب قوله ولكن بأدب . تذكري أن المفتاح هو الولاء الأسري .

ومسحت دموعها بالثوب مرة أخرى وقالت :

- أعتقد أنه من الافضل أن تأخذني إلى أهلي الآن اذا سمحت .

استدعى إلياس النادل وطلب فاتورة العشاء ، وبمجرد ان دفع القيمة نهضا وانصرفا .

وعندما جلسا في سيارة إلياس ، قالت فضيلة :

- إن أغراضي في شقة عواطف ولن يستغرق احضاري لها سوى لحظة » .

وجهت فضيلة إلياس نحو شقة عواطف . وعند وصولهما ، خرجت فضيلة من السيارة وسارت المسافة القصيرة إلى المبنى . تذكر إلياس ان عواطف غير موجودة في الشقة وأن الشقة متروكة لتستخدمها فضيلة تلك الليلة . وشعر إلياس بالرغبة بأن يتبع فضيلة إلى داخل الشقة . أليست تلك فرصة ذهبية ليكونا في عزلة تامة ؟ هل كان محقا في إقناع فضيلة بالعودة إلى أهلها تلك الليلة ؟ هل ينبغي عليه ان يتبعها ويقنعها بالعدول عن خطتها ؟ ولكن صوت العقل تغلب عليه وشعر بانه أخلص النصح لفضيلة وأن تردده يعود إلى بواعث الإغراء . وعندما خلص إلى ذلك القرار ، ظل بالسيارة حتى أخذ فضيلة إلى منزل أهلها دون تعقيدات أخرى في الموقف .

وأوقف السيارة على بعد مسافة من المنزل ، وعند هبوطها من السيارة اتفقا على اللقاء في السادسة والنصف من مساء اليوم التالى فى الأستديو . وعندما أصبح إلياس منفردا ، أخذ يعيد على نفسه ماأخبرته به فضيلة . وشعر بكراهية مفاجئة لمحمد وأدرك أن ذلك الشعور كان كامنا فيه منذ لقائه الأول بالرجل . ولاشك أن محمدا كان يكرهه أيضا كما ظهر من ملامح وجهه عند لقائهما . ورغم ذلك ، ظل إلياس مطمئنا إلى أنه أحسن النصح لفضيلة . ولكن زاد من عمق شعوره تجاهها معرفته أنها خاطرت بالانفصال عن والدها من أجل نحت التمثال .

تذكر إلياس أن فضيله لم ترد على تساؤله عندما أمل هو فى أن يكون فى الأمر ماهو أكثر من مجرد الاهتمام الفنى ، وتساءل عما إذا كان حقا أن فى الأمر ماهو أكثر من ذلك . فعلى كل حال ، لم يقولا أى شىء عن العواطف . ولماذا لم ترد فضيلة على تعليقه ذاك ؟ هل كانت ياترى متحرجة فى أن تقول عما هو واضح للعيان أو لعل اهتمامها هو حقا اهتمام فنى ؟ لم يجد إلياس الإجابة على كثير من الأسئلة التى تدور بذهنه . وغلب التعب على الخواطر والشكوك والآمال فراح فى نوم عميق .

وقضى إلياس اليوم التالى وهو يتحرق شوقا للقائهما فى الساعة السادسة والنصف مساء . وعندما حان الموعد ، كان هو بالاستديو قبل عشر دقائق من الموعد ، وهو ينظر إلى ساعته بنفاد صبر . وبدأ يشعر بالقلق عندما انقضت خمس دقائق ، وتحول قلقه الى انزعاج شديد عند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة .

لماذا تأخرت فضيلة وهى عادة حريصة على الحضور فى موعدها ؟ . حاول أن يصرف نفسه عن حالة الانزعاج ، فكما يقولون الغائب حجته معه . وكاد إلياس أن يخـــرج عن طوره عندما حلت الساعة السابعة مساء . لاشك أن لفضيلة سببها فى عدم الحضور ، ولكن ماذا يكون ياترى ؟ هل تشاجرت مع والدها وسببَّ لها الأذى ؟ لعلها تكون بالمستشفى الآن ؟ أم أن أسرتها قد أقنعتها بنسيانه ونسيان التمثال ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم تحضر لتخبره بذلك ؟ أم لعلها تنقل اليه الرسالة من خلال غيابها ؟

وعند الساعة السابعة والربع ، فكر إلياس فى الانصراف ، لكنه ظل يمهل فضيلة لدقائق أخرى كل حين وحتى الساعة الثامنة مساء . ووقتها ذهب منصرفا ثم عاد مرة أخرى ليرى هل حضرت . وكانت الساعة الثامنة والنصف عندما قرر أخيرا أن أمرا خطيرا قد وقع .

وأثناء ماكان إلياس يقود سيارته نحو مكان سكن الضباط ، خطر له أن يتوقف بمنزل العميد على ، لكنه صرف النظر خوفا من أن يعكر ذلك الجو . فمن المؤكد أن عليا سوف يتساءل ويتحرى فى الموقف أكثر مما ينبغى .

ولم يكد إلياس ينام ليلته تلك . فعلاقتهما قد اضطربت بعد أن بدأت فى غاية السلاسة ونجمت عن علاقة عمل مسترخية . هل تراه قد بدأ يسقط صريعا لحب فضيلة ؟ أم لعله غارق فى حبها فعلا ؟

وقضى إلياس يوما قلقا آخر فى انتظار المساء . ومرة أخرى ذهب إلى الاستديو قبل الساعة السادسة والنصف ببعض الوقت ، أملا فى أن يلقى فضيلة ، ولكنها لم تكن هناك . وظل منتظرا وهو قلق . وعندما انقضت نصف ساعة ، حفزه حافز ليذهب إلى التمثال.وكأنه فضيلة نفسها . وهناك رأى مظروفاً موضوعاً بعناية على منضدة تحت التمثال مباشرة ، والتقط إلياس المظروف وكأنه كنز ثمين أو عبوة ناسفة ، وهو يعلم أنه

من فضيلة . وفتحه باستعجال مع الحذر من اتلاف مافيه ، وبدأ الخطاب باللغة العربية المعهودة :

اخى العزيز إلياس ، لابد لى من الاعتذار عن عدم الحضور فى الموعد المحدد بالامس . لقد كان عندنا مجلس عائلى بدأ فى الخامسة مساء واستمر إلى ساعة متأخرة من الليل . لم اقدر على إخطار عائلتى أنك فى انتظارى ، غير انى لم اكذب عليهم . ورأيت ان اغفال ذكر الأمر هو اخف الضررين وانا واثقة بأنك ستتفهم بصورة ما .

كما انى اكتشفت ، بل على الأحرى تذكرت ، أن أسرتى ستقوم بزيارة عمى عبد الرحمن وأسرته بكوستى ، وابنه خليفة وهو طبيب يعمل بمستشفى كوستى . اخبرتهم بأن لى غرضا عاجلا بالمعهد علىّ قضاؤه قبل السفر فوافقوا على المرور بالمعهد لذلك الغرض . وغرضى هو بالطبع أن اترك لك هذه الرسالة فى الأستديو .

اود أن اختتم رسالتى بشكرك على أمسية ممتعة للغاية . لعلها لم تكن مناسبة سعيدة ، لكنها كانت فرصة للنصح الجميل . سأخبرك بالمزيد فيما بعد ، واكتفى الآن بأن اقول أن حكمتك قد نجحت على مايبدو .

سنعود مساء الجمعة وأرجو أن القاك بالاستديو مساء السبت ولكن فى الخامسة والنصف ، أى قبل موعدنا المعهود .

وكان التوقيع هو « أختك فضيلة » .

اراح الخطاب إلياس بصورة فورية ، لكنه أثار المزيد من التساؤلات . ماذا كان موضوع الاجتماع العائلى ؟ هل كان الأمر يتعلق بخلاف فضيلة مع والدها ؟ وكيف نجح نصحه هو ؟ يبدو واضحا من سفر الاسرة معا لزيارة الأخ محمد أن المصالحة قد تمت ، ولكن على أى أسس ؟ هل ستواصل فضيلة العمل فى مشروع التمثال أم تم إقناعها بالانصراف عنه ؟ وماذا عن مستقبلهما معا ؟

أعاد إلياس الاطلاع على الخطاب ، وفجأة برز له اسم خليفة بصورة واضحة . لماذا ذكرت فضيلة اسمه بهذه الطريقة المحددة ؟ من هو وماعلاقته بفضيلة ؟ وفكر إلياس فى أنهما ابناء عمومة لكنه تذكر أنه ، بخلاف الأمر عند الدينكا حيث يمتنع الزواج بين الاقارب لدرجة بعيدة ، فإن العرب يفضلون زواج الاقارب بل ويعتبرونه من الالتزامات العائلية . كبح إلياس لجام خياله الجامح وأكد لنفسه ضرورة الصبر . ستوضح فضيلة الأمر وتزيل كل شك عند عودتها .

بما أن الأسرة قد غادرت يوم الخميس وستقضى يوم الجمعة فى كوستى لتعود فى المساء ، فقد قدر إلياس أن فترة الانتظار لن تطول رغم انها ستبدو وكأنها مفرطة فى الطول . وهو على كل حال سيلهى نفسه عن الأمر بزيارة بعض الأصدقاء . أم لعله يزور العم على ؟ لا ، ولنفس الأسباب التى صرفته عن ذلك فى مساء اليوم السابق .

وعندما حضر إلياس إلى الاستديو فى الخامسة من مساء السبت وجد أن فضيلة قد حضرت مبكرة اكثر منه هو وظلت فى الانتظار وقال محييا وقد شعر كأن سحابة كثيفة قد انقشعت .

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ردت فضيلة بحيويتها ومرحها المعهودين .

ورغم ان الانطباع الاول قد اتى ببعض الراحة ، إلا ان إلياس ظل قلقا ومتوترا ، فأعلن فى شىء من الدعابة:

ـ لقد قررت الا اقف نموذجا للنحت هذا المساء . أقترح ان نذهب فى نزهة على ضفاف النيل ثم نتناول الشاى فى نادى الضباط ـ ثم نذهب للسينما ـ لا ، ليس السينما وإنما لمكان نستطيع ان نتحدث فيه .

كانت فضيله مسترخية وفى روح عالية ، لدرجة قريبة من الحالة التى كانت عليها عند لقائهما الأول . وقالت وفى عينيها نظرة رومانسية :

ـ فى الحقيقة .. أعتقد أن النزهة على ضفاف النيل فكرة رائعة ، ويمكننا أن نجلس فى مكان ما لتناول الشاى .

ـ حسنا ، لنذهب قبل غروب الشمس .

وفعلا كان الغروب فى غاية الروعة والرومانسية عندما كانا يتمشيان على شارع النيل الوارف الظلال . كانت الشمس تنشر اشعتها الذهبية على مياه النيل وهى ترتجف فى الهواء البارد لذلك الموسم من العام . كان الهواء الناعم يداعب أوراق الاشجار وينغم صوتها مع صوت الامواج على ضفاف النهر . سارا نحو ملتقى النيلين الابيض والازرق وقد استحوذ القرص القرمزى للشمس الغاربة على انظارهما ، وعلق الياس بقوله :

ـ الا يقصى هذا المنظر الخلاب كل هم .

فهمت فضيله أن هناك غرضا ما وراء تساؤله وأدركت ايضا ان عليها الرد فقالت :

ـ وهل لديك من الهموم ما يقصيه هذا المنظر ؟

ـ أوليس لك أنت هموم .

احتجت فضيلة بقولها : أنا أسألك أولا .

فقال إلياس موضحاً : عندما تحدثنا آخر مرة ، كنت أنت الموضوع الأساسى للحديث . ألا أستحق تقديراً منك عما حدث ؟

حاولت الاجابة بقولها :

ـ لقد بلغتك خلاصة الامر فى خطابى . ويبدو أن نصيحتك قد نجحت بصورة كاملة .

واصل الياس الاصرار للحصول على المزيد من المعلومات فقال :

ـ وماذا يعنى هذا ؟

ـ حسنا ، بعد أن تركتك ، دخلت الى المنزل فوجدت أمى مستيقظة ويبدو انها كانت فى انتظارى . وأخبرتنى فورا بأن والدى كان فى غاية الانزعاج . كان أخى بركة قد زارهم ووجد والدى فى غاية الغضب والهياج . وحسب رواية والدتى ، فقد كان بركة مدهشا فى تهدئة والدى وتقديم الامر من وجهة نظرى انا بأن يسمح لى بقدر من الاستقلال وحرية التصرف المهنى . ولكن على ما يبدو ، ورغم حجة بركة القوية نيابة عنى ، فقد ظل والدى غاضبا مما اعتبره سوء أدب منى أن أرد عليه بتلك الطريقة . واثناء رواية أمى لما حدث ، أخذت تبكى ثم اجهشت بالبكاء . وقد تأثرت كثيرا لتعاطفها مع ابى ومعى ايضا .

ثم قالت شيئا جعلها تبدو وكان المتحدث هو انت ، حيث قالت يا بنتى ، ان الاب مثل الرب . لا ينبغى أن تؤذى والدك ، بل يجب أن تكونى شاكرة له . وبكيت انا لبكاء أمى ولانى سمعتها ترتد كلماتك . وبعد أن هدات ، كان دورى لاهدئها هى .

ثم سألت : هل ابى مستيقظ ؟ وعندما علمت بأنه لايزال مستيقظا نهضت وذهبت الى

غرفتهما وقرعت الباب فأجاب ابى . وبمجرد دخولى ، ذهبت اليه مباشرة واحتضنته وانا ابكى معتذرة عن الطريقة التى خاطبته بها من قبل وكان ذلك كافيا . قال لى معليش (لا ضير) واخذ يهدىء من روعى .

وفى ختام روايتها المثيرة لما حدث بينها وبين أسرتها قالت فضيله :

ـ وهكذا ترى كيف كانت نصيحتك الحكيمة مفيدة للغاية .

وسعد الياس لجدوى نصيحته لفضيلة ، وكذلك سعد لدور بركة وللطريقة الودية التى انتهى بها الخلاف فى العائلة .. ثم تساءل :

ـ هل ستواصلين العمل فى المشروع ؟

ـ يبدو أن والدى قد اقتنع بأنه ليس فى العمل الفنى اى شىء غير لائق.

ـ انى افهم ذلك .

علق الياس وهو غير متأكد كيف يفهم التفسير الذى قدمته فضيله . كانت الشمس قد غربت وأخذ الظلام يشتد بسرعة ، وحان وقت الذهاب لتناول الشاى فى مكان ما ، ولكن اين يكون ذلك ؟ سيكون رائعا لو أمكن الجلوس فى شرفة الفندق الكبير على ضفاف النيل الأزرق ، ولكن ذلك قد يثير الاقاويل ويخلق مشاكل جديدة . وقد قدرا الآن أن مجرد السير على ضفاف النيل قد يثير الاقاويل . قالت فضيلة :

ـ لا تقلق ، فقد تصالحت لتوى مع والدى وسيبقى ذلك الصلح لفترة من الزمن على الاقل . وعلى كل حال ، فان الحقيقة هى التى تهم . دعنا نذهب الى الفندق الكبير .

ذهبا وجلسا على مائدة فى موقع استراتيجي فى أحد الاركان وبمجرد جلوسهما علق الياس بقوله :

ـ لقد طرأ لى الآن بأنك لم تحدثينى حقا عن أسرتك . أى نوع من الرجال هو والدك ؟

واعترضت فضيله بقولها :

ـ لا ينبغى سؤال ابنة هذا السؤال عن والدها الذى تصالحت معه لتوها . انه مثل سؤال الزوجين اللذين افترقا ثم اجتمعا عن رأيهما فى بعضهما البعض .

وأجاب الياس :

ـ ربما يقدران على اجابة السؤال .

ـ وكذلك أستطيع أنا أن أجيب على السؤال .. فى الحقيقة يقول لى الجميع أن والدى يحبنى غاية الحب ، ولعله حقا يفعل ذلك . ولكن يصعب عليه إظهار دلائل الحب ، ليس لى فحسب وانما لأى شخص آخر ، بما فى ذلك والدتى المسكينة . أذكر بعض الاوقات عندما كنت لا أزال صغيرة السن عندما كان والدى يضرب والدتى حتى تهرب من المنزل بحثا عن الحماية عند الجيران . لكنه لا يعاملها دائما بقسوة . بل على العكس من ذلك ، فانى أعتقد بأنه يحبها حقا . ولكن يبدو أنه غير قادر على إظهار العطف والحنان .

ـ هل يكره الجنوبيين حقا ؟

ظلت فضيلة جالسة فى صمت وتفكر ، وقد استغلت حضور النادل كعذر لعدم الرد الفورى . طلبا كوبين من شراب الليمون والشاى . وعندما انفردا مرة أخرى واصلت فضيلة الحديث :

ـ لعل كلمة « كراهية » اقوى من اللازم . ولعلها نفس المشكلة السابقة ، أى عجزه عن اظهار العطف والحنان . ولكنها تتعقد اكثر بالنسبة للجنوبيين بسبب التحيز . لا اعتقد

انه يكره الجنوبيين ، ولكن وبأمانة فإنى أعتقد أنه يرى أن كل من هو غير مسلم وعربى انما هو ادنى درجة . والعروبة فى تقديره تتعلق بأن يكون الشخص من اللون المناسب . فإذا كنت فاتح اللون اكثر من اللازم فانت «حلبى» أو ربما « خواجة » اى من الاوربيين وذلك يعنى كونك مسيحيا من الناحية الدينية وعرقيا على طرف النقيض الآخر فى المجال الانسانى . واذا كنت داكنا أكثر من اللازم ، فذلك يعنى انك زنجى أو عبد . وهو وضع لا يزيد كثيرا عن كونك قردا . والجنوبيون من هذا الصنف فى تقدير والدى . ولكن والدى لا يتوقف حتى ليفكر فى هذه الأمور . فبمجرد أن يرى الشخص ، فانه يصنفه فى احدى هذه المجموعات ويحددْ ذلك رأيه فى الشخص .

- انى أعلم ما تقصدين .

علق الياس وهو يتذكر لقاءه الأول مع الشيخ محمد .

- دعنى أعطيك نموذجا لما اقول .

قالت فضيلة وهى تكاد تقاطع قول الياس ولكن فى تلك اللحظة احضر النادل ما كانا قد طلباه ، وقررت فضيلة انتظار انصرافه . وعندما آلى عليها الياس أن تواصل الحديث ، ترددت وكأنها قد أعادت النظر فى حكمة أن تقول كل ذلك القدر عن اسرتها ، فعلقت بقولها :

- من غير المناسب أن يتحدث الشخص بهذه الطريقة عن والده .

فأجاب إلياس بقوله :

- هيا يافضيلة ، فأنا لم أعد غريبا عنك رغم تقديرى بأنى لست من أفراد عائلتك .

وواصلت فضيلة الحديث بعزم متجدد فى أن تصارح الياس القول :

- خذ مثلا اخى بركه ، فدون تحيز له اقول بانه حقا شخص رائع وعطوف ومهذب لاقصى درجة . وهو أدكن لونا منى انا . وقد سمعت والدى ينعته بأقبح الصفات بسبب لونه ، ولكنه رغم ذلك فهو شديد الفخر والحب لبركة . من وجهة نظر والدى يجب أن يكون الشخص من اللون المطلوب والدين المطلوب واللغة المطلوبة وتكون له الصلات الأسرية المناسبة لكى يصبح من أولاد البلد وتنطبق هذه المواصفات بصرامة أكبر على النساء .

فقال الياس : ورغم ذلك فقد علمكما ، انت وبركه ، احسن التعليم .. قد يظن المرء انه لا يهتم بالتعليم بهذا القدر ، وخاصة للنساء ، سوى الاشخاص المستنيرين .

وأيدت فضيلة الحديث بقولها :

- ولكن فى هذا المجال ينبغى أن يحفظ الفضل لأهله .

- ماذا تقصدين . هل يعود الفضل فى تعليمك لشخص آخر غير والدك .

- لقد زار عمى على والدى ونحن لانزال أطفالا صغارا ، وكان والدى وقتها فى جنوب دارفور حيث يتاجر فى الماشية فى بلدة صغيرة لا أذكر اسمها الآن . عندما حضر عمى على ، أولم والدى وليمة كبيرة دعا لها عددا من موظفى الحكومة . اذكر أن بعض الزوار قد علقوا بانه من المحزن أن تفوت فرصة التعليم على أطفال نجباء مثلنا . وافق عمى على على ذلك القول ، وفيما بعد أصر على أخذنا معه الى الشمال حيث ذهبنا الى المدرسة .

احضرونا فى بداية الأمر إلى مدينة كوستى حيث اقمنا مع عمى عبد الرحمن وذهبنا أولا « الخلوة » لتعليم القرآن حيث برز بركة بروزا كبيرا ، بل إن اهتمامه بالدراسات الدينية لم يتزعزع أبدا . وقد احسنت انا ايضا فى تلك المرحلة . وبعد ذلك ذهبنا إلى المدرسة

الابتدائية ، وانت تعلم ما حدث بعد ذلك ، وقد ترقينا من مرحلة الى اخرى لاننا كنا تلاميذ نجباء . كان والدى بالطبع هو الذى يدفع مصروفاتنا المدرسية ويقدم لنا الكساء والمصروفات النثرية ، كما كان يقوم بزيارتنا من وقت لآخر ، وكنا نحن نذهب لزيارة اسرتنا فى العطلات المدرسية . الا أن عمى عبدالرحمن هو الذى رعانا أغلب الوقت ، كما احسن الينا عم على كثيرا .

وهكذا ، بينما دعم والدى تعليمنا من الناحية المادية ، فقد كان ذلك بسبب إلحاح عمينا الشديد ، وبخاصة عم على ، مع الدعم العائلى من عم عبدالرحمن .

وعلى التحقيق ، لولا عم على ، لما تمكنا من تحقيق التعليم العالى .

واصلت فضيلة الحديث وكأنها مدفوعة لتحكى كل شىء .

– أراد والدى أن يعاونه بركة فى تجارة الماشية ، لكن بركة كان مفرط الذكاء لدرجة أن الشيخ المحلى ، بمعاونة عم على ، قد نجح فى الضغط على والدى ليواصل دراسته فى القسم الشرعى من كلية القانون بجامعة الخرطوم . احتج والدى فى بداية الامر بضرورة تركى المدرسة إذ لا تجد الفتاة ذات التعليم الجامعى فرصا للزواج . ولكن عم على أصر على مواصلتى للتعليم ومكننى من الالتحاق بمعهد الفنون الجميلة .

وكأنها شعرت بأنها كانت شديدة على والدها اكثر من اللازم ، اختتمت فضيلة حديثها بقولها :

– انى اقول لك كل هذا لاشرح لك الصعاب التى تحتم علينا التغلب عليها ، ولكن رغم تردد والدى فى البداية ، واستمراره فى اظهار التحفظات ، فهو على التحقيق لم يصر على إيقاف تعليمنا . وقد كان فى مقدوره أن يفعل ذلك لو اراد حقا ايقاف تعليمنا ، رغم انه كان سيجد معارضة من عمينا .

غير إلياس محور التركيز بسؤاله :

– اخبرينى عن أمك .

اجابت فضيلة بحماس واضح :

– إنها حقاً امرأة رائعة وهذا القول بلا تحيز على الإطلاق. لابد أن يكون الشخص متميزاً بدرجة كبيرة ليقدر على التعامل مع والدى لكل هذه الفترة الطويلة . إنها صبورة للغاية ومحبة ومعطاءة. إن بركة ليس أخى حقاً، بل هو أخى غير الشقيق وقد اختفت والدته، الزوجة الأولى لوالدى، اختفت بعد ميلاده بفترة وجيزة، والرواية التى تحكيها الأسرة أن الدينكا قد اختطفوها فى إحدى غاراتهم. ورغم ذلك، لم ألاحظ أبداً أى اختلاف فى معاملة والدتى لبركة عن معاملتها لى ولإخوتى الأصغر. لقد أنشأته كما تنشىء ابنها حقاً. وفى الحقيقة، رغم أن بركة من صلب والدى وليس من أحشـاء والدتى ، فيمكنك القول أنه أقرب بكثير إلى أمى منه إلى والدى . إلا أن بركة ووالدى قد نجحا فى احتواء التوتر بينهما ، فكما قلت من قبل ، فإن والدى شديد الفخر والاعتزاز ببركة . وأعتقد أيضاً أن بركة قد كان ابناً شديد الولاء ، وبخاصة بعد نجاحه المذهل .

نظرت فضيلة الى ساعتها وقفزت بصورة شبه لاشعورية :

– يا إلهى .. إنها الساعة التاسعة وقد اخبرت والدتى بأنى سأحضر الى المنزل مبكرة . يجب على الانصراف .

- بدون تناول العشاء ؟

تساءل إلياس وهو يعرف الإجابة مسبقاً : بدون تناول العشاء ؟

أصرت فضيلة وهى تنهض واقفة فقالت : لا مع الشكر ، لابد لى من الإسراع . لا يجوز أن أختلق مشاجرة جديدة مع الأسرة بهذه السرعة الكبيرة .

نهض إلياس واستدعى النادل ، ثم دفعا ثمن المشروبات وانصرفا .

تفكر إلياس فى حديثهما بمزيج من المشاعر ، فقد كان حديثا منبسطا وممتعا ، حيث كانت فضيلة فى غاية الصراحة معه . لكنها كانت أمسية غريبة أيضاً . كما أنه لم يكن يعلم حقيقة مشاعر فضيلة تجاهه . وماذا عن مشاعره هو نحوها . فقد كان متنازعاً حتى فى ذلك . فسوى اللمحات الرومانسية القصيرة الأمد ، فقد انصرف أغلب المساء فى النقاش العقلانى حول أسرة فضيلة . وهنا تذكر إلياس أنه لم يسألها عن ابن عمها خليفة . فمن روايتها ، لابد أن تكون قد نشأت مع خليفة ويفترض أنها تعرفه جيداً . وتنهد إلياس وهو يفكر لنفسه :

- حسنا ، اظن ان ذلك سيكون موضوع الحديث فى المرة القادمة .

عند لقائهما التالى ، قررا تناول عشاء مبكر فى حديقة فندق قصر الصداقة على ضفاف النيل الازرق من ناحية الخرطوم بحرى . وكلانا قد جلسا لتوهما عندما علق إلياس .

- هناك اسئلة فى غاية الأهمية فات على أن اسألها فى المرة السابقة .

أجابت فضيلة بسرعة . انتظر لحظة .. لقد كان الأمر انسيابا للمعلومات الشخصية من جانب واحد ، لقد أخبرتك بكل شىء عن نفسى وعن أسرتى ولم أسمع شيئاً عنك أنت .

- حسنا ..

قالها الياس وهو يتنهد ثم صمت لوهلة وواصل الحديث قائلا :

- أولا ، إنك تبالغين حين تقولين بأنك قد اخبرتنى بكل شىء عن نفسك وعن أسرتك ولم تسمعى شيئا عنى . لقد قلت لك الآن بأنى قد نسيت أن اسألك بعض الأسئلة فى المرة الفائتة وهذا يعنى انك لم تخبرينى بكل شىء . كما أعلم بأن عم على قد أخبرك ببعض الأشياء عنى . وعلى كل حال ، لنترك هذا جانبا ، ما الذى تودين معرفته ؟

- حسنا ، أريد أن أعرف عن أسرتك وعن شخصك وعن مهنتك وطموحاتك ، وكل شىء .

قالت فضيلة ذلك وهى ترمقه بطريقة اخاذة . أجاب مداعبا :

- ان المفيد فى السؤال المستحيل هو انك تستطيع الاجابة عليه بأى طريقة تشاء . دعينى اخترق كل اسئلتك واخبرك بشىء اعتقد انه يتعلق بحديثنا السابق عن أسرتك . إنى من أسرة تجمع بين التضحية بالذات فى خدمة المصلحة العامة وشعور بالفخر والعزة الذاتية والجماعية فى ذاتيتها العرقية والثقافية بالاضافة للعزة والفخر فى كونها زعيمة لقومها . عندما كنت تتحدثين عن تحيز والدك العرقى أردت أن أقول بأنه غير شاذ فى ذلك .

تساءلت فضيلة :

- ماذا تعنى ؟

- يبدو لى أن الحس العرقى والعزة والفخر مضمنة بصورة اصولية فى اعماق وجداننا كبشر . لقد ولدت وترعرعت فى قوم يعتبرون أن جنسهم وثقافتهم هى النموذج الإلهى لبنى

الانسان وكذلك ينبغى أن تكون تقاليدهم الاخلاقية . إلا ان الفرق الوحيد هو انهم لم يملوا ذلك الراى فى أنفسهم وعن العالم على الآخرين . هم فقط يعتبرون انفسهم خواص ومتفوقين ، ولا يريدون أن يغيروا الآخرين ليكونوا مثلهم . إن الآخرين ليسوا بدينكا ولا يمكنهم أن يصيروا من الدينكا .

علقت فضيلة وهى لاتصدق ماتسمع :-

- بالله العظيم !

- غير أن الدينكا يدركون أن هناك أشياء معينة لدى الاوربيين ولدى العرب لو تعلمها الدينكا لحسنت من أحوالهم ، فمن الناحية المادية الحديثة ، مثلا ، يرى الدينكا أن العرب أحسن حالا من حيث الملبس والجياد والثروة المادية فى السوق . إلا أن للدينكا الثروة النموذجية وهى قطعان ماشيتهم . وما هو أهم أن العرب هم عرب وذلك يجعلهم دون الدينكا من حيث القدر . وأسوأ من ذلك ، فقد ظهر أن العرب منحطون أخلاقيا لتجارتهم فى الرقيق وصيد البشر كما تصطاد الحيوانات وإخضاعهم لمهانة الرق . وعندما تسأل الدينكا عما إذا كانوا قد اسروا العرب فى الحرب ، فانهم يقرون بذلك ولكن فقط بسبيل من الرد على العدوان . كما انهم يحتجون بقولهم بأن جميع من أسروهم قد تم تبنيهم وادخالهم فى أسرهم كأقارب لهم . فبالنسبة للدينكا مفهوم الرق نفسه مفهوم غريب وعربى محض . تلك هى الطريقة التى خلق بها الله العرب فى تقدير الدينكا ، وقد خلق الله الدينكا بطريقة مختلفة .

تدخلت فضيلة بالقول :

- يالها من ادانة دامغة ! ولكن إذا اعتبرنا الطريقة التى عامل بها العرب غير العرب فى هذا البلد ، فإن الدينكا على حق .

وواصل إلياس الشرح بقوله :

- أما الأوربيون ، فقد كانت لهم فضيلة إنهم بعيدون كل البعد وغير معروفين للدينكا . فالرجل الاوربى يعتبر كمخلوق غريب لا يكاد يكون مؤهلا للاعتبار كمخلوق ادمى ولا يقاس بالمقاييس العادية .

قالت فضيلة مقاطعة :

- يبدو هذا وكأنه رأى والدى .

واستطرد إلياس فى الحديث فقال :

- إلا أن الأوربى كان يتمتع بميزة واحدة وهى انه منع العرب من استرقاق الدينكا وباقى أهالى الجنوب . وهو قد ترك مختلف الناس ذوى الثقافات المتباينة ليحيوا حياتهم مع ضمان السلام والامن لهم جميعا . كما انه جاء بالتعليم والطب الحديث للناس ولحيواناتهم ، وجاء بالنظام الاقتصادى الحديث الذى لم يكن هناك من قبل . تلك هى بعض المميزات التى شعر الدينكا بأنه يمكن تحقيقها عن طريق التعليم ، ولذلك السبب أرسلوا أطفالهم الى المدارس .

سألت فضيلة :

- اين تعلمت انت كل هذا ؟

قال إلياس مداعبا :

- فى مدرسة الحياة ، الا تعلمين بوجود هذه المدرسة ؟

على كل حال ، عندما ذهبنا نحن معشر الدينكا الى المدرسة العادية واحتككنا بالعالم العريض ، فسرعان ما ادركنا أن العزة والتحيز اللذين يشعر بهما أهلنا ضد العرب وضد الاوربيين قد قاما لحد كبير على الجهل .

فبطبيعة الحال ، ليس العرب والأوربيون بأقل قدرا من الدينكا ، وما هو أهم من ذلك هو ادراك المرء بأن هناك أفرادا لا يوافقون على الإطلاق التصور الشائع لجماعاتهم . أعنى ، مثلا ، عمك على . قبل أن القاه ، كنت أكره كل العرب . ولكن عبر السنين ، نجح عم على فى تحويل رأيى تماما . والفريق خالد عبد المجيد نموذج آخر مما اقول . وعندما يفكر المرء فى الموضوع ، هناك العديد من الحالات الفردية التى لا توافق التصور الشائع لقومهم ففى بلد كالسودان ، حيث مختلف القبائل أو الجماعات ، وكل يعتبر نفسه متفوقاً على الآخرين ، يكون الأمل الوحيد للتطور كامة هو التعليم ليتحرر أكبر قدر ممكن من الناس من التحيز الذى خلقته فيهم تنشئتهم منذ الطفولة الباكرة .

واصل إلياس الحديث بصورة جادة :

– ولكن لا يقدر كل المتعلمين على تجاوز تحيزاتهم .

وهنا تذكر الياس تجاربه فى دارفور وفى قريته داك ـ جور حيث كان التحيز هو القاعدة الغالبة . إلا ان الحالات الاستثنائية هى الابلغ فى صياغة المستقبل . واستطرد قائلاً :

– وفى الحقيقة ، فان التحيزات عميقة الجذور الى درجة أن الغالبية العظمى من الناس لا تنجح فى التغلب عليها . وإذا قدروا على التغيير على الاطلاق ، فانما يفعلون ذلك بطريقة بطيئة لاتترك أى أثر إيجابى على المجتمع بصورة عامة . ولا تقدر على التغيير بصورة تدخل التغيير المؤثر على المجتمع إلا فئة قليلة من الناس . ما أخبرتنى به عنك وعن والدك يدل على أنك واحدة من أولئك النفر القليل وأنك قادرة على تجاوز التحيزات الاجتماعية القائمة فى خلفيتك .

تدخلت فضيلة بالقول المداعب :

– إن الإطراء على لن يفيد بشىء . فأنا نكرة ، وعليك التركيز على كبار القوم القادرين على تحويل البلاد فى الاتجاه الذى تريده انت .

وضحكا معا .

– إننى جاد فيما أقول . وبكل التواضع ، فأنا أعتبر نفسى أحد أولئك النفر القليل . وإلا . فكيف يفسر المرء وجودنا انا وانت هنا ونحن نتحدث بهذه الطريقة ؟

كانا مستغرقين فى الحديث لدرجة انهما لم يلتفتا لفترة من الزمن للنادل الذى حضر لأخذ طلبهما .

وفى نهاية الامر ، التفتا اليه واخبراه بما يريدان ثم واصلا الحديث .

وكانما اكتشفت فضيلة لتوها جانبا من إلياس لم تكن تعرفه من قبل ، وبصورة ما كان ذلك هو حقيقة الامر إذ رغم وجودهما معا فى العديد من المناسبات فلم يسبق أن استكشفا المسائل بهذا العمق . ومن ذلك الاكتشاف لجانب من شخصية إلياس سريعا ما تصاعد بينهما الشعور المتبادل بالفهم والاحترام لبعضهما البعض وعلقت فضيلة بقولها :

– كل ما تقول مقنع لى تماما ما عدا شىء واحد .

– وما هو ؟

- هو انى لا افكر فيك مطلقاً كجنوبى. لقد سمعت من عمى على انك من الدينكا ولكنى لم ارك كجنوبى .
- ففى لحظة فانت تظهرين بمنتهى التناقض .
وافقت فضيله بقولها .
- انى اقدر بان ما اقول ليس من المنطق فى شىء .
فمنطقيا انت من الدينكا والدينكا جنوبيون فاذن لابد ان تكون انت جنوبيا كذلك وهذا واضح ورغم ذلك فانى اقول لك بانه رغم علمى بانك من الدينكا وان الدينكا جنوبيون لم افكر فيك كجنوبى .

احضر النادل طلباتهما باسرع مما توقعا ولكن كالعادة كانا مستغرقين فى الحديث لدرجة أن الطعام والشراب ظهر وكانه مجرد العذر لوجودهما معا وليس السبب لذلك وهكذا اخذا يتلاعبان بطعامهما وهما يواصلان الحديث . تذكر إلياس ان فضيله كانت اخر من يتحدث عن عدم تفكيرها فيه كجنوبى فسأل :
- كيف تفسرين ذلك ؟
فاجابت فضيله :.
- لقد اعترفت لتوى بأن ذلك غير منطقى وتطلب منى أن أفسره لك؟ حسناً دعنى أحاول : لقد سمعت عم على وحتى والدى يطرون على الدينكا بأنهم قوم ذوو عزة وكرامة وشجاعة ونبل . كما سمعت أيضا عن وجود دماء الدينكا فى عروق أسلافى . غير انى سمعت الكثير من الامتعاض والادانة للجنوبيين بصورة عامة بانهم قوم كسالى متخلفون متوحشون متعطشون للدماء . وبكل صراحة يشبهون الحيوانات والآن هل ترى لماذا أفكر فيك كدينكاوى ولكن ليس كجنوبى ؟
وافق إلياس .
- نعم أرى ذلك ولكنه لا يقلل من تحيزك ضدى كجنوبى .
ردت فضيلة فى دهشة :
- توقف لحظة ، كيف أصبحت فجأة متحيزة ضدك ؟
- لأنى جنوبى .
- ولكن لم أفكر فيك كجنوبى فكيف أكون متحيزة ضدك ؟
- هل أنت متحيزة ضد الجنوبيين ؟
- إذا جعلتنى اقسم على القرآن الكريم فانى اعترف بانى متحيزة لدرجة ما .
- وهل تعلمين بانى جنوبى ؟
- نعم غير أنى قد كررت القول بانى لا أفكر فيك كجنوبى ؟
- انى أقول بانه عندما لا يكون التحيز امرا متعلقا بالوعى الذاتى الشخصى او الجماعى وانما يكون مفروضا من احدى الجماعات لتفوقها على الآخرين فانه يصبح تحيزا عنصريا لاترضاه الناس التى يفرض عليها . يمكن ان ينعكس ذلك التميز فى صورة التميز العنصرى بل وحتى فى صورة الاستيعاب. إن رفضك الاعتراف بهويتى الجنوبية انما هى محاولة لانكار تلك الهوية ولاستيعابى فى هويتك الشمالية وتصورك للجنوب ، ولا تشعرين بأى تهديد من كونى من الدينكا لانك قد نشأت على الاعتقاد بان الشخص قد يكون شمالى الهوية ومن اصل دينكاوى فى آن معا . ان نوع التحيز العنصرى الذى تعانى منه بلادنا ليس هو النوع الذى يميز عنصريا بقدر ما هو النوع الذى يستوعب. ان الدينكا يميزون

بعدم مطالبتهم للآخرين بأن يكونوا دينكا بينما تحاولون أنتم ياعرب الشمال ان تستوعبوا الآخرين بان تطالبوهم بأن يكونوا مثلكم .

ـ ان هذا فظيع .

علقت فضيلة وكأنها تقول ذلك رغم إرادتها :

ـ إن هذا فظيع . لمذا ياترى نفعل ذلك ؟

أجاب إلياس :

ـ عليك أن تخبريني بالاجابة بدلاً من أن أخبرك أنا بها ، بل وأسوأ من ذلك أنكم تفعلون الشيئين معاً .

قال إلياس ذلك وقد قرر مواصلة الهجوم .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ ذلك لانكم بينما تستوعبون الاخرين فانكم تواصلون التميز ضد من يرفض الاستيعاب . وبعبارة أخرى فانكم تحتفظون بالفطيرة وتاكلونها فى آن معا بينما تحرمون الاخرين من الاحتفاظ بفطيرتهم ومن أكلها أيضاً . وهل تعلمين ما يفعل رجالكم لضمان هذا الاستيعاب من جانب واحد ؟

وتساءلت فضيلة :

ـ وما هو ذلك ؟

فقال إلياس موضحا :

ـ انهم يتزوجون بفتيات الغير بينما يمنعون فتياتهم من الزواج بالغرباء ، بالطبع لدى الدينكا نفس الموقف ولكن فى حالتهم يقوم الامر على التحيز الاجتماعى بينما يجد موقفكم انتم حصانة الاسلام وهو دين قاهر وعالمى . وعند الدينكا يمنع الزواج من خارج الجماعة على الرجال والنساء معا وإن كان المنع اقوى ضد النساء فقط .

قالت فضيلة :

ـ ولكن هناك شىء لا افهمه .

ـ وما هو ؟

ـ انى افهم ما تقول عن رغبة العرب فى الاحتفاظ بنسائهم ، ولكنى لاافهم ماتقول عن رغبتهم بالزواج من خارج مجتمعهم . كيف تفسر الاتجاه فى الشمال نحو تفضيل ابناء العمومة ؟

ـ أليس ذلك نموذجا كاملا لما قلت عن احتفاظك بالفطيرة وأكلها فى نفس الوقت . بتشجيع الرجال على الزواج من بنات أعمامهم تضمنون الإيفاء باحتياجات النساء وبذلك تضمنون سلامة الجبهة الداخلية ويتدعم موقف الجماعة . وفى نفس الوقت توسعون الدائرة بادخال نساء من الخارج ليحضرن ويلدن النسل الذى يتخذ هوية الآباء ويضيف أسماءهم إلى قائمة الذكور فى الجماعة . إذا كان الرجال مقيدين بالزواج من امرأة واحدة فسينشأ التعارض بين الاحتفاظ بنساء العشيرة وإحضار النساء من الخارج فى نفس الوقت . ولكن بما أن الرجل يستطيع ان يتزوج من عدة نساء ، فمن الممكن الاحتفاظ ببنات العم وإحضار الغريبات فى آن معاً . وبعبارة أخرى فان المرء يأكل فطيرته ويحتفظ بها فى نفس الوقت .

علقت فضيلة بقولها :

ـ انك تجعل الامر يبدو فى غاية المعقولية والمنطق ومع ذلك فانى اعلم انه من الناحية الوراثيه فان الزواج من الاقارب غير صحى ويقود الى اضعاف النسل . كيف تربط بين التحيزات التى ذكرت وهذه الحقيقة العلمية ؟

ـ ما الذى يجعلك تعتقدين بأن للتحيزات أى علاقة بالحقائق العلمية ، إذا كان علميا لما كان تحيزاً .

ـ يبدو هذا فى غاية التعقيد .

قالت فضيلة ذلك وهى تحاول قمع التثاؤب ، ثم واصلت الحديث :

ـ أعتقد أنى أوافقك ولكنى غير واثقة بأنى أفهم تماماً الظلال والتبعات لما تقول .

قال إلياس فى تفهم وتعاطف : ربما لأن الوقت قد تأخر وأنت متعبة .

قالت فضيلة وقد نظرت إلى ساعتها : يا إلهى .. لقد انقضت ساعة على الوقت الذى وعدت بالعودة فيه إلى المنزل . لكننى أرغب فى متابع هذا الحديث فى أقرب وقت . أعتقد أنه فى غاية الإمتاع .

ـ فى المرة القادمة ، اريد أن أسألك عن النقاش الذى دار بينك وبين أسرتك فى الأمسية السابقة لسفركم لزيارة عمك فى عطلة نهاية الاسبوع . كما أود أن أسألك عن آسرة عمك وبخاصة عن ابن عمك الطبيب .

وعلقت فضيلة قائلة :

ـ حسنا من المؤكد انك تضع قائمة طويلة للموضوعات التى ستتناولها ، أما قائمتى انا فهى تتضمن السؤال عما عناه عم على عندما قال بأن لك شواغل خطيرة هذه الأيام . أتصور أن بعض الاشياء التى قلتها هذا المساء لها علاقة بذلك . يبدو انك قد امعنت التفكير فى هذه المسائل .

ضحك إلياس وقال وهما يتبادلان تحية المساء .

ـ لقد أحسنت التخمين .

واصل إلياس وفضيلة الاجتماع مع بعضهما البعض كثيراً ولم تكن تلك اللقاءات دائما بغرض مواصلة العمل فى التمثال . اصبحت علاقتهما وثيقة وحميمة وأصبحا يمارسان الأنشطة مع بعضهما البعض دون الانشغال الزائد بما يقول الناس ، مثل التردد على دور السينما وتناول العشاء فى نادى الضباط والذهاب لتناول الشاى فى الفندق الكبير وزيارة حديقة الحيوان والكثير من الأشياء الأخرى ، وفى تلك الأثناء واصل إلياس الاتصال بضابط الاتصال والتنسيق لدارفور وبحر الغزال وبالقيادة العامة وذلك لمتابعة الموقف بالنسبة للمعتقلين . إلا أنه لم يحدث أى شىء مثير . ورغم رد سلطات الأمن على أسئلة الصحفيين من وقت لآخر بتجديد التهديد بتوجيه تهمة الخيانة العظمى ضد المعتقلين وتقديمهم للمحاكمة فقد أصبح من الواضح أن الدولة لاتملك البينة الكافية ضدهم وأنها قصدت فقط اعتقالهم تحفظياً وردع أصحاب النشاط السياسى الآخرين ، ووضح أنه حتى الاعتقال والسجن لم يعد يخضع لضوابط سيادة حكم القانون وبذلك ظهر بأن الموقف الأمنى فى البلاد قد تدهور لدرجة بعيدة . وعزى إلياس وغيره ممن يعنيهم أمر المعتقلين، عزوا أنفسهم بمعرفتهم أنه رغم رفض الحكومة إطلاق سراحهم ، فإنها لاتملك أن تؤذيهم باكثر من الاعتقال بدون محاكمة :

واخيرا جاءت الاخبار من الولايات المتحدة بقبول إلياس بجامعة كلومبيا بمدينة نيويورك . وخلال اسبوع واحد من اخطار إلياس بالامر حصل على جواز سفر وتذاكر وتاشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة وتاشيرة الخروج من السودان . وبعد فترة وجيزة سيكون فى طريقه إلى عالم جديد ـ امريكا .

وانشغل هوَ وفضيلة بنشاطاتهما الاجتماعية لدرجة عطلت العمل فى ألتمثال كثيرا ، لكنه أصبح وشيكا على الانتهاء .

التقيا للعمل فى التمثال فى الاستديو فى احدى العصريات . كانت العواصف الرملية قد هبت ذلك اليوم بغبار يعمى الأبصار فاختار الناس البقاء ببيوتهم . ولكن بما أن إلياس وفضيلة لم يقدرا على الاتصال ببعضهما البعض لالغاء الموعد ولحرصهما على مواصله العمل على كل حال فقد التقيا بالصورة المعتادة . جلست فضيلة فى مقعد العمل بينما جلس إلياس على طرف المنضدة التى وضع عليها التمثال . أخذت العاصفة الرملية (الهبوب) فى الانحسار بينما بدأت الامطار فى الهطول وهى تضرب على السقف المعـدنى للمبنى بأصوات مزعجة ومهدئة فى آن معا .

افترعت فضيلة الحديث بقولها :

ـ وهكذا تتخذ طريقك إلى أمريكا ؟ عندما طلبت منك اول مرة أن تقف نموذجا للنحت ، لم اكن أعرف ما أنا مقدمة عليه . والآن اعرف ما قد ورطت نفسى فيه .

ترك إلياس ذلك القول وفضل الرد بتوجيه سؤال لها :

ـ هل يمكننى الكتابة لك من الولايات المتحدة ؟

لم تجب عليه بالكلمات وبدلا عن ذلك نزلت الدموع على خديها . اخذت منديلا من حقيبة يدها ومسحت الدموع . وقالت وكأنها تستدرك لتجيب على سؤال إلياس ،

ـ « إذا رغبت أنت فى ذلك » .

تاثر إلياس بصورة واضحة وقال لفضيلة بصورة حنونة :

ـ حسب مقتضى منهج الدينكا فإن المرء لا يبكى لدى الفراق لأن ذلك طالع سوء .

ثم قال وكأن سلوكه يعتمد على ردها .

ـ يا فضيلة ، إذا كتبت لك فهل ستردين على خطاباتى ؟

اجابت ببساطة :

ـ نعم

فقال فى فرح عظيم :

ـ هذا عهد بيننا . والآن دعينا نعود إلى خلق إلياس بول مليك .

واستطردت فى جدية ووقار : لدى طلب أخير منك يا إلياس .

عند عودتك هل تذكرت المرأة التى وهبت نفسها لخلق إلياس بول مليك على حد تعبيرك ؟

فاجاب إلياس :

ـ سأفعل بإذن الله .

الفصل السابع عشر

رغم أن الوقت الذى قضاه إلياس بالولايات المتحدة كان مليئاً بالأحداث ، إلا أنه ظل مشغولا بذكرى أيامه الأخيرة مع فضيلة وبالتطورات السياسية فى أرض الوطن .

وبعد فترة قصيرة منّ وصوله كتب إلياس لفضيلة :

« مع أن اقامتى هنا لم تطل ، فان المسافة بيننا شاسعة ، ورغم ذلك ، لا ازال مشغولا بأيامى الأخيرة بالخرطوم وبالوقت الممتع الذى قضيناه معا . لن اتجرا بتخمين ما تعنيه تلك الذكريات ، ولكنى أرغب ف أن احياها مرة أخرى فى ذاكرتى وأن اشاركك اياها ف خطاباتى .

ان امريكا بلاد تبقى فيها مسألة العرق مسألة حيوية ، وقد دهشت كثيرا بالمطار عندما رأيت أناسا يشبهون السودانيين الشماليين ، الا أن اللغة الانجليزية هى لغتهم . هؤلاء هم الامريكان السود أو الامريكان الافارقة والذين كانوا يعرفون حتى عهد قريب باسم الزنوج . وبعبارة أخرى ، فان أهلنا ف الشمال والذين يحتقرون سكان الجنوب والغرب على أساس أنهم زنوج يعتبرون زنوجا ف الولايات المتحدة . يصدم هذا اخواننا وأخواتنا الشماليين لدى حضورهم الى الولايات المتحدة . أما بالنسبة لى ، فقد فتح ذلك أعينى لتعقيد مسألة العرق على الصعيدين المحلى والعالمى ، واعتقد انه قد زاد من حكمتى ف العديد من الجوانب .

هناك الكثير الذى يقال ، ولكنى سانتظر حتى اسمع منك قبل أن أكتب بالمزيد » .
وعندما لم يسمع الياس من فضيلة كتب مرة أخرى ، ولكنه لم يجد الرد على ذلك ايضا .

وحزن للأمر ، لكنه قرر النسيان اذ لم يكن هناك بديل عن ذلك . لابد ان شيئا ما قد حدث . لعل فضيلة تكون قد تزوجت ، ربما من ابن عمها . ثم أخذ يتفكر ويعقلن الامر بأن علاقتهما كانت على كل حال غير مجدية اذ هى عربية وهو جنوبى ، وهى مسلمة وهو مسيحى . وفى بعض الاحيان كان يضحك ويخاطب نفسه بصوت مسموع .

« تصور أنى كنت من الحماقة بأنى تورطت فى تلك العلاقة ؟ أى غرض يمكن ان تخدمه تلك العلاقة ؟ على كل حال ، الامور واضحة الآن وهكذا ينبغى أن تكون . انسها أيها الأحمق » .

وحقا ، مع مضى الزمن وعزمه على النجاح فى دراسته ، تناقص انشغاله بفضيلة تدريجيا . ورغم ذلك ، لم يقدر على أن ينساها تماما . فكر فى الكتابة للعميد على ليسأل عن الموقف السياسى ثم يتساءل عن فضيلة بصورة عرضية ، غير أن ما سمعه عن التطورات السياسية لم يشجعه على الكتابة ، وعلى كل حال ، فان التقصى فى أمر فضيلة قد يفجر الموقف اذا تشكك على من تساؤل الياس عنها . لذلك قرر أن الحكمة تقتضى ألا يفعل أى شىء .

ومن الناحية السياسية ،فبمجرد سفره تقريبا ، انتقلت البلاد من سيىء الى أسوأ من جميع النواحى . تردد الياس على بعثة السودان الدائمة لدى الامم المتحدة ليطلع على الصحف ويتابع الاخبار . ولكن لم يكن من الحكمة الاعتماد على الصحف كمصدر للمعلومات الصحيحة لأنها خاضعة لسلطان الحكومة . وكان الاعتماد الاكثر على الافراد العابرين من خلال مدينة نيويورك او من خلال انحاء أخرى من الولايات المتحدة ، والذين عادة ما يتشوقون للحديث على الهاتف واشاعة الاخبار . ويظهر أن الغريزة الديمقراطية للشعب السودانى قد تحركت ضد الحكومة وأخذ الناس يستمتعون بنقل الاخبار عن تدهور موقف النظام الحاكم . وبعد سفر الياس مباشرة تقريبا ، جاءت الانباء عن أعمال عنف متفرقة كرد على القبض والاعتقال الوأسع النطاق الذى تسربت أخباره من بحر الغزال ودارفور .

ودهش الياس وانصدم بخبر اعفاء ولى نعمته ، الفريق خالد عبد المجيد من كل أعبائه ، حيث استولى خصمه اللواء ادريس عبد الجبار ، رئيس جهاز الامن ، استولى على منصب الفريق خالد بجانب احتفاظه بموقعه فى جهاز الامن . وتمت ترقية لواء أخر الى رتبة الفريق وتعيينه وزيرا للدفاع . كذلك سمع إلياس من مصادر خاصة عن بروز مشاكل أخرى فى البلاد .

وأفاد أحد القادمين الجدد من الجنوب :

ـ انى أقول لك يا أخى بأن الجنوب قد امتنع منذ فترة عن التعاون فى السلام الذى تحقق قبل عشر سنوات تقريبا ، وان الغضب على الطريقة التى اهملت بها المنطقة قد حل محل الفرح والبهجة التى كنت تراها . يطالب الجنوب بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبدلا من الرد بطريقة ايجابية ، فقد تبنت الحكومة سياسات زادت من عداء الجنوب إذ قامت محاولة اعادة تحديد الحدود الاقليمية لكى تبعد عن الجنوب تلك المناطق فى حدوده الشمالية التى اكتشفت فيها كميات تجارية من النفط ! وعندما نجحت حركة المقاومة لذلك

التصرف ، حاولت الحكومة نقل النفط الخام من الجنوب لتتم تصفيته فى الشمال . هل يعجب المرء من الفقدان الكامل لثقة الجنوب فى الحكومة ؟ وحتى تلك القناة الكبرى التى تقول الحكومة بأنها ستجفف مناطق المستنقعات فى الجنوب وتوفر الارض للزراعة والتنمية تعتبر الآن كوسيلة لاستنقاذ المياه التى تضيع من خلال التبخر ، وذلك لتوفيرها لمصلحة الشمال ومصر . وسيتم هذا على حساب البيئة فى الجنوب مع تهديد حياة القبائل الرعوية النيلية وتهديد حياة قطعانهم ، دع عنك الحيوانات الوحشية فى المنطقة .

ومع مرور الايام ، تزايد الشعور بالقلق . ظل الياس يتابع تطورات الموقف من خلال اخ جنوبى يعمل بالبعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة .

وذات صباح ، وإلياس لا يفكر فى أمر السودان ، جاءته محادثة هاتفية من صديقه الجنوبى .

قال الصوت على الهاتف :

ـ هل سمعت آخر الاخبار ؟

ـ لا ، أى أخبار تعنى ؟

ـ لقد قررت الحكومة التحرك بقوة أول أمس ، ويقال ان قتالا عنيفا لايزال دائرا . ويقولون أن هناك العديد من الخسائر فى الجانبين .

ولمعرفته للموقف العسكرى ، فلم يكن لدى إلياس كبير شك فى ان تؤدى الواقعة إلى اثار واسعة فى كل انحاء الجنوب . وفعلا ، عندما انتهت الواقعة ، لم يتكبد الطرفان خسائر جسيمة فحسب ، بل ذهبت الوحدات المعنية فى باقى الجنوب الى الغابة لتبدأ حرب عصابات تكون النواة للنضال المسلح فى الجنوب .

وخلال ايام قليلة ، ولدهشة البلاد بل والعالم اجمع ، فقد اعلن جابر المنير بموجب أمر جمهورى تقسيم الجنوب الى ثلاثة اقاليم وتخفيض سلطات كل اقليم الى مستوى سلطات حكومات الاقاليم الاخرى فى البلاد . وبذلك الغى المنير بصورة فردية اتفاقية السلام التى انهت الحرب الاهلية فى الجنوب من قبل .

وذات يوم فوجىء إلياس باستلام خطاب طويل فى مظروف باهر وعليه طابع بريد بريطانى . وكان اسم مرسل الخطاب ، حامد الدرقاوى حاكم دارفور ، مطبوعا على المظروف . فض إلياس المظروف فى لهفة وأخذ يقرأ :

ـ اخى العزيز إلياس .

لقد حصلت لتوى على عنوانك من اخ هنا فى لندن وأسارع بالكتابة لك . دعنى أخبرك اولا بأنى قد هربت من السودان ، اذ لم يعد فى مقدورى ان احتمل الحال هناك . لدى أسباب عديدة لمغادرة البلاد ، بعضها يتعلق باهمال الحكومة المركزية لأمر دارفور وأخرى تتعلق بما يحدث فى البلاد بصورة عامة وبخاصة لاخواننا فى الجنوب .

لقد عدت لتوى من زيارة الاخوة فى اثيوبيا . وجدت الوحدات المتمردة شرعية جديدة بسبب الغاء المنير لاتفاقية السلام بصورة فردية . وبمساعدة اثيوبيا واعداء المنير فى ليبيا ، فقد نظم المتمردون أنفسهم فى صورة جيش نظامى حسن العتاد والتسليح ، وسوف يثبت هذا الجيش انه قوة هائلة فى مواجهة جيش المنير المتهالك . تدعو الحركة الى تحرير كل السودان من التميز على أساس العرق أو الدين أو الجنس . هذه دعوة غير متوقعة وسوف تربك السياسيين الشماليين . ولا يمكن الاستخفاف بهذه الحركة لمقدرتها العسكرية الكبيرة .

كذلك لا تساعد أخبار الجبهة الاقتصادية النظام الحاكم اذ أخذت الشقة بين الاحلام والواقع فى الاتساع . لقد حل وقت سداد الديون الاجنبية وتصاعدت تكلفة اداء الأرباح المفروضة على تلك القروض وتجاوزت مصادر الدخل المتوفرة . فاذا أضفنا هذا الى التعبئة السياسية الهائلة والباهظة التكاليف من خلال الاتحاد الاشتراكى وتوظيف اعداد كبيرة من الناس فى مواقع عليا غير منتجة دع عنك الوجود الدبلوماسى التفاخرى فى كثير من الدوائر العالمية ، فان النتيجة تكون عبئا ثقيلا يتجاوز بكثير الامكانات المتاحة وحتى السلع الضرورية قد أصبحت نادرة ، واصبحت « سلة غذاء العالم » (كما يزعمون للسودان) اصبحت فى حالة يرثى لها . ان الأمة على حافة الانهيار .

وكأنما يحيل أمر البلاد الى القوى السماوية ، فقد وضع جابر المنير ، بالتعاون مع الاخوان المسلمين ، وضع البلاد على خط الاصولية الاسلامية المزعومة . ومن خلال « قوانين سبتمبر » المشئومة ، والتى سميت كذلك لاجازتها خلال شهر سبتمبر ، اتخذ المنير الشريعة الاسلامية كقانون للبلاد ويتم تطبيقها بقسوة فائقة من خلال محاكم عشوائية تتميز ببساطة اجراءاتها كما تتميز بسذاجة محتواها . ويعانى صغار اللصوص ، ومعظمهم من الجنوب ودارفور ، يعانون عقوبات القطع لجريمة السرقة والقطع من خلاف (قطع اليد اليمنى والقدم اليسرى) لجريمة النهب . وكثيرا ما تظهر هنا فى الصحافة الاوربية صور شباب الجنوب والغرب الذين قطعت أيديهم وأرجلهم ، مما يثير الرعب والتقزز لدى العالم المتحضر ، بما فى ذلك الدول الاسلامية المحافظة والمتخذة للمنهج الدينى مثل المملكة العربية السعودية .

ان غرضى من الكتابة هو وصل العلاقة معك واخطارك بما يدور اذا لم تكن تعلم عنه . لقد حزنت غاية الحزن للحالة المؤلمة فى بلادنا . على كل حال ، دعنى أسمع منك ومن المؤكد انى ساكتب لك بالمزيد .

سعد إلياس لرسالة الدرقاوى ، فهما لم يكونا على صلة منذ إجلاء سوء التفاهم السابق بينهما . ومما لاشك فيه انهما قد استعادا وزادا من قوة صداقتهما .

وهكذا كتب إلياس فورا ، ليشكره بحرارة على خطابه ويقول بانه يقدر الظروف التى أدت إلى مغادرته البلاد . وأضاف إلياس القول :

من موقعى هنا ، يبدو لى أن الموقف فى الوطن لا يمكن الدفاع عنه بحال من الاحوال . وفى الحقيقة ، فقد سمعت لتوى عن الاعتقال والمحاكمة والاعدام العلنى لمحمد أحمد طاهر .

وخلال أشهر معدودات ، احتشد أهل السودان تحت قيادة المهنيين ، من الاطباء والمحامين وغيرهم ، وتظاهروا مطالبين بنهاية النظام . وفى نهاية الامر ، انحاز الجيش لجانب الشعب وتمت الاطاحة بالمنير الذى كان قد غادر البلاد فى صلف وغرور بينما كانت المظاهرات على أشدها . وترك ذلك الانقلاب السلمى أجهزة الدولة فى سلامة تامة تقريبا ، ما عدا ابعاد المنير نفسه وبعض أقرب المقربين اليه فى جهاز الحكومة ، بما فى ذلك طبعا نائبه ورئيس جهاز الامن .

تم تشكيل حكومة انتقالية بقيادة عليا من المجلس العسكرى الانتقالى يتعاون مع وزارة انتقالية من المدنيين فى اعادة البلاد تدريجيا الى نظام الحكم الديمقراطى البرلمانى من خلال انتخابات عامة تجرى بعد سنة من ذلك التاريخ .

الا أن حركة التحرير فى الجنوب ، والتى تزعم بأنها حركة قومية ، قد صرفت التغيير على أنه مجرد استمرار لنظام المنير وتقويض للثورة الحقيقية التى سيأتى بها الشعب . ففى تقديرهم ، أن كبار ضباط الجيش قد سرقوا الامر من الشعب وحولوه الى تلميع للنظام الحاكم ليكسبه المشروعية . ونتيجة لذلك ، فقد واصلت الحركة سعيها للحصول على تأييد الجماهير فى الشمال والجنوب معا ليتعاونوا معهم على تخليص البلاد من تسلط الاقلية الصفوية الحاكمة .

راقب الياس هذه الاحداث باهتمام شديد ، لكنه ظل يولى جل اهتمامه لدراسته . وعندما تمت الاطاحة بالمنير واخذت البلاد طريقها نحو الحكم الديمقراطى ، كان الياس يجلس لامتحاناته النهائية . وتفكر كثيرا فى حجة خاله البير عندما حاول اقناع الياس بالعدول عن الانضمام للجيش . كان خاله قد قال :

ـ يا ابن أختى ، ان الزعماء من أهلنا نحن معشر الدينكا ، هم رجال الكلمة وليسوا رجال السلاح . ومنذ أن خلق الله الخليقة ، فقد كانت قوة الكلمة أعتى من قوة السلاح . والرجل الذى هزم فى القتال يرغب دائما فى العودة للانتقام لهزيمته . ولكن الرجل الذى يقتنع بقوة المنطق والحجة ، فانه يظل مقتنعا ولا يطلب الانتقام . يا ابن أختى ، ان الرمح وقوة الذراع هى سبيل الشباب المقاتل ، ولكن القلم الذى اكتسبته فى المدرسة والكلمة التى ورثتها من أسلافك هى أدوات الزعـامة المقدسـة التى جاءتك عن طريق نسل والدك وأمك معا . لا تستبدلها بالسلاح .

أشرك إلياس . حامد الدرقاوى فى نصيحة خاله من خلال خطاب كتب فيه « وانى اتساءل الآن الم يكن خالى محقا فى نهاية الامر . بصورة ما ، اشعر بأن نموذج المنير كدكتاتور قد امتد ليفسد نموذج الجيش نفسه . انى افكر جادا فى الاستقالة من الجيش ، ولكن ماذا أفعل بعد ذلك ؟ يمكننى الانضمام الى جيش التمرد . غير أن ذلك ايضا هو جيش ، رغم أن الروح المعنوية ستكون أعلى لعدالة القضية . على كل حال ، فالمهمة الاولى هى اكمال دراستى ثم تقييم الموقف والتقرير على حسب الظروف . ولكن اذا كانت عندك نصيحة لى ، فسأكون شاكرا » .

كان الياس يتفكر فى هذه الامور عندما اتصل به هاتفيا الملحق العسكرى بسفارة السودان بواشنطن ليقول له بأنه قد تلقى لتوه خطاباً لإلياس مكتوب عليه « عاجل وهام وشخصى » . فماذا يفعل به ؟ اتفقا على أن يرسله له بالبريد العاجل . لم يكن الملحق العسكرى يعلم من هو مرسل الخطاب ، وبما انه مكتوب عليه « شخصى » فلم يرتح لاقتراح الياس بان يفتح الخطاب لمعرفة المرسل انتظر الياس فى لهفة وصول الخطاب فى اليوم التالى ، وعندما وصل فض المظروف بقلق ليجد انه مكتوب نيابة عن والده بواسطة كاتب . لم يصدق الياس عينيه فلم يسبق أن تبادل الخطابات مع والده ولم يفهم كيف خطرت فكرة كتابة الخطاب لوالده .

جاء فى الخطاب « يا ابنى الاعز . انى استكتب هذا الخطاب لك على أمل أن يجدك فى سلام وصحة جيدة . واذا سألت عنا ، فنحن جميعا على أتم عافية ولا نفتقد الا وجودك الغالى . لا شك بأنك تتابع التطورات فى البلد . لقد حدث الكثير منذ سفرك ، لكن ربما يكون أهم ما حدث هو تغيير نظام الحكم . لم يرض الجميع عن التغيير وكما تعلم بلا شك ، فقد رفضه بعض اخواننا فى الجنوب على اعتبار أنه غير كاف وقرروا مواصلة النضال ضد النظام .

يا بنى ، انا أعلم بأنك قد اخترت أن تكون مقاتلا ، ولذلك انضممت إلى الجيش . ولكنى اكتب لك لأنى أعتقد أن هناك وسائل عديدة للقتال . هناك السلاح كما هناك الكلمة . لقد فتحت الحكومة جبهة الكلمات ، ونحن فى حاجة لمن يقدرون على الكلام فى هذا النظام الجديد الذى يسمونه الديمقراطية ، وما هو أهم من ذلك فإذا لم يحضر أبناؤنا ليمثلونا فى هذه الجمعية الجديدة فستملأ الحكومة مقاعدنا بمن تختارهم هى من الأفراد الذين يكونون أبواقاً للعرب بينما يظهرون كممثلين لنا ، وستدعى الحكومة وقتها بأننا حقاً ممثلون فى النظام الجديد . لهذا السبب اجتمع أهلنا من كبار القوم هنا ومن الشباب المتعلمين ، وقرروا أن يطلبوا منك العودة إلى الوطن وترشح نفسك فى انتخابات الجمعية التشريعية المقبلة ، إذا حضرت فسوف نطمئن إلى أننا سنجد من يمثلنا فى الجمعية ، ولكن إذا لم تحضر فإنى أخشى ألا يتفق الناس على شخص آخر ليمثلهم وبذلك نفقد فرصتنا التى سيأخذها العملاء .

إن أهلك فى حاجة لك وانى اثق بأنك ستستجيب للدعوة الى الواجب »

وفى صباح اليوم التالى ، ورغم عدم تلقيه لرد على خطابه السابق ، فقد اتصل إلياس هاتفيا بالحاكم الدرقاوى ليناقش معه خطاب والده ويسأله النصح . وافق الحاكم على رأى والد إلياس رغم انه هو شخصيا لم يثق كثيرا فى النظام الجديد والانتخابات المقبلة . ونصح إلياس بقوله انه ، مع أن دعوة أهله نبيلة وتستحق الاستجابة ، فعلى إلياس ان يترك الجيش بصورة مشرفة اذا أراد ان يكون له نفوذ فى النظام فيما بعد . لذلك اقترح على إلياس ان يكتب خطابا بواسطة الملحق العسكرى يوضح فيه دعوة أهله له وقبوله للتحدى بتمثيلهم ، وأن ذلك يقتضى بكل أسف استقالته من الجيش .

تقبل إلياس تلك النصيحة ، ووعد الملحق العسكرى بتأييد خطابه بالاستقالة . وتألم إلياس لاضطراره إلى الانسحاب من دراسته بجامعة كلومبيا وأخذ فى الاستعداد للعودة للسودان .

وبعد أيام قلائل ، استقل إلياس الطائرة الى لندن حيث التقى لفترة وجيزة بحامد الدرقاوى ليتابع معه آخر التطورات من الناحية الداخلية ومن ناحية المتمردين ، ثم واصل الرحلة على طائرة الخطوط الجوية السودانية مساء نفس اليوم . وصل إلياس الى الخرطوم فى الساعات الاولى من صباح يوم الجمعة . وليعوض عن عدم النوم لحوالى ثلاثين ساعة من السفر المتواصل ، نام إلياس حتى الظهر تقريبا . وبعد أن استحم ، لبس ملابسه واتجه الى منزل العميد على .

كان إلياس قد سمع من قبل بأن عليا قد أحيل الى المعاش قرب نهاية دكتاتورية المنير . ورغم احالته الى المعاش ، فقد ظل على يتابع التطورات فى البلاد عن كثب . وجده إلياس مستلقيا على سريره فى شرفة منزله وهو يستمع الى المذياع .

بينما أقبل إلياس الى ولى نعمته القديم فى حرارة ، أحس ببعض التحفظ فى تحية على له . تساءل إلياس عما اذا كان العميد غير راض عن الدور السياسى النشط الذى اختاره إلياس لنفسه ، الا انه شعر بأن عليا اوسع افقا من ان يتأثر بذلك ..فماذا حدث اذن ؟ هل حدث سوء بالعائلة ؟

وسأل إلياس عن الاسرة دون أن يفضح انزعاجه . أجابه على بصوت بارد النبرات

ـ أنهم جميعاً بخير .

ثم أضاف فى سخرية: انهم على الاقل على قيد الحياة

وبعد ذلك سأل إلياس عن فضيلة وهو يحاول اخفاء تشوقه
أجابه على وقد ظهر عليه عدم ارتياح ظاهر : إنها بخير .
واصل إلياس الاستقصاء بشيء من البراءة :
- وماذا عن أعمالها الفنية ؟ هل تتقدم فى ذلك ؟
- فى الحقيقة هناك أشياء أهم اقتضت العناية بها قبل الالتفات إلى اهتماماتها الفنية .
- لا افهم ، ما هى تلك الاشياء ؟
وادرك على وقتها أن إلياس جاهل بالتطورات التى أعقبت رحيله .
وتساءل على حذر :
- هل واليت الاطلاع على أخبارها ؟
- لا ، أبدا . فقد حاولت لكنى لم افلح فى ذلك .
لم يشأ أن يذكر بأنه قد كتب لفضيله ولم يتلق ردا على خطاباته .
- هل حدث لها شيء ؟
واصبح إلياس فى غاية الانزعاج .
فتساءل على فى دهشة حقيقية :
- اتعنى ان أحدا لم يخطرك بما حدث لها ؟ ..
- لا ، لم يخطرنى أحد بشيء .
- يا للعجب . ظننت أنك قد حضرت الى منزلى لتقتلك فى رغم ما حدث .
وصاح إلياس فى انزعاج فاق مقدرته على التحكم :
- وماذا حدث ؟
اخذ على فى الشرح بقوله :
- من الناحية الرسمية ، لا ينبغى أن تكون انت هنا . وبصراحة ، لو أن احد افراد أسرة اخى أو حتى من افراد الاسرة الكبيرة شاهدك هنا فسأجد انا مشقة فى منعه من أن يقتلك .
- أرجوك ، انك تعذبنى ، أخبرنى بما حدث
قال إلياس ذلك وقد خرج عن طوره تماما من شدة الانزعاج .
رد على وهو يتجنب اتجاه التحدى السابق :
لقد وقع خلاف خطير بين فضيلة ووالدها بل وكل افراد الاسرة .
- وماذا كان موضوع الخلاف ؟
- الزواج .
نطق على الكلمة بطريقة عرضية لكنه لاحظ ماظهر على وجه إلياس .
- الزواج ؟ هل تزوجت فضيلة ؟
- لا ، وتلك هى المشكلة . أراد والدها أن يزوجها من ابن عمها ولكنها رفضت ذلك .
شعر إلياس بالراحة لكنه حرص على عدم اظهار مشاعره وظل صامتا لبرهة وهو لا يعرف كيف يرد دون الافصاح عما يحسن السكوت عنه .
قطع على حبل الصمت بقوله :
- اعتقد انه فى هذا الزمن لا يمكن للمرء ان يتوقع من هؤلاء النساء المصريات اتباع التقاليد بلا منازعة .

وتشجع إلياس بذلك التعليق فسعى للحصول على المزيد من المعلومات : أخبرنى عما حدث فى الواقع ؟

ـ هل تعرف خليفة ابن اخينا عبد الرحمن والذى يتبع فى السن محمد ؟

ـ لم اقابل عبدالرحمن ولا ولده خليفة ولكنى بالطبع سمعت عنهما .

ـ يعيش عبد الرحمن فى مدينة كوستى وابنه طبيب يعمل بمستشفى كوستى .

ـ ثم ماذا ؟

تساءل إلياس وهو يتذكر حاسته الاولى عما يمكن ان يكون بين ابناء العمومة (فضيله وخليفه) .

ـ اعترضت فضيله بحجة انها لا ترغب فى الزواج من ابن العم ، واعتقدت بان ذلك غير مناسب لأسباب طبية . هذا بالاضافة انهاتعتبر خليفة كأخ لها . ورغم تعاطف الطبيب نفسه مع وجهة نظرها ، إلا أن الأسرة لم تقتنع . فعلى كل حال زواج ابناء العمومة امر شائع فى الشمال .

ـ فى هذا يخالف الدينكا العرب . ان راى فضيله مطابق لرأى الدينكا تماما . ولكن على كل حال ، ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ ثم قالت بانها تحب رجلا اخر . وكان هذا حاسما بالنسبة لخليفة .

رغب إلياس فى السؤال عما اذا كانت فضيلة قد افصحت عن هوية الرجل الذى تحبه ، لكنه تشكك فى حكمة الإلحاح فى السؤال بهذه السرعة . وأضاف على القول : ولم يكن ذلك هو ختام الامر فقد اعلنت فضيلة بانها حامل ..

ـ حامل ؟

وكرر إلياس القول بشعور من الصدمة القوية « فضيله حامل ؟ »

ـ نعم فقد ظهر الحمل عليها بعد سفرك بقليل .

طغت المشاعر على إلياس ولكنه تمكن من القول .

ـ لا بد لى من مقابله فضيله ، كيف يمكن ان افعل ذلك ؟

قال على فى اخلاص .

ـ لقد كنت انا شابا ذات يوم واعرف اغراء الشهوة الجنسية . لقد عاملتك كابنى وفضيلة هى ابنتى . اول ما أود معرفته منك هو الحقيقة . هل أنت والد الطفل ؟

عزم إلياس على الصراحة التامة فقال :

ـ ياعم على ، انى اتحدث اليك الآن من اعماق قلبى . انى لا اقدر على الاجابة على سؤالك وليس لأنى لا أرغب فى ذلك ولكن لأنى لا أعرف ولا أريد أن أكذب عليك ولكنى أقدر على أن اعدك بشىء واحد ، فاذا كنت انا المسئول عن حمل فضيلة ، فانى اعتبره شرفا لى ان تلد فضيلة طفلى وسأبذل غاية جهدى لأكون جديرا بها وبطفلها وكل ما اطلبه هو ان يتم قبولى . يا عم على ، انك لم تخبرنى بما يكفى عن فضيلة . هل اجهضت الجنين أم حملت بالطفل حتى ولادته ؟وماذا حدث لها الآن ؟

ظهر السرور على على لرد إلياس وبخاصه لانشغاله بحالة فضيلة : بالطبع ارادت منهاالاسرة أن تجهض الجنين لكنها رفضت فى عناد واصرار فكانت مواجهة مروعة . وكاد والدها يجن من الموقف . وكان جاداً فى رغبته أن يقتلها فقمت أنا بنقلها إلى منزلى ثم تدبرت أمر نقلها لتدريس الفن بمدرسة فى دارفور حيث لا يعرفها احد ويمكنها أن تزعم بصدق أن والد الطفل فى مهمة بخارج البلاد .

ـ هل افهم من ذلك بانها قد وضعت الطفل ؟
ـ نعم وقد رزقت بابن ذكر وهو ولد فى غاية الجمال . ينبغى لوالده ان يفخر به . فى بداية الامر رفضت الاسرة فضيلة تماما الا انى نجحت فى اعادتها الى كنف الاسرة بعد جهد جهيد . وهى قد عادت للزيارة مرة أو مرتين حيث تمكنت انا من رؤية الطفل . لكنها تفضل البقاء عند صديقة لها اسمها عواطف تعمل بالتدريس بالمعهد الذى كانت تعمل به فضيلة .
على كل حال فانى انصحك بالابتعاد عن الاسرة ، على الاقل فى الوقت الحاضر .. لقد كانت الاجابة التى قلتها طيبة وسأنظر انا فى تسهيل الامور بينك وبين الاسرة . ربما نقدر على حل المعضلة .

وفى ذلك الوقت ظهر على ودودا لدرجة قريبة من عهده القديم ونجح فى اقناع إلياس بمواصلة حملته السياسيه وترك امر فضيله جانباً فى الوقت الحاضر :
ـ تذكر أن الزمن خير علاج . بعد فوزك فى الانتخابات واتخاذك لمقعد فى البرلمان عد لمقابلتى ونتحدث فى الامر وخلال هذه الفترة ، سوف اعمل عملى بين الاقارب بخاصة مع اخيها بركة والذى يترشح فى الانتخابات من ضمن قائمة مرشحى أمة الاسلام . واذا تم انتخابه سيكون عضوا هاما فى البرلمان ».

جاءت الانتخابات وانقضت ، وتم انتخاب كل من إلياس وبركة واتخذا مواقع هامة كل فى حزبه . وقد نجحا بالاحتفاظ بقدر من الادب والتهذيب فى معاملة بعضهما البعض مما دل على صحة سلوكهما المهنى ، كما دل على أن عليا قد جاهد كثيراً فى تحسين العلاقه بين إلياس والاسرة . ولكن كما لاحظ الجيلانى رئيس الجمعيه ، فقد كان هناك برود فى علاقة الرجلين بعضهما بالبعض لا يمكن تفسيره فى اطار سياسى بحت . أما بالنسبة للعالمين بأمر الصراع حول فضيلة فقد كان الأمر مفهوماً تماماً . لم يكن جيلانى من العالمين بذلك الصراع العائلى ، لكنه عندما تحدث للشابين قبل ذهاب إلياس لأهله لمقابلة والده المريض كان يهدف الى تنقية الجو وتحسين العلاقة بينهما لمصلحة مسئولياتهما القومية .

بالنسبة لإلياس فقد اقتضت حالة والده الخطيرة ذهابه إلى أهله فورا . ورغم ان ارواح الاسلاف قد طمأنت ملينقديت من خلال الحلم بأنه سيحيا ويتجاوز مرضه ذاك ، فان إلياس لم يشأ أن يغامر ولذلك قرر أن يأخذ والده معه الى الخرطوم من أجل الحصول على افضل العناية الطبية الموجودة فى البلاد .

الفصل الثامن عشر

بمجرد عودة إلياس إلى الخرطوم ومعه والده ، دبر لإقامته فى غرفة خاصة بالمستشفى العسكرى حيث يسمح لزوجته ألويل والدة إلياس وإحدى الزوجات الصغيرات بالبقاء لمرافقته . ومع أن إلياس لم يبق معه بالمستشفى ، إلا أنه كان يقوم بزيارته بصورة منتظمة وظل على صلة وثيقة بفريق الأطباء الذى يعنى به .

وعندما ذهب إلياس للزيارة ذات صباح ، قابل الدكتور عثمان عوض الله كبير الأطباء وهو يغادر الغرفة . قال الطبيب :

ـ أنا سعيد برؤيتك لأنى أود أن أتحدث معك عن حال والدك .

بعثت الطريقة التى تحدث بها الطبيب رعشة فى جسد إلياس الذى توجس بان الطبيب مشغول بشىء خطير . وتمكن إلياس من ان يسال : ومتى ترغب فى مقابلتى ؟

ـ اذا كان عندك الزمن فهل يمكن ان نتحدث الان ؟

ـ هذا طيب لانى هنا من اجل ذلك .

وبمجرد انفرادهما فى مكتب الطبيب ، ذهب الاخير إلى جوهر الموضوع بصورة مباشرة .

ـ لدى اخبار سيئة لك ياخ إلياس .

ظل إلياس يحدق فى وجه الطبيب دون الافصاح عن مشاعره ، فهو قد توجس من ذلك على كل حال ، وكان مستعدا لتلقى التفاصيل .

قال الطبيب :

ـ ان والدك يعانى من مرض السرطان الذى لا شفاء منه .

ـ لا ، إن هذا مستحيل يادكتور لقد اخبرنى بأنه يشعر بتحسن كبير ولحضرته انا إلى هنا فقط لاطمئن عليه ،

كل ما أستطيع أن أقوله هو ما أعتقد بأنى قد اكتشفته فى حالته . ولك القرار فى أن تصدقنى أو لا تصدقنى وما تود أن تفعل فى الموقف الراهن ..

أحس إلياس بشىء من الامتعاض فى كلمات الطبيب .

- انا اسف يادكتور ، فانا لا اقصد التشكك فى صحة قرارك الطبى . ربما يعود الأمر لهول المفاجأة .

رضى الطبيب بذلك التفسير

- انى اتفهم شعورك واشعر بالاسف لاضطرارى بأن انقل إليك هذا النبأ . أنه من الواجبات المحزنة . على كل حال ، اعتقد ان السرطان قد بدأ بالكبد وانتقل الآن إلى الرئتين ، وهذا يعنى أنه قد دخل فى مرحلة متقدمة . كل ما بوسعنا أن نفعل هو تخفيف الألم وراحته . لانقدر على عمل الكثير فى تأخير النهاية .

- ولكن يادكتور ، لم يحدث أن شرب أبى الخمر أو دخن التبغ فى حياته . كيف تكون كبده او رئتاه معرضة لمرض السرطان ؟

- إنك تقول بفهم شائع لكنه لايتعلق اطلاقا بأسباب مرض السرطان . فنحن لا نعرف فى حقيقة الأمر ما هو سبب مرض السرطان ،

- عفوا يادكتور ولكنى لا ازال لا افهم ما يحدث . فعندما ذهبت إلى اهلى كان والدى مريضا للغاية . ولكن حدث شىء ما وظهر كان والدى قد استعاد صحته بصورة معجزة . حتى أنه قد قال لى أن أرواح الاسلاف قد ضمنت له استمرار حياته لحين حدوث أشياء معينة . وفعلا بدأ يشعر بتحسن ملحوظ بعد ذلك .

واصل إلياس ليروى للطبيب عثمان حلم والده وظل الطبيب يستمع فى استغراق تام .

قال إلياس :

- إنى اقدر أن حديثى يبدو خرافيا للغاية ولا ينبغى لرجل متعلم مثلى أن يردده ، دع عنك أن يصدق بصحته ، ولكن تأكيد روايته بظهور استعادته للصحه دعانى لتصديق الأمر . والآن هو يبدو أحسن حالا بكثير مما مضى ، تخبرنى انت بأنه على وشك الموت ؟

- ياعزيزى إلياس ، أن حقيقة الامر هى انه على أساس البيانات الطبية ، فانى اعتقد ان والدك يعانى من مرض السرطان الذى لا شفاء منه وقد اخبرتك بموقع بداية المرض والمرحلة التى وصلها الآن . كما ان روايته هو للطريقة التى احس بها لتقدم المرض تدعم الخلاصة التى توصلت إليها . وبعد أن قلت هذا دعنى اسرع بأن اضيف بأننا لسنا الهة . وإذا كان الله أو أرواح اسلاف والدك قد افادوه برسالة ما ، فلا يجوز أن اعارض قولهم . فكما تقول يبدو أن والدك قد تحسن كثيرا بعد الحلم الذى ظهرت له فيه أرواح الأسلاف . وكل ما بوسعى أن أقول هو أنه من الناحية العلمية فإن قوة الإيمان وإرادة الحياة قوة لا يستهان بها فى معالجة المرض . وانا لا أرفض احتمال الشفاء التام بصورة معجزه كنتيجة لاثر تلك القوة . ومع ذلك تبقى الحقيقة وهى أن والدك يعانى من هذا مرض وأن ظهر عليه التحسن . وبما أنى لم أره عندما كان فى حالة أسوأ بكثير من حالته لراهنة كما تقول ، فأنا لا أقدر على المقارنة . لعل قوة إيمانه وقوة إرادته للحياة قد نجحت يس فى تحسين حالته فحسب وانما فى مقاومة تقدم المرض ايضا . ولكن يتحتم على أن اخبرك أنه فى تقديرى يعانى من هذا المرض . وأن المرض يوالى الانتشار وأن النهاية وشيكة . يمكنك ان تتوقع بقاء والدك معك لأسابيع وان تشعر بالامتنان اذا بقى معك

لاشهر . ونصيحتى الوحيدة لك هى ان تجعل باقى ايامه مريحة وسعيده . وانا اترك لك تقدير كيف تفعل ذلك ، لكننا سنعطيه الادويه التى تقاوم الالم وتمنحه الراحه .

- شكرا لك يا دكتور .

قالها الياس وهو ينهض وقد بدت عليه علامات الحزن والتفكر العميق . فقال الطبيب فى تعاطف عميق :

- انى أسف يا اخ الياس ولكن الموت جزء لا يتجزأ من الحياة ، وعلينا ان نتقبله .

واثناء حديثه ، مد يده مودعا الياس .

- اذا أردت اخراج والدك من المستشفى ، وهو ما انصح به ، فما عليك الا أن تخطرنى برغبتك .

- شكرا لك يا دكتور .

- مع السلامة وحاول أن تتصالح مع هذا الموقف المفجع .

قال الطبيب ذلك وهما يفترقان .

فرد الياس وهو خارج من الغرفة .

- إن شاء الله

قرر الياس عدم زيارة والده ذلك اليوم ، اذا كان حزنه اظهر من ان يخفى على والده أو حتى والدته .

خطر له أن يخبر والده بالحقيقة ويقنعه بالعودة الى القرية ليرتب أمور الاسرة والقبيلة ، لكنه عدل عن ذلك اذ راى انه من القسوه المفرطة اشباع حاجات الاحياء على حساب راحة والده خلال الايام الاخيرة من حياته .

وبدلا عن ذلك ، قرر الياس أن الكذب فى تلك الظروف امر مبرر تماما . ذهب لوالده واخبره بأن الاطباء ينصحون بأن الراحة التامة هى كل ما يحتاج له والده ، لذلك سيأخذه ليرتاح فى منزله بالخرطوم .

استمع ملينقديت لابنه وهو ينظر اليه بطريقة هادئه لكنها مستخبرة . وعندما فرغ الياس ، تحدث والده بعبارات محسوبة :

- يابنى ، لقد استمعت لقولك . لكننى الاكبر سنا وللكبار معرفة بهذه الامور . لقد رايت شيئا ما فى عينى ذلك الطبيب ، وانا اعرف ما هو فى جسدى . اذا قال الطبيب بأنى احتاج للراحة فى المنزل ، فانى اريد ان اذهب لارتاح فى قريتى . اريد أن اكون قريبا من قومى . لقد اكد لى اسلافى أن أشياء معينة ستحدث قبل موتى . ولكن لا يدرى احد متى يكون ذلك . نحن الآن فى موسم الامطار ، واسوا ما يمكن أن يحدث لى هو ان اموت بعيدا عن أهلى ولا ادفن بمقتضى عادات قومنا . من المناسب أن تنتهى حياتى بالطريقة التى اقرها الله لزعمائنا منذ بدأ الخلق . لذلك ، عند مغادرتى للمستشفى ، أريد منك أن تدبر لعودتى لاهلى بأول فرصة ممكنه . هذه هى كلماتى .

علم الياس أن والده يقول الحق ولم ير انه من المناسب له أن يعارض كلماته الحكيمة على أسس باطلة . ورغم ذلك ، فلم يكن من الممكن اطلاقا ان يعترف بالحقيقة لوالده . شعر بالدموع تطفر من عينيه فأخرج منديله بسرعة ومسح الدموع . وتمكن الياس من القول :

- يا والدى ، لاداعى للتفكير فى أسوأ الاحتمالات عندما تكون دلائل الحياة بين أيدينا . مازلنا بعيدين عما تتحوط له .
- يابنى ، ان ما اقوله لن يقتلنى ، ولكنى أريد ان أتحوط لكل الاحتمالات .
وادراكا منه لان الموضوع مزعج لابنه ، أضاف مليتقديت القول :
- على كل حال ، لندع الامر الآن . سيكون لدينا الزمن للحديث عنه عندما أخرج من هنا واعود لمنزلك .

وتذكر الياس رواية والده عن وعد أرواح الاسلاف له بأنه سيعيش حتى يوجد ابناه المفقودان ، وشعر الياس بالتنازع بين أن يحترم دين اهله أم يرفضه على أنه مجرد خرافات . وعندما تفكر الياس فى الامر ، شعر بأن احسن ما بوسعه ان يفعل فى تلك الظروف هو مواصلة مهامه البرلمانية كأنما لم يلحق بوالده امر خطير .

كان من المقرر أن يناقش البرلمان خلال ذلك الاسبوع العلاقة بين « التجمع الثورى لاقليات السودان » وحركة التحرير فى الجنوب والتى تلجأ للعنف . وكانت المسألة الجوهرية هى ما اذا كان من الممكن اعتبار « التجمع » ، والذى كان الياس هو الناطق الرسمى له ، مشاركا مشروعا فى العملية الديمقراطية ، ام ينبغى تحريم نشاطه .
قدم بركه أخو فضيله حجة الاحزاب الحاكمه فقال :
- سيداتى وسادتى ، اخوتى واخواتى ، ان الديمقراطية تتحدث بلغة واحدة وهى لغة الكلام ، لغة الاقناع ولغة المجتمعات المتمدينة والمتحضرة . ولا تتحدث الديمقراطية بلغة التهديد ولغة العنف والسلاح . لقد أطاحت هذه الامة بالنظم الدكتاتورية مرتين لحبنا للديمقراطية والتزامنا بالدفاع عنها . لا مكان فى هذا النظام للمتطرفين الذين يطلبون النفوذ السياسى من خلال التعصب واثارة الشحناء العرقية . كلنا يعلم أن النضال قد انحرف به من نضال من أجل الديمقراطية الى حملة ضد العروبة والاسلام بواسطة من يزعمون بأنهم الابناء والبنات الحقيقيون لهذا البلد ويحلمون بطرد من يزعمون بأنهم اقلية عربية وافدة . انهم يجلسون هنا معنا ويستمتعون بثمار نضالنا من اجل الديمقراطية بينما يسعون ، فى نفس الوقت وبلا هوادة ، لتحطيم أسس ديمقراطيتنا . ولكننا نقول لهم أن الديمقراطية ليست ذات وجهين ، احدهما يستمتع بحرية التعبير بينما يهدد الوجه الآخر بالسلاح . ان السؤال الذى نوجهه لاخواننا فى « التجمع » هو ، مع أى من الجانبين أنتم ، مع جانب الكلمة أم جانب السلاح ؟
دفع بركه الجمعية لهدير من التصفيق ، وسمع صوت يصيح :
- نعم أخبرنا يا الياس ، اخبرنا « وصاح آخر » لقد تعبنا من نفاقكم . هل أنتم مع الحرب أم مع السلام ؟

وجاءت صيحات متناقضة من كل مكان .
صاح الجيلانى وهو يضرب بمطرقة الرئيس : الصمت ، الصمت . فإن النظام هو جزء من هذه الديمقراطية وواجبى هو ضمان المحافظة عليه . الفرصة الآن للأخ الياس .
نهض إلياس فى بطء وكأنه يزن رد الفعل حوله . ثم عدل من حلته الزرقاء الداكنة واصلح من وضع رباط عنقه وتنحنح وهو لايزال يزيد من ترقب المستمعين بصمته الأولى .

ـ شكرا لك ياسيدى الرئيس ..

وبدأ الياس الحديث فى نبرة منخفضة وموزونة .

ـ بوصفى من المؤمنين بالديمقراطية ، لابد لى من الاطراء على الاخ بركه لاستخدامه سلاح الكلمات لغاية قاتلة . فرغم أن كلماته لاتقتل الجسد ، الا أنها تهدف الى اغتيال الشخصية والروح ، ولا أجزم انا أى النوعين من القتل هو الأسوأ ، ولكن فى هجومه بالكلام ، فقد تعمد خلط المسائل وتضليل ممثلى اهل السودان الطيبين .

ودعونا نستوضح الحقائق . لاينكر أحد أن اهل السودان قد تعرضوا ولسنين عديدة للاهانات ، بل والمعاملة اللاانسانية ، من التميز العرقى والدينى القائم على هيكل هرمى واضح المعالم . منذ حضور العرب والمسلمين لهذا البلد ، فقد مكنوا لانفسهم كجنس متفوق صاحب دين متفوق . لكنهم كانوا من الاحسان بأن فتحوا أبوابهم لكل من يرغب فى تحسين وضعه بقبول الدين واللغة والثقافة والجنس العربى ، حتى عندما يكون ادعاء الجنس العربى قائما على بضع نقاط من الدم العربى ، وفى بعض الاحيان بلا أدنى دم عربى . أما الاجناس الافريقية السوداء ، وخصوصا اذا لم تستنقذ باتخاذ الدين الإسلامى ، فقد ردت إلى أسفل درجات الهرم . ثم جاء المستعمرون وأضافوا إلى الهرم الموقع الأعلى الذى استمتعوا به هم كطبقة حاكمة . لكنهم وفى نفس الوقت أمنوا بل وزادوا من قوة ادعاء العرب المسلمين للتفوق الذى منحه لهم الله .

والآن ، ياسيدى الرئيس ، وفى الوقت الذى نعتز بأننا أمة مستقلة ينبغى أن يكون جوهر وجودها هو المساواة التامة بين جميع المواطنين بغض النظر عن العرق والدين ، فاننا نجد التعصب الملحاح الذى يزعم بأن بعض الناس مقدر لهم ان يحكموا وأن دينهم هو كلمة الله المعصومة . ان هذا الواقع البسيط هو الذى دفع بعض اخواننا فى الجنوب لحمل السلاح ضد المنير عندما خان الاتفاق الذى اتى بالسلام الى البلاد .

نعم بيننا من يدعو الى الديمقراطية ، ولكن هل تغيرت الطبقات القديمة كنتيجة لتلك الديمقراطية ؟ الم نقاتل فى حقيقة الامر فقط لنرد السلطة الى الذين ادعوا التفوق دائما وكأنه ارادة الله ؟ الم نخدع لنتوهم بأننا قد كسبنا حقوقنا الديمقراطية بالعرق والدم بينما نسقط فريسة لديكتاتورية المضللين الذين لا يصوتون الا لمن يعتقدون بأنهم مختارون ليكونوا اسيادا لهم ؟

فى الحقيقه ، ياسيدى الرئيس ، وياسيداتى وسادتى ، ان بعضنا يعارض الرق بلا هوادة حتى عندما يحب العبيد اغلالهم . لقد ظننا بأننا قد حررنا انفسنا من تجارة الرقيق البغيضة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر . ولكن ليس الأمر كذلك اذ اننا قد عدنا الى الرق ولكن فى صور خفية . بل وكما تنبئنا الأخبار الجديدة ، فقد عدنا حتى لصور الرق الغليظة والتقليدية .

من هو المتعصب عرقيا ، ياسيدى الرئيس ؟ هل هو من يناضل لأنهاء التعصب العرقى أم من يفرض التعصب العرقى على اساس تقتضى العدالة انهم قد ولدوا مساوين لكل أفراد الجنس البشرى ؟ الا يغضب المتعصبون عرقيا فقط لافتضاح هويتهم وشخصيتهم الحقيقية ؟ ولكن لايمكن اخفاء الحقيقة بعد الآن . من المؤكد أن جابر المنير قد ارتكب أخطاء كبيرة ، لكنه قد منح أهلنا ، الاغلبية الريفية لهذه الامة ، منحهم القدرة والامكانيات الكافية لمعرفة القدر الذى حرموا منه والقدر الذى يمكنهم المطالبة به . اننا على أعتاب ثورة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كبرى ، اذا لم يكن القائمون على

امر السلطة من الحكمة بحيث يسبحون مع هذا التيار الجارف ، فانه سيؤدى بلا ادنى شك الى فتنة هائلة .

إنى اومن ياسيدى الرئيس بقوة الكلمة ، وقد تعلمت ذلك عند اهلى وهذا هو سبب وجودى هنا . ولكن عندما تعجز الكلمات عن تحقيق الاهداف المطلوبة ، فلابد من اتخاذ وسائل اخرى . هناك بعض التغيرات التى لاتتحقق بالكلمات وحدها . لم يتم اسقاط المنير بالكلمات . لقد اسرت امى انا شخصيا بواسطة طلاب الرقيق من العرب وكان لابد من انقاذها . لم يتم ذلك بالمطالبة بالعدل شفاهة ، وانما تم بالقوة .

هذا ما ادركه اخواننا فى الغابة ، اذ لم يعودوا يرون اى جدوى من العمل فى اطار الديمقراطية المزعومة . بما ان الموجودين منا هنا قد اختاروا الكلام ، فسوف نواصل تضخيم الديمقراطية بالكلمات عديمة الجدوى . ولكن ماهو المبرر الاخلاقى لمطالبتنا لاخوتنا فى الغابة بأن يضعوا السلاح ؟ ماهى الدلائل التى نشير اليها لنعدهم بالتغيير من خلال الكلمات ؟ وماذا راينا نحن لنقنع انفسنا بأن من يتسلطون على حياتنا السياسية يعترفون بنظام اخلاقى اعلى ، يعترفون بقانون الانسانية الذى يفرض وضعا جديدا يتناسب مع وعى وحنكة بل وحضارة امتنا ؟ سنواصل الحديث والاعتماد على تلك المبادىء ، ولكن ليس لدينا المبرر الأخلاقى لادانة حمل اخوتنا للسلاح . اذا كان سلوكنا يشكل جريمة يعاقب عليها القانون ، فللقائمين على امر تحديد مبادىء العدل فى هذا البلد أن يفعلوا بنا ما يشاؤون » .

وعندما جلس وسط تصفيق يصم الآذان من نواب المناطق الاكثر تأثرا بحديثه ، كان من الواضح أن الياس قد تفوق فى ذلك اليوم . طالب بركه بالحاح لفرصة الرد وأعطيت له الفرصة . ولحالة الخزى التى لم يملك حتى هو الا أن يشعر بها ، فقد اختار أن يرد على مسألة واحدة وهى ادعاءات الرق ومساهمة العرب فى حضارة البلاد .

ـ لقد درج الاخ الياس على التلاعب بالحقائق لتحقيق غرضه الخاص ، وقد فعل ذلك ببراعة فائقة فى مسألة الرق . لقد سَمّ العرب من وصمهم دائما كانهم هم الجنس الوحيد الذى مارس تجارة الرقيق . فالاوربيون الذين يزكيهم الافارقة بأنهم قد انقذوهم من الغزاة العرب لم يكونوا متورطين فى تجارة الرقيق فحسب ، بل كانوا اسيادها . وفى الحقيقة ، حتى السود انفسهم الذين يجدون الشفقة الآن بوصفهم ضحايا ابرياء لتجارة الرق لم يكتفوا ببيع أهلهم هم بل أخذوا العبيد من القبائل العربية ايضا . تحدث الاخ الياس عن أخذ العرب لوالدته وانقاذها فيما بعد بواسطة اهله هو . انى اكره إقحام مسائل شخصية فى أمور الدولة ، ولكنى اود أن اطلع الاخ الياس على امر ما . انا لا اذكر حتى مجرد رؤيتى لوالدتى وليس ذلك لأنها ماتت قبل أن اعرفها وانما لأن الدينكا قد أخذوها والافتراض بأنهم قد استرقوها .

كذلك تحدث الياس عن هجرة العرب الى السودان وعن اثرهم السيىء على البلاد . وقد تحدث وكأن الاثر الوحيد للعرب هو تسلطهم واخضاعهم لغير العرب . ان هذا القول يلقى بالضوء السلبى على صفحة ايجابية من تاريخنا . لماذا لانملك الشجاعة الاخلاقية الضرورية لتسمية الاشياء باسمائها ؟ لنعترف بالحقيقة وهى انه ، وعبر كل التاريخ ، تشكل العالم بواسطة موجات كبرى من الحضارات العالمية . قد ينظر بعض الناس ، وربما ينظر أغلب الناس ، اليوم الى العرب كاثر لحضارة غابرة . ولدى بعض الناس ،

حتى فى هذا البلد ، عندما يقال عن الشخص بانه « عربى » يوحى ذلك بانه « بدوى » متخلف يحرص على رفقة جماله وعلى قيم بالية ماعادت قادرة على مواكبة الحياة فى الاطار العالمى الحديث . ولكن يجب الا ننسى أن العرب كانوا رواد حضارة منتعشة قامت على حنكة العلوم والقدرة التقنية فى وقت كانت فيه أوربا التى تعتبر الآن سيدة التقدم ، كانت لاتزال غارقة فى هاوية الجهل والوحشية . لقد كان أجدادنا هم الذين أتوا لهذه الامة بشعاع الاستنارة ومنحوا أهل السودان نقطة التطلع الاعلى التى رفعتهم على افريقيا السوداء الى يومنا هذا .

وهكذا ، ياسيدى الرئيس ، دعنا نتفكر فيما نسمع . اذا كان لك الخيار ، فهل تختار ان تحسب فى عداد قوم وقارة لاتزال الصورة الشائعة عنهم وعنها فى العالم هى صورة الفقر المادى والأخلاقى والروحى ؟ أم تختار أن تحسب من اهل حضارة عالمية يمثلها خاتم أنبياء الله ؟ انى اعتمد على امانتك فى الاجابة على هذا السؤال » .

وتلقى بركه ايضا تصفيقا حادا ، أغلبه من العرب والاسلاميين الاصوليين . رفع الياس يده ليطلب فرصة الرد ، لكن الجيلانى ، تحسبا لتصاعد حرب الكلمات ، قرر أن الرجلين قد تبادلا مايكفى من الكلام واختار أن يعطى الفرصة لآخرين ليتحدثوا عن الموضوع المدرج فى قائمة أعمال الجمعية .

ـ سوف نناقش موضوع الدين فى الاسبوع القادم ولا أشك فى أنكم ستجدون الداعى للعودة لبعض هذه الموضوعات .

قال الجيلانى ذلك فى توضيح رفضه لاعطاء الفرصة لالياس . وعندما صوتت الجمعية فى نهاية الأمر حول تحريم نشاط « التجمع » سقطت التوصية بفارق كبير فى الاصوات ، مما أشار الى أن قاعدة عريضة من بين أعضاء الاحزاب الحاكمة تؤيد وتدعم التعددية والتنوع الثقافى .

ثم جاء دور النقاش لمسألة الشريعة الاسلامية حيث كان الموضوع بالتحديد هو : هل تبقى أم تعدل أم تلغى قوانين سبتمبر القائمة على الشريعة الاسلامية . اراد « الاخوان المسلمون » الذين اعادوا تنظيم وتوثيق تأييدهم تحت اسم الجبهة الاسلامية القومية ، ارادوا الاحتفاظ بقوانين سبتمبر . أما حزب أمة الاسلام الحاكم ، والذى تعارضه الجبهة الاسلامية القومية رغم مشاركتها إياه القاعدة الدينية ، فقد أراد استبدال قوانين سبتمبر بقوانين اسلامية اكثر مناسبة لواقع الأحوال . ومع أن الرأى العام لم يستفت فى الامر ، فقد كان من الواضح ان الاجماع القومى العريض يقول بالغاء قوانين سبتمبر ليس لأن تطبيقها يقسم الامة فحسب وانما ايضا لأن الخبراء يقولون بأنها تشويه للشريعة الاسلامية نفسها . وبصورة خاصة ، يرفض الاجماع القومى القطع القاسى لأيدى وأرجل صغار اللصوص ، ويقدم ذلك الرفض ليس على اسس اخلاقية عامة فحسب بل ولمخالفته للمبادىء الاصولية للفقه الاسلامى ايضا . فمن الناحية الشرعية لاينبغى تطبيق تلك العقوبات الشديدة الا اذا وفرت الدولة سبل العيش الكريم . وبحكم الفقر السائد فى السودان ، فان ذلك كان بعيدا كل البعد عن واقع الحال . وعلى العكس من ذلك ، فقد كان معلوما للجميع أن معظم المجرمين الذين قطعت ايديهم وارجلهم كانوا من الفقراء المهاجرين من الغرب والجنوب ، بل ولم يكن العديد منهم حتى مسلمين .

وعندما علم الياس بمحض الصدفة ان محاكمة أحد صبيان الدينكا بجريمة السرقة تتم صباح يوم النقاش فى الجمعية ، قرر حضور المحاكمة قبل الذهاب الى الجمعية . دخل الى حجرة المحكمة بصورة غير ملفتة للأنظار وجلس وسط جموع المشاهدين ، وهم خليط من الشماليين والجنوبيين ، منهم المسلمون والمسيحيون والمعتنقون لديانات افريقية محلية . وقد انبعث منهم تنوع فى المشاعر ، يتفاوت بين الاثارة والقلق والاكتئاب لتطبيق العقوبات الاسلامية الصارمة .

كانت المحكمة من النوع الذى يسمى بمحاكم الطوارىء التى سميت فيما بعد بمحاكم العدالة الناجزة ، وكان المنير قد أنشأ تلك المحاكم لتطبيق قوانين سبتمبر . كانت قاعة المحكمة خالية من الاثاث ، وجلس ثلاثة قضاة على دكة مرتفعة . جلس رئيس المحكمة فى الوسط ، وهو قاضى متمرس فاتح اللون وفى أواخر الثلاثينيات من العمر ، وقد عرف عنه انه من أصحاب المعتقدات الاصولية الاسلامية . أما الاثنان الآخران فقد كانا من المعاونين غير المؤهلين بدراسة القانون ، ومن الواضح انهما كانا أصغر سنا وخاضعين لنفوذ الرئيس .

أما المتهم فقد كان شابا نحيل الجسم يرتدى سروالا مهترئا وقميصا . ظهر وكأنه دون العشرين من العمر أو فوقها بقليل . ووقف خلفه رجل شرطة ذو كرش كبير وهو يحمل بندقية .

ـ ما اسمك ؟ « سأل القاضى المتهم فى احتقار ظاهر » .

أجاب الشاب ببساطة تعود نوعاً ما إلى جهله باللغة العربية إذ أنه قد جاء إلى حياة المدينة منذ عهد قريب : أكوت .

ـ أليس لك أب ؟

ـ انه ميت

ـ هل مات بلا اسم ؟

ـ كان اسمه اليو

ـ هل تمت بصلة القرابة لنيل أليو ، النائب السابق للرئيس ؟

ـ لا ، ولكن كلانا من الدينكا !

قال الشاب موضحا فى لغته العربية الضعيفة .

قال الرئيس بسخرية : هذا القدر واضح لى لا داعى لأن تقول ذلك بكل تلك العزة وكأن الدينكا هم شعب الله المختار . ما اسم جدك ؟

أدرك الشاب أن المحاكمة قد بدأت بصورة غير موفقة ، فقرر تجاهل التعليق عن الدينكا واكتفى بقول اسم جده : مارول .

ـ حسناً إذن يا أكوت ما قولك ؟ أنك متهم بسرقة شباك وباب تم بيعهما فيما بعد .

ـ ياجناب القاضى ، لقد رأيت الشباك والباب على مايبدو وكأنه كوم من الاوساخ . وعندما سمعت فيما بعد بحاجة أحدهم لمواد لاصلاح منزل قديم ، قلت له انى استطيع أن احضر له باب وشباك اذا كان هو على استعداد لدفع قيمتهما . واجاب بأنه سيدفع القيمة لكنه يجب أن يراهما قبل الاتفاق على الثمن . ولاحسن من مظهرهما ، ذهبت واخذتهما بعيدا عن كوم الاوساخ وتركتهما تحت عناية حارس . ويبدو أن المقاول شاهدها عند الحارس ،

وعندما أخبروه بأنى أحضرتهما إلى هناك ذهب وأبلغ الشرطة عنى . وتم القبض على .
وسأل أحد القضاة الشاب المتهم :
- ماهو عملك ؟
- لا عمل لى ياجناب القاضى .
- ماذا تعنى بقولك لا عمل لى ؟ الا تعمل بشىء لكسب العيش ؟
- من حين لآخر أعمل فى مواقع البناء مقابل أجر يومى ، لكنهم لا يحتاجون للعمال دائما .
وعلى كل حال ، فمعظم رؤساء العمل من النوير وهم ينصحون المقاولين بأخذ أهلهم هم .

ظهر على رئيس المحكمة عدم الارتياح لاتجاه الاسئلة ، فقال مقاطعا زميله بصورة تكاد تكون وقحة :
- نحن لانعنى فى حقيقة الامر بما تعمل وبما لاتعمل . مايهم هو انك قد سرقت مال شخص اخر . وانت تعلم ماتفعل الشريعة باللصوص ؟
وبصورة شبه غريزية قال الشاب غاضبا :
- انا لست بلص .. انا لست بلص..

اشتعل الياس غضبا لكنه ظل صامتا رغم ذلك . أدرك الياس بأن القاضى جاهل تماما بالعرف الأخلاقى لدى الدينكا ولم تكن لديه ادنى فكرة عن أن السرقة فى الدينكا من أسوأ الجرائم التى يمكن للرجل ان يتهم بها .
- لقد اخبرتك بأنى أخذت الاشياء لأنى أعتقدت بأنها قد اهملت ووضعت مع الاوساخ وانى اخذتها لانى وجدت من هو على استعداد ليدفع ثمنا لها
قال أكوت ذلك ليقاوم التهمة ، ولكن رئيس المحكمة واصل أسئلته
- لقد كنت تعلم ان لتلك الاشياء قيمة مالية ، وانت قد أخذتها فى الحقيقه لتبيعها . فحتى لو كانت على كوم من الاوساخ ، فقد كان من الواجب عليك أن تعلم ، بل لقد كنت تعلم فعلا ، بأنه من المحتمل أن تكون لتلك الاوساخ قيمة مالية .
- الا يستطيع هذا العربى أن يسمع ؟
قال اكوت بلغة الدينكا مما جعل الدينكا من الحضور ينفجرون بالضحك .
ثم أضاف باللغة العربية:
- لماذا تصر على وصفى بأنى لص مع انى قد أوضحت لك لتوى بأنى لست بلص ؟

وهنا تساءل رئيس المحكمة فى تشكك :
- انى رجل مثلك ولى كرامتى أيضا . لماذا تصر على اهانتى ؟
- ماذا قلت بلغه الدينكا ؟ . : ماذا قلت بلغة الدينكا ؟
وواصل الشاب الحديث :
- لاينبغى الإساءة للرجال بلا سبب . لماذا لاتقدر على سماع كلماتى ؟
- ماذا قلت ؟
- هذا ماقلت من قبل : لماذا لا تقدر على سماعى ؟
همهم الرئيس لزملائه باللغة العربية لبعض الوقت ثم أعلن :
- أمامنا قائمة طويلة للقضايا الواجبة السماع . وهذه قضية واضحة ولا ينبغى أن تستهلك وقتا بلا موجب .

ثم استدار نحو المتهم وقال :
- ان المحكمة تجدك مذنبا بجريمة السرقة وتحكم عليك بقطع اليد اليمنى من الكف
ثم همهم لنفسه بصوت مسموع :
- ليدفع العبد الثمن لجمعه بين السرقة واساءة المحكمة .. الى القضية التالية
احضر المتهم الويل.مليك
- هل هذه هى المرأة الجنوبية التى تتاجر فى المريسة (الجعة البلدية) ؟
- اجاب الشرطى - نعم ياجناب القاضى وهى ايضا من الدينكا .

بعد مراقبة هذه الاجراءات ، أسرع الياس الى الجمعية حيث كان النقاش يجرى حول قوانين سبتمبر . وبعد أن أرسل بمذكرة قصيرة لرئيس الجمعية يطلب فيها الحديث بأول فرصة ، جلس وهو يتشوق لدوره . وعندما جاء دوره كان لايزال يشتعل غضبا .

- سيداتى سادتى ، لقد شاهدت لتوى مشهدا مروعا ومشينا لدرجة انه لو كانت أغلبيتكم هناك ، لتصرفنا الآن بلا نقاش تقريبا . لقد حضرت قبل قليل محاكمة رجل بتهمة السرقة وقد أدين وحكم عليه بقطع اليد . ولكن ليس هذا هو الموضوع الجوهرى ، اذ يمكن أن يقال أن هذه الوقائع البسيطة تعبر عن نظام قانونى . ان الجريمة الحقيقية هى أن هذه المحاكمة نفسها كانت مهزلة ، وامتهانا مرفوضا لقيم العدل بأى معيار معقول من معايير الانسانية ، دع عنك الحضارة والمدنية . لقد كانت محاكمة مشحونة من أولها الى آخرها بالتحيز العرقى والتعصب والاضطهاد .

ثم واصل الياس الحديث ليصف المحاكمة فى تفصيل كبير ، وانتهى بتعليق القاضى عن « العبد » الواقف امامه .

واختتم الياس حديثه بقوله :
- ياأعضاء الجمعية المحترمون. لايوافق الفقه الاسلامى على توقيع هذه القوانين ، وبخاصة على تطبيق هذه العقوبات القاسية ضد السرقة ، الا اذا أزالت الدولة الفقر وضمنت ضروريات الحياة التى قد تضطر الفقير الى ارتكاب تلك الجرائم . لا يقدر أحد أن يزعم باننا قد وفرنا الشروط لتطبيق هذه العقوبات فى السودان . واذا فعلنا أى شىء فهو اننا قد حرمنا أهلنا بدلا من توفير السبل لهم لمقابلة احتياجاتهم الضرورية . وبهذا المعنى ، فان هذا التطبيق الأخرق لأحكام الشريعة هو فى الحقيقة معارض للشريعة نفسها .

« ايها السيدات والسادة ، نحن أعلى سلطة تشريعية فى البلاد . اذا لم نوقف المحاكم فورا عن هذا العمل القذر ، فاننا نكون قد فشلنا فى أداء واجبنا المقدس . بل واقول ، اكثر من ذلك ، أن الله الذى يتم باسمه سوء استغلال السلطات بهذه الطريقة المريعة سيجعلنا فى نهاية الأمر ندفع الثمن لفشلنا ، هذا اذا سمح لنا أهل هذا البلد بمواصلة اقرارنا الراهن لهذا الشر المستطير . وأنا شخصيا سأعانى من وخز الضمير اذا واصلت التظاهر بأنى من المشرعين فى مؤسسة ترضى عن هذه الممارسات فى الوقت الحاضر .

وعندما جلس الياس ، حل صمت مهيب على الجمعية مما جعل طلب بركه لفرصة الحديث يبدو عاليا أكثر من المعتاد . قال :
- ياسيدى الرئيس لدى كلمة قصيرة ..

أعطى الفرصة فواصل الحديث :
- تحدث أخونا الياس ببلاغه كاملة وقد حققت كلماته غايتها بلا ادنى شك . لكنى أحب أن أذكر هذه الجمعية المحترمة اننا لانجلس هنا لنشرع على اساس العواطف . ما قاله إلياس يتعلق بحالة واحدة من حالات إجهاض مزعوم للعدالة وهو أمر إجرائى محض . نحن بالطبع لانعرف حقيقة ما حدث ، ولكن لو قبلنا صحة ما قاله الياس ، فانه لا يشكك اطلاقا فى مشروعية تطبيق الشريعة ، وانما يتعلق بالطريقة التى طبقتها بها محكمة معينة . هناك اجراءات مقررة للحد من مثل هذه التجاوزات . لا ينبغى أن تحملنا العاطفية او نقفز الى النتائج عن كل النظام القانونى أو نفعل أى شىء يضعف من موقفه . أن الشريعة هى التعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى ، ولايعقل على الاطلاق أن تكون مجافية لمقتضى العدل . انه فقط الخطأ البشرى الذى ربما يكون قد اساء فهمها وتطبيقها . ان هذا الأمر فى غاية الدقة وينبغى ان نكون على اقصى درجات الحذر .

وعندما جلس بركه وسط صيحات الموافقة من جانب الاصوليين الإسلاميين ، طلب بيتر مالودا ، وهو من الاستوائية ومن قبيلة البارى ، طلب الفرصة للحديث .

اشتهر بيتر بعدائه للعرب . وقد بدأ تعامله السياسى مع الياس ، والذى صار فيما بعد نوعا من الصداقة ، بدأ بحادثة كشفت عن عداء بيتر العميق الجذور للعرب . وقد تشكل رايه فى الياس لدى الوهلة الأولى على اساس ماسمع عن تعليم إلياس وعلاقته بالعميد على .. وعصر ذات يوم قام بيتر وبعض الاصدقاء بزيارة الياس الذى اجلسهم ثم خرج من حجرة الجلوس ليطلب لهم بعض المشروبات . وماكاد يغادر الغرفة حتى سمع بيتر يهمس بقوله :

- انى اكره ان ارى احد الاخوان فى ملابس عربية ..

وعندما انضم الى ضيوفه مرة اخرى ، شرع الياس فى الحديث بقوله :

- ياأخى ، اذا كنا نقاوم التحيز ، فهل ينبغى ان نصبح انفسنا نماذج للتحيز الأعمى .

تحدث إلياس بصورة مداعبة وعلى وجهه ابتسامة ، ثم أضاف ليوضح الموقف :

- فى تقديرى ، انه من التحيز الاعمى ان نكره ملابس تتناسب والمناخ الذى نعيش فيه مع خصومنا السياسيين والذين تواءموا مع ذلك المناخ بطريقة افضل منا .

ضحك الضيوف فى دهشة لأنه سمع ماقيل وفى تقدير للطريقة الخفيفة الظل التى رد بها . اجاب بيتر بقوله :

- ياأخ الياس ، لابد من الاقرار بالحق عندما يقال . انك محق تماما وانا اشكرك على تعليمى هذا الدرس .

ومنذ ذلك اليوم ، تقارب الأثنان من بعضهما البعض حتى أصبحا من أكثر من يكمل بعضهما بعضا من بين السياسيين الجنوبيين . ولدرجة ما ، كان ذلك حقا لأنه ، ورغم اختلافهما فى العديد من النواحى ، فقد احتفظا بتحالف سياسى متين . لذلك كان من المتوقع أن يطلب بيتر الفرصة للرد على مناقضة بركه لما قاله الياس . حيث قال :

- ياسيدى الرئيس . فى غالب الاحوال تعكس الكلمات مستوى البراعة وليس مستوى الحقيقه . لاينبغى أن نتجنب العواطف لأن العاطفية فى بعض الاحيان تحكى الحقيقة اكثر مما تحكيها البراعة . لقد أفلح المتحدث الأخير فى تغطية الحقيقة عن طريق البراعة وأبعدنا عن ارادة الله التى عبر عنها أخونا الياس بكلماته المؤثرة . من يملك ان يخبرنا اين نجد الله حتى نستوثق من الحقيقة منه ؟ اين يذهب الرجل المسكين الذى يسقط

ضحية لاستغلال قوانين الله لأغراض دنيوية ، اين يذهب ليجد العدل ؟ كيف نميز بين الله الذى يتحدث عنه بركه وبين من عينوا انفسهم خلفاء له على الارض ، وهم يتفاوتون بين المنير والقاضى الذى شاهد عمله الياس ؟ هل يريد لنا بركه أن نعيش فى حلم الاتقان الالهى ، بينما ينهار العالم باسم ذلك الاتقان ؟

انى أقول للأخ بركه اننا نرى الله بطريقة مختلفة . أن الله يتحدث الينا بطرق مختلفة وما نسمعه منه يتفاوت كثيرا من مجتمع لمجتمع ومن شخص لآخر . كيف نوحد تلك الرسالة ؟ هذا هو السؤال . ولكن بينما نطلب الاجابة على هذا السؤال ، باسم الله اسالكم ان نوقف قطع الايدى والارجل وكأننا جزارو البشرية .

انفجرت الجمعية فى خليط من التصفيق وصيحات الغضب ، مما يؤشر لفعالية قول بيتر واثره فى تقسيم الحضور .

تواصل النقاش حتى وقت متأخر من ساعات العمل ولكن ، فى نهاية الأمر ، قررت الجمعية تكوين لجنة برئاسة عضو محترم من أعضاء الجمعية هو أحمد ود السلطان ، من علية القوم فى دارفور . كان على اللجنة التحرى فى الموقف والتوصية عما اذا كانت جرائم مثل السرقة والتعامل فى المشروبات المسكرة ترجع الى حالة الفقر والحرمان ومن ثمة لا ينبغى ان توقع عليها العقوبات الشرعية الصارمة . وتم تعيين كل من الياس وبركه لعضوية اللجنة .

اجتمعت اللجنة واستمعت إلى العديد من الشهود . وقادت بعض البيانات المقدمة للجنة إلى اكتشاف شبكة كثيفة من « اللصوص » بقيادة رجل يقال بأنه قد جمع قدراً هائلاً من الثروة والقوة فى عالم صغار المجرمين . كان اسم الرجل هو التوم حسب الرسول . وسرعان ما تكشف أن التوم حسب الرسول يتحكم فى سوق المال المسروق وأن أغلب ما يسرق يذهب اليه أولا . وكان هو الذى يقرر اين تباع الاشياء المسروقة من خلال المخارج العديدة التى تمتد بعرض البلاد وطولها . كذلك ظهر أن جزءا من عمل التوم هو « معاونة » ضحايا السرقة على متابعة أموالهم على افتراض أنه يفعل ذلك من خلال قدراته السحرية ومقابل أجر زهيد بالمقارنة لقيمة الاشياء المسروقة .

تمكنت الشرطة من معرفة مكان التوم وتم القبض عليه ، ولكن كان من الواضح أنه لن يفصح عن أى معلومات تهدد امبراطوريته الهائلة . تحصل التوم على خدمات أحسن المحامين بالخرطوم والذى نصحه بأن يلزم الصمت . وعجزت الشرطة عن الحصول على أى معلومات اضافية منه عن امبراطوريته الاجرامية .

وبعد مشاورات مكثفة مع محاميه ، قررت اللجنة أنه من الأفضل منح التوم حسب الرسول حصانة ضد الاجراءات الجنائية أو المدنية وذلك لمصلحة التحقيق ومن اجل التفهم الأفضل للجذور الاجتماعية للجريمة ، وبخاصة فى العاصمة المثلثة ، وكان ذلك كافيا لاغراء التوم بالتعاون مع اللجنة .

أصبحت اجراءات سماع اللجنة ، والتى كانت تذاع من خلال الراديو والتلفزيون ، أصبحت مصدرا للمتعة والترفيه لجمهور المدينة . وكانت الجلسة التى شهد فيها التوم ممتعة للغاية . كان التوم داخل حجرة اللجنة وعلى وشك الشروع فى اداء شهادته عندما دخل الياس . ورغم أنه كان جالسا ، فقد ظهر أن التوم رجل طويل وضخم الجثة . كان يرتدى جلبابا ابيض بدا أكبر حجما من جسده الكبير ، وعلى راسه عمامة ملفوفة بطريقة مسترخية ومائلة الى أحد الجانبين . وفى يده مسبحة اخذ يداعب حباتها وكأنه يؤكد انه

مسلم تقى وورع ولا يمكن ان يكون مجرما وعلى التحقيق لم يكن لصا . وفى الحقيقة كانت هناك هيئة البراءة والبساطة الموضوعة بعناية على وجهه . لم يظهر بأنه رجل ساذج لكنه ايضا لم يشع بذكاء المجرم المتمرس . وبعبارة اخرى ، فقد ظهر أن التوم كان لغزا حقيقيا ، وحالة جديرة بالدراسة والفحص حقا .

طلب منه رئيس اللجنة احمد ود السلطان .

- أرجو أن تذكر اسمك بالكامل .

- التوم حسب الرسول .

« هذا اسمك واسم والدك فقط . لاغراض السجل نحتاج فى العادة لاسم الجد ايضا » .

- فى الحقيقة حسب الرسول ليس اسم والدى .

ادهشت هذه المعلومة اعضاء اللجنة ، فسأله احمد ود السلطان :

- ماذا تعنى ؟

- كما أن التوم ليس باسمى الحقيقى ايضا .

- انا لا افهم .

- ان روايتى طويلة ومعقدة يا سيدى رئيس اللجنة وأيها الأعضاء المحترمون لقد آتيت من الجنوب وأنا شاب صغير ابحث عن العمل فى العاصمة ، ولم اجد اية مهنة تناسبنى . فقد كنت عاجزا جسديا عن اداء أى عمل يدوى شاق ولم اعتبر نفسى مؤهلا للخدمة المنزلية لا من الناحية الجسدية ولا من ناحية المزاج .

كانت لهجة التوم العربية ممتازة تقريبا ، فهى دارجية نوعا ما ، ولكنها تخلو من أى لكنة اعجمية .

وسأل الرئيس :

- وأى نوع من العمل كنت تتوقع ان تؤديه عند حضورك الى هنا ؟

- لا أعرف ولا أعتقد أنى فكرت فى الأمر قبل ذلك . لأسباب لا نحتاج لتفصيلها هنا وجدت نفسى فى موقف عصيب عند أهلى وكان الحضور إلى المدينة هو مخرجى الوحيد .

وتساءل أحد اعضاء اللجنة قائلا :

- وما هو الموقف العصيب الذى وجدت نفسك فيه عند أهلك ؟ فبخلاف ما تعتقد ، قد يكون ذلك متعلقا بعملنا هنا .

- اكون شاكرا لو اعفيتنى من اجابة هذا السؤال .

- حسنا ، لنعد الى اسمك .

- عندما وصلت الى الشمال ، أردت حقا ان افتح صفحة جديدة فى حياتى ، وهكذا منحت نفسى اسم التوم حسب الرسول .

- قلت بأنك لم تجد العمل الذى يناسبك ، فماذا فعلت اذن ؟

- لقد اكتشفت بسرعة ان هناك العديد من الشباب من الجنوب يواجهون نفس الموقف فحتى القادرون جسدياً على أداء أى عمل لم يجدو العمل . كما حدث للعديد منهم مشاكل مع سلطات الأمن لتصرفات ما كانوا يعلمون بأنها تخالف القانون . لذلك تحتم علينا أن ننتظم ونعمل على حماية أهلنا من التطبيق العشوائى لقانون لم نشعر بأنه ينتسب إلينا .

قال رئيس اللجنة :

- أرجو أن تخبر اللجنة بالحقيقة كاملة فأنت قد أقسمت على قول الحق كما تعلم بأنك معفى من أى مسئولية جنائية كانت أم مدنية .

- لسبب ما كان الجميع ينظرون الى طلبا للتوجيه والمساعدة . فأنا كنت فى حاجة لهم وكانوا هم فى حاجة لى . وكان غذائى اليومى يأتى من هباتهم رغم أنهم كانوا ينظرون لى كزعيم لهم . وتحتم على أن أنهض لمستوى تحدى الزعامة التى عرضوها على .

وعم الصمت قاعة اللجنة .

- كنت منتبها لنوعين من المصالح . من ناحية هناك مصالح قومى الذين كانوا فى أشد الحاجة وقد وجدوا أنفسهم ضحايا لمجتمع ولنظام قانونى لا ينتمون اليهما فى حقيقة الأمر . ومن الناحية الأخرى هناك مصالح الضحايا الأبرياء لتلك الأعمال الانتقامية والجرائم الناشئة عن الضرورة والذين لم يكونوا مسئولين عن سوء حظهم . لذلك كان على أن أصمم نظاماً يؤمن احتياجات كل من الطرفين .

وفكر الياس لنفسه ..

- يالها من معضلة .

- قد أدركت أن قيمة المال المسروق ليست فى عين المال وإنما فى قيمة بيعه . لذلك قررت أن أفتح سوقا للمال المسروق ، ولكننى أردت أيضا أن أعطى أصحاب المال المسروق فرصة لاستعادة أموالهم مقابل أجر زهيد . وفى الحقيقة ، بما أن الأشياء العظيمة الثمن يسهل التعرف عليها فى السوق الأسود كمال مسروق ، فقد أنشأت نظاما للمشورة المتخصصة فى متابعة المال المسروق ، على زعم أن المتابعة تتم بواسطة الرؤيا الروحية التى أشيع بأنى أملكها . بطبيعة الحال ، اعتمدنا على اعتقادات أهلنا فى الخرافة التى دعمت ما أشيع عنى بأنى أملك قوى روحية تمكننى من التعرف على مكان المال المسروق .

فسألة بركة قائلا :

- وكيف استطعت أن تفعل ذلك ؟

ظهر أن التوم كان يتوقع السؤال فأجاب :

- بالتحكم فى سوق المال المسروق وبتقديم الارشاد لضحايا السرقة . تلك هى الطريقة التى أتقنت بها وسائلى فى البحث الروحى والعلمى .

استغرق الجميع فى حديث التوم وكأنه يقول كل الحق ولا شىء غير الحق لكى يكفر عن سيئاته . لكنه لم يظهر أى شىء من الشعور بالذنب أو الندم لما فعله من قبل .

وسأله رئيس اللجنة :

- وكيف كنت تلفت نظر ضحايا السرقة الى خدماتك ؟

- فى غالب الحال ، من خلال الكلام الشفهى والذى يوجه من حين لآخر الى أشخاص الضحايا أنفسهم ولكن مع ضمان أن يظهر الأمر طبيعيا وعرضيا وليس كجزء من مخطط كبير .

فقال الرئيس مذكرا :

- لقد قلت من قبل أنك لم تقدر على الحصول على عمل مناسب من الواضح أنك قصدت

بانك غير قادر على اداء أعمال معينة ، هل يمكنك توضيح هذا ؟ ماذا كانت مشكلتك ؟
لم يرد التوم فورا بل دفن وجهه في راحتي يديه ، وحل الصمت مرة أخرى على أعضاء اللجنة .
- لا أعرف أين ابدأ ، فهي رواية مؤلمة لدرجة يصعب استذكارها .
- نأسف لاضطرارك للاجابة ، ولكن ذلك سيعين اللجنة في تقدير حالتك وحالة الآخرين الذين يجدون انفسهم في مواقف شبيهة .
- أرجو أن لا تروا عيبا في يدي وراسي
ولقيت دعابة التوم الضحك من الجميع .
- لاشك أن أولئك الذين رأوني وانا ادخل قد لاحظوا وجود المشكلة . يعود الأمر الى وقت طويل ، ولم اكن حتى وقتها في العمر الذي يمكنني من أن اتذكر ما حدث . هجم غزاة من العرب على قريتنا ، وخلال الهجوم قبض على أمي واخي التوام وحملا على ظهر الجياد . أما أنا فقد سقطت وكسرت عظم حوض المقعد . كان الاذى اكبر من ان يعالج ، وتحتم على أن أعيش بعاهتي هذه طوال حياتي . وقد كانت المهانة التي تعرضت لها وسط القبيلة بسبب هذه العاهة هي التي ارغمتني على الهجرة الى الشمال . وقد غيرت اسمي لابقى مجهولا وانسى الماضي ، ولكني سميت نفسي التوم للتاكيد بأني حقا احد توامين . كان اسمي لدى الدينكا هو مديت ، وهو أحد الأسماء التي يعطيها الدينكا للمجموعة الثانية من التوام . اسم أخي التوام هو اشويل واسم والدي هو ملينقديت ، وقد كان زعيم قبيلة دينكا ميثانق .
في تلك اللحظة عجز الياس عن مواصلة التحكم في نفسه ، فصاح وهو يقفز من مقعده .
- ماشاء الله ، لقد وجدت أخي في نهاية الأمر ،
ثم قفز نحو التوم وعانقه وهو يقول :
- أنا بول ، أخوك الأصغر . آه يامديت ، مديت أخي الحبيب . لقد وجدتك لقد وجدتك .
وساد الهرج في المكان ، إذ كان الموقف أكبر من أن يصدقه المرء ، وصعق الجميع . نهض أعضاء اللجنة وجمهور الحاضرين وهم يتساءلون عما حدث وعما يمكنهم عمله في ذلك الموقف . هل جن جنون الياس فجأة ؟ ظهر أن ذلك هو أكثر التفسيرات معقولية . ومع ذلك ، كان من المحتمل أيضا أنهما حقا أخوان وقع التفريق بينهما بصورة مأساوية . وتذكر بعض أعضاء اللجنة كيف تحدث الياس عن اختطاف امه وانقاذها فيما بعد . فإذا كان التوم هو أخوه المفقود ، فمن المفهوم حقا أن يكون لقاؤهما عاطفيا في تلك الملابسات .
شعر بعض الناس أنه من الخير حماية الأخوين من فضول آلات تصوير الصحافة والاعلام ، فقادوهما من القاعة الى مكان خاص في مبنى الجمعية . وتأجل اجتماع اللجنة بصورة رسمية وانصرف الجميع وهم في غاية التعجب مما حدث .

الفصل التاسع عشر

رغم أن سنوات الانفصال والتغير قد حولت الأخرين إلى درجة أن أيا منهما لم يقدر على التعرف على الآخر ، إلا أن إلياس كان قد تأثر بالتوم منذ أن وقع نظره عليه . وهو لم يكن يعلم السبب ، إلا أن الرجل بدا مألوفاً له بصورة من الصور . وبالطبع ، بما أن إلياس كان يجلس وسط أعضاء اللجنة الآخرين ، فلم يكن بمقدور التوم أن يركز النظر عليه ، ولذلك لم يتعرف على أى شيء ملفت للنظر فى أمر الياس . ومن الناحية الاخرى ، فقد ظل الياس يتساءل لنفسه عن أمر التوم ، وكلما برزت تفاصيل اكثر من روايته ازداد شعور الياس بأن التوم يبدو مألوفا اكثر . وعندما تم الكشف عن أمر مأساته وخلفيته الأسرية ، تحققت النبوءة بارادة الاسلاف . وبالنسبة لالياس ، فقد كان الامر هو أحد تلك الاحداث المعجزة التى تحول الواقع فجأة الى نوع من العالم الخراف .

وبطبيعة الحال ، فقد تتبع التوم أخبار أسرته بقدر الامكان . وكان ذلك أسهل منذ انتخاب الياس الى البرلمان ، الا أن مزيجا من الخجل والخوف قد منعه من محاولة الاتصال بأهله . لذلك جاءت لحظة التعرف كصدمة له أيضا ، وإن كانت اقل من الصدمة التى لقيها الياس .

وعندما استعاد الياس رباط جأشه من أثر صدمة ذلك اللقاء المعجز ، كان السؤال عن كيفية اخطار والديه . فقد كان يخاف أن تكون آثار الخبر ورد الفعل العاطفى قاضية على والده فى حالته الصحية الضعيفة تلك . ومن الناحية الاخرى ، فقد تجدد من حماسه للحياة مما يمد فى ايامه المعدودة .

شعر الياس بتأكيد وانتعاش لاعتقاده فى تقاليد اهله الروحية بسبب العثور على مديت . الا أن استعادة أخيه المفقود وتشخيص الطبيب لحالة والده ذكره بارادة الاسلاف أن يعيش ملينقديت حتى يتم العثور على ولديه المفقودين . وفى هذا الاطار ، فقد كان ظهور مديت بركة ولعنة فى آن معا . ولكن طالما ظل اشويل مفقودا ، واذا صدق الاسلاف ، فان والده سيبقى حيا حتى يوجد اشويل ايضا .

قرر الياس ومديت ، الذى بعث اسمه القديم فى أوساط الأسرة ، أن يتم نقل والدهما من المستشفى أولا ويجرى اعداده بعناية لتلقى الخبر فى اطار الاهل بالمنزل .

اراد الياس الاحتفال بخروج والده من المستشفى بعمل وليمة شكر او « كرامة » كما يسمى أهل الشمال الاحتفال بالشفاء من المرض . دعا العديد من الناس ، من الاعيان وعامة الناس أيضا ، للوليمة التى تم فيها ذبح ثور وكبش . فبظهور مديت ، أحس الياس بأن الامر قد تحول من مجرد تشجيع كاذب بتحسن صحة والده الى احتفال سعيد حقا باجتماع شمل الاسرة .

خلال الاعداد للوليمة وتجهيز كميات كبيرة من الطعام ، قرر الياس تهيئة والده لتلقى الخبر . وحتى ذلك الحين ، أصدر الياس تعليمات صارمة بعدم تسريب اى شىء عن الامر لوالده . فبما ان الارسال التلفزيونى المباشر قد كان يبث من مكان لقائهما ، فقد أصبحت القصة معروفة فى أنحاء العاصمة المثلثة . لذلك اقتضى الامر التحكم الشديد فى أى احتمال لاخطار شخص ما للشيخ بما حدث . وعندما حلت اللحظة المناسبة ، أحضر الياس مديت الى مكان قريب من المنزل وتركه مع أحد الجيران لحين استدعائه . جلس الياس منفردا مع والده فى حجرة النوم الكبيرة .

شرع الياس فى الحديث بقوله :

- يا والدى ، أود أن تكون مستعدا لما سأخبرك به . لا ينبغى أن أخاطبك بهذه الطريقة لأنى أنا الابن وأنت الوالد ، ولكن من المهم أن تبقى رابط الجأش عندما أخبرك . أريد أن أقول لك يا أبى بأنى قد أصبحت على قناعة تامة بالقوى الروحية لاسلافنا . لقد قلت أنت بأنهم قد وعدوك بأن أسرتنا ستجتمع فى يوم من الايام بأخوى المفقودين . سيتحقق قريبا أحد الاجزاء الرئيسية لذلك اللقاء . لقد وجدنا يا أبى ابنك مديت وهو على أحسن حال .

قاطعه ملينقديت وكأنه لم يكن منتبهاً لحديثه منذ بدايته فقال : ماذا تقول ؟ هل سمعتك تقول بأنكم قد وجدتم مديت ؟

- نعم يا والدى .
- مديتى أنا ؟
- نعم .

ضحك ملينقديت بطريقة توحى بعدم تصديقه للنبأ ، لكنها فى حقيقة الامر كانت ضحكة فرح الانفعال الخفى . ثم نجح فى اظهار الهدوء ، ثم سأل فى رباطة جأش مفتعلة :

- اين هو ؟ ..
- أنه قريب جدا وسيأتى فى أى لحظة .

أطلق ملينقديت أنشودة الرضى بقوله :

- لقد أرسل ثورى العظيم الأرقط اللون خواره نحو السماء ! ليس عندى ما أقوله حتى

ارى مديت بعينى .

فى ذلك الوقت ، أرسل الياس فى طلب مديت الذى حضر وبرفقته جمع من الدينكا بينما كانت النساء يزغردن من الفرح .

وعندما اقتربت الجماعة من بوابة منزل الياس ، اقتنع ملينقديت بأن اجتماعه بمديت سيتم خلال دقائق معدودة ، فنهض وانشد نشيدا قديما يقول :

ربى يا سيد كل الألوان

انت ابو الجنس البشرى

اليك نمد الطرف

فى الأرض وفى السموات

فاذا نلنا شرا

نستلقى فى دعة ثقة فى عدلك

تبدى حكمتك خوافيها فى أوقات معلومة

سبحانك فى الارض وفى العلياء

من عظمتك تجىء مصائرنا !

عندما انفتح الباب ودخلت الجماعة ، نظر ملينقديت نحو ابنه ثم اشاح بنظره عنه بصورة متعمدة وقال :

- دعه يقف هناك . ينبغى أن يبارك طريقه قبل ان يدخل منزل اخيه . آتنى بوعاء من الماء .

احضر له اناء من الفخار الصينى وبه ماء ، فاعترض قائلا :

- ان اسلافنا لا يعرفون هذه الاشياء الحديثة . الا يوجد اناء من القرع الجديد فى هذا المنزل .

ولكن لم يكن هناك أى اناء من القرع ، دع عنك القرع الجديد .

- فلنكتف اذن بما عندنا .

قال ملينقديت موافقا وهو يتناول الاناء ويتفل فيه واخذ يصلى : -

« أنتم يا أرواح أسلافنا وأنت يا الله يا والد الجميع ، هذه كلمة شكر لكم . اننا نشكركم من اعماق قلوبنا . لو كنت عند أهلى ، لاستدعت هذه المناسبة تقديم القرابين من الثيران لاسمائكم العظيمة . لكننا بعيدون عن أهلنا ، لذلك لابد من تعديل توقعاتكم . لقد تأكدت دائما بأن وعدكم لى سيتحقق . انى أعلم بأن ابنى مديت قد كان غائبا لوقت طويل . ولكن ما تقول أرواح الاسلاف بأنه سيكون لابد أن يكون . انا لم اشك فى ذلك مطلقا . ورغم ذلك ، عندما تتحقق ارادتكم كما حدث الآن ، فان الفرح باحسانكم يغمرنا ، وبما أن الاحسان هو حقا واجب الوالد نحو الابن ، فانكم لم تفعلوا شيئا خارقا . ولكننا نقر ببركتكم ونشعر بالشكر والامتنان كأطفال لكم . ليكن اجتماع الشمل هذا مصدر قوة للاطفال ليخدموكم لدرجة اكبر حتى مما مضى . رغم أن قلوبهم قد استولت عليها كلمات أجنبية ، فان ما فعلتم اليوم سيقوى من اعتقادهم فى أرواح الاسلاف . سيكرمون اسمائكم اليوم باكثر مما فعلوا من قبل » .

ثم استدار نحو جمهرة الحضور الذين كانوا مستغرقين فى صلاته وقال :

- ليتقدم مديت إلى الامام .

وعندما تقدم مديت ، وبدون أن يلمسه أو حتى يركز نظره عليه ، رش ملينقديت بعض الماء من القدح تجاه مديت وهو يلمس قدميه ويديه وجبهته وصدره ، وذلك نوع من الطقوس الموغلة فى القدم والتى تشبه المباركة المسيحية . وبعد ذلك قذف بنفسه نحو ابنه واحتضنه .

وقال وهو يضع صدره على صدر مديت ويحيطه بذراعيه :

ـ هل هذا أنت حقا يا بنى ؟ هل حقا جمعنا الاسلاف معا قبل أن أموت ؟ تبارك الله ، ففى مقدورى الآن أن أموت فى سلام .

لم يقدر ألويل ، أم الاولاد ، على احتمال الموقف ، فأشاحت بوجهها بعيدا وهى تبكى وكأنها فى حالة صدمة . وهى لا تود حتى أن تواجه مديت ، فهى على ما يبدو لا تطمئن تماما أن ما يحدث هو الواقع حقا . فكأنما كانت هنالك روح شريرة تخدعهم بأن ابنا لابد أن يكون قد مات منذ وقت طويل هو فى الحقيقة حى يرزق . بدا لها وكأن الجسد القائم امامها لم يكن فى الحقيقة ولدها وانما هو « شبح » ربما تصدر عنه النجاسة الروحية . كيف يمكن لمديت أن يعود الى الحياة وهو ولاشك قد مات منذ وقت طويل ؟ وعندما عرفت الويل فى نهاية الامر بأن ابنها قد قام حقا من بين الاموات وأنه حقيقى ، كتب لها هى ايضا عمر جديد وبقيت أمنيتها الوحيدة ان يتم العثور على اشويل أيضا . فظهور مديت الآن جعل احتمال العثور على اشويل اكثر معقولية مما كانت تجرؤ حتى على أن تأمل فيه من قبل .

ولم تكن الويل هى الوحيدة التى تصاعدت توقعاتها ، فحتى الياس قد بدأ يعتقد بأنه طالما تحققت ارادة الاسلاف بالعثور على مديت فليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأنها ستنجح فى تتبع آثار اشويل . فبصورة من الصور ، أصبح هو من المعتقدين فى نبوءة الدينكا ، وشعر فى قرارة نفسه بالثقة بأن الاسرة ستتوحد وتجتمع باشويل ان طال الزمن او قصر .

كانت رواية مديت لما حدث له منذ اختفائه أطول ، وربما اكثر ايلاما ، من أن يستذكرها المرء فى ظروف جمع الشمل السعيد ولابد من أن تنتظر لأوقات أخرى اكثر خصوصية . والاسبقية الآن هى للاحتفال العام واظهار الفرح بتوحدهم واجتماع شملهم . احتفل الناس وضحكوا كثيرا ، وخصوصا حول ما يتعلق بامبراطورية مديت السرية .

واخيرا بدأت اعداد الحضور فى التناقص وأتى الحفل الى ختامه تدريجيا . وعندما حان الأوان لذهاب مديت نفسه ، قال لبول :

ـ لقد كان اليوم يومك انت وهو بحق يوم رائع . أرجو لك دوام النعمة والعافية باذن الله . اود أن تحضر الاسرة والاصدقاء لمنزلى غدا لمقابلة زوجتى وأطفالنا ومشاركتنا فى وليمة بسيطة .

لم ينم ملينقديت ولا ألويل تلك الليلة ، حيث أخذ كل منهما يصلى ـ يقول « الكلمة » على حد تعبير الدينكا ـ فى موقعه من المنزل . ومن حين لآخر كان ملينقديت ينهض ويتجول فى انحاء المكان وهو يخاطب ارواح اسلافه وينشد بصوت مسموع . لم يكن معظم ما كان يقول فى الشكر لعودة مديت فحسب ، بل من أجل سلامة وعودة اشويل ايضا . ورغم أن اشويل قد اختفى فى طفولته الباكرة ، فقد اقنع الظهور المعجز لمديت

ملينقديت بأنه ليس هناك شيء مستحيل ، وخصوصا لأن اسلافه قد كشفوا له الامر فى الحلم :

عندما حان وقت وليمة الغداء ، أرسل مديت سيارته المرسيدس ومعها حافلتان لاحضار والده وبقية الضيوف . وعند اقترابهم من مسكن مديت بمدينة أم درمان ، ظهر الامر وكأن الاحتفال بعرس يحدث فى المنطقة من كثافة الحضور وارتفاع اصوات النساء بالزغاريد . بلغت أصوات صيحات الفرح قمتها عند وصولهم . كان ملينقديت يرتدى جلبابا ابيض وقد لف عمامته بعناية حول راسه ، كما تحلت زوجته بثياب ملونة مناسبة . انفتحت البوابة لتكشف عن منزل واسع بصورة غير عادية ، ساحة كبيرة خالية وجزاين منفصلين ، احدهما للرجال والآخر للنساء . انقسمت الجماعة بنفس الطريقة فانصرف بول مع والده والرجال الى الجزء الخاص بهم من المنزل ، بينما دخلت النساء الى الجزء الخاص بالنساء فى المنزل حيث كانت أصوات الزغاريد تصم الآذان .

كانت منطقة الجلوس فى جانب الرجال حجرة واسعة وقد اصطفت جدرانها بالمقاعد وعليها الوسائد ، ومنضدة صغيرة بين كل مقعدين بينما تحلت الارضية بسجاد شرقى فاخر . تغطت الشبابيك بستائر من الحرير الفاتح اللون ، مما زاد من فخامة المكان . وكان من الواضح أن أغلب الاثاثات قد استجلبت من خارج البلاد .

وسأل الياس أخاه وكأنه يحاول اشباع فضوله :

- هل سافرت خارج البلاد كثيرا ؟

فأجاب مديت :

- معظم أسفارى كانت الى مصر وليبيا ودول الخليج ، كما سافرت مرة واحدة الى أوربا فكانت مغامرة حقيقية اذ أنى لا أتحدث بأى من اللغات الاوروبية .

وبعد جلوس الجماعة بقليل ، قدمت لهم المشروبات الباردة فى أوان من الفضة الموضوعة على صوانى من الفضة ثم قدمت المشروبات فى اكواب مذهبة الاطراف . كانت اسفار مديت بالخارج واضحة من متاعه وممتلكاته .

علق الياس فى دعابة :

- أنك ولاشك لم تختف عبثا ، وهذا اكثر مما استطيع أن اقول عن سنواتى أنا فى الحكومة .. وقوبل تعليقه بالضحك .

أحس مديت بالحاجة للرد فقال :

- أرجو أن توافقنى أنه هناك أنواع مختلفة للنضال . هذا على الاقل ما كنت أحاول أن أؤكده للجنتكم ..

« على التحقيق » أجاب الياس . « ولقد احسنت انت صنعا . على حسب تقديرى للموقف ، فقد برزت أنت فى صورة بطل ! وذاك انجاز كبير لشخص كان من الممكن أن يوصم بأنه مجرم ويوضع خلف القضبان او تقطع يداه ورجلاه لنفس الاعمال .

علق مديت قائلا :

- والآن الى مواضيع اكثر بهجة . دعنى انادى على زوجتى وأطفالى للحضور لتحيتكم . ولكن قبل أن افعل ذلك ، أرجو الا تتوقعوا مشاهدة فتاة من الدينكا ، خصوصا وانتم تعلمون سبب رحيلى .

ومرة أخرى ضحك الحضور ، وان كان فى ضحكهم شيء من الالم .

دخلت عليهم سيدة بيضاء اللون وعلى وجهها ابتسامة جذابة ويصحبتها خمسة اطفال تتراوح اعمارهم بين الرابعة والخامسة عشرة من العمر . كان هناك ثلاثة أولاد وهم اكبر الاطفال واصغرهم وأوسطهم سنا ، حيث كانت أسماؤهم هى سمير ومنير وانيس ، ابتداء من الاصغر وعلى التوالى . أما اسما البنتين فقد كانا نادية وداليه . كانوا جميعا أطفالا جذابين فى اللون الاسمر الفاتح الذى يتميز به السودانيون الشماليون . كانت أمهم ، سلمى ، مصرية ، وكما عرفوا بعد ذلك بقليل ، فقد كانت سيدة ذات خصال نبيلة وذكية ومتواضعة ومهذبة وكريمة . وقد كانت اكثر من زوجة بالنسبة لزوجها ، ذلك لأنه بالاضافة لمسئولياتها كأم لخمسة أطفال ، كانت تعاونه فى ادارة أعماله من المنزل فى حذر وتحوط . وهى قادرة على ذلك بحكم تعليمها ومعرفتها بشئون العصر .

علق الياس بقوله :

ـ ما شاء الله . انها لأسرة يفخر المرء بها حقا .

فأجابت سلمى وهى تشيح بوجهها المحجب لدرجة ما .. وتحاول اخفاء احمرار خدودها للاطراء قائلة : شكرا وبارك الله فيك .

لم تكن سلمى ولا الاطفال قادرين على الحديث بلغة الدينكا ، الا أن ذلك لم يمنع الجميع من اظهار مشاعرهم .

طلب ملينقديت ماء وتفل فيه وقال صلاة قصيرة ثم اخذ يعمل طقوسه لمباركة زوجة مديت والاطفال :

« اننا جميعا أبناء الله أيا كان لون بشرتنا أو كان ميلادنا »

قال ملينقديت ذلك فى صلاته وفى ذهنه ، ولا شك ، سلمى .

ـ وعندما يجمع الله بين اثنين فى الزواج يصبحان اعضاء فى أسرتىّ بعضهما البعض ويجب ألا يفرق بينهما بعد ذلك أى اختلاف فى العرق أو اللون أو الدين . فهما قد أصبحا من الاقارب والأهل .. وهكذا يا أسلافنا ويا أرواح عشيرتنا ، أن هذه المراة وأطفالنا قد أصبحت تابعة لكم . انى أشكركم على توجيهكم لخطى ابنكم مديت نحو هذه المراة النبيلة . أنها نخر لعشيرتكم . لقد مددت هذه المرأة دائرتكم بعيداً ووسعتها وهذا ما يسميه أهلنا العصا المقذوفة الى الامام لتحمى المرء فى المستقبل المجهول . وفى الحقيقة ، لم يعد ذلك المستقبل مجهولا ، فقد أصبح معلوما وهذا هو سبب وجودنا هنا اليوم ،

. لم تفهم سلمى والاطفال معنى كلمات ملينقديت لكنهم أدركوا مغزاها . ورغم انهم قد شعروا بالتقزز من أنه قد رشهم بالماء المحتوى على اللعاب ، إلا أنهم قد احتملوا إجراء الطقوس فى تأدب واحترام .

وأخيرا جاء الطعام ـ أطباق سودانية ومصرية شهية ومقدمة فى أوان ممتازة مما أكد الترف الشديد الذى يشع به المكان . ولو لم يكن مديت هو ابنهم الذى ولد وترعرع فى سنوات عمره الأولى فى الاطار التقليدى للدينكا ، لأرهبت أسرته من كل ذلك البذخ المادى . ولكنهم لم يرهبوا لأن كل ذلك كان ملكا لابنهم وهو ملكهم هم إذ يجمعـه وإياهم النسل الواحد . وهم لم يفكروا حتى فى الامر وتقبلوه بصورة طبيعية ووقورة .

همس العميد على لالياس أثناء الحفل بأن فضيلة قد وصلت الى الخرطوم وأنه على استعداد للجمع بينهما بأول فرصة مواتية . اختارت فضيلة مكان الاجتماع وهو منزل عواطف ، اقرب أصدقاء فضيلة من النساء .

عند اقتراب إلياس من المنزل كان يشعر بالاثارة والتوجس فى آن معا . ماذا عساه يقول لفضيلة ! فقد كان الغرض من الاجتماع واضحا فى تقديره ، ألا وهو التأكد من انه حقا والد ابنها . فاذا ظهر ذلك ، لم ير إلياس مانعا من التقدم لطلب الزواج منها . وكان إلياس يود ان ينتهى الأمر الى ذلك للعديد من الأسباب . فهو أولا واثق من شعوره نحو فضيلة .. وثانيا ، ولنفس السبب ، فقد تألم للمعاناة التى سببها لها سلوكه هو دون أن تجد الدعم الادبى الذى كان بمقدوره ان يقدمه لها لو كان فى البلاد فى ذلك الوقت . وأخيرا وليس آخرا بالطبع ، فقد كان على أتم الاستعداد للزواج وتحمل أعباء الحياة الزوجية . وأى وقت يكون افضل من الوقت الراهن لاعلان خططه ووالداه حاضران فى الخرطوم وقد ظهر أخوه الأكبر مديت بعد غيبة طويلة .

وجد إلياس البوابة شبه فاتحة وفهم فورا أنه عليه الدخول . ولكنه صفق ونادى بالتحية التقليدية وهو يدخل المنزل « السلام عليكم ».

وردت هى من الديوان على بعد ياردات الى الداخل.

- وعليكم السلام ورحمة الله . تفضل بالدخول .

ولدى انفرادهما ببعضهما البعض ، اذ أن عواطف قد تركتهما منفردين لضمان الخصوصية لهما ، أحس إلياس بالتوتر ، ولم يعرف كيف يتصرف . عندما دخل الحجرة ، وجد إلياس فضيلة جالسة على أحد المقاعد الموضوعة فى شكل مستطيل مع ترك فتحة مقابلة للباب . نهضت لتحيته ، لكنهما شعرا بالحرج نوعا ما وترددا فى تصرفهما وهما على ما يبدو غير واثقين من الطريقة المناسبة للتحية . سقط ثوب فضيلة من على راسها وكتفيها مما حتم عليها اصلاحه وهى تحيى إلياس . وقفز قلبه ، فقد اراد أن يحتضنها بعاطفة عارمة ، لكنه منع نفسه عن ذلك اذ كانت هى تتطلع على خواطره . ولعل ذلك هو سبب الطريقة الباردة التى مد بها يده لمصافحتها . ووقتها أحس إلياس بأنه من التجرؤ الزائد أن يحتضنها . فهى على حال لم ترد على رسائله أبدا مما يوحى بشىء ما . فكأنما تحتم عليهما أن يجددا تعارفهما من جديد قبل أن يتصرفا باعتيادية تجاه بعضهما البعض ، دع عنك أن يكونا على علاقة عاطفية حارة . وبصورة شبه غريزية ، جلسا على بعد من بعضهما البعض وهما يتحكمان فى سلوكهما بصورة واضحة .

- كيف حالك ؟

سأل إلياس وهو لا يزال يحس بالحرج . نظرت فضيلة نحوه للحظة خاطفة ثم أشاحت عنه وعلى فمها ابتسامة ساخرة : ليس بى سوء كما ترى .

- لقد تغيرت نوعا ما ، ولا أعنى بذلك الطريقة التى ستفهمين بها قولى فى غالب الحال .

قال إلياس ذلك وقد قرر اضافة نبرة جادة للحديث وهو لا يزال يشعر بالقصور للطريقة اللامبالية التى اشار بها الى موقف فضيلة .

- فى هذه الحالة ارى ، انه من الواجب أن تخبرنى أنت على الطريقة التى تغيرت بها .

قالت فضيله ذلك وهى لا تزال تتحكم فى نفسها وعواطفها بدرجة تفوق تحكم إلياس فى تصرفاته .

- أنت مثلا أقل ودا بكثير مما أذكر .

- أحقاً أنا كذلك ؟

تساءلت فضيلة وهى لاتزال ساخرة ثم قالت مستطردة .

ـ وكيف تحكم انت على نفسك ؟
ـ لعلى لازال أبدو لك كما كنت من قبل اذا حكمنا على الامر من سؤالك ؟
ـ انى اتساءل فقط
ـ حسنا اذن فالاجابة الجادة على سؤالك هى انى ربما أكون قد تغيرت استجابة لتغيرك انت .

قال إلياس ذلك فى صدق وإخلاص ، لكنه بدا حازماً بصورة شديدة .

قالت فضيلة وقد بدأت فى اتخاذ موقف مهاجم :

ـ وهكذا وبعبارة أخرى فأنا المسئولة ؟
ـ لا أعنى ذلك بمعنى الادانة ، ولكنك هذه اللحظة المتحكم فى الموقف .

فقالت فضيلة فى استقصاء :

ـ بأى طريقة تعنى ؟
ـ لقد كنت انا فى الوضع الشاذ وانا بعيد عن البلاد بينما بقيت أنت هنا مشغولة بالتطورات فى الوطن. الا توافقين ان تلك التطورات فى غاية الاهمية لموقفنا ؟
ـ شىء غريب .

قالت فى همس ثم واصلت الحديث بصوت مرتفع . أنت تقول أولا بأنك كنت غائبا ولا تعرف عما حدث فى غيابك ثم تعود لتقول ان ماحدث هو فى غاية الاهمية لموقفنا . هل يعنى هذا انك تعلم بما حدث ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا تسألنى ؟

ـ انى اسف لكنى اردت ان أسمع روايتك أنت بدلا من أن اتفاعل مع مايقول الآخرون ؟

سألت فضيلة مقاطعة :

ـ ومن الذى قال ماذا ؟
ـ هيا يافضيله أخبرينى كيف حالك ؟

تحدث إلياس وهو ينتقل الى مقعد أقرب وقد صمم على أن يكون صريحا وان يخضع فى تواضع .

ـ لقد سبق أن أخبرتك بأنى على أحسن حال . وإذا كان هناك شىء ما تعرفه أنت ولم أخبرك به أنا فقل لى عن ذلك ؟
ـ لن يقودنا هذا الحديث إلى أية غاية .
ـ أعلن إلياس ذلك وهو مصر على الوصول إلى صلب الموضوع فقال مستطرداً .
ـ لقد علمت أنك ولدت ابنا .
ـ نعم .

أجابت فضيلة بصوت خال من العاطفة ولكنها بدت غير مرتاحة لاتجاه الحديث .

تردد إلياس حول السؤال التالى فمن الواضح أنه أراد أن يعرف ما إذا كان الولد طفله هو ، لكنه أيضاً رأى فضيلة غير مرتاحة للموضوع أو على الأقل للطريقة التى يتبعها هو فى استقصاء الأمر وبينما كان السؤال الطبيعى هو «من والد الطفل؟» قرر إلياس عدم طرح ذلك السؤال وبدلاً عن ذلك غير نبرة الحديث فسأل :

ـ هل افتقدينى ؟

وبدا انها اكثر استجابه وهى تقول :

ـ وماذا تظن انت ؟
ـ انى اعرف ما احب ان اظن ولكنى لا أريد أن أكون متطاولا .

ـ « لا تقل لى أكاذيب الرجال المعهودة » .
ظهرت نبرة حزينة فى صوت فضيلة وهى تقول ذلك .
وبطريقة ما أطلق قولها شجاعة إلياس ليذهب إلى لب الموضوع : هل صحيح يا فضيلة أن الطفل هو ولدى أنا ؟
ـ سأغض الطرف عن الإهانة المتضمنة فى سؤالك وأسألك عن غرضك فى معرفة الإجابة .
ـ بالطبع اريد ان أعرف . اذا كان حقا هو ولدى الا ترين ما يعنيه ذلك ؟
فتساءلت فضيلة فى ضراوة .
ـ بالنسبة لك أم بالنسبة لى أم الطفل
فقال الياس فى صراحة تامة :
ـ بالنسبة للجميع
ـ وبأى طريقة تعنى ؟
ـ بطبيعة الحال أود أن احصل على طفلى .
فقالت فى سخرية : هكذا .
ثم ظهر التصميم على وجهها وهى تقول : لك أن تحصل عليه فهو ابنك . وفى حقيقة الأمر ، لو كنت أعلم بأنى سأجدك فى الخرطوم لأحضرته معى . لكن رسالة عم على لم توضح بأنه استدعانى بسببك انت .
كان هناك برود شديد فى صوتها وطريقتها فى الحديث أرسل القشعريرة الى عظام إلياس .
ـ إذا كان الامر كذلك يا فضيلة فإنى أريدك والطفل معا .
ـ دعنى اقول لك يا سيد بأنى قد أخذت كفايتى من سيل الاهانات هذا . لقد سقطت ضحية لحبك وسمحت لعواطفى أن تضل بى الطريق وتوقعنى فى ورطة كنتيجة لذلك ، فقط لأجد نفسى وحيدة وعلى أن أدبر حالى بينما تندفع أنت الى أرض الميعاد حيث ربما تكون قد وجدت كل ما تصبو اليه ونسيتنى تماما . والآن تعود وأنت لا تشكك فى ولائى فحسب ، بل وتتجرأ على سؤالى عما إذا كان الطفل هو ابنك مما يوحى بأنك تشك فى ذلك ، ثم تقول بأنك بالطبع تريده وتريد أن تتبعه أمه .
أعتقد أن الموقف واضح . لقد عانيت انا مهانة كبيرة وانقضى الجزء الصعب واستطيع أن احتمل الباقى . والآن ، إذا سمحت ، فانى أرغب فى الانصراف .
ـ انتظرى لحظة ، أهذا ما يعنون عندما يقولون بأن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ؟
قال الياس ذلك فى غضب مماثل لغضبها ما جعل فضيلة تتوقف .. ثم استطرد قائلا :
ـ أينا أجدر بأن يغضب لسلوك الآخر . أغادر انا هذا البلد للدراسة بالخارج وهو شىء لم يعترض عليه اى منا . ومنذ يوم سفرى وطوال اقامتى بأمريكا لم افعل سوى واجبى فى التركيز على دراستى والانشغال بأمر بلدى والتفكير فيك انت . وكتبت لك الخطاب تلو الآخر ولم أتلق اى رد منك . واخيرا استخلصت بقلب مفجوع وانزعاج تام بأنك ولا شك قد اتخذت لنفسك رجلا آخر ، ولعلك تكونين قد تزوجت ابن عمك الطبيب . ولدى عودتى الى الوطن اسمع بأنك قد حملت وبأنى متهم بأن اكون الأب .
كيف يملك رجل انتظار الرد بفارغ الصبر على خطابات الحب المخلصة ولم يتلق اى رد أن يفرح لسماع انباء بأنه ولا شك أب لطفل ؟ لماذا لا ترين بأنى احتاج لبينة واضحة

لتثبت لي بانك مازلت تعنين بأمرى أو أنك قد عنيت بأمرى في اي وقت من الأوقات ؟

انفجرت فضيلة باكية عندما سمعت قوله ذاك :

ـ اه يا الياس ، لماذا لم تقل لي من البداية بانك قد كتبت لي ؟ لقد كان ذلك هو كل سبب عبوسي وقنوطي إذ انى قد تحطمت لعدم سماعي منك . من الطبيعي ان ابدو متغيرة لانى اقنعت نفسي بأن اكرهك حتى اقدر على نسيانك . صدقنى يا الياس ، بانى لو تلقيت منك رسالة واحدة أو أنى عرفت عنوانك على الاطلاق ، لاختلفت الأمور كثيرا في غالب الحال .

وجاء دور الياس في اظهار عواطفه :

ـ صدقينى يا فضيلة وانا اقسم باسم الله العظيم وانى اقول الحق بأنى قد عانيت كثيرا في الذهاب عنك وانى عانيت ألم الشوق لك طوال وقتى بأمريكا . ولكنى دائما حفظت ذكراك عندى . انى أحبك كثيرا يافضيلة ولم يخطر ببالى مطلقا ان تشكى انت في ذلك الحب .

لم أقصد من ذكرى للطفل بانه السبب في رغبتى فيك وانما لانه يكون تاكيدا لحبنا ودعما لوجودنا معا . اننا لا نقدر على انكار ان مجتمعنا يرى انجاب الأطفال اكبر اهداف الزواج . فإذا بارك الله حبنا بأن رزقنا طفلا قبل الزواج ، الا يثبت هذا أن الزواج هو قدرنا المسبق ؟

واستسلمت فضيلة تماما وهى تطأطىء راسها في صمت وتستمتع بكل كلمة يقولها وترغب في سماع المزيد .. اطلع إلياس على خواطرها فواصل الحديث :

ـ دعينا نتذكر يا فضيلة بأن هناك قدرا كبيرا من التحيز بين أهلنا من الجانبين . انى اكره أن اقول هذا ، ولكن الحقيقة هى لو أنى طلبت الزواج منك في الظروف العادية ، ففى الغالب ستعارض كل من أسرتينا الفكرة . ولكن مع وجود الطفل فاننا سنواجههم بموقف من المحتمل أن يتقبلوه . وما يهم هو رغبتنا نحن . والطريقة التى نحقق بها ما نريد هى أمر ثانوى في الاهمية .

اثناء حديثه ، بدأت فضيلة تحس بأن شعورها الأصلى تجاهه قد بدأ يعود حتى ايقنت بأنها ترغب فيه كثيرا جدا ، من الناحيتين العقلية والعاطفية . وحقا ، اى دليل على شعورها تجاهه أقوى من حقيقة أنها قد حملت وولدت طفله . ان الياس على حق ، لقد كانت هى خيالية بينما كان هو واقعيا . وبينما كانت تلك الافكار تمر بذهنها شعرت بجسدها يتحرك شهوة له في تلك اللحظة والمكان ، لكنها صرفت رغبتها على اعتبار انها غير حكيمة . وبدلا عن ذلك رأت ان تداعبه ، فقالت :

ـ انك لم تطلب الزواج منى بعد وها أنت تتعامل مع الأمر وكأنه حقيقة واقعة . وما الذى يدعوك للاعتقاد بأنى سأقبل ؟

وادراكا منها ان الدعابة لم تصب هدفها أو لعلها قد اسىء فهمها ، أسرعت فأضافت :

ـ ولكن بجدية يا الياس ، أريد أن أخبرك عن مقدار سعادتى . لقد كنت في جحيم لما حدث لى بدونك . وكثيرا ما بكيت سرا وانا أتشوق لوجودك معى لمشاركتى عبء ما يحدث وبصورة ما كنت اعتمد على قوتك ولكن لم يكن إليك سبيل .. بالطبع تغمرنى السعادة كامرأة لحملى لولدك وأنا سعيدة الآن لانك ترغب فينا معا . كم تشوقت انا لهذا وكم تخوفت من أنه لن يحدث أبدا وهكذا ترى مقدار سعادتى . لعلك لا ترغب في طلب الزواج منى ، ولكنك لو فعلت فإن اجابتى هى نعم .

فقال الياس : سأتحدث فورا لعم على ، وأعتقد انه بمقدورنا الاعتماد على تأييده . ومن حسن التوفيق أن والدى هنا ايضا . ف مجتمع الدينكا ، ليس من الغريب حقا أن يفرض العشاق أمر زواجهما على كبار الأهل بأن ينجبا طفلا أو حتى يهربا معا . ان هذا هو أخف همومى مع والدى .

وبينما كان يتحدث ، مد يده نحو فضيلة وهو ينظر إليها فى شوق شديد وعلى وجهه ابتسامه عريضة . وامسكت هى بيده وابتسمت له ردا على ابتسامته . لكنهما ادركا غريزيا بأنه عليهما التوقف عن المزيد . فلا جدوى من اشعال عواطفهما إذا كان الأمر سينتهى الى الاحباط أو الى ما هو أسوأ من ذلك وهو الفضيحة إذا اكتشف أمرهما .

اختتم الياس الحديث بقوله :

ـ أعتقد أنه من الانسب أن أكون انا اول من ينصرف من هنا . ولكن لدى سؤال هام وهو : ماذا سميت الولد ؟

ـ لقد كنت أتساءل متى ستسأل عن ذلك . لقد سميته « الفحل » تكريما لمن ؟ إن ذلك من أسرارى الخاصة .

ـ ان ذلك اسم رجولى وأنا أوافق عليه .

الفصل العشرون

تساءل إلياس عما إذا كان عليه مناقشة الأمر مع على أم مع أسرته هو أولاً ، فقد كانت هناك أسباب جيدة لكل من المذهبين . فإذا لم يطمئن على موافقة أسرة فضيلة على الزواج ، فسيؤذى والده أن يوافق هو على الزواج ثم يرفض طلب ابنه . ولكن ، وفى نفس الوقت ، ماذا لو وافقت أسرة فضيلة واعترض والده هو ؟ وعلى كل حال ، كيف يشعر والده تجاه مناقشة ابنه لأمر زواجه مع أهل الفتاة قبل أن يحصل على موافقة أسرته أولاً ؟ لقد كانت مغامرة فى كلتا الحالتين ، لكنه قرر إجلاء الأمر مع أسرته هو أولاً .

التقوا فى منزل مديت الفخم وفى خصوصية حجرة الجلوس ، وقد أحس كل من ملينقديت ومديت أن إلياس يرغب فى مناقشة أمر هام فاذا الأمر هو الزواج ، فمن ياترى يكون الشخص المعنى فى منطقة الخرطوم ؟

تم تقديم المشروبات الباردة وهم يجهزون انفسهم للحديث . اطلت عليهم ألويل ولكن ملينقديت طلب منها الانصراف بقوله:

- هناك اشياء يناقشها الرجال بدون حضور النساء ، زوجات كن أم امهات .

فقالت ألويل فى تقبل للامر وهى قد خمنت موضوع الحديث وشعرت بالسعادة له :

- ناقشوا الأمر منفردين ، واذا كان هاما كما يبدو ، فانه سيصلنا فى نهاية الأمر على كل حال .

ثم انصرفت عن الحجرة .

فقال إلياس :
- يابى وياأخى ميديت لا حاجة لى بأن اقول عن مقدار سعادتى لوجودنا معا هذه اللحظة . هناك اشياء فى الحياة ينبغى من طبيعتها المحضه أن تناقش فى إطار الاسرة مجتمعة . ولم يكن هذا ممكنا قبل وقت قصير . والآن وأنت هنا يا أبى ومديت قد طلع من عاله الخفى .
وضحكوا جميعا .
فبيدو وكأن الله قد اراد ان يكون هذا هو وقت نقاشى معكما لأمر فى غاية الاهمية بالنسبة لى .
- لقد حثتنى اسرتى على البحث عن زوجه ، ولكن لم اقدر حتى الآن على العثور على فتاة . والآن اعتقد بانى قد عثرت على فتاة تناسب رغباتى . فهى متعلمه وشجاعة ولكنها ايضا مراعية لشعور الآخرين وجميلة . ولعله مما يهمكما ان تعرفاه هو انها ابنة اخ على احمد الجاك الذى احسن إلى كثيرا .
وواصل إلياس الحديث فروى لهما كيف التقى بفضيلة وظروف فراقهما وما وجده عند عودته من أخبار طفلهما وكذلك ما تعرضت له فضيلة من عقوبة قاسية بسبب ماحدث .
- انى احبها وآمل فى أن احصل على مباركتكما لانصرف سريعا إلى امر الاعداد للزواج اذا وافقت اسرتها .

فسارع مديت بالاجابة :
- بول ، ياأخى ، دعنى اخبركما معا بأنه رغم شعورى بضرورة الهجرة تحت الظروف القاهرة التى تعرضت لها ، فقد كانت الحياة جحيما بدون اسرتى . ولقد تعلمت بأنه لابديل عن الأسرة . ويبدأ الامر دائما بالزواج والأطفال . وكما تعلم فان زوجتى مصرية ولكن هذه الحقيقه لا تهمنى . ان ما يهم هو حقيقة اننا اسرة . انى احبها وقد ولدت هى الأطفال لى بحمد الله . انا لا اعرف ماسيقوله والدى ، ولكن من وجهة نظرى أنا ، فإن مايهم هو أنك تحب الفتاه وانها تحبك وانها كما اظهر الله فعلا ، قادرة على انجاب الأطفال .

كان مديت واعيا لمقتضيات الموقف فقال :
- وعلى كل حال ، من انا حتى اقول بغير ذلك ، وقد تحصلت على اسرتى دون مشاورتكم انتم .
استدعت دعابته ابتسامة من والده وضحكة من أخيه . ونظر الاخوان لوالدهما فى انتظار تعليقه . ظل ملينقديت صامتا لبعض الوقت ثم تنحنح وعدل من وضع جلبابه وضمه بين فخديه كما يفعل دائما عندما يتحدث :
- لقد احسنت الحديث يابنى . هذا بحق هونوع الموضوع الذى يناقشه الرجل مع كباره .
صمت ملينقديت ثم وجه سؤالاً إلى الياس :
- هل اسم الجاك اسم عربى ؟
اجابه الياس بقوله :
- فى الكتابة وحتى فى النطق ، فان الاسم يختلف عن اسم اجاك عند الدينكا اذ يقولون الجاك . ولكن الاعتقاد الشائع هو أن الاسم مشتق من الاسم الدينكاوى . وفى هذه الحالة

فان الجد الاكبر للفتاة يقال انه من الدينكا حيث كان أسمه أجاك . وفيما بعد تم تعريب الاسم إلى الجاك .

لقد فكرت أن الاسم يبدو كأسم الدينكا . منذ اجيال آبائنا واجدادنا تم اختطاف العديد من الناس بواسطة العرب . وبالطبع ، فقد حدث هذا منذ وقت طويل ولم يعد من الممكن تذكر أغلب الاسماء ، ومن المحتمل ان يكون بينهم رجل اسمه أجاك . وما يعنينى فى هذا المجال هو ما اذا كان أجاك هو احد الاقارب . فكما تعلم عندنا نحن معشر الدينكا لا ينبغى للرجل أن يتزوج من الاقارب بالدم مهما بعدت درجة القرابة . ونحن نستثنى من ذلك بعد عدة أجيال من كانت قرابتهم عن طريق النساء . اى من بنات العشيرة . ولكننا لا نستثنى ممن كانت قرابتهم عن طريق النسل المشترك من أب واحد . وفى الحاله الراهنة ، ليس من السهل الاطلاع على الحقيقة ، ولكن عندنا طرق للتصرف فى هذه المواقف . يمكن اداء شعائر وطقوس لقطع روابط الدم التى قد تكون موجودة ولتجنب اى آثار ضارة قد تتبع من انتهاك التحريم .

تنحنح ملينقديت مرة أخرى وكأنه يعلن بأنه على وشك اثارة نقطة جديده ثم قال :

ـ اما عن المسألة الاساسية حول زواجك من هذه الفتاة .

وتوقف وكأنه تذكر نقطة أخرى فقال :

بالمناسبة ، ماسم الفتاة

اسمها فضيلة .. فضيلة ابنه محمد احمد الجاك . وهى اخت لزميل لى بالجمعية . واخوها فى الحقيقة هو الناطق الرسمى باسم الحزب الحاكم .

ـ كما كنت اقول ، بالنسبة لموضوع هذه الفتاه ـ فضيلة . فقد حسم الله الأمر نيابة عنك بان جعلها تحمل من العاب الشنباب . واذا لم تحبها أو ترغب فيها ، فهذا النوع من المشاكل قد يسبب العداء المتواصل بين الاسر . ولكن بما انك تحبها ، فهذه بركة من الله ومن الاسلاف . وبالطبع من المفهوم ان يغضب اهلها ، خصوصا وقد كنت بعيدا وظلوا هم وحيدين مع ابنة حامل هجرها الرجل الذى سبب حملها . ولكن بما انك قد عدت وتطلب الآن الزواج منها . فانى لا أرى اى مشكلة فى ذلك .

ومسألة أخرى ربما تكون قد ازعجتنى هى اسرتها . فالرجل لا يتزوج المراة منفردة ، وانما يتزوج معها اسرتها ومن المهم أن يعرف المرء الاسرة التى يتزوج منها ابنه . فى حالة اخيك مديت ، لم نكن نحن موجودين لتجرى مشاورتنا ، ولكن والحمد لله يبدو أنه احسن الاختيار منفردا . وفى حالتك انت فكما افهم من قولك ، فان انتماءها لاسرة على يشهد لها بالمنبت الحسن . هذا بالاضافة لقولك بأن جدها الاكبر من الدينكا ، وذلك أيضا يشهد على حسن منبتها .

وهمى الوحيد هو ان علياً كان بمثابة الاب لك مما جعل هذه الفتاة بمثابة الأخت لك فى عرف الدينكا ، ولكنى اظن ان منهجك انت مع العرب يختلف عن ذلك . بمقدورى ان اقوم باداء الطقوس التى تقطع تلك الصلة وتسمح لك بالزواج . ولا داعى حتى لذكر هذا الأمرلهم .

وهكذا كان كل شيء على مايرام فيما يتعلق بأسرة الياس ، وبقى أمر الحديث الى اسرة فضيلة . ولكن قبل الحديث الرسمى معهم ، اراد الياس تنقية الجو مع على . لذلك اسرع الى منزله ودخل من البوابة دون أن يطرق الباب واتجه نحو الديوان الذى يستخدمه على

كحجرة استقبال . وبمجرد النظر الى على أدرك الياس أن الامور ليست على مايرام .

قال الياس بعبارة التحية التقليدية والانزعاج ظاهر على وجهه .

ـ السلام عليكم ..

فاجاب علّى دون ان يحاول أخفاء انزعاجه .

ـ وعليكم السلام ..

فسأل الياس فى توتر :

ـ هل كل شيء على مايرام ياعم على اذ أن حالك ينم عن خلاف ذلك .

وأجابه على قائلا :

ـ سنجد الزمن للحديث عن ذلك . دعنى أولا أطلب لك شيئا تشربه ، مارايك فى الشاى ؟

ـ لست حريصا على ذلك ياعم على ، ولا ارغب فى اى شيء وإنما أفضل الحديث وعلى كل حال ، فانا فى أهلى ، واذا اردت شيئا فيمكننى أن اذهب لاحضاره بنفسى .

ـ هذا حق ..

علق على وكأنه ذكر بشيء كان ينبغى عليه أن يتذكره بنفسه . ثم واصل على الحديث بقوله :

ـ لفرط حماسها ، فقد اخبرتنى فضيلة بما دار بينكما من حديث . ولفرط حماسى أنا ، ذهبت وناقشت الأمر مع والدها .

فتساءل الياس بصبر نافد :

ـ وماذا قال ؟ .

ـ إنه مصمم بصورة مطلقة بأنه لن يسمح بهذا الزواج .

وتساءل الياس :

ـ لماذا ؟ هل أوضح لك الأسباب ؟

ـ لاأعتقد أنى اقدر أن أقول بأنه شرح لى أسبابه . على الأقل لايبدو لى ان فيما قاله اى شرح لموقفه . ولكن عندما الححت عليه ، ذكر لى شيئا لم افكر فيه انا ، فقد ذكرنى بأنك مسيحى .

وصدم الياس للأمر ، لماذا لم يتوقع هو إثارة هذه المسألة ؟ فقد كان يعلم بأن الدين يمكن أن يكون عقبة فى طريق الزواج ، بل وسبق ان ذكر ذلك بنفسه . ولكنه قد دفن الأمر بصورة لاشعورية . كما أنه قد استوعب فى اسرة على لدرجة أن امر الدين لم يعد مشكلة .

فقال على موضحا :

ـ أصدقك القول بأنى قد نسيت بأنك مسيحى ، واسم كاسم الياس . والذى هو ايضا من أسماء المسلمين وإن كان يكتب بطريقة مختلفة . فانت مثل اى مسلم اعرفه . وانا اعرف بالطبع بأنك لاتصلى ، ولكن هناك العديد من المسلمين الذين لايصلون .

ثم اتخذ على هيئة جادة اكثر وهو يقول :

ـ انت تعلم بأن الدين هذا لايهمنى فى الظروف الطبيعية ، ولكن بصراحة ، هذه هى أحدى الحالات القاطعة تماما . لاتسمح الشريعة الاسلامية بزواج رجل غير مسلم من فتاة مسلمة . ومهما كان موقفى الشخصى من امر الدين ، فانا لااقدر على تجاهل هذا الامر ، ولايسمح لى المجتمع بأن اتجاهله حتى لو رغبت فى ذلك .

تفكر الياس فى هدوء اذ أن الامر وصل طريقا مسدودا . وقد كان على صريحا ومباشرا فى حديثه . ورغم ذلك ، بدا له الامر بأنه غير منطقى . فهو لايمارس الطقوس المسيحية على كل حال . وقد تم استيعابه فى الثقافة العربية عبر السنين لدرجة أنه ، ورغم حديثه فى معارضة الهيمنة العربية على المجتمعات غير العربية ، يمكن القول بأنه قد أصبح عربيا من الناحية الثقافية . فما هو الاختلاف بينه وبين باقى الشماليين الذين لايمارسون الطقوس الاسلامية ؟

وبينما ظل هو غارقا فى هذه الخواطر ، ظهر أن عليا ايضا يتفكر فى الامور من وجهته هو .

- لابد لى أن أقول ، ياالياس أن شعورى تجاهك مثل شعورى تجاه ابنى . ورغم أن فضيله هى ابنة اخى ، فانى أعترف بأنى اتعاطف معك انت اكثر مما اتعاطف معها هى . ولابد لى من ان أثير مسألة صعبة معك بوصفى والدك . ما هى المشكلة فى إعلانك لاسلامك ؟ ستحمل نفس الأسم كما سيبقى مركزك الاجتماعى فى نفس الموقع . والفرق الوحيد الذى أراه هو فرق ايجابى بازالة الموانع بينك وبين فضيله . لو كنت فى مكانك لاصبحت مسلما .

دهش إلياس لهدوئه هو أثناء حديث على . فقبل سنوات ، استفزته هذه الدعوة لدرجة التفكير فى الخروج غاضبا من مكتب مدير المدرسة . فبصورة رمزية ، عرض عليه مدير المدرسة الزواج من احدى بناته اذا أصبح هو مسلما . وهو الأن يسمع نفس الاقتراح ولكنه لا يغضب له . وفجأة لاحظ إلياس انه يتفكر فى أسباب رد الفعل عنده أكثر من تفكره فى المسألة نفسها ، وقال :

- عم على ، ربما ينبغى على ان اذهب واتفكر فيما قلت .

فقال على : هذا عين الحكمة فانه ولا شك قرار خطير وانت محق فى التروى فى الامر .

احس إلياس بالارتباك وهو يقود سيارته فى طريقه الى منزله ، فمن ناحية ، لم يعد الدين أمرا هاما بالنسبة له ، وتذكر أنه لم يكن يعرف ما هو دين مديت ولا يهتم لذلك . وفى غالب الحال . بما انه قد تزوج من امرأة مسلمة ، فقد اصبح هو مسلما ايضا . ومن الناحية الأخرى ، ماذا يقول الناس لو غير هو دينه من اجل الزواج ؟ يبدو أن فى الأمر ما يدعو للخجل . ولكن ، اليس للحب القدرة على جعل الرجال يفعلون مالا يفعلونه فى الظروف العادية ؟ وهكذا لم يؤد تحليله الى اى نتيجة ، وتنهد وقد قرر مشاورة والده واخيه فى الامر .

كان الوقت مساء عندما جلسوا فى صحن دار إلياس . وربما بسبب طريقة تصرفه أولا لاشاراته الخفية بانه يرغب فى حديث عائلى ، فقد انصرف الضيوف مبكرين وتركوا الأخوين منفردين مع والدهما . بدأ إلياس بشرح اعتراض والدة فضيلة على زواجهما على اساس الدين .

وتساءل ملينقديت لجهله التام بالموضوع .

- لا اعتقد انى افهم تماما ما تقول .

فقال إلياس موضحا :

- إن فضيلة مسلمة .

- وعلى اى دين انت ؟

Scanned by CamScanner

ادهش السؤال إلياس ، الم يكن والده يعلم دائما انه مسيحى ؟ الم يذهب الى مدرسة المبشرين ؟ وسأل إلياس والده تلك الاسئلة فاجابه ملينقديت ؟

ـ ولكن الم تذهب الى مدارس المسلمين فى الشمال ايضا ؟

هل يمكن ان يعتقد والده بانه يغير دينه مع تغير المدارس ؟ هل الشيخ واقعى وعملى اكثر مما كان إلياس يظن فى الماضى ؟ وتدخل مديت فى الحديث بعد ان كان يستمع فى انتباه .

ـ لعلى يا بول لست بالشخص المناسب للحديث فى هذا الامر . فزوجتى كما تعلم مسلمة .

اجابه إلياس بإيماءة لرأسه ، فواصل مديت الحديث .

ـ ومن الملفت للانتباه فى حالتنا ان امر الدين لم يثر على الاطلاق . اعتقد انهم لاحظوا الاسم الذى اتخذته « التوم حسب الرسول » وافترضوا بانى ولاشك مسلم . انا لا اصوم ولا اصلى ، وكذلك لا يفعل افراد اسرة زوجتى . ولكنى اتحدث باللغة العربية واستخدم اسم الله واسم النبى محمد فى تعاملى اليومى كما يفعل المسلمون . وكما رأيت فى اعمال لجنتكم ، فانى اقسم على القرآن وأحمل مسبحة . لذلك فقد تقول بانى مسلم من نواحى كثيرة ، وان لم يهتم احد بجعلى اقوم بطقوس التحول الى الاسلام بشكل رسمى .

فماذا يعنى كل هذا بالنسبة لموقفك الراهن ؟ بحكم تعليمك ، لعلك تكون اكثر عروبة منى ، بمعنى انك تعرف اللغة العربية افضل من معرفتى بها ، وقد درست الاسلام والقرآن ، كما انك تتبع الثقافة الاسلامية فى حياتك اليومية اكثر مما افعل انا . وحتى اسمك هو اسم مسلم . فلماذا الجلبة الزائدة حول أمر الدين ؟ وربما تكون المشكلة الوحيدة هى انه بما أن المسألة قد اثيرت ، فلابد من اداء طقوس التحول الدينى . والسؤال هو ما اذا كان الأمر يستحق ذلك . فى تقديرى الشخصى ، انا لا ارى اى ضرر فى اداء طقوس التحول الى الاسلام .

وأضاف ملينقديت قائلاً : انى اوافقك القول يابنى . فاذا سميت مسلما أو مسيحيا ، فانت لا تزال من الدينكا وتحميك ارواح اسلافنا ، اذا اردت الحق ، فان هذا اكثر ما يهمنى . اذا كان أداء طقوس الاسلام سيعطيك ما ترغب فيه ، فلماذا لا تفعل ذلك ؟

ـ ولكن الا يبدو الرجل ضعيفا اذا غير دينه من أجل امرأة ؟

وجه الياس سؤاله لهما معا ، فرد عليه والده :

ـ تعتبر السعى خلف امرأة ضعفا ؟ هذا من العزم والتصميم يابنى ولا علاقة له بالضعف . دعنى أخبرك بشىء . عندما هبطت الروح دينقديت على رجل اسمه محمد أحمد ، ويسميه العرب المهدى ، ذهب أعيان الدينكا لمقابلته وتلقى مباركته ، لم يكن وقتها قد أفلح بعد فى طرد الاتراك والمصريين من البلاد ، ولكنه حصل على اعتراف كل القبائل كزعيم أهل الله فى البلاد . وحتى جدى انا شخصيا فقد ذهب للقائه . وباركهم الرجل ومنحهم اسماء اسلامية وكرمهم بالرماح ورموز السلطة الدينية الاخرى . عاد أولئك الرجال ومعهم سند كلمة المهدى بالاضافة لسلطتهم الروحية كزعماء للدينكا . هل كان ذلك ضعفا ؟ وهل اثر ذلك بأى صورة من الصور على الاحترام والسلطة التى كانوا يجدونها بوصفهم زعماء لاهلهم ؟ لم يكن الأمر كذلك على التحقيق .

بدأ منظور الياس لكل المسألة يتحول بما سمعه من والده واخيه . ورغم ذلك ، قدر الياس انه سيستجلب عداء حلفائه من المسيحيين لو غير دينه . ومن الناحية الأخرى فإن الجماعة التى يمثلها ـ التجمع الثورى لاقليات السودان ـ تمثل كل الاقاليم والأديان ـ وعلى التحقيق ، ومن الناحية السياسية ، فقد تتسع قاعدته السياسية اذ اتخذ الاسلام دينا رغم أصوله العرقية والثقافية كجنوبى . كما أنه من المحتمل الا يلاحظ أحد الأمر كما أوحى أخوه ووالده .

وخلاصة الأمر هو أنه يجب أن يتزوج ، وأين سيجد فتاة انسب من فضيلة التى يحبها كثيرا ؟ هذا بالإضافة الى انها أم ولده .

وبينما واصل الياس التفكر فى الأمر ، تساءل عما اذا كان قد اغفل وجهة النظر المسيحية الجنوبية . هل أعمته مصلحته الخاصة ؟ وقرر الحديث مع بيتر مالودا حول المسألة ، وافتتح الحديث بقوله :

ـ لعلك قد سمعت بعض الشائعات ياأخى حول حياتى الخاصة .

ورد عليه بيتر باشارة غامضة لاتفيد العلم ولا الجهل بالموضوع ، ثم قال :

ـ استطيع أن أقول أنى قد سمعت ما يحرمنى من فرصة السماع من صاحب الأمر نفسه .

وضحكا معاً .

ـ يتعلق الأمر بزواجى المقبل .

فقاطعه بيتر معلقا :

ـ لقد بدأت أتصور أن الأمر يتعلق بذلك .. هيا تحدث ، فكلى آذان صاغية .

ـ أنها قصة طويلة ، وجوهر المسألة أن الفتاة مسلمة ، وارجوك الا تسألنى عن ديانتى انا كما فعل والدى .

وضحكا معا مرة أخرى بينما علق بيتر :

ـ أنه سؤال موضوعى ، ولكنى أعرف الاجابة عليه .. فواصل الحديث .

ـ لعلك على حق ، ولكن لا الفتاة ، واسمها فضيلة محمد أحمد الجاك ، ولا أنا من المتدينين . فمن الناحية الثقافية ، هى فتاة عصرية للغاية ، بل وفى تقديرى ، فسلوكها عصرى أكثر من أغلب الشماليين . ولكن كما تعلم ، فإن الاسلام يحرم على المرأة المسلمة الزواج من رجل غير مسلم . لقد ناقشت الموقف مع بعض اصدقائى الشماليين ومع افراد أسرتى وكان رأيهم أنه بما اننا غير متدينين وفى الغالب سنبقى كذلك ، فلا ضير لو قمت أنا بطقوس الدخول فى الاسلام ، بل سيكون لذلك الأثر الايجابى بازالة المانع الشرعى من الزواج . وانا اقدر رأيهم هذا وأكاد اقتنع بحجتهم . ولكنى أخشى كذلك أن يعتبر ذلك ضعفا منى وتكون له آثار سياسية ضارة . لهذا فإنى أسعى للحصول على مشورتك .

ظل بيتر جالسا وهو مستغرق تماما فيما يسمع . وعندما فرغ إلياس من الحديث ، شكره بيتر على تشريفه له باستشارته فى ذلك الأمر ، فرد الياس بقوله :

ـ أنك الزميل السياسى الوحيد الذى أستشيره فى هذا الموضوع ، ولا أحتاج لأن أطلب منك اعتبار هذا الحديث سرا بيننا .

ـ هذا سبب إضافى لشعورى بالفخر . وبهذه الروح ، ارجو ان تسمح لى بان اكون صريحا معك .

ـ لهذا السبب بالذات حرصت على مشاورتك .
ـ دعني اسأل أولا هل قلت ان اسمها هو فضيلة محمد احمد الجاك ؟
ـ نعم ، فهي أخت بركة .
ـ هذا بالضبط ما تساءلت عنه . أخي إلياس ، لابد لي من الاعتراف بان الامر لا يحتاج لتفكير كثير ، فهو في غاية الوضوح . لا يمكن بحال من الاحوال أن اقترح عليك أن تغير دينك من اجل الزواج بهذه الفتاة . فاذا كنت مقتنعا بالاسلام وأردت ان تتحول له لما كان عندي ما اقول اذ يكون الامر متعلقا بمعتقداتك ويكون النموذج الذي تضعه هاما لاهلك بوصفك زعيما لهم . ولكن في الظروف الراهنة ، لا يكون في تحولك للاسلام شيء من النفاق فحسب ، بل ـ دعني اصارحك القول لدرجة القسوة ـ سيكون فيه ادعاء وحتى عدم أمانة وهذا شيء سيء بالقدر الكافي للشخص العادي ، اما بالنسبة للزعيم فهو كارثة محققه .
فبالنسبة لي هناك مسألة الضعف ، وما هو اسوأ من ذلك هناك دلالات الاستسلام . إني متأكد من أنك تقدر أن جزءاً من مشكلتنا مع الشمال هي مسألة حق البقاء الثقافي . وبحكم ان ثقافتنا قد انتهكتها السياسات الاستعمارية للعالمين الاسلامي والمسيحي ، فقد اصبح بقاؤنا الثقافي يأخذ الطابع السلبي بوصفه بأنه غير عربي وغير مسلم لان الثقافة العربية والاسلامية هي التي تهددنا بالفناء . وحتى عندما نسمي ثقافتنا « افريقية » فهذا ايضا وصف معمم ، اذ أن مقاومتنا للاستيعاب العربي الاسلامي هي التي تمنح حركتنا الحيوية . واذا اخذنا نحن القادة في الاستسلام للابتزاز الاسلامي واستسلمنا للاستيعاب ، فكيف يقدر اهلنا على مواصلة النضال ؟
إني اتحدث عن الابتزاز لأني مقتنع بان كل هذه المسألة المتعلقة بتحريم زواج النساء المسلمات من غير المسلمين من الرجال لا تعدو أن تكون مجرد تحيز وتعصب عرقي عربي ملبسة في ثياب الدين . ففي الجنوب ، انت تعلم بان المسلمين منا يزوجون بناتهم من الجنوبيين غير المسلمين . ذلك لانهم لا يحتقرونهم بوصفهم أقل درجة منهم ، لا من الناحية العرقية ولا الثقافية . ويتم هذا عبر كل أنحاء افريقيا السوداء . اذا كان الأمر يتعلق باجراءات الزواج ولا يريدون لبناتهم ان يتزوجن في الكنيسة ، فانا اقدر ذلك . ولكن هناك نوع من الزواج اسمه الزواج المدني المحايد دينيا . لماذا لا يكون ذلك مقبولا ؟ ان رأيي الصريح هو لا ولا ولا ، لا يمكنك ان تفعل هذا .
كان إلياس يقتنع بكل حجة من حججه اثناء حديثه ، وبختام الحديث ، اصبح من الواضح ان إلياس قد غير رأيه . وكانت الاشارة الى الزواج المدني نقطة جوهرية ، فبيتر قانوني وينبغي ان يعلم ما يقول ، وقد بدا الحديث معقولا حتى لإلياس وهو لم يجد التأصيل القانوني .
فقال إلياس : هذا هو نوع القول الذي كنت ارجوه لقد اثرتني كثيرا بحديثك ، وانا مقتنع الآن ، خصوصا بأمر الزواج المدني .
توسع بيتر من شرح الأمر بقوله :
ـ هناك مسألتان من الناحية القانونية . تتعلق الأولى بالزامية الشريعة لكما بوصفكما من دينين مختلفين . والأخرى تتعلق بالنوع البديل من صيغة الزواج المتاحة لكما . وفي الحالتين ، فان المبدأ الاول الواجب التقرير هو ان الاختصاص لا ينعقد للمحاكم الشرعية ، ولابد ان يكون للمحاكم المدنية . وأقترح بأن الشخص الذي تحتاج لاستمالته

لجانبك هو فضيلة . فاذا اقتنعت هى ، فانى واثق بأن حجتك ستكون قوية امام المحاكم ، وإن كان المرء لا يطمئن لحالة القانون فى الظروف التى تمر بها بلادنا هذه الايام . وعلى كل حال ، بما انك تحب الفتاة كما يظهر لى ، فان القضية تستحق النضال من اجلها .

وما ان غادر إلياس بيتر تساءل عما اذا كان عليه الحديث أولا مع على . فعلى أكبر سنا واكثر تجربة وحكمة . ومن الناحية الاخرى ، فقد دعاه على للتحول الى الاسلام ، فهل يمكن ان يتوقع المرء ان يغير رأيه ؟ لعله من الافضل لإلياس الحديث مع فضيلة أولا ، فهما على كل حال اكثر المعنيين بصورة مباشرة بهذا الامر .

ذهب إلياس الى منزل عواطف حيث كانت فضيلة فى انتظاره . وحكى لها عن النقاشات التى تمت له وانتهى الى الاقتراح بأن يتزوجا زواجا مدنيا . كان متوترا خلال الحديث وكأنه يخشى ان تولد كلماته ردا سلبيا لدى فضيلة . كما انه لم يقدر على الاطلاع على شعورها من ملامح وجهها .

وادهشه الهدوء الذى تحلت به فضيلة .

- انك تعلم بانى لا اهتم كثيرا بكل مسالة الدين هذه . انى معك تماما . وما اجهله هو رأى القانون فى الامر ، ولكن يبدو انك وصديقك بيتر تفهمان حقيقة الموقف من تلك الناحية . فلماذا لا نواصل العمل بمقتضى ذلك ؟

- هل ترين بان اناقش الامر مع على ؟

- ستعلم الأسرة حالا أو فيما بعد وهو من افراد الأسرة الذين ينبغى اخطارهم أولا . والسؤال هو اينا ينبغى ان يخطره . وبما انك اعرف بالمسائل فى هذا الامر ، فأعتقد انه من المناسب ان تخطره انت .

كان إلياس متشوقا للفراغ من الامر بأسرع ما يمكن ، فاندفع الى منزل على وكان الوقت عصرا . قدم إلياس الموضوع بسرعة لعلى الذى ظل يراقبه بهدوء ظاهرى . وفى دخيلته كان يشعر بالعطف على إلياس ويخشى ان يكون الشاب قد توصل الى نتيجة مثيرة للشقاق . ومن الناحية الأخرى ، فقد كان مقتنعا فى نفسه بأن شعوره تجاه إلياس لن يتغير مهما كان قرار الأخير . فتساءل على فى حيرة :

- ارجو أن تكون قد توصلت لقرار فى الموضوع ؟

- نعم ، فقد استقر عزمى على أنه من الخطأ ان اتحول الى الاسلام . وعلى كل حال ، فقد استطلعت المشورة القانونية واقتنعت بان هناك طريقة بديلة للزواج تتجاوز الناحية الدينية .

وحكى إلياس نقاشاته المختلفة مع أسرته ومع بيتر وفضيلة . وكانت البيانات ونبرة القناعة فى صوت إلياس غامرين .

قال على وهو يتنهد :

- حسناً إذن هذا تحول كبير فى الموقف . ليس لدى ما أقول سوى الملاحظة بأنك بهذا تلفت النظر لعلاقتكما العاطفية بصورة مثيرة . اتمنى لك التوفيق يا بنى ، فانت جدير بذلك .

- الن تخبرنى عما اذا كنت تؤيد خطتى أم لا تؤيدها يا عم على ؟

- يا بنى ، ان هذه المسائل الدينية ، فى الاسلام بخاصة ، مسائل حساسة ودقيقة . وعلى المسلم ، مهما كانت درجة قناعته بالمسائل العقائدية ، ان يلتزم باحكام الله أو على الأقل لا ينازعها علنا . انت تعلم بموافقتى على زواجك من فضيلة ، وتبقى موافقتى أيا كان الشكل المقبول اجتماعيا أو على الأقل من الناحية القانونية . وهكذا لك ان تطمئن إلى تأييدى

الأدبي الصامت ، ولكن لا تتوقع ان اصرح به فى الوقت الحاضر . فاذا كسبت قضيتك وعندما تكسبها سيكون قرار القاضى ، والذى افترض انه سيكون مسلما ، هو درعك . ووقتها سيرتفع صوتى ضد من يصرون على إدانة قرار المحكمة باسم الاسلام وفى الوقت الحاضر فإن الحذر هو الطريق الأمثل بالنسبة لى ، والصمت هو ذلك السبيل .

قال إلياس ورأسه مطأطأ وهو يقدر جسامة المهمة التى تواجهه .

ـ انى اتفهم موقفك يا عم على ..

وعندما لقى الياس بيتر فى صباح اليوم التالى ، كان مهموما وقلقا . ولاحظ بيتر ذلك وسأل :

ـ ما هى المشكلة يا الياس ؟..

ـ لاشيء فى الحقيقة . ولكن الطريقة التى قابل بها على خطتى قد ازعجتنى . لقد كنت دائما قادرا على التكهن برد فعله للمسائل التى اطرحها عليه حيث كان دائما مؤيدا لى . ولكنه فى هذه المرة كان غامضا لدرجة تكاد تشكل المعارضة المهذبة .

وماذا كنت تتوقع . ان أمر الدين هذا يذهب الى العظم مباشرة ، ولعله قد اظهر على على حقيقته . كنت سأدهش لو أنه بوصفه مسلما ، وشماليا وعربيا ، قد تصرف بطريقة أخرى . علينا ان نكون واقعيين فى توقعاتنا من هؤلاء الناس مهما اعتبرناهم من الاصدقاء والإخوان .

فقال إلياس فى دعابة .. ولكن بروح مثقلة :

ـ احذر يابيتر فانا على وشك الزواج من أحد هؤلاء الناس ..

وافق بيتر ضاحكا وقال :

ـ هذا حق يا أخى ، وانا اعتذر ولعلها حالة من حالات الاستثناء من القاعدة العامة .

حاول إلياس التوضيح بقوله : لابد ان اعترف بانى فى حالة على لم أعد اصنفه كعربى . ما لم اقدر على ادراكه حقا هو ما اذا كان يعكس معارضته الشخصية لفكرة اللجوء للمحكمة ـ أى مسألة الزواج المدنى ـ أم كان يتحسب للصعوبات الاجتماعية وربما القانونية التى تواجه ذلك المنحى .

قال بيتر بصوت واثق :

ـ لنكن عمليين ولنطمئن على الأقل إلى أن القانون المدنى سيكون فى جانبنا . أقترح أن نذهب لزيارة صديقنا القاضى رشيد دفع الله وهو نائب رئيس القضاء . لعلك تعلم أو لا تعلم ، لكنه رجل جيد ومتحرر نسبياً عند المقارنة مع التفكير الشمالى التقليدى لدى أغلب القضاة الشماليين . لقد تلقى دراسته فى معهد لندن للدراسات القانونية العليا وحصل على شهادة فوق الجامعية من جامعة ييل بالولايات المتحدة .

فأجاب إلياس بشيء من السخرية :ـ

ـ من الغريب ان ذلك النوع من المؤهلات لا يغير من حال الاخوان المسلمين فى غالب الحال سوى ان يعمق من مواقفهم المتحفظة .

ـ من المؤكد ان القاضى رشيد دفع الله ليس من الاخوان المسلمين . وعلى كل حال ، فهو على التحقيق شاذ عن القاعدة العامة .

لسوء حال نظام الهاتف فى العاصمة المثلثة ، فقد قررا الذهاب مباشرة الى رئاسة الهيئة القضائية لزيارة نائب رئيس القضاء حيث وجداه بمكتبه يتجاذب اطراف الحديث

مع عدد من زملائه . وأوحت الحرارة التى لقى بها عضوى البرلمان من الجنوب لزملائه بالانصراف وتركهم وحدهم .

وعندما انفردوا ببعضهم البعض ، ذهب بيتر مباشرة الى جوهر الموضوع بتفصيل خلفية المسألة بمعاونة إلياس من حين لآخر والذى قدم الوقائع المتعلقة بالأمر ، استجابة لتساؤلات القاضى فى بعض الأحيان . وانتهى بيتر الى القول :

- لقد حاولت أن اطمئن الأخ إلياس بان القانون المدنى يساند موقفه . ولكن لانشغالى بالأمور السياسية ، فانا أول من يعترف بان معرفتى القانونية قد علاها الصدأ . لذلك رايت ان ادعوه ليسمع هذه الفتوى من صاحب العلم القاطع فى الامر . واذا خالفتنى الرأى ، فان إلياس يكون قد حصل على النصح النافع .

ورغم انه كان فى منتصف الاربعينات من العمر ، نحيف الجسم ومتوسط القامة ، الا ان القاضى رشيد دفع الله كان كامل بياض الشعر . ومع اسلوبه الوقور ومظهر الحكمة ، فقد بدأ القاضى بمظهر الأبوة والسن المتقدم . تابع القاضى الرواية باهتمام وجدية شديدين دون ان يبتسم مرة واحدة . وعندما فرغ بيتر من الرواية ، تبعه إلياس ليوسع فى بعض جوانب الموضوع وبخاصة فيما يتعلق بوجهة نظر اسرته هو ورد فعل فضيلة وآخر حديث له مع على .

وعندما جاء دوره للحديث ، ظل القاضى رشيد دفع الله صامتا لبعض الوقت وكأنه يتفكر فيما يقول . وأخيرا قال :

- سأحاول ان أقدم لك النصح ولكن عليك تقدير حساسية موقفى كقاض قد يتحتم عليه فيما بعد ان يحكم فى الموضوع . لذلك ادعوك لأخذ ما سأقول كنصيحة شخصية لا تقيد بحال من الأحوال ما سأحكم به اذا أحضر الأمر الى محكمتى .

اعتقد انه علينا التمييز بين نوعين من المسائل وهى المسائل القانونية من ناحية والنتائج أو الآثار الاجتماعية لتلك المسائل من الناحية الأخرى . لا شك ان الاراء تختلف حول حق المرأة المسلمة فى مخالفة الشريعة الاسلامية بان تتزوج من رجل مسيحى زواجا مدنيا . فى تقديرى الشخصى أعتقد أن الامر ممكن ، ولكنى لا أصدر الحكم المسبق قبل ان اتفحص الحجج التى سيقدمها كل الاطراف .

وما اود ان الفت انتباهك له حقا هو النتائج الاجتماعية لهذا النوع من الزواج وما اذا كان هذا هو الخيار الأفضل فى ظروفك المحددة . انا اتفهم تماما واقدر بل وأؤيد البواعث السياسية التى توليها عنايتك الخاصة . ولكن انظر للأمر من وجهة نظر المراة . لقد سبق أن ضحت بالكثير من اجلك بأن حملت وانجبت طفلك بدلا من اجهاضه او محاولة أخفاء الأمر . كان من الممكن ان تقتلها اسرتها فعلا لهذا السلوك حسب القيم والاعراف الجارية . ورغم ان ذلك لم يحدث بحمد الله ، فقد أقصيت من مجتمعها ونفيت الى مجتمع بعيد وغريب عليها تماما .وخلال كل هذا ، لم تجد حضورك ودعمك ليمنحها العزاء . وتقترح الآن ان تقدم هى المزيد من التضحيات بارتكاب مخالفة خطيرة لدينها واعرافها الاجتماعية . ان حكم الاسلام قاطع فى هذا الامر . ليس لامراة مسلمة ان تتزوج من رجل غير مسلم . وقد اصبح هذا الحكم هو العرف الاجتماعى ايضا بين المسلمين . وبدلا من استعداء اسرتها فقط ، فهى ستغضب الآن المجتمع المسلم برمته . ربما توافق الأقلية على سلوكها ، ولكنها ستدان وستنفى بصورة أكثر صرامة مما حدث لها اثناء الحمل .

لابد ان يحدث هذا بسبب الدعاية التى ستثيرها القضية امام المحاكم . فحتى لو سمحت المحاكم باكمال الزواج فى هدوء ، فسوف يستأنف والدها القرار الى اعلى محاكم الاستئناف فى البلاد . الا تعتقد ان هذه الفتاة المسكينة قد عانت بما فيه الكفاية بسببك أنت ؟ الا ترى ان دورك قد حان لتضحى بشىء ما من اجلها هى ؟

ودعنا الآن ننظر الى موقفك ونقيم التضحيات التى تطالب بها . كما افهم من قولك ، فعلى مستواك الشخصى ، فبينما لا توافق المسيحية الزواج من غير المسيحيين ، فانها لا تحرمه بصورة قاطعة كما يفعل الاسلام . وهذا يعنى انه من الناحية الدينية ، أنت حر نسبيا فى الزواج ممن تشاء . والعقبة الوحيدة امامك هى انك تنوى الزواج من امرأة يحرم دينها مثل هذا الزواج . علاوة على ذلك فديننا الإسلامى قد يعتبر هذا السلوك « ردة » عقوبتها الاعدام . ولا يهمنا هنا ما اذا كانت هذه العقوبة ستوقع الآن أو لا توقع . فالنقطة الرئيسية هى ان التوقعات الاجتماعية قائمة على الشريعة الاسلامية . وانت بحمد الله متحرر من ذلك الاعتبار .

وكما قال لك على وافراد اسرتك بوضوح ، فان تبديلك لدينك لن يغير من اسلوب حياتك أو مركزك الاجتماعى على المستوى الشخصى .

وما يبقى اذن هو المدلول العام لسلوكك . انى اوافق على ما قاله كل منكما عن الابعاد السياسية للموضوع ، خصوصا اذا اعتبرنا انك يا الياس زعيم لقومك . ولكن دعنا ننظر للامر ايضا من هذا المنظور . بينما نجد ان الخلافات الدينية بين أهلنا خطيرة ـ فيمكن القول انه عندنا مسلمون من الجنوبيين ومسيحيون من الشماليين ـ فقد يستغل السياسيون أمر الدين ، لكنه ليس بالمعضلة الاساسية بين الشمال والجنوب . يمكن للمرء أن يقول بأن الدين قد اصبح مجرد واحد من العوامل فى موقف معقد تتعمق فيه جذور المشاعر العرقية والثقافية . وهناك ايضا مسألة ما اذا كانت الخلافات العرقية والثقافية مسألة حقيقية أم مفترضة أو وهمية ! لا شك ان هناك الكثير من الوهم والخرافة فى هذه التصنيفات المبسطة . لكنها قد استقرت فى اذهان الناس . ان اوهام العروبة والافريقية تختفى فى بعض الأحيان وراء الخلافات الدينية ، وهى التى يصعب تجاوزها . فالسؤال اذن ، اذا استبعدنا المسألة الدينية ، هل ستلعب المشاكل العرقية والثقافية دورا اساسيا كعقبة أمام مثل هذا الزواج ، أعتقد أن فهم هذه المسألة سيعين على مواجهة هذا الموضوع . أرجو أن تفهم ما أرمى اليه .

لم ينطق الياس ولا بيتر بكلمة واحدة . فما قال رشيد دفع الله قد فاجأهما تماما ، لكنهما تفهما كل ما قاله إذ بدا موضوعيا فى تحليله لدرجة لم يجدا ما يقولانه فى مناهضة حجته .. من المؤكد انه قد القى الكثير من الضوء على تعقيدات الموقف .

قطع بيتر حبل الصمت باستدعاء مقارنته المحببة فقال :

ـ فى الجنوب وفى العديد من انحاء افريقيا السوداء ، يتزوج رجال مسيحيون بفتيات مسلمات ولا يقوم الاسلام كمانع للزواج . وذلك لان الناس يشعرون بالتوحد ولا يريدون للدين ان يقسمهم . لهذا السبب اعتقد ان اخوتنا فى الشمال يستغلون الدين لاخفاء تحيزهم العرقى .

قاطعه القاضى بالقول : ولكن هذا بالضبط هو السبب الذى أرى بأنك تقدر على فضح التحيز العرقى الخفى بإزالة العامل الدينى . ألا يكون من المثير للاهتمام والمفيد لقضيتك أن ترى ما إذا كانت الأسرة ستعارض حتى لو تحول إلياس إلى الإسلام ؟

فأجاب بيتر : هذا حق ، ولكن هذا السلوك سيدعم الاستيعاب من جانب واحد . ما نرمى إليه نحن هو التداخل والتكامل الحقيقى من الجانبين . وما تتحدث عنه أنت ، إذا فهمت أنا حقيقة ما تقول ، إنما يقود فى نهاية الأمر إلى استيعابنا فى الهوية الإسلامية والتى هى عربية عرقياً وثقافياً .

اعترف القاضى رشيد فقال :

- ومرة أخرى أوافقك من ناحية المبدأ العام . ولكنى لا أزال عند قولى أنه فى هذه الحالة بالذات من واجب الياس نحو فضيلة - إذا أراد حقاً أن يتزوج من الفتاة - أن يقوم ببعض التنازلات أو التضحيات من جانبه هو . لقد فعلت الفتاة أكثر مما يتوقع المرء من البشر العاديين . لماذا نثقل عليها بمطالبتها بالتضحية القصوى دون مقابل معتبر ، ليوازن الأمر من جانب إلياس ؟ هذا خصوصاً إذا أخذنا فى الاعتبار أن الأمر لن يؤثر عليه من الناحية الشخصية بل وقد يخدم حقاً المصلحة العامة بإزالة العامل الدينى واكتشاف العوامل الأخرى الخفية .

فقال بيتر بمزيج من الجدية والدعابة :

- حسنا يا أخ الياس ، ها أنت والموقف الراهن ، وعليك الدور فى التحرك ..

فأجابه الياس موافقا :

- انه حقا كذلك .

وفى طريق العودة ، تحدث بيتر عن الاثر الذى خلفه حديث القاضى ..

- لا استطيع ان اقول بان موقفى قد تغير ولكنى استطيع ان اقول على الاقل بانى اقدر وجهة نظره فى الموضوع ، بخاصة الحجة القائلة باعتبار مصلحة فضيلة . انى على التحقيق لم اعد بقوة القناعة التى كنت عليها من قبل . بل انى أجد نفسى غير قادر على اسداء النصح القاطع . لهذا اقول لك : حالفك التوفيق يا صديقى فى اتخاذ قرار لا يملك اتخاذه أحد سواك .

قال الياس فى نبرة جادة :

- اتعلم يا بيتر بانى اتساءل مع اى الجانبين يقف الله .

واستمر الياس فى شعوره بالتنازع بين الخطتين . فمن الناحية العقلية ، كان مقتنعا بحجة القاضى ان يتحول هو الى الاسلام من أجل خاطر فضيله . ولكن شعوره العفوى كان معاكسا لذلك . اذا قام بالتحول من أجل فضيله ، فهل يخبر على اولا ام فضيله نفسها ؟ وقرر ان فضيله ينبغى أن تكون اول من يعلم لانها المعنية فى المكان الاول .

وبمجرد لقائهما فى منزل عواطف مرة أخرى ، لم يفوت اى وقت فى اخطارها بقراره واسبابه لذلك .

- انى اوافق القاضى بانك قد عانيت بما فيه الكفاية وانه من الظلم لك ان تحتملى المزيد من المعاناة نيابة عنى . أن المنطق يقضى بأن دورى قد حان لتقديم التضحية من أجل حياتنا معاً .

خالفته فضيله الراى وقالت :
- انى امضى للحد الذى اقول فيه بانك انت لا توافق نفسك . ان ما كنت تقوله لى ليس بكلماتك وإنما هى كلمات الآخرين وأنت لا ترددها حتى بصورة مقنعة . من تحاول إرضاءه : أنفسنا أم الله أم الناس الآخرين؟ إنى أعلم بأنك لا ترضى نفسك بهذه الطريقة . أما بالنسبة لى، فثق بأنك لا ترضينى بل تخلق لى جحيماً بتضحيتك بنفسك من أجل خاطرى . وأما بالنسبة لله فإنه ولاشك سيعلم بأننا مخادعون وفى الحقيقة حتى المجتمع سيكشف فى غالب الحال

خداعنا ، هل لدينا الفرصة لكسب الاخيار لجانبنا ؟ لا ، على الاطلاق . واما عن المنافقين الذين سيسعدون لتظاهرنا بغير الحقيقة وهم يعلمون باننا نفتعل الامر فهل يستحقون كل هذا الاعتبار والتقدير ؟ انا على التحقيق لا اريد ذلك .

الياس ياحبيبى دعنا لا نرتبك وتختلط علينا الامور بسب الاخرين مثل قصة الرجل مع ابنه وحماره والذى لم يقدر على إرضاء الجميع . لنرضى ضمائرنا اولا ونحصل على ما يستحق . فعلى كل حال ستبقى معتقداتنا كما هى مهما كانت الطقوس التى نؤديها لارضاء الاخرين .

اما عن الحجة القائله بانى قد سبق أن ضحيت بالكثير ولا ينبغى مطالبتى بالتضحيه بالمزيد فانى اقول عما احس به حقيقة . لم يطلب احد منى التضحيه من قبل وعلى كل حال من هو الذى يعرف ما هى التضحيه ؟ بمعاييرى أنا فانى اعتقد ان الناس يواصلون التضحيه طوال حياتهم من خلال الخيارات التى يتخذونها ، هل سنحفظ سجلا بتضحياتنا ونقارن بين مساهمات كل منا من حين لآخر لنحافظ على الميزان الصحيح ؟ هذا قول فى غاية السخف . أنا ما يهمنى حقا هو الحصول على موافقة القانون السارى فى البلاد وخصوصا لمصلحة فحل ابننا . إذا قدرت المحاكم المدنيه على اقرار مشروعية زواجنا فمن الذى يهمه ما يقول الاخرون ، ارجوك الا تفكر مرة أخرى فى التضحيه بمعتقداتك الروحيه أو مصالحك السياسية او عزتك و كرامتك من اجلى انا ، وفى نهاية الامر لو فقدت توازنك واصبحت رجلا سهل القياد لرياح الراى العابر فكيف اجد انا فيك الوزن والمرساة التى اجدها الآن ؟

في تلك المرحلة امتلأ إلياس بالشعور الغامر ونظر إلى فضيلة وعيونه تشتعل بالحب وهو يقول :
- لقد كنت دائماً متأكداً من حبى لك والآن يغمرنى الشعور بحبك . وأحس الآن بأنى أسعد رجل فى العالم .
- إنك تجعلنى أشعر بالسعادة لشعورك بالسعادة ولك تكن من قبل بهذه السعادة وأنت تخبرنى بقرارك ، كما أنى لم أكن سعيدة وأنا أراك تجاهد مع الأمر . وأنا أراك الآن سعيداً حقا فإنى أشعر بالسعادة أيضاً . آه . يا إلياس إنى أحبك غاية الحب وأريدك أن تكون سعيداً معى ومع فحل وباذن الله ، مع المزيد من الاطفال .
فقال مؤكدا :
- باذن الله

وضع طلبهما للزواج المدنى امام القاضى محمود على حسن الذى اشتهر كخبير فى امور القانون الخاص المقارن او ما يسمى تنازع القوانين . ويقال ان محمود حسن كان من الاخوان المسلمين خلال فترة الدراسة . ويعتقد من يعرفونه جيدا ان ذلك قد خلف عنده معرفه واسعه بالشريعه وموقعها فى الفقه المقارن القائم فى السودان . واذا صح ذلك فانه لم ينعكس فى قراره حول قضيه الياس وفضيله ، اذا رفض طلبهما بحجة انها ملزمة بالزواج من رجل مسلم حسب مقتضى احكام الشريعة الاسلامية .

استانف الياس وفضيله ضد قرار المحكمة الاولى وطلب رئيس القضاة من القاضى رشيد دفع الله ان ينظر فى الاستئناف وطلب القاضى رشيد فى بداية الامر اعفاءه من النظر فى القضيه على اساس انه سبق ان اسدى النصح الشخصى لاحد الاطراف وبذلك لم يشعر بالحياد التام فى القضية إلا أن رئيس القضاة خالفه الرأى . قرر القاضى الرشيد تخفيف الاهتمام الإعلامى بالقضية تقديراً لحساسيتها وقابليتها للانفجار . سمع القاضى القضية فى جلسة مغلقة حيث صاحب الياس وفضيله محامى قبطى مرموق هو بطرس سمانى . ودعمت جماعة تسمى نفسها « لجنه الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » موقف اسرة فضيلة وقدمت لها خدمات محام اسمه حسين عمر عابدين وهو من الاخوان المسلمين المعروفين .

احتج بطرس سمانى فى دعواه بأنه فى قطر متعدد الأديان يضمن فيه الدستور حرية الدين الاعتقاد يصعب على المرء تصور إلزام الشخص بأحكام دين ميلاده بدون انتهاك لحقوق لإنسان الأساسية وقال إنه على يقين بأن القانون قد وفر نظام الزواج المدنى من أجل أولئك الذين لا يرغبون فى اتباع الاجراءات التى تضعها القوانين الدينية وحرمان اى شخص ذلك الحق هو انتهاك لنص وروح القانون . كيف تكون لفضيله اى حرية فى الاعتقاد او الدين اذا تحتم عليها اتباع الشريعة الاسلامية لمجرد انها ولدت لأبوين مسلمين ؟وعلى كل حال هل يتبع كل المسلمين جميع جوانب قانون الله من صوم وصلاة وزكاة ؟ انى اشك فى ذلك على ادنى تقدير . وأين نجد العقوبات لتقصيرهم فى أمر الدين ؟ انى اعتقد ان الأمر فى النهاية يرجع إلى الله ، وكذلك ينبغى أن تكون تبعات زواج المسلمة من الزوج غير المسلم . يوفر القانون السارى فى البلاد البدائل ، وإذا لجأ أصحاب العقائد المختلفة إلى تلك البدائل . فإن الحكم النهائى هو الله والذى يرى بأن جميع الأديان هى ، على كل حال ، مناهج مختلفة إلى نفس الغاية .

وقال حسين عمر عابدين فى دعواه :

- « يا جناب القاضى ، إننا لا نتحدث عن الخيارات البشرية أو حرية الاعتقاد وإنما نتحدث عن الطاعة لشرع الله من مسلمة واضحة الهوية الدينية . لا مجال للشك فى حكم الشريعة فى أمر زواج امرأة مسلمة من رجل غير مسلم . إن مجرد مناقشة الأمر مسألة ملعونة ومحرمة . إن هذا الأمر على التحقيق لا يخضع للجدل . لقد ارتكبت فضيلة (بحملها سفاحاً) جرما يستحق عقوبة الجلد مائة جلدة إذا اتبعنا أحكام الشريعة حقاً . ورغم أن تلك العقوبة لم توقع فلا يمكن أن نضفى على الأمر حصانة القانون بحكم المحكمة بجواز جماع محرم بين امرأة مسلمة ورجل غير مسلم . بأى قانون نقدر على هذا ؟ إنى أحمل كل الاحترام لعلمك بالقانون يا سيدى القاضى ولكنى أشك فى أن تجد العذر لهذا الموقف المخالف لإرادة الله .

رد بطرس سمانى بتذكير خصمه المسلم بأن السودان ليس بدولة إسلامية .

- فحتى لو كنا نعيش فى ظل دولة إسلامية ، فلدى تساؤلات كبيرة حول الحريات الأساسية وحقوق الانسان فى عهد العلمانية الحديث هذا . ولكننى لن أذهب كل هذا المدى فى هذه الحالة الإنسانية واكتفى بسؤال المحكمة ، وأنا على التحقيق لا أسأل زميلى المحترم ، ما إذا كان هناك مجال لمن يختارون أن يعيشوا حياتهم وفق مقتضيات ضمائرهم ويتصلوا إلى ربهم من خلال المنهج الذى اختطه لهم رؤاهم الخاصة ؟ إذا كانت الإجابة بالنفى فنحن نعيش فى ظل نظام لا يستحق أن يسمى بالنظام القانونى وسيكون وجودى هنا مجرد هراء لا طائل من ورائه . إنى واثق بأن الأمر على غير ذلك .

رفض القاضى طلب حسين الحديث مرة أخرى بحجة أن الجدل قد يستمر إلى ما لا نهاية .

- مما لا شك فيه أن كلاً منكما على حق وواجبى أن أحكم فى أى منكما على حق أكثر من الآخر وبذلك يستحق صوتى التأييد .

ليست القضية بجديدة على تماماً كما قد تعلمون . ولم يقل فى هذه المحكمة ما يزيد من رؤيتى فى الأمر أو بغير رأيى الأول . أعتقد أنه على المرء أن يميز بين النواحى القانونية والنواحى الاجتماعية . فى هذه القضية من الناحية القانونية فأنا لا أشك بأنه لا يحق لنا أن نحكم على الزوجين بمعيار الدين الذى يعتقد به أحدهما أو ينتمى إليه بصورة شكلية وإذا فعلنا ذلك فإننا نميز بين الدينين وأعتقد أن هذا هو السبب فى إنشاء الزواج المدنى ليوفر البديل للزوجين اللذين يفضلان عدم الالتزام بنظام الزواج الدينى أو العرفى والحكم بخلاف هذا هو تناقض ظاهر .

الا ان منح الناس الحق الذى ينص عليه القانون لا يضمن لهم القبول الاجتماعى لذلك الحق . كثيراً ما يكون الدين هو العرف والسلوك الاجتماعى وحتى عندما يستوفى الشخص المتطلبات القانونية فاذا لم يتفق سلوكه مع المناخ الاجتماعى السائد فان الحق القانونى يكون مجرد كلمات تقال او وثائق تكتب ويوقع عليها . لدينا بطبيعة الحال الشرطة والجيش فى نهاية الامر لضمان نفاذ القانون ولكن من يرغب العيش فى مكان تغمره الشرطه والجنود لتنفيذ حكم القانون خصوصا فى مثل هذه المسائل العائلية الخاصة ؟

ماذا يعنى هذا التحليل من الناحيه العلمية ؟ انه يعنى أو على الاقل مقصود منه ان يعنى ، ان الياس وفضيله يملكان الحق القانونى فى الزواج المدنى . اما من الناحية الاجتماعية فإنى أعتقد بانهم فى خطر من الاضطهاد والازعاج . ومن الناحية الاخرى ، فاذا اختارا هذا الطريق فلهما الحق فى كل الحماية التى تستطيع الدولة توفيرها لمواطنيها . يجد البعض فى هذا ما يكفى بينما يرى الآخرون بأن تلك حياة صعبة وقاسية . ليس لى الحق فى أن أقول لإلياس وفضيلة أيهما أفضل لهما . الواقع أنهم قد اختارا طريقهما بحضورهما إلى المحكمة . بهذا أعلن أنهما يملكان الحق القانونى بأنهما سيحصلان على كل الحماية التى يوفرها القانون لزواج مشروع .

ومع نهاية عباراته الختامية ، انفجرت فضيلة بزغاريد الفرح بينما استجلب حكم القاضي الرد الغاضب من الاصوليين الاسلاميين الذين تجمعوا خارج قاعة المحكمة في انتظار القرار . وتصايحوا بالقول « الله اكبر ، الله أكبر » وهم يرفعون بقبضات أيديهم في الهواء ويشرعون فوراً في تظاهر ضد قرار المحكمة بترديد الهتاف :

« لنمت من أجل الله . الشريعة هي حكم الله . لنخلص أنفسنا من العلمانيين والكفار . فضيلة فضيلة ولية الكفار . السيف والسيف لإلياس وفضيلة اعداء الاسلام ».

كان القاضي قد توقع مثل هذا السلوك وحذر سلطات الأمن بالتأهب لمقابلة الموقف . تم اتخاذ الاجراءات ضد المتظاهرين وسرعان ما تفرقوا .

الا أن محمد أحمد الجاك لم يكن ليرضي بالنتيجة . وتقديرا منه لأن حكم المحكمة حول الاعتراض الديني كان نهائيا وفاصلا ، فقد قرر استخدام السلاح الوحيد المتبقى له كما عرف إلياس بعد قليل . وتهيأ المسرح لاعترافات خطيرة .

الفصل الحادى والعشرون

حضر إلياس لزيارة العميد على فى وقت متأخر من العصــر حين يتوقع وجوده منفرداً بديوانه .

قال على بعد أن حيا إلياس .

- من الغريب ان تحضر فى هذا الوقت بالذات فقد كنت افكر فيك هذه اللحظة .

ورد عليه إلياس بقوله :

- يا عم على ، انى احتاج مشورتك واكثر من ذلك . اتوقع ان تعلم انه بالرغم من حكم المحكمة لصالحنا ، فأنا وفضيلة لا نزال قلقين بشأن رد فعل الآخرين الذى اشارت اليه المحكمة . وأهم شخص بالنسبة لنا هو انت ، لذلك نحب ان نعرف رد فعلك حول الحكم .

- لابد ان تكون قد عرفتنى بالقدر الكافى لتعلم ان ما يحقق مصلحتك يجد موافقتى بكل تأكيد . وهذا ينطبق على حكم المحكمة . ولكنكما محقان وكذلك كان القاضى محقا ، اذ ان الحق القانونى لا يضمن فى حد ذاته القبول الاجتماعى ومن ثمة لا يضمن السعادة .

لقد ذهبت لمقابلة نسيبك (والد زوجتك) المقبل وتشاجرنا بشدة . اذ ان ما حدث كان مشاجرة أكثر منه حديثا حول الموضوع . انه مصر على معارضة الزواج بأى وسيلة ممكنة لدرجة انه اخبرنى بانه قد عاد الى المحكمة وطلب اصدار أمر بمنع الزواج على اساس انه يملك بينات جديدة تحرم الزواج . وصدر الأمر بمنع الزواج فعلا . وأخبرنى بانه فى تقديره الشخصى فان الزواج لن يتم .

واخبرته أنا بانه يتصرف بطريقة مثيرة للسخرية ، وانه ليس بالمسلم الورع بالقدر الكافى ليحرص على منع الزواج لاسباب دينية ولابد ان تكون له أسباب أخرى .

وظهرت على الياس معالم الاحباط وكأنما اصبحت المعركة أكبر من طاقاته فقال :

- اعتقد انه ربما كان على ان احاول نسيان فضيلة .

وكانت الطريقة التى تحدث بها إلياس هى التى حركت على لأقصى درجة ، فنظر اليه نظرة الوالد العطوف وعض على شفته وهز رأسه ثم قال :

استمع الى جيدا يا إلياس . كما ذكرت لك ، فقد تشاجرت مع اخى بشدة بشأن الموضوع واتهمته انا بانه متحيز عرقيا ، وغضب هو منى غضبا شديدا . وفى محاولة يائسة للدفاع عن موقفه كشف لى عن امر كنت انا مترددا فى إخباركبه ولكنى اعتقد انه لابد من الإفصاح عنه . إن الموقف من تلك المواقف التى لايكسب فيها أحد . كان الصمت سيدع الامور كما هى ، وذلك ما رغبت انا فيه ـ لقد اتفقنا انا ومحمد على المزيد من التفكير فى الامر ، ولكنى اعتقد انه فى قرارة نفسه يرغب فى اعلان الحقيقة ولاسباب اكثر من مجرد دفع تهمة التحيز العرقى .

نظر إلياس الى على وهو مستغرق بصورة تامة ، ولم يقدر ان يتصور ما يمكن ان يسبب كل ذلك العبوس لعلى . وكان إلياس لا يكاد يصبر حتى يصل على الى لب الموضوع .

ـ لقد تساءلت يا إلياس منذ لقاء أخى محمد بك لماذا تصرف هو تجاهك بتلك الطريقة ، اذ ظهر لى الامر فى غاية الغرابة . لقد شعرت بانه يشعر بالعداء العميق لك ولكنى لم اتمكن من ادراك حقيقة الامر . كل ما كنت اعلم هو انه يشعر بحساسية شديدة تجاهك ولكنى لم أقدر على معرفة السبب .

كان إلياس وقتها قد خرج عن طوره لنفاد صبره ولكن عليا واصل الحديث فقال :

ـ والآن اعرف السبب وهو ان محمدا يعتقد بانك ابنه .

لم يكن إلياس متاكدا انه قد سمع حقا ما سمع فسأل :

ـ ماذا قلت ؟

ـ يعتقد محمد انك ابنه . يقول بانه لاحظ الشبه العائلى فيك منذ البداية ، ولم يقدر على تفسيره فصرف تلك الخاطرة وقتها . ورغم ذلك ، وفى كل مرة رآك فيها ، شعر بالانزعاج لما يراه فيك .

وفجأة اتضحت الصورة بسبب البينات التى ادلى بها اخوك التوم امام اللجنة .

انفتح فم إلياس واسعا واتسعت حدقتا عينيه دون ان يرمش وهمهم وهو فى حالة صدمة شديدة .

ـ وماذا قال التوم ؟

ـ انا لست واثقا مما يعنى . فقد شاهد محمد جلسة اللجنة من خلال التليفزيون وهو يزعم بانه هو العربى الذى اختطف امك واخويك وانه عاشر امك معاشرة الازواج خلال الفترة القصيرة التى ظلت هى فيها حبيسة معهم وانها قبل انقاذ الدينكا لها قد اخبرته بانها حامل بطفل منه . وهو يعتقد أن ذلك الطفل هو انت اذ انك قد ولدت بعد ميلاد التوأمين . .

وبدا لإلياس أن عالمه ينهار تماما ، ولم يعرف كيف يفكر وماذا يقول أو يفعل . وما هو اسوأ من ذلك ، لم يعرف هل هو حزين أم سعيد . فالحزن يعنى انه يرفض الرجل الذى قد يكون والده بينما تعنى السعادة ضمنا انه يرفض الرجل الذى كان حقا والدا محبا بغض النظر عما اذا كان والده الطبيعى أم لا . كما ان عليا لم يقدر على مساعدته .

فجلسا فى صمت وهما يتجنبان النظر الى بعضهما البعض ويحدقان بلا هدف معين تجاه الاشياء وهما مشغولان برؤيتها الداخلية .

استغرق إلياس فى ذلك بعض الوقت قبل ان يقرر انه من الافضل له أن يكون مستلقيا على سريره ليتفكر فيما حدث فى خصوصية حجرته . فمن المؤكد انه لا يجدى ان يجلس

هناك وهو في حالة ارتباك كامل، وفكر لنفسه بشأن على : من الممكن أن يكون حقاً عمى الطبيعي .

ثم نهض لينصرف .

- اعتقد انه من الافضل ان انصرف

- وماذا انت فاعل ؟

- لا اعرف . اريد ان اعود الى منزلى اولا لارتب افكارى اذ انى اشعر بالارتباك والحيرة الآن .

فقال على : إذا أردت المشاورة فعد إلى . فعلى كل حال ، ومهما كانت علاقتك بأخى ، فإنى أعتبرك إبنى .

وبينما كان إلياس يقود سيارته الى منزله ، احس وكأنه فى عالم آخر ، عالم مزدحم بأنعكاسات وتوجسات متداخلة لم يقدر على تمييزها . لم يكن واعيا بالسيارات الأخرى أو الناس على الطريق ، وفى أحدى المرات تمكن من تفادى حادث فى الطريق برد الفعل الغريزى . وعند وصوله إلى منزله ، دخل وكأنما يمشى وهو نائم واتجه إلى حجرته . لاحظت ألويل ذلك فتبعته ، اذ أوحت لها غريزة الأمومة أن فى الأمر شيئا ، وربما احست بذلك لأن إلياس لم يحيها عندما مر عليها ، او لما راته على وجهه من عبوس .

فتساءلت وهى تفتح باب حجرة إلياس لتجده مستلقيا على ظهره .

- مالك ..؟ هل فى الأمر شيء ؟

- ليس هناك أى شيء .. فقط أعتقد انى مرهق ومحتاج لبعض الراحة »

أجابت وهى تغادر الغرفة .

- فى هذه الحالة ، أحسن أتركك لترتاح .

وبالطبع لم يجد إلياس الراحة ، واخذ يستعرض شريط حياته كابن ملينقديت والويل .. ارتباطه بهما معا ، محبته العميقة لاخوته ، بما فيهم اشويل الذى لم يعرفه ابدا ، ثم السعادة التى جلبتها للأسرة التطورات الأخيرة ، وخصوصا أكتشاف اخيه المفقود مديت . شعور بالعرفان لتحقيق ارادة الاسلاف ثم التطلع لاحتمال الوصول إلى اشويل يوما ما . ولكن فجأة ، أكتشف أنه ابن شخص أخر ، بل ابن نفس الرجل العربى الذى سبب كل ذلك الشقاء لأهله . وحدث نفسه قائلا « هذه هى الطامة الكبرى . كيف أعترف بأبوة الرجل الذى اعتدى على أهلى بهذه القسوة الفائقة ؟ »

ولكن أى الاسرتين هى أسرته الحقيقية ؟ ماذا لو كان حقا ابن محمد ؟ واحس ببعض العزاء لانه لايزال ابن والدته ، مما يجعله على درجة من القرابة بملنقيديت بوصفه ابن زوجته . ولكن ماهى حقيقة شعوره تجاه والدته التى لم تلده من محمد فحسب ، بل وكذبت عليه هو وعلى كل الناس لأعوام طويلة ؟ لعل ظروف حملها به لم تعطها خيارا فى الأمر ، ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا أخفت الحقيقة ؟ لم يكن إلياس يملك الاجابة على ذلك السؤال . وأحس بأن والدته قد خانته بصورة من الصور ، بأن جعلته يتقبل أبوة ملينقديت . وفجأة خطر له أنه قد استعجل ادانة امه بناء على قول محمد دون أن يستجلى الأمر منها هى بصورة مباشرة . فمن حسن التوفيق أنها موجودة معه . ونهض إلياس قائما واستدعى والدته . دخلت الويل وهى تشعر بخليط من الراحة لان ابنها قد قرر الحديث معها والقلق لما يمكن أن يقول .

- ياأمى ، اريد ان اسألك سؤالا وأناشدك أن تخبريني بالحقيقة .

وكان من الواضح أنَّ شيئا خطيرا بحق قد حدث ، إلا أن الويل لم تكن تملك ادنى فكرة عما يمكن أن يكون ، فنظرت بترقب لابنها .
- ماذا حدث عندما اختطفك العرب ؟ .
- ماذا تعني بسؤالك عما حدث ؟ أنت تعرف ماحدث حق المعرفة ، فلماذا تسألنى ؟ .
- يا أمى، لدى مايحملني على الاعتقاد بأنى سمعت فقط طرفا من الرواية . اما الجزء الأخطر ، على الأقل فيما يتعلق بى شخصيا ، فقد ظل على مايبدو سرا دفينا .
اخترقتها كلماته بحدة كادت أن تجعلها تصرخ من الألم . لكنها صرفت مشاعرها جانبا وقالت :
- حسنا ، اذا كان هناك شيء تعرفه أنت ولا أعرفه أنا، فلماذا لاتخبرنى به ؟ .
- هل حملت بى ياأمى أثناء وجودك مع العرب ؟ .
كانت تخشى أن يفاجئها بول بشيء ما ، لكنه لم يخطر ببالها أن يذهب الى ذلك المدى . لقد حدث المستحيل . ما الذى جعله يفكر بهذه الطريقة ؟ ومن الذى بعث فيه هذه الخواطر المرعبة ؟ فحسب علمها ، لم يجر أى حديث مثل هذا فى نطاق الأسرة . لقد كادت أن تموت عند الولادة ولكنها ابت ان تعترف كما تساءلت العرافات عن سبب فقدها لطفلها التالى وعجزها عن الحمل بطفل بعد ذلك . ومع أنه لم يحدث أن اتهمتها اى عرافه ، فقد كان واضحا أنهن كن يتساءلن عما اذا كانت تخفى امرا . وهى نفسها قد تساءلت عما اذا كانت حالتها المأساوية ترجع الى السر الذى أخفته ، لكنها أصرت على عدم إشانة سمعتها بالافصاح عنه . والآن ظهر لها ان كل ذلك بلا جدوى . كيف أمكن لبول حتى أن يتساءل عن الامر ؟ وهى لاتزال مصعوقة ردت عليه بصورة حادة :
- من هو ابن الكلب الذى أوحى لك بهذه الأكاذيب الخبيثة ليسمم افكارك ويدمر حياتك ؟ .
واحس الياس بأنه مدفوع بقوى لم يعد قادرا على التحكم فيها فقال بصورة عدائية :
- يا أمى ، لقد أخبرنى بالحقيقة محمد العربى الذى اختطفك . هو يزعم بأنى ابنه لأنك قد أخبرته قبل انقاذك بانك حامل بطفله هو ، وقد سمع رواية أسرتنا من التحريات مع مديت التى شاهدها على التلفزيون . والآن وقد ظهرت الحقيقة ، ماذا يمكن ان يقال ؟
ظلت الويل صامته . لم تكن محتاجه ليخبرها بول عن العربى الذى اخبرته بحملها بطفله هو من أجل حماية نفسها واشويل من المزيد من القسوة . فسيكون سيدهما أكثر رفقا بهما إذا علم بانها حامل بطفله هو . والآن حدث أسوأ ما يمكن تصوره - لم تعد الكلمات تجدى .. وحقا لم يعد هناك مجال للمزيد من الكلمات . وفى يأس مطبق ، صاحت الويل بأعلى صوتها وهى ترفع يديها فوق رأسها الذى كانت تحركه بصورة عنيفة وكأنها قد تلبستها الارواح الشريره - وصاحت قائلة :
- آه .. آه .. لقد دمرت ولقد اخذ العربى آخر نفس من حياتى . آه ياربى ، ويا أرواح اسلافنا ، ماذا فعلت حتى استحق كل هذا ؟ .
واخذت تصرخ وتقفز وتدور وكأنها مجنونة .
وخلال دقائق معدودة تجمع عدد من الناس وهم يتساءلون عما حدث . وبما انها كانت فى خطر من ان تؤذى نفسها وهى تقذف بنفسها من مكان لآخر ، امسكوا بها وحملوها الى حجرتها . ولم يكن أى مما تقول يعنى أى شى بالنسبة لبول (إلياس) بالطبع . فى بداية الأمر ، توهم الناس ان شخصا ما قد مات فجأة وان العرب هم الذين قتلوه . وعندما لم يظهر

شيء من ذلك ، ظنوا ان الويل قد تلقت أنباء مفجعة من أهلها وانها أيضا تتعلق بالعرب . ولم يتحدث في تلك الأثناء الياس الذي كان يعرف الحقيقة . وبدلا عن ذلك ، اسرع خارجا وركب سيارته وقادها مبتعدا دون ان يعطى أى اخطار بالمكان الذي يذهب اليه .

وعندما عاد كان الوقت ليلا متأخرا وقد انصرف اغلب الناس الى النوم . كان ملينقديت جالسا في صحن الدار مع الويل ومعهما مديت إذ كانوا في انتظار الياس . وعندما دخل رآه والده الذي كان يعاني من الألم بصورة واضحة لكنه لم يشأ الاقرار بذلك وصاح صيحة الراحة والامتنان للعناية الالهية .

- ثيثي - لقد اعادته ارواح الاسلاف .

وكأنما حسنت رؤياه لبول من حالة مرضه القاتل .

مشى الياس نحوهم وهمهم بعبارات التحية المكتومة . ثم واصل السير الى حجرته ليغير ملابسه مؤكدا لهم بأنه سيعود . وعاد اليهم بعد ان ارتدى جلبابه المنزلي . جلس الرجال على مقاعد بينما جلست الويل على حصيرة وقد طوت قدميها الى جانب واراحت يديها على فخذيها وحنت رأسها . وكان من الواضح انها شخص مختلف عن المرأة التي عرفها ووثق فيها بول طوال تلك السنين .

كان ملينقديت متماسكا لروعه كالعهد به دائما وكذلك ظل مديت هادئا لا يفصح عن أى عواطف . وعندما جلس الياس تحدث ملينقديت أولا في صوت ضعيف لكنه ناعم بصورة مريحة ، وكانت طريقته في الكلام تدعو للتصالح وقد ظهرت من معالجته للموقف حكمة العمر الطويل والإقتراب من الله وأرواح الأسلاف .

- لقد كان هذا يوما طويلا يابني . وقد انفقت اغلب المساء في تهدئة امك أولا ثم الحديث معها - وبعد ان هدأت وامكننا مناقشة الموقف بصورة معقولة ، اخذنا في الانزعاج عن المكان الذي ذهبت اليه وما إذا كنت ستعود . والحمد لله ، فقد عدت سليما ومعافى .

وكح ملينقديت في الم وكأنه يعلن بأن النهاية قد حانت ، ثم توقف.وكأنه يفكر في احسن الطرق لصياغة ما سيقول .

- يا أبنى بول . ان الحياة من خلق الله الذي يستخدم الأب والأم كمجرد ادوات لعمله . ان الله هو الأب والأم الحقيقيان لكل إنسان . وكل ما عدا ذلك وسائل لغاية الله . وعندما يقرر الله احضار شخص الى هذا العالم ، فالشيء المهم هو بقاء ذلك الشخص . وقد يبقى الشخص من خلال الاب والام اللذين استخدمهما في إبرازه إلى الوجود أو من خلال أفراد آخرين اختارهم الله للعناية به .. ولا يتطابق الاثنان في جميع الأحوال . عند أهلنا الدينكا يقال أن الطفل ملك لأرواح الأسلاف التي دفعت أبقارها في الزواج من الأم . لهذا السبب يقول أهلنا أن الطفل هو ملك لأبقار الزواج قبل أن يكون ملكاً للأب والأم الطبيعيين . وما يعنيه هذا هو أنه

اذا تمت ولادة الطفل من رجل غير زوج المرأة ، فان الطفل يكون لزوج المرأة وقت الحمل ، بغض النظر عما اذا كان هو الاب الطبيعي أم لا . لهذا لاينبغي يابني أن تشك أنت في أنك ابني . واذا قلت أنت الآن بأنك قد اكتشفت والدك الحقيقي وترغب في الذهاب اليه فاني لن أفرض عليك حقوقي القانونية كأب بموجب عرف الدينكا . سأتألم لفقدك ، ولكني سأتركك تتابع خيار قلبك .

اصبح إلياس فى هدوء يشبه هدوء مليندقديت ..

ـ هل افهم مما تقول ان ماقاله محمد هو الحقيقة فعلا وانى ابنه الطبيعى ؟

قال إلياس ذلك وقد ارتسم الاحتقار على وجهه .

واجابه مليندقديت متعمدا ادخال عنصر من التعقيد فى حكمة الرجل العجوز فقال :

ـ ومن يعلم ماهى الحقيقة ؟

فلا يعرف الحقيقة الكاملة إلا الله . نحن لانقدر على إنكار أن امك قد عاشرت محمدا .. كذلك من الطبيعى أنها قد حملت بطفله هو او ظنت ذلك او قالت بأنها حملت بطفله . انها لاتنكر ذلك ولكنها تقول بأنها اخبرت العربى بأنها حامل بطفله لكى تحمى نفسها وتحمى اخاك اشويل . لقد تم انقاذ امك سريعا بعد ذلك وتمت إعادتها الى أسرة اسلافها . ماحدث فى رحمها بين دم العربى ودم الدينكا هو عمل الله . من منا يستطيع ان يتحدث نيابة عن الله ؟ دعنا لانشغل انفسنا بهذه الاسئلة . انك هنا وقد ارضيت قلوبنا طوال سنوات حياتك . هذا هو الذى يهم .

فتساءل إلياس بشىء من المرارة :

ـ لماذا احتفظت امى بكل هذا سرا منى طوال تلك السنين ؟

ـ لقد احتفظت بالامر سرا منى انا ايضا . وهى لم تعترف حتى عندما كانت على وشك الموت عند ميلادك لأنها كما تقول ، ارادت ان تحمى سمعة العائلة من الفضيحة كما أنها تخاف من أثر الحقيقة على طفلها وسط الدينكا . وهذا الطفل هو انت . ولكن بصراحة ، هذا هو الخطأ الخطير الذى ارتكبته امك . فأنا اعرف الآن السبب فى انها لم تقدر على ولادة المزيد من الاطفال . ان ارواح اسلافنا شديدة ، ومهما طال الزمن على اخفاء الجرم ، فأنهم دائما مايتابعون المخطىء حتى النهاية المرة . ان عرف اهلنا هو الاعتراف بالخطأ والكفارة عنه لدى ارواح الاسلاف . وحتى اذا غطى الخطأ واستتر لمئات السنين ، فان الله يكشف عن الحقيقة فى نهاية الأمر . لو أنها أفصحت هى لأمكن تعويض ابقار اسلافنا بولادة المزيد من الأطفال .

شعرت الويل بالتأنيب من جديد للطريقة التى تحدث بها مليندقديت . لقد سبق ان عانت ذلك معه وشعرت بالخيانة لانعدام التعاطف ولنبرة الادانة فى صوته . فقالت فى الم وهى تبكى

ـ الا تقدرون أيها الناس على ادراك انى قد عانيت بما فيه الكفاية . لقد كنت جارية مع سيد يرغب فىّ ويريد ان يجعلنى زوجة له . وكنت قد فقدت كل امل فى الانقاذ بواسطة قومى الذين اختطفت منهم . لقد مكنت سيدى منى ليس لانى لم املك اى خيار آخر فحسب ولكن ايضا على امل ان يحمى الله وأرواح الاسلاف ابنى اشويل ويحمونى انا ايضا . وعندما رزقت ببول ورأيته كأحد الدينكا ، شعرت بأنى قد وجدت العوض عن الاهانة التى الحقها بى العرب . وكنت اعفو عن محمد لانه اعطانى بول . بولنا نحن الذى اصبح من الدينكا مثله مثل اى ابن من ابناء النبلاء الذين يفخرون بهم . والآن ، وقد تقدمت بى السن وبعد أن بدأت افخر بنفسى من خلال بول اذا بالمهانة تعود مرة اخرى واتهم انا بالانحلال والسلوك المشين

وفجأة صاحت بصوت متزايد فى الارتفاع :

ـ لماذا أبقانى الله حية لأشهد هذا .

فصاح ملينقديت :
- اصمتى ألويل ألاترين أنك ستوقظين الناس ؟ ألم تفضحى نفسك بالقدر الكافى أمام الناس ؟ ألم توضحى موقفك من قبل ؟ لا اريد ان اسمع اى صوت منك بعد الآن .
واستدار ملينقديت الى إلياس موضحا :
- لقد سبق ان تحدثت امك عن اغلب هذه الاشياء . انك تعلم بانى متألم من كل هذا ، ولكن يجب الا يسمح المرء لهذا الامر بتدمير العائلة .
قال مديت الذى ظل جالسا فى صمت .
- هل فكر اى منكم فى أخى التوأم اشويل . اذا زعم محمد بانه هو الذى اختطف أمى واشويل ، فهو على التحقيق يعلم ما حدث له : الا ترون نقطة مشرقة وسط كل هذا الحزن والاسف وهى امكانية العثور على اشويل ؟
حل الصمت المفاجىء على المكان اذ لم يخطر ذلك السؤال ببال أى منهم .
وبعد وهلة من الصمت تحدث ملينقديت :
- حسنا يا بول ، هل أخبرك على بأى شىء عن ذلك ؟
- لا
- ما رأيك ؟
- اعتقد انه امر يستحق الحديث مع محمد عنه .. اعنى الحديث مع على .
- فى الحقيقة انت تقصد الحديث مع محمد بواسطة على .
وبمجرد إثارة مديت لموضوع اشويل ، بدأ إلياس يلاحظ الشبه الجسمانى بين بركة ومديت . هل أوشك اكتشاف العضو المفقود فى الاسرة .
لم ينم إلياس تلك الليلة وقد أقلقته الافكار الواعية والاحلام والكوابيس المختلطة ببعضها البعض . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، اسرع الى منزل على ليجده يتناول الشاى بمفرده فى الديوان .
علق على بقوله :
- من الغريب انى توقعت حضورك هذا الصباح اذ لم اتصور كيف تترك هذا الموقف المثير معلقا فى الهواء .
- لقد انجلت عدة اطراف من المسألة يا عم على وبقيت أخرى غير معروفة .
- أخبرنى ما هى لعلى أقدر على معاونتك على استجلائها . فانا لم ابق عاطلا منذ حديثنا السابق وقد قمت ببعض الاعمال .
- إحدى المسائل المجهولة هى مصير أخى ، أم ينبغى ان أقول أخى غير الشقيق وهو ابن أمى ، أشويل الذى اختطفه محمد مع أمه لكنه لم ينقذ معها .
فأجابه على وهو هادىء بصورة مذهلة قائلا :
- هذا أمر هين . بركة هو أخوك ، أم لعله أخوك غير الشقيق أو ابن امك كما تقول . والآن دعنى أخبرك بتطورات أخرى قد تدهشك . حضرت فضيله لمقابلتى بالامس بعد انصرافك بقليل ، وقررت اصطحابها معى لمقابلة والديها ومحاولة ايجاد حل عائلى لكل المعضلة .
بدا على إلياس عدم الاكتراث كانه لم ير أى اهمية لما سيقوله على . لكنه واصل الاستماع لعلى رغم انشغاله عنه .
- كل ما اردت ان افعل هو الجمع بينهم لتبادل الحقائق والوصول الى نوع من التفاهم عما ينبغى عمله أو الامتناع عنه ولأى الأسباب ، بصراحة كنت اتوقع أن يخبر محمد ابنته

بحقيقة ما حدث وكيف ان والد ابنها هو اخوها . اقصد انه عند التفكر فى الامر ، فان هذه هى أغرب الحكايات فى أخبار الاسر . ولا اعرف حتى لماذا اردت ان أواجههما ببعضهما البعض ، ولكنى قدرت ان ذلك لابد ان يتم حالا او لاحقا .

على كل حال ، بعد ان قلت قولتى ، فاجأتنا والدة فضيله بان انفجرت باكية وهى تقول : يا محمد ، لن أسمح لابنتى أن تعذب بهذه الطريقة ! لقد تحملت ما فيه الكفاية من هذه الاهانة ، انها اكثر مما احتمل . انك تعلم بالحقيقة فلماذا لا تقر بها ؟ انك تعلم ان فضيله ليست ابنتك ، فكيف تعترف بابنك ثم تستخدم تلك الحقيقة لتعاقب ابنتى .

وأنت تعلم انهما ليسا أخوين ؟ إلياس ابنك ولكن فضيلة ليست ابنتك ، ولا أرى موجبا لمعارضة زواجهما على اساس درجة القرابة . اقسم بالله العظيم باني على استعداد للشهادة فى المحكمة أو فى أي مكان اذا دعت الضرورة لذلك ، وحتى لو مت بسبب شهادتى تلك .

انطلقت المرأة فى الحديث بكل هذا بلا توقف بينما صعقنا نحن دون أن نملك النطق بكلمة واحدة . واشتعل محمد غضبا ، وضرب زوجته امامي ضربة رهيبة على الوجه وهو يصرخ : اصمتى ايتها المرأة الشيطانة . الا ان زوجته لم تخضع له وصرخت فى وجهه أينا هو الشيطان ، امن يكذب ام من يقول الحق ؟ وفى هذه الاثناء اطلقت فضيلة صيحة عالية وتحركت للدفاع عن أمها وهى تضرب محمد بيديها وتصرخ بالقول انه يقتل أمى ، النجدة ، النجـدة ، النجـدة ! إنه يقتلها . لقد كان موقفاً فى غاية القبح .

وجاهدت لافصل بينهم بينما اندفع الجيران الينا لمحاولة المساعدة . وفى نهاية الأمر امكننا ان نعيد بعض الهدوء للموقف وعدت انا الى منزلى ومعى فضيلة وأمها . قضت فضيلة ليلتها هنا وانصرفت قبيل حضورك بقليل .

كان إلياس مأخوذا بالرواية رغم انه لم يكن يصدق اذنيه . وعندما توقف على عن الكلام ، سأل إلياس ببساطة ..

ـ ماذا عن أن فضيلة ليست ابنة محمد ؟

وبدأ على فى رواية القصة فقال

ـ كانت أم فضيلة متزوجة من اقرب أصدقاء محمد وزميله فى التجارة وقد قتل الرجل فى نفس المعركة مع الدينكا الذين انقذوا أمك ، مخلفا وراءه عروسه الشابة أم فضيلة . وقرر محمد الزواج من الأرملة الشابة لتوفير الحماية لها كما هو العرف السائد عند أهلنا .

يقضى الاسلام ان تراعى الأرملة العدة لاربعة أشهر وعشرة أيام قبل ان تتزوج من رجل آخر حتى لا تختلط الانساب ويعرف من هو الوالد الحقيقى لأى طفل يولد بعد وفاة الزوج . وما حدث فى حالة محمد ووالدة فضيلة هو ان الارملة كانت قد حملت لتوها من زوجها قبل وفاته وتزوجت من محمد بعد انتهاء فترة العدة لكنهما ارادا للطفل ان يعتبر طفل محمد . وبما ان الاسلام لا يسمح بالتبنى بالصورة المباشرة ، فقد رأيا انه من مصلحة الطفل ان يعرف بانه الطفل الطبيعى لمحمد لتفادى تحريم التبنى . وهكذا ، عندما انتقلا من الجنوب وعادا الى الشمال ، قدما فضيلة للاسرة وللمجتمع بوصفها ابنتهما معا . ويبدو أن والديها هما الوحيدان اللذان كانا يعرفان الحقيقة بينما تقبل المجتمع فضيلة كابنة لمحمد بلا منازعة ولكن فى نهاية الامر دفعت شفقة وتعاطف والدة

فضيلة مع ابنتها الى ان تكشف عن سر العائلة الذى احتفظا به لانفسهما طوال تلك السنين .

وتساءل إلياس وهو لا يكاد يصدق ما يسمع :

ـ وكيف حال فضيلة الآن ؟

ـ انها فى غاية الحزن ، ولعل الصدمة هى الوصف الانسب لكنها أيضا تشعر بالراحة ، بل يجب ان أقول السعادة الغامرة لأن مخطط والدها لمعارضة زواجها قد فشل بصورة غريبة .

لم يجد إلياس ما يقول ، وشعر انه متنازع بين السرور للنجاح والحزن للقسمة المؤلمة التى حلت بأسرة فضيلة . فقال :

ـ انى آسف لخلقى كل هذه المشاكل ، يا عم على .

قال إلياس هذه العبارة بصدق واخلاص حرك مشاعر على كثيرا .

ـ لاتهتم يا إلياس . ، فكل ما يحتاج له محمد هو الزمن ليهدأ ، انى واثق من انه سيتجاوز كل هذا مع الزمن . وفى هذه الاثناء ستبقى والدة فضيلة معنا حتى نصفى هذه المشكلة ونقدر على مصالحتهما . انى متأكد من اننا سننجح فى ذلك ، ولا تدع الأمر يتدخل مع خططكما للزواج أو مع عواطفكما تجاه بعضكما البعض . يحتاج الزواج الى المثابرة والجهد المتواصل لتجاوز الصعاب . ومن السهل على أحد الزوجين اللذين عارض زواجهما الوالدان ان يضعف وينظر الى الوراء فى حسرة وندم متمنيا لو انه قد استمع الى نصيحة الوالدين . انى اعتقد ان فضيلة شخص قوى ، وهى تعزف ما هى مقبلة عليه وأشك فى أنها ستضعف . كان الله فى عونكما معا .

وأحس إلياس بتحسن كبير وقال :

ـ لا اعرف ماذا كنا نفعل بدونك .

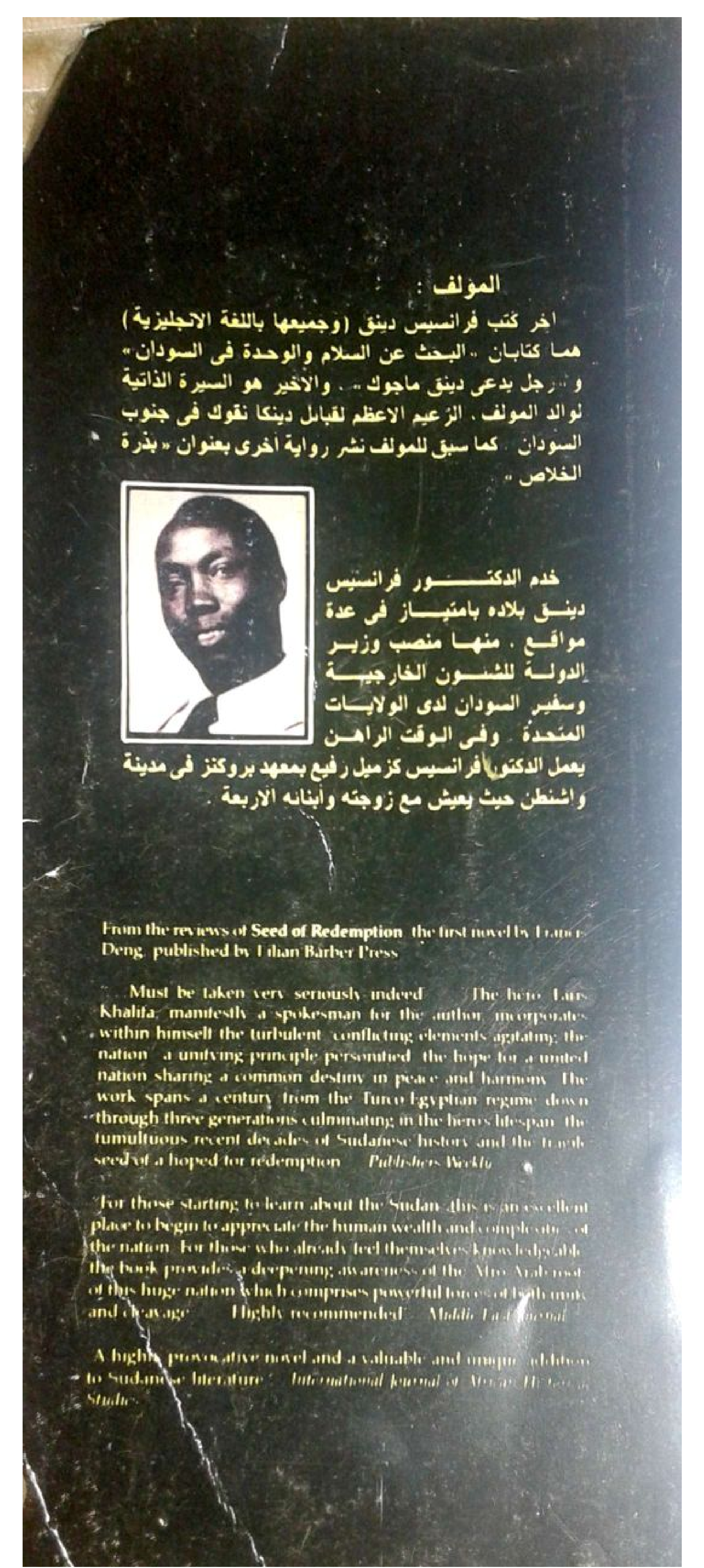
فقال على وهما يفترقان :

ـ فقط تذكر انك ابن لى وكذلك فضيلة ابنة لى ، أيا كان والدها .

وحتى لدى انصرافه ، وقد تشجع من كلمات على ، ظل إلياس مرتبكا مذهولا . لقد ظهر اخيرا ان اشويل هو بركة ، الشاب الذى وقف الى الجانب الآخر من معركة إلياس السياسية . يالسخرية الاقدار ! فقد كانت لبركة دوافع أكبر لأن يكون المتحدث باسم التجمع الثورى لاقليات السودان لانه جنوبى من ناحية الوالدين ـ من الدينكا . اما إلياس نفسه فهو نصف عربى وهو من الدينكا فقط من جانب والدته . فى عالم السودان ، ينبغى ان يكون مكانه موقع بركة اكثر منه كمتحدث باسم « التجمع » ! يا له من خليط بين الخرافة والواقع . يا له من عالم هذا الذى يعيشون فيه !

ومن الناحية الأخرى ، انتشى لفكرة ان تكون فضيلة هى زوجته ـ ـ آه يا فضيلة يا حبيبتى .. سنحصل معا على القوة التى تمكننا من حل هذه المعضلة واكتشاف الحقيقة عن انفسنا وعن أهلنا وعن وطننا . ومن ناحيتى ، وارجو ايضا ان يكون من ناحيتك انت ، سوف اسعى غاية جهدى لخلق اساس متين من الحقيقة التى ستنشىء الاجيال المقبلة من السودانيين على الاعتزاز والثقة فى هويتهم وفى الأمة التى يرجون ان يبنوها . ومن تلك القاعدة الداخلية سيتعاملون مع الشعوب والأمم الأخرى من موقع الثقة والقوة . انى أقسم لك يا فضيلة ولجميع اسلافنا أيا كانوا واينما كانوا ، وأتعهد لأجيال الاحفاد المقبلين

بانى سأسخر حياتى من أجل هذا الهدف النبيل فى الصحة والحيوية والثراء لأسرتنا ولأهلنا ولأمتنا . وأعاننى الله ، وأعاننا معا ، فى ذلك .



المؤلف :

اخر كتب فرانسيس دينق (وجميعها باللغة الانجليزية) هما كتابان «البحث عن السلام والوحدة فى السودان» و «رجل يدعى دينق ماجوك» . والأخير هو السيرة الذاتية لوالد المولف ، الزعيم الاعظم لقبائل دينكا نقوك فى جنوب السودان . كما سبق للمولف نشر رواية أخرى بعنوان «بذرة الخلاص» .

خدم الدكتـــــور فرانسيس دينـــق بلاده بامتيـــاز فى عدة مواقـــع . منهـــا منصب وزيـــر الدولـــة للشئـــون الخارجيـــة وسفير السودان لدى الولايـــات المتحدة . وفى الوقت الراهـــن يعمل الدكتور فرانسيس كزميل رفيع بمعهد بروكنز فى مدينة واشنطن حيث يعيش مع زوجته وأبنائه الاربعة .

From the reviews of **Seed of Redemption**, the first novel by Francis Deng, published by Lilian Barber Press

"... Must be taken very seriously indeed ... The hero, Lam Khalifa, manifestly a spokesman for the author, incorporates within himself the turbulent, conflicting elements agitating the nation, a unifying principle personified, the hope for a united nation sharing a common destiny in peace and harmony. The work spans a century from the Turco-Egyptian regime down through three generations culminating in the hero's lifespan, the tumultuous recent decades of Sudanese history and the tough seed of a hoped-for redemption." *Publishers Weekly*

"For those starting to learn about the Sudan, this is an excellent place to begin to appreciate the human wealth and complexity of the nation. For those who already feel themselves knowledgeable, the book provides a deepening awareness of the Afro-Arab root of this huge nation which comprises powerful forces of both unity and cleavage ... Highly recommended." *Middle East Journal*

"A highly provocative novel and a valuable and unique addition to Sudanese literature." *International Journal of African Historical Studies*

هذا الكتاب

تتميز هذه الروايةَ بالجمع الاوفق بين عناصر الحبكة القصصية المثيرة والمعالجة الرصينة لادق وأعمق القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية فى السودان . وفيها يجد القارىء وصفا ممتعا لثقافة قبائل الدينكا فى جنوب السوان وتمازجها مع ثقافات سودانية أخرى . ثم تحليلا موزونا لمعضلات العلاقة بين الافريقى والعربى ، والمسلم وغير المسلم فى الذاتية السودانية المعاصرة . كل ذلك فى قالب قصصى مشوق يعج بالشخوص الحية والتجارب المعاشة فى حياة المجتمع السودانى . فمن خلال ميلاد ونشاة الياس فى الجنوب . وتعليمه وحياته فى الشمال . ثم ارتباطه بفتاة شمالية مسلمة . يثير المولف أدق مسائل التعددية الثقافية والتحيز العرقى والدينى فى حياة المجتمع السودانى . ومن خلال عمل الياس بالقوات المسلحة وتفاعله مع القوى السياسية فى غرب وجنوب وشمال البلاد . ينفذ المولف الى جوهر قضايا الوحدة الوطنية والحرية والمشاركة السياسية .

والمولف من ابناء قبيلة الدينكا الذين تترجم حياتهم وسلوكهم وفكرهم كل قيم الجمال والحكمة والتسامح التى تعكسها شخوص وأحداث الرواية . فقد ولد وترعرع الدكتور فرانسس فى جنوب السودان حيث مر بالمراحل الاولى من التعليم ، ثم تعلم وعاش فى الشمال وقدم لبلاده أجل الخدمات فى العطاء الفكرى والتمثيل الدبلوماسى والخدمة العامة . فبعد تخرجه من كلية القانون بجامعة الخرطوم ، تلقى الدراسات العليا فى بريطانيا والولايات المتحدة حيث عمل أستاذا بجامعتى ييل وكلومبيا . ونشر العديد من الكتب حول ثقافة الدينكا ومقومات الذاتية السودانية . ثم مثل بلاده سفيرا لدى الدول الاسكندنافية والولايات المتحدة وكندا . كما عمل وزير دولة للشئون الخارجية .

نقل هذه الرواية من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية الدكتور عبد الله أحمد النعيم . وهو من ابناء شمال السودان وأستاذ سابق للقانون بجامعة الخرطوم عمل أيضا بتدريس القانون فى الولايات المتحدة وكندا . وفى تعاون المولف والمترجم على ايصال هذه الرواية الى القارىء العربى نموذج واضح لروح الاخاء والاحترام المتبادل التى تجسدها الرواية ويحتاجها السودان لتحقيق الاستقرار والحرية والرفاهية .

